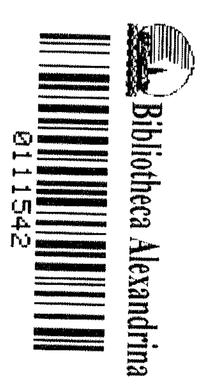
إيزابيل ألليندي

ابنة الحظ

رواية





الترجمة عن الإسبانية: رفعت عطفة


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابنة الحظ

* إيزابيل ألليندي
* ابنة الحظ
* عنوان الكتاب الأصلي: HIJA DE LA FORTUNA
صدرت الطبعة الإسبانية الأولى عام 1999
* ترجمة: رفعت عطفة

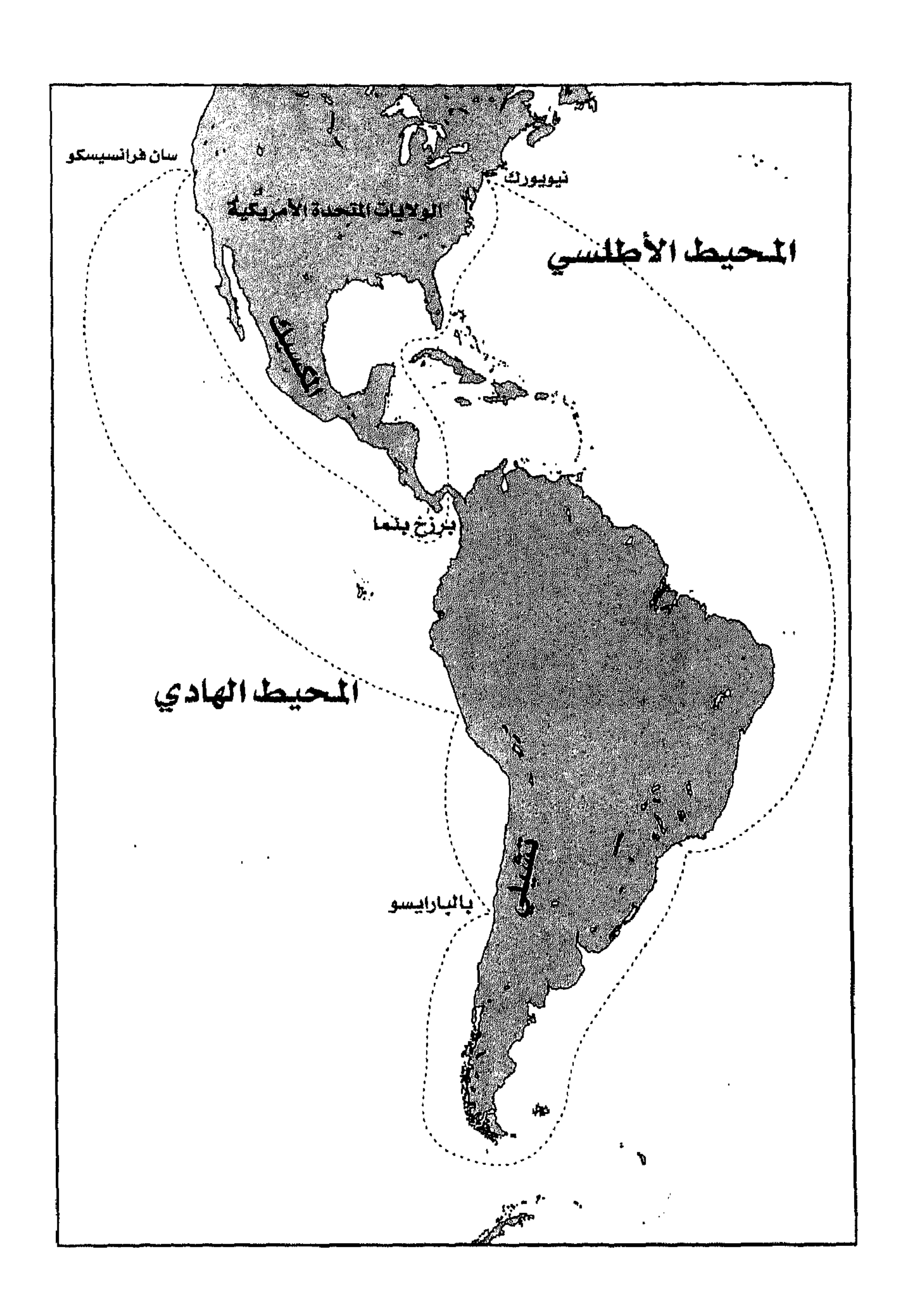
* الطبعة الأولى 1999
* الناشـــــــر : ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سوريـــة ـ دمشق ☎ 3321053
* الاستشارة الأدبية : حيدر حيدر
* الإشـــراف الفني : د. مجد حيدر
* الإخـــراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
* التـــــــــوزيع : دار ورد ☎ 3321053 ص.ب 4490

إيزابيل ألليندي

ابنة الحظ

رواية

ترجمة: رفعت عطفة



سان فرانسيسكو
نيويورك
الولايات المتحدة الأمريكية
المحيط الأطلسي
برزخ بنما
المحيط الهادي
بالبارايسو

القسم الأوّل

1848 ـ 1843



بالبارايسو 1844

كلّ العالم يولد وعنده فطنة ما خاصّة وإليثا سومّرز اكتشفت باكراً أنّ عندها اثنتين. الأولى أفادتها في كسب عيشها والثانية في تذكّر هذا العيش، إنْ لم يكن بدقّة فعلى الأقل بغموضِ عالم الفلك الشعريّ. ما يُنْسى يبدو كأنّه لم يحدث قط، لكنّ ذكرياتها الحقيقية والوهمية كانت كثيرةً وهي كمن يعيش مرّتين. اعتادت أن تقول لصديقها تاو شيين إنّ ذاكرتها مثل كرش الباخرة التي تعارفا فيها، واسعة ومظلمة، مليئة بالبراميل والأكياس حيث تتراكم أحداث الحياة كلّها. لم يكن من السهل عليها العثور في يقظتها على شيءٍ ما في تلك الفوضى الهائلة، أمّا في نومها فكانت دائماً قادرة على ذلك، تماماً كما علّمتها ماما فرِسيا في ليالي طفولتها اللطيفة، حين لم تكن حواشي الواقع أكثر من خطّ حبر باهِتٍ. كانت تدخل إلى منطقة الأحلام عبر طريق جابته مرّات كثيرة وعادت منه بكثير من الحذر كيلا تحطّم الرؤى الواهنة تحت نور الوعي الخشن، وتثق بهذه الوسيلة كما يثق آخرون بالأرقام وقد شذّبت فن التذكّر حتى صار باستطاعتها رؤية الآنسة روز منحنية فوق صندوق صابون من مرسيليا، مهدها الأوّل.

ـ من المحال عليك تذكّر هذا، يا إليثا. فالمولودون الجدد مثل القطط، ليس لهم مشاعر ولا ذاكرة ـ كانت الآنسة روز تؤكّد في المناسبات القليلة التي تحدثتا فيها عن الموضوع.

ومع ذلك فهذه المرأة وهي تنظر إليها من فوق، بلباسها الياقوتي الأصفر وخيوط كعكة شعرها التي عبثت بها الريح، كانت محفورة في ذاكرة إليثا، ولم تستطع قط قبول التفسير الآخر لأصلها.

ـ دمك إنكليزيّ، مثلنا ـ أكّدت لها الآنسة روز حين وصلت إلى عمر الإدراك ـ ما كان ليخطر لأحدٍ من غير الجالية الإنكليزية أن يضعك في سلّة على باب *شركة الاستيراد والتصدير البريطانية*. لا شكّ كان يعرف طيبة قلب أخي جِرمي وتكهّنَ بأنّه سيلتقطك. كنتُ في ذلك الوقت مجنونةً للحصول على ابن فأرسلك الربُّ ووقعتِ بين ذراعيّ ، لتتربي على مبادئ العقيدة البروتستانتية الراسخةِ واللغةِ الإنكليزية.

ـ أنتِ إنكليزية؟ لا تتوهّمي، يا صغيرة، فلك شعر هندية مثلي ـ كانت ماما فرِسيا تقول داحضةً من وراء ظهر سيّدتها.

كانت ولادة إليثا موضوعاً محظوراً في ذلك البيت فاعتادت الطفلة على الغموض. لم تكن تذكر هذا، مثله مثل موضوعات أخرى حساسة، أمام روز وجِرمي سومّرز، لكنّها كانت تناقشه همساً مع ماما فرِسيا في المطبخ، التي حافظت على وصفها لصندوق الصابون دون تبدّل، بينما راحت رواية الآنسة روز تُزيَّن بمرور السنين حتى تحوّلت إلى حكاية من حكايات الجنّ. فالسلة الملتقطة، حسب ما قالت في المكتب، كانت من خيزران ناعم ومبطنة بالباتِستة، وقميصها مطرّزاً بعش النحلة والملاحف مؤطرة بدانتيلا من بروكسل كما أنّها كانت ملفعة ببطانية صغيرة من جلد السمّور، الشطط الذي لم يُعرف له مثيل في تشيلي من قبل. ومع الزمن أُضيفت ستّ قطع نقدية من الذهب ملفوفة بمنديلٍ من الحرير، وملاحظة بالإنكليزية توضّح أنّ الطفلة على الرغم من عدم شرعيتها ذات نسب جيّد جدّاً، لكنّ إليثا، لم تلمح قط شيئاً من هذا. اختفى جلدُ السمّور والقطعُ النقدية والملاحظةُ بشكل مناسب ولم يبق أثر لولادتها. ومع ذلك فرواية ماما فرِسيا كانت الأكثر شبهاً بذكرياتها: حين فتحوا باب البيت في أحد صباحات أواخر الصيف وجدوا مولودة عارية في صندوق.

ـ لا جلد سمّور ولا قطعاً نقدية ولا شيئاً من هذا. كنتُ هناك وأتذكر جيّداً. كنتِ ترتعدين في صدارة رجالية، بلا أقمطة، وكلّكِ خراء. كنتِ تافهة حمراء مثل جرادة بحر مسلوقة وزغب قولحة ذرةٍ على قمّةِ رأسك. هذه أنتِ. لا تتوهّمي، لم تولدي لتكوني أميرة، ولو كان شعرك أسود كما هو الآن لرمى السيدان بالصندوق في القمامة ـ كانت المرأة تؤكّد.

على الأقل يتفق الجميع على أنّ الطفلةَ دخلت في حياتهم يوم الخامس عشر من آذار 1932، أي بعد سنة ونصف من وصول آل سومّرز إلى تشيلي ولذلك حدَّدوا هذا التاريخ عيد ميلادٍ لها. ما تبقى كان دائماً ركاماً من التناقضات وخلصت إليثا إلى أنّ الأمر لا يستحق إضاعة الطاقة بتقليبه، لأنّه، أيّاً كانت الحقيقة، لا يمكن تداركها ولا بشكلٍ من الأشكال. ما يهمّ هو ما يفعله المرءُ في هذا العالم، وليس كيف وصل إليه، اعتادت أن تقول لتاو شيين خلال السنوات الطويلة لصداقتهما الرائعة، لكنّه لم يوافقها، فقد كان من المحال عليه أن يتصوّر وجودَه بمعزلٍ عن سلسلة أسلافه، الذين لم يُساهموا فقط في منحه خصائصه الجسدية والعقلية وحسب، بل ورّثوه أيضاً *الكرما* . كان يعتقد أنّ قدره محدّد بأعمال أقربائه الذين عاشوا قبله، لذلك عليه أن يكرّمهم بصلواته اليومية ويخافهم حين يظهرون له في لباسهم الشبحي ليطالبوه بحقوقهم. كان باستطاعة تاو شيين أن يتلو أسماء جميع أسلافه، حتى أبعد جدّ لجدّه مات قبل أكثر من قرن. بدا همّه الأكبر في زمن الذهب العودةَ للموت في بلدته في الصين ليُدفن بجانب أهله، وإلاّ فإنّ روحَه ستهيم للأبد ضائعةً في أرضٍ غريبة. طبعاً كانت إليثا تنزع إلى قصّة السلّة المتقنة ـ لا أحد ذو عقل يحبّ أن يظهر في صندوق صابون عادي ـ مع أنّها ولشرف الحقيقة لم تستطع قبولها. بحاسّة شمّها التي لكلب صيد حجل كانت تتذكّر أوّل رائحة في حياتها ولم تكن رائحة ملاحف باتِستة نظيفة، بل رائحة صوفٍ وعرقِ رجلٍ وتبغ. الثانية كانت نتانة معزاة جبلية.

ترعرعت إليثا وهي تتأمّل بحر المحيط الهادي من شرفة إقامة

أبويها بالتبني. كان البيت القائم على سفح هضبة في ميناء بالبارايسو يحاول أن يُقلّد البيوتَ الدارجة آنذاك في لندن. لكنّ متطلّبات الأرض والطقس والحياة في تشيلي أجبرتهم على القيام بتعديلات جوهرية فجاءت النتيجة مضحكة. ففي عمق الفناء راحت تولَدُ بعض غرف بأبوابٍ مطمورة وبلا نوافذ مثل أورام عضوية، حيث يخزِّنُ جِرمي سومرز أنفسَ شحنات الشركة التي تختفي في أقبية الميناء.

ـ هذا بلدُ لصوصٍ، ما من مكان في العالم تنفق فيه الشركة على تأمين البضاعة كما في هذا البلد. يسرقون كل شيء، وما ينجو منٍ السفلة يغرقُ شتاءً، يحترق صيفاً أو يُدمّره زلزال ـ كان يُرَدِّدُ في كلّ مرّة تنقل فيها البغال حمولات جديدة لتُنزل في فناء البيت.

من كثرة ما جلست إليثا أمامَ النافِذة لترى البحر وتعدّ السفنَ والحيتان، اقتنعت بأنّها كانت ابنة أحد الغرقى وليست ابنة أمّ فقدت طبيعتها وصارت قادرة على هجرها عارية في ريبة يوم من أيّام آذار. كتبت في يومياتها أنّ صيّاداً عثر عليها على الشاطئ بين بقايا سفينة محطّمة، لفّها بصدارته وتركها أمام أكبر بيت في حي الإنكليز. واستنتجت مع مرور السنين أنّ هذه الحكاية لم تكن سيئة تماماً: ففيها بعض شعر ولغز ما يُعيدُهُ البحرُ. لو تراجع المحيطُ لصار الرملُ المعروض صحراء فسيحة رطبة، مزروعة بالحوريات والأسماك المُحتَضَرة، هكذا كان يقولُ جونِ سومّرز أخو جِرمي وروز، الذي جابَ بحار العالم كلّها واصفاً كيف كان الماءُ يهبط وسطَ صمتِ مقبرة ليعود بموجة واحدةٍ هائلة جارفاً كلّ شيءٍ أمامه. مريعٌ ـ كان يؤكّد ـ لكنّه على الأقّل يفسحُ وقتاً للهرب نحو الهضاب، بينما نواقيس الكنائس تُقرع أثناء الزلازل معلنة عن الكارثة في حين أنَّ الجميع يهربون بين الأنقاض.

في المرحلة التي ظهرت فيها الطفلةُ كان جِرمي سومرز في الثلاثين من عمره وبدأ يجني مستقبلاً لامعاً في *شركة الاستيراد والتصدير البريطانية*؛ ويتمتّع في الأوساط التجارية والمصرفيّة بسمعة محترمة: كانت كلمة منه وشدّة من يده تساويان عقداً موقّعاً،

تلك الفضيلة التي كان لا غنى عنها في المعاملات التجارية، لأنّ رسائل الاعتماد تتأخر أشهراً في عبور المحيطات. بالنسبة إليهِ كانت سمعتُه الطيبة، هو الذي بلا ثروة، أهمّ له من الحياة ذاتها. حصل بالتضحية على منصب مضمون في ميناء بالبارايسو القصيّ، وآخر ما كان يرغبُ به في حياته المنظمة هو طفل حديث الولادة يأتي ليعكّر رتاباته. لكن حين هبطت إليثا على البيت لم يكن يستطيع إلا أن يتلقفها، لأنّه حين رأى أخته روز متشبّثة بالصغيرة وهنت إرادته.

كان عمر روز عشرين سنة فقط، لكنّها امرأة لها ماضيها، وإمكاناتها في إقامة حياة زوجية جيّدة ضئيلة جدّاً. ثمَّ إنّها كانت قد صفّت حساباتها وقرّرت أنّ الزواجَ في أحسن حالاته تجارة رديئة بالنسبة إليها. وهي تتمتّع إلى جانب أخيها باستقلاليّة لن تكون لها أبداً مع زوج. تمكّنت من تكييفِ حياتها ولم تسمح لحالة العوانس بإخافتها، بل على العكس عزمت على أن تصبح محسودة من المتزوجات، على الرغم من النظرية الدارجة التي تقول بأنّ النساء حين ينحرفن عن دورهنّ كأمهاتٍ وزوجاتٍ تنبتُ لهنّ شوارب مثل المطالبات بحقّ المرأة بالتصويت، إنما ينقصهن الأولاد وهذا هو الكرب الوحيد الذي لم يكن باستطاعتهنّ أن يحوّلنه إلى نصر من خلال تمرين الخيال المدروس. كانت تحلمُ أحياناً بجدران غرفتها مغطاة بدمٍ، دم يخضّب السجادة، دم يرشقُ حتى السقف وهي في الوسط، عارية، شعثاء مثل ممسوسة، تلِد سمندلاً. آنذاك تستيقظ صارخةً فتقضي بقية اليوم مشوّشة، لا تستطيعَ التخلّصَ من الكابوس، وكان جِرمي يراقبها قلقاً على أعصابها، شاعراً بالذنب لأنّه جرفها بعيداً كلّ هذا البعد عن إنكلترا، وإن لم يكن باستطاعته تفادي بعض الرضا الأناني عن التسوية التي بينهما. وبما أنّ فكرةَ الزواجِ لم تخطر له قط فقد حلَّ لهُ حضورُ روز مسائلَهُ المنزلية والاجتماعية، الجانبين المهمين في مسيرته، وعوّضت له عن طبيعته الانطوائية والانعزالية، لذلك بات يتحمّل بمزاج طيّب تبدّلَ مزاجها ومصروفاتها غيرَ الضرورية، ولم يجرؤ على معارضتها أو

التعبير عن شكوكه البائسة حين ظهرت إليثا وأصرّت على الإبقاء عليها معها. وقد خسر كلّ المعارك للإبقاء على الطفلة بعيدة عنه، بدءاً بالمعركة الأولى عند محاولة منحها اسماً.

ـ سنسميها إليثا مثل أمّنا وستحمل كنيتنا ـ قرّرت روز ما إن أعطتها وجبة وحمّمتها ولفتها بطرحتها ذاتها.

ـ ولا بشكلٍ من الأشكال، يا روز! ماذا تظنين أنّ الناس سيقولون؟

ـ أنا أتحمّل هذا. سيقول الناس إنّك قديس لإيوائك هذه اليتيمة المسكينة، يا جِرمي. ليس هناك ما هو أسوأ من عدم امتلاك أسرة. ماذا كان سيحّل بي دون أخٍ مثلك؟ ـ ردّت روز، واعية رعب أخيها من ظهور أدنى حالة عاطفيّة.

لم يكن هناك مناصٌ من القيل والقال، وهو ما اضطر جِرمي سومّرز لقبوله مذعناً، كما قَبِلَ حملَ الطفلة لاسمِ أمِّه، ونومها في السنوات الأولى في غرفة أخته وفرضها صخبها على البيت. أذاعت روز الحكايةَ العجيبةَ للسلة الفاخرة المودعة بأيدٍ مجهولة في مكتب *شركة الاستيراد والتصدير البريطانية* ولم يبلعها أحد. لكنٍ وبما أنّه لم يكن باستطاعتهم اتهامها بالزلل، لأنّهم رأوها في كلّ أحد من آحاد حياتها تُنشِد في الخدمة الأنكليكانية بخصرِها الدقيق الذي يتحدّى قوانين التشريح، قالوا بأنّ الطفلة نتاج علاقته مع إحدى المتسكعات ولهذا السبب يُربّيانها كابنة للأسرة، ولم يكلّف جِرمي نفسها عناءَ الخروج لمواجهة الشائعات. كانت لا عقلانيةُ الأطفال تربكُه، لكنّ إليثا تدبّرت أمرها لاستمالته. وعلى الرغم من أنّه لم يكن يَعترف إلاّ أنّه أحبّ رؤيتها تلعب عند قدميه حين يجلس في كرسيه الهزاز ليقرأ الصحيفة. لم يكن بينهما علامات ودّ، فهو يتخشّب أمام أيّة مصافحة من يدٍ إنسانية، فكرة احتكاك حميم تسبّبُ له الذعر.

حين ظهرت المولودة الجديدة في بيت آل سومّرز في الخامس عشر من آذار رأت ماما فرسيا التي كانت تقوم بدور الطباخة وحاملة المفاتيح أنّ عليهما أن يتخليا عنها.

ـ إذا كانت أمّها نفسها هجرتها فهذا يعني أنّها ملعونة والأسلم هو عدم لمسها ـ قالت لكنّها لم تستطع شيئاً في مواجهة عزم سيّدتها.

ما كادت الآنسة روز تحملها بين ذراعيها حتى راحت تبكي بأعلى صوتها، هازّة البيت ومضنية أعصاب ساكنيه. ارتجلت الآنسة روز، التي لم تكن قادرة على إسكاتها، مهداً من درج إحدى طاولات الليل وغطّتها بالألحفة وهُرِعَت بحثاً عن مرضعة. وسرعان ما عادت ومعها امرأة حصلت عليها من السوق، ولم يخطر لها أن تفحصها عن قرب، فقد كفتها رؤية ثدييها الهائلين ينفجران تحت القميص للتعاقد معها بسرعة. حدث أن كانت ريفيةً متخلفة قليلاً، دخلت إلى البيت مع طفلها، طفل مسكين قذر مثلها فاضطروا لنقع الطفل زمناً طويلاً في الماء الفاتر كي ينفصل الوسخ الملتصق بمؤخرته، ولتغطيس المرأة في قادوس من الماء مع الكلور لتخليصها من البراغيث. أُصيب الطفلان، إليثا وابن المرضعة بمغص وإسهال، وقف طبيب الأسرة والصيدلاني الألماني عاجزين أمام حالتهما. الآنسة روز المهزومة أمام بكاء الطفلين الذي لم يكن سببه الجوع وحسب بل أيضاً الألم أو الأسى بكتْ أيضاً. أخيراً تدخّلت ماما فرِسيا في اليوم الثالث عن غير طيب خاطر.

ـ ألا ترين أن ثديي هذه المرأة متفسّخان. اشترِي معزاة لتغذية الصغيرة واعطِها منقوع القرفة وإلاّ نفقت قبل حلول يوم الجمعة ـ دمدمت.

كانت الآنسة روز آنذاك لا تكاد تفهم الإسبانية، لكنّها فهمت كلمة معزاة وأرسلت السائق لشراء واحدة وطردت المرضعة. وما أن وصلت المعزاة حتى وضعت الهندية الطفلة مباشرة على ضرعها المنتفخ أمام ذعر الآنسة روز التي لم ترَ من قبل مشهداً بهذه الخسّة، سرعان ما خفّفَ الحليب الفاتر ومنقوع القرفة من الحالة. كفّت الطفلة عن البكاء، نامت سبع ساعاتٍ متواصلة واستيقظت وهي تمتصّ الهواء بجنون. بعد أيام قليلة علتها علامة السرور التي للأطفال الأصحاء، وبدا واضحاً أنّ وزنها يزداد. حين انتبهت

الآنسة روز إلى أنّ المعزاة تبعّر في الفناء وإليثا بدأت تتشمّم بحثاً عن الضرع اشترت لها رضَاعة. فهي لا تريد رؤية الطفلة تترعرع على الفكرة الغريبة التي مفادها أنّ المعزاة أمّها. كان ذلك المغص من حالات المرض القليلة التي عانت منها إليثا في طفولتها. ما عداه حوصر منذ ظهور الأعراض الأولى بالأعشاب ورقى ماما فرِسيا، بما في ذلك وباء الحصبة الأفريقية التي نقلها بحار يوناني إلى بالبارايسو. طوال مدّة الوباء كانت ماما فرِسيا تضعُ قطعة لحم نيِّئة ليلاً على سرّة إليثا، وتشدّها بقماط من القماش الصوفيّ الأحمر، سرّ الطبيعة للوقاية من العدوى.

حوّلت الآنسة روز إليثا في السنوات التالية إلى دمية لها؛ تقضي الساعات تعلّمها الغناء والرقصَ، تنشد لها أشعاراً تحفظها الصغيرة دون صعوبةٍ عن ظهر قلب، تجدل لها شعرها وتلبسها بإتقان، لكن ما أن تظهر تسلية أخرى أو يهاجمها ألمٌ في الرأس حتى ترسلها مع ماما فرِسيا إلى المطبخ.

ترعرعت الطفلة بين قاعة الخياطة الصغيرة والفناءات الخلفية متكلّمةً بالإنكليزية في قسمٍ من البيت وبخليط من الإسبانية والمابوتشي - لغة مربيتها المحلية - في قسمٍ آخر، منتعلة ومرتدية لباس دوقة في بعض الأيام، ولاعبة في أخرى مع الدجاجات والكلاب وهي حافيةً وسيئة اللباس وتضع منديلَ يتيمة. كانت الآنسة روز تقدّمها في سهراتها الموسيقية، تحملها معها في عربتها لتناول الشوكولا في أفضل محلّ للحلوى، وللقيام بالمشتريات أو لزيارة السفن في المرفأ، وقد تقضي أيّاماً عدّةً شاردةً تكتبُ في دفاترها الغامضة أو تقرأ روايةً، دون أن تفكّرَ بمحميّتها إطلاقاً؛ وحين تتذكّرها تُهرع في طلبها نادمةً، تغطيها بالقبلات، تحشوها بالأطعمةِ اللذيذة وتعود لتلبسها ملابس الدمية الفاخرة وتأخذها للتنزّه. اهتمّت بمنحها أوسع تربية ممكنة، دون أن تفوتها زينة الآنسة الخاصّة. أخذتها مرّةً على أثر حركةٍ ساخرة أثناء التمارين على البيانو من ذراعها ومضت بها، دون أن تنتظر سائق العربة، جرّاً مسافة طويلة نزولاً إلى دير. في جدار من القرميد

وعلى باب سميك من خشب السنديان وبراشم الحديد يُقرأ بحروفٍ ذهبَ دهانها بفعل الريح الملحية: بيت اللقطاء.

- اشكري الله أنّنا أخذناك أنا وأخي على عاتقنا. هنا ينتهي أولاد الزنا والأطفال المهجورون. هل هذا هو ما تريدينه؟

نفت الصغيرةُ برأسها خرساء.

- إذن خير لكِ أن تتعلّمي العزفَ على البيانو كطفلة مهذّبةٍ. هل فهمت؟

تعلّمت إليثا العزف دون نبوغٍ ولا أصالة. لكنّها تمكّنت بقوّة التربية وهي في الثانية عشرة منْ عمرها من مرافقة الآنسة روز خلال سهراتها الموسيقية. لم تفقد مهارتها على الرغم من مرور فترات طويلة دون ممارسة، واستطاعت أن تكسب عيشها بعد عدّة سنوات في ماخور متنقّل، النهاية التي لم تكن لتخطر أبداً ببال الآنسة روز حين كانت تصرّ على تعليمها فنّ الموسيقى الرفيع.

بعد سنوات كثيرة وفي أحد المساءات الهادئة خلصت إليثا وهي تشرب شاي الصين وتتسامر مع صديقها تاو شيين في الحديقة الناعمة التي يعتنيان بها معاً، إلى أنّ تلك الإنكليزية غريبة الأطوار. كانت أمّاً ممتازة وأنّها مدينة لها بالشكر على فضاءات الحريّة الداخلية التي منحتها لها. سندها الثاني في طفولتها كانت ماما فرِسيا، التي طالما تعلقت بتنورتها السوداء العريضة ورافقتها في أعمالها وأخرجتها من عقلها بالأسئلة. منها تعلّمت أساطير وخرافات السكان الأصليين وفكّ رموز الحيوانات والبحر، والتعرف على عادات الأرواح ورسائل الأحلام والطبخ أيضاً، فحاسّة شمّها التي لا تكلّ جعلتها قادرةً على أنّ تحدِّدَ ماهية المكوِّنات، الأعشاب والبهارات وهي مغمضة العينين، تتذكّر كيفية استخدامها تذكّرها للشِعْرِ عن ظهر قلب، فلم تعد صحون ماما فرِسيا الكروليوية وحلوى الآنسة روز سرّاً. فقد كانت تملك نزعة مطبخية غريبة. إذ بدت قادرة وهي في السابعة من عمرها أن تنزع دون اشمئزاز جلد لسان بقرة أو أمعاء دجاجة، وأن تعجن عجين عشرين

فطيرة دون تعب، وتقضي ساعات ضائعة وهي تفرط الفاصولياء بينما تسمع فاغرة الفم خرافات ماما فرِسيا المحليّة ورواياتها الملوّنة عن حياة القديسين.

كانت روز وأخوها جون ملتصقين منذ طفولتهما. هي تتسلى شتاءً في نسج الصدارات والجوارب للقبطان وهو يجهد في المجيء لها، بعد كلّ رحلة، بحقائب مليئة بالهدايا وصناديق مليئة بالكتب، بات مصير بعضها خزانة روز المقفلة. كان جِرمي مفوّضاً كمالك للبيت وربّ للأسرة بفتحِ رسائل أخته، قراءةِ يومياتها الخاصّة ومطالبتها بنسخة عن مفاتيح أثاثها، لكنّه لم يظهر أيّة نزعة بهذا الاتجاه قط. كان جِرمي وروز يحافظانِ على علاقة منزلية قائمة على الجدّية، فالمشترك بينهما كان قليلاً باستثناء التبعية المتبادلة التي بدت لهما أحياناً شكلاً سرّياً من أشكال الكراهية. كان جِرمي يغطّي حاجات روز، لكنّه لا يموّلُ نزواتها ولا يسأل من أين تأتي بالمال لأهوائها، مفترضاً أن جون يمنحه لها. بالمقابل هي تسيّرُ البيت بفعالية وأسلوب، واضحة تماماً في حساباتها، دون أن تزعجه بالتفاصيل؛ فهي صاحبة ذوق سديد وملاحة غير مفتعلة، تزيّن حياة الاثنين وتكذّب بحضورها الاعتقاد السائد جدّاً في تلك النواحي بأنّ الرجل دون أسرة قوّة كامنة عديمة الضمير.

ـ طبيعة الذكر وحشية؛ وقدر المرأة الحفاظُ على القيم الأخلاقية والسلوك الحسن ـ أكّد جِرمي سومّرز.

ـ ويحك، يا أخي! أنتَ وأنا نعرفُ أنّ طبيعتي أكثر وحشية من طبيعتك ـ كانت روز تسخر.

نزل جاكوب تود، رجل الكرامات الأحمر الشعر وصاحب أجمل صوت خطابي سُمِع في تلك المناطق، في بالبارايسو عام 1843 ومعه حمولة من ثلاثمئة نسخة من الكتاب المقدّس باللغة الإسبانية. لم يستغرب أحدٌ وصولَهُ: كان واحداً آخر من كثرة المبشرين الذين ينتشرون في كلّ مكان يدعون للعقيدة البروتستانتية. ومع ذلك كانت

الرحلةُ بالنسبة إليه نتاج فضول المغامر وليس الحماس الديني عنده. راهن الرجل الذي كان يحب الحياة مع الكثير من البيرة في جسده في واحدة من تبجحاته، على طاولة قمار في لندن، أنّ باستطاعته بيعَ الكتاب المقدَّس في أيّة نقطة من العالم. عصب له أصدقاؤه عينيه وأداروا الكرة الأرضية فوقع إصبعه على مستعمرة للمملكة الإسبانية ، ضائعة في القسم الأسفل من العالم. حيث ما من أحد من المتبجحين السعداء يظنّ بوجود حياة هناك. سرعان ما اكتشف أن الخريطة قديمة والمستعمرة استقلّت منذ أكثر من ثلاثين عاماً وهي الآن جمهورية تشيلي الأبيّة، البلد الكاثوليكي الذي لم يكن للأفكار البروتستانية من مدخل إليه، لكن الرهان قد وقع وهو غير مستعدٌ للتراجع. كان عازباً، دون علاقات عاطفية أو مهنية فشدّته غرابة مثل تلك الرحلة على الفور. كانت الرحلة إذا أخذت بالاعتبار ثلاثة أشهر للذهاب ومثلها للإياب مشروعاً طويل المدى. هلّل له أصدقاؤه، الذين تنبّؤوا له بنهاية مأساوية على يد البابويين في ذلك البلد المجهول والوحشي، فشرعَ بدعم مالي من *مؤسسة الكتاب المقدّس البريطانية والأجنبية*، التي زودّته بالكتب وأمّنت له تذكرة السفر، بالعبور الطويل باتجاه ميناء بالبارايسو. كان التحدّي يقوم على بيعِ الكتاب المقدّس والعودة خلال سنة مع وصل استلام موقَّع عن كلّ نسخة. قرأ في الأرشيف رسائل رجالٍ مشاهير، بحارة وتجار كانوا في تشيلي يصفون فيها شعباً خلاسياً عدده يزيد عن المليون نسمة، وجغرافية غريبة ذات جبال مذهلة وشواطئ شديدة الانحدار ووديان خصيبة، وغاباتٍ قديمة وجليد أبديّ. تشتهر بأنّها أكثر بلدان القارّة الأمريكية تعصّباً في المسألة الدينية، حسب تأكيدات من زاروا البلد. ورغم ذلك حاول مبشرون فضلاء نشر البروتستانتية ووصلوا إلى الجنوب، حيث تنفرط اليابسة إلى سبحةٍ من الجزر، دون أن يعرفوا كلمة واحدة بالإسبانية أو بلغة الهنود الحمر. مات عددٌ منهم جوعاً مُلْتَهَمين من رفاقهم أنفسهم. ولم يكن حظّهم في المدنِ أفضل، فكرم الضيافة المقدّس عند التشيليينِ كان أقوى من التعصّبِ الديني، وكانوا يسمحون لهم بالتبشير أدباً، لكن دون كبير اهتمام. وإذا حضروا أحاديث القساوسة البروتستانتيين

النادرين حضروا بموقف من يذهب إلى فرجة، ضاحكين من خصوصية أنهّم ملحدون. لا شيء من هذا استطاع أن يضعف قلب جاكوب تود، لأنّه لم يذهب كمبشّرٍ، وإنّما كبائع كتب.

اكتشف في أرشيف المكتبة أنّ تشيلي فَتَحَت، منذ استقلالها عام 1810، أبوابها أمام المهاجرين الذين وصلوا إليها بالمئات، وأقاموا في تلك الأرض الطويلة والضيقة المستحمة من رأسها إلى ذيلها بالمحيط الهادي. حقّق الإنكليز كتجار وسفّانين ثرواتٍ سريعة، وأخذ كثيرون منهم معهم أسرهم واستقرّوا هناك. شكّلوا أمّة صغيرة داخل البلد، بعاداتهم وعباداتهم وصحافتهم ونواديهم ومدارسهم ومشافيهم الخاصّة بهم، لكنّهم فعلوا ذلك بأسلوب حسن، فاعتُبروا، بعيداً عن إثارة الشكوك، مثالاً للحضارة. أنزلوا حاميتهم في بالبارايسو لمراقبة طرق المحيط الهادي البحرية، هكذا تحوّلت في أقل من عشرين سنة من قرية فقيرة بلا مستقبل في بداية الجمهورية إلى ميناء مهمّ، تتوقّف فيه السفن الشراعية القادمة من الأطلسي عبر كابو دِ هورنوس وبعدها البواخرُ القادمة عبر مضيق ماجلان.

كان ظهور بالبارايسو أمام عين المسافر المنهك مفاجأة له؛ فهناك أكثر من مئة مركب تحمل أعلام نصف العالم، وقمم الجبال المغطاة بالثلج تبدو من القرب بحيث توحي بأنّها تطفو في بحرٍ من حبر أزرق، يفوحُ منه عبق عرائس بحر مُحالٍ. جَهِل جاكوب تود دائماً بأنّ خلف مظهر السكون العميق توجد مدينة كاملة من السفن الشراعية الإسبانية الغارقة، وهياكل وطنيين رُبِطت إلى ركبهم حجارة مقالع كان قد أغرقهم جنود القائد العام. ألقت السفينة مرساتها في الخليج، بين آلاف النوارس التي تقلق الهواء بأجنحتها، بعضها محمّل بحنكليس هائل أو بقواريس ما تزال حيّة تتخبّط في قنوط الهواء. قالوا له إنّ بالبارايسو هي حاضرة المحيط الهادي التجاريّة، تُخزّنُ في أقبيتها المعادنُ وصوفُ الغنم والبكا والحبوبُ والجلود لأسواق العالم. نقلت عدّة زوارق الركابَ وحمولةَ السفينة إلى اليابسة. حين نزل إلى الرصيف بين البحارة وعمّال التفريغ

والركاب والحمير والعربات وجد نفسه في مدينة محصورة في دائرة من الهضاب العالية المكتظّة والقذرة مثل الكثير من المدن ذات السمعة الجيّدة في أوروبا. بدت له فظاعةً معماريةً ببيوتِ اللبنِ والخشبِ في الشوارعِ الضيقةِ التي يمكن لأدنى حريقٍ أن يحوِّلها في ساعاتٍ قليلة إلى رمادٍ. قادته عربة يجرّها جوادان متعبان مع صناديقه ومتاعه إلى الفندق الإنكليزي. مرّ أمام أبنية حسنة البناء حول ساحة، وعدّة كنائس أقرب إلى البدائية، ومساكن من طابقٍ واحدٍ محاطة بحدائق وبساتين واسعة. قدّر عدد الكتل السكنية بمئة، لكنّه سرعان ما عرف أنّ المدينة تخدع البصرَ، فقد كانت متاهة من الأزقّة والممرات. لمح في البعيد حيَّ الصيادين ببيوتهم المفتوحة على مروحة البحر وشباكهم المعلّقة مثل شباك عنكبوت هائلة، ووراءها حقول خصيبة مزروعة بالخضار والأشجار المثمرة. تدور فيها عربات حديثة كما في لندن، حناتير وعربات مظللة، وقوافل بغال محاطة بأطفال رثّي الثياب وعربات تجرها الثيران في وسط المدينة ذاته. في الزوايا رهبان وراهبات يتسوّلون الصدقات للفقراء بين هيجان الكلاب الشاردة والدجاج التائه. لاحظ بعض النسوة محملات بالأكياس والسلال يجرجرن أولادهنّ الحفاة، لكنّهن يضعن غطاء أسود على رؤوسهنّ وكثيراً من الرجال بقبعات مخروطية يجلسون على عتبات البيوت ويتسامرون في مجموعات، وهم دائماً كسالى.

وجد جاكوب تود نفسه، بعد ساعة من النزول من السفينة، يجلسُ في صالة أنيقة من الفندق الإنكليزي يدخّن سجائر سوداء مستوردة من القاهرة، ويتصفح مجلّة بريطانية أخبارها قديمة كفايةً. تنهّد ممتنّاً: يبدو أنّه لن يجد مشاكل في التكيّف وإذا ما أدار أمواله جيّداً استطاع أن يعيش جيّداً كما في لندن. كان ينتظر مجيء أحدٍ لخدمته ـ يبدو أنّه لا أحد يستعجل الخدمة في هذا الجانب ـ حين اقترب جون سومّرز، قبطان السفينة التي جاء فيها. كان رجلاً ضخماً داكن الشعر وجلده محمّص كجلد الحذاء، يقوم باستعراض

نفسه كشاربٍ قويّ محبّ للنساء ولاعبِ ورق ونردٍ لا يكلّ. قامت بينهما صداقةٌ جيّدة وسلاّهما اللعب في ليالي الإبحار السرمدية في أعالي البحار، ونهارات الصخب والبرد القارس وهم يدورون حول كابو دِ هورنوس في جنوب العالم. جاء جون سومّرز يرافقه رجل شاحبٌ له لحية حسنة التشذيب ويرتدي السواد من رأسه حتى قدميه قدّمه له على أنّه أخوه جِرمي. كان من الصعب العثور على نموذجين من البشر بمثل ذلك الاختلاف؛ فجون يبدو صورةً للصحة والقوّة بعينها، صريح وصاخب ولطيف، بينما الآخر له مظهر طيف محاصر بشتاء أبديّ. إنّهُ، كما استخلص جاكوب تود، واحداً من أولئك الأشخاص الذين لا يمكن أن يكونوا حاضرين كلّياً أبداً ويصعب تذكّرهم، لأنّهم خالين من الملامح الدقيقة. اقتربا من طاولته بإلفة أبناء البلد في أرضٍ غريبة، دون أن ينتظرا دعوته. أخيراً ظهرت خادمة وأمر جون سومّرز بزجاجة ويسكي بينما طلب أخوه شاياً باللغة التي اخترعها البريطانيون للتفاهم مع الخدم.

ـ كيف هي الأمور في البيت؟ ـ استفسر جِرمي. كان يتكلّم بصوت خافتٍ يشبه الهمس، لا يكاد يحرِّك شفتيه وببعض التأثر.

ـ منذ ثلاثمئة سنة لا يحدث شيء في إنكلترا ـ قال القبطان.

ـ اعذرني، يا سيّد تود على فضولي، لكنّني رأيتك تدخل الفندق ولم أستطع منع نفسي من ملاحظة متاعك. بدا لي أنّ هناك عدّة صناديق معلّمة على أنّها كتاب مقدّس... هل أنا مخطئ؟ ـ سأل جِرمي سومّرز.

ـ بالفعل هي كتاب مقدّس.

ـ لم يخبرنا أحدٌ بأنّهم أرسلوا قسّاً آخر.

ـ أبحرنا ثلاثة أشهر معاً ولم أعلم أنّك قس، يا سيّد تود ـ هتف القبطان.

ـ في الحقيقة لستُ قسّاً ـ أجاب جاكوب تود، مخفياً الحرّ الدبق خلف دفقة دخان التبغ.

ـ إذاً، أنت مبشّر. تفكّر بالذهاب إلى تييرّا دِلْ فْوِغو؛ كما أفترض. الهنود الحمر الباتاغونيون جاهزون للتنصير. أما الأراوكانيون فانسَهم، يا رجل، لقد قنصهم الكاثوليكيون ـ علّق جِرمي سومّرز.

ـ لا بدّ أن حفنة من الأراوكانيين ما تزال باقية. هؤلاء الناس مولعون بترك الآخرين يرتكبون بحقهم المجازر ـ علَّقَ أخوه.

ـ كانوا أكثر هنود أمريكا وحشيّة، يا سيّد تود. معظمهم مات في قتاله للإسبان. أكلة لحوم بشر.

ـ كانوا يقطعون قطعاً من أسراهم الأحياء: يفضّلون عشاءهم طازجاً ـ أضاف القبطان ـ الشيء ذاته ستفعلون أنتم وأنا لو أنّ أحداً قتل أسرتي، أحرق قريتي وسرقني أرضي.

ـ رائع، يا جون، تدافع الآن عن أكلَةِ لحوم البشر! ـ أجاب أخوه منزعجاً ـ على كلّ الأحوال، يا سيّد تود، عليّ أن أحذّرك ألا تتدخل مع الكاثوليك. علينا ألا نستفزّ السكان الأصليين. فهؤلاء خرافيون.

ـ المعتقدات الغريبة خرافية، يا سيّد تود. معتقداتنا تسمّى ديانة. هنود تييرّا دِل فْوِغو الباتاغونيون مختلفون جدّاً عن الأراوكانيين.

ـ متوحشون مثلهم. يعيشون عراةً في طقس فظيع ـ قال جِرمي.

ـ احملْ لهم دينك، يا سيّد تود. لنرى ما إذا كانوا سيتعلّمون ارتداء السراويل على الأقل ـ علّق القبطان.

لم يكن تود قد سمع بذكر أولئك الهنود وآخر ما كان يرغب به أن يعظَ بشيءٍ هو نفسه لا يؤمن به، لكنّه لم يجرؤ على البوح بأنّ رحلته حصيلة مراهنة بين سكارى. أجاب بإبهام أنّه يفكّر بتجهيز حملة تبشير، لكن ما زال عليه أن يفكّر كيف سيموّلها.

ـ لو عرفتُ أنّك قادم للتبشير بمقاصد إله طاغية بين هؤلاء الناس الطيبين لرميت بك عن ظهر السفينة في عرض الأطلسي، ياسيّد تود.

قاطعتهم الخادمة بالويسكي والشاي. كانت مراهقة يانعة مسربلة في لباس أسود وغطاء رأس ومريول منشّى. حين انحنت بالصينية خلّفت في الهواء رائحة مُحيّرة لأزهار مسحوقة وثياب مُكواة بالفحم. لم يكن جاكوب تود قد رأى نساءً في الأسابيع الأخيرة وبقي ينظر إليها بهوس من في عزلة. انتظر جون سومّرز انسحابَ الفتاة.

ـ انتبه، يا رجل، التشيليات منحوسات ـ قال.

ـ لا يظهرْنَ لي كذلك. إنّهن قصيرات، عريضات الوركين ولهنّ صوت بشع ـ قال جِرمي سومّرز موازناً فنجان شايه.

ـ البحارة يهربون من السفن لأجلهنّ! ـ صاح القبطان.

ـ أوافق، فأنا لستُ مرجعاً في قضايا النساء. ليس عندي الوقت لهذا. عليّ أن أهتمَّ بتجارتي وأختنا، هل نسيت؟

ـ ولا للحظة واحدة، فأنت دائماً تُذكِّرني بذلك. انظر، يا سيّد تود، أنا النعجة السوداء في الأسرة، إنسان طائش. لو لم يكن بفضل جِرمي الطيّب...

ـ هذه الفتاة تبدو إسبانية ـ قاطعه جاكوب تود ملاحقاً بنظره الخادمة التي كانت تخدم في تلك اللحظة طاولة أخرى ـ عشتُ شهرين في مدريد ورأيت كثيراتٍ مثلها.

ـ الجميع هنا خلاسيون، حتى الطبقات الرفيعة. طبعاً لايعترفون بذلك. لكنَّ دم السكان الأصليين يختبئ مثل الوباء. لاألومهم، فالهنودُ الحمرُ مشهورون بالقذارة والسكر والكسل. الحكومة تحاول أن تستقدم المهاجرين الأوروبيين لتحسين النسل. وفي الجنوب يقدّمون الأراضي هديّة للمستعمرين.

ـ رياضتهم المفضّلة هي قتل الهنود كي ينتزعوا منهم أرضهم.

ـ أنت تُبالِغ، يا جون.

ـ ليس من الضروري القضاء عليهم بالرصاص دائماً، يكفي تحويلهم إلى مدمني كحول. لكن قتلهم أكثر تسلية، لا شكّ بذلك. في

جميع الأحوال، نحنُ لا نشاركُ البريطانيين في هذه التسلية، يا سيّد تود. لا تهمّنا الأرض. لماذا سنزرع البطاطا إذا كان باستطاعتنا جمع ثروة دون أن ننزع قفازاتنا؟

ـ من لديه مشاريع هنا لا تنقصه الفرص. كلّ شيء في هذا البلد قيد التنفيذ، إذا كنت ترغب في النجاح فعليك بالذهاب إلى الشمال. هناك يوجد فضّة ونحاس وملح بارود وزرق...

ـ زرق؟

ـ خراء الطيور ـ وضّح البحّار.

ـ لا أفهم شيئاً من هذا، يا سيّد سومّرز.

ـ تحقيق الثروة أمر لا يهمّ السيّد تود، يا جِرمي. ما يهمّه هو الإيمان المسيحي، أليس كذلك؟

ـ الجالية البروتستانتية كبيرة ومزدهرة، ستساعدك. تعالَ غداً إلى بيتي. أختي روز تنظّم أيام الأربعاء حفلة موسيقية وستكون مناسبة جيّدة لتصبحا صديقين. سأرسل عربتي في طلبك الساعة الخامسة مساءً. ستتسلّى ـ قال جِرمي سومّرز مودّعاً.

في اليوم التالي خرج جاكوب تود للتنزّه في الميناء، وقد انتعشَ بليلة بلا أحلام وحمّام طويل لنزع تراكم الملح الذي التصقَ به حتى الروح، لكن بخطوات متردّدة بسبب عادة الإبحار. جاب الشارع الرئيسي دون استعجال وعلى مسافة قصيرةٍ من البحر، حيث أصابه رذاذ الأمواج. شربَ بعضَ الكؤوس في مقهى وتناول طعامه في مطعم شعبي في السوق. كان قد خرج من إنكلترا في شتاء شباطيّ جليدي، ثم وبعد أن اجتاز صحراء أبديّة من ماء ونجوم اختلطت فيها عليه حتى حسابات ماضيه الغرامي. وصل إلى نصف الكرة الأرضية الجنوبي في بداية شتاء آخر لا يرحم. لم يخطر له التحقّق من الطقس قبل شروعه بالرحلة. فقد تصوّر تشيلي حارّةً ورطبة مثل الهند، لأنّه هكذا ظنّ البلدانَ الفقيرة، لكنّه وجد نفسه في مهبّ ريح جليدية تقشر عظامه رافعة في وجهه زوابع رملية وقمامة. ضاع عدّة مرّاتٍ في الشوارع الملتوية، يدور ويدور ليجد نفسه في النقطة

التي بدأ منها. صَعَدَ في أزقّة أضنتها أدراجٌ لا متناهية محاطة ببيوت اعتباطية معلّقة إلى العدم، محاولاً بحشمة ألا ينظر إلى حرمة الآخرين من النوافذ. وقع على ساحات رومانسية ذات مظهر أوروبيٍّ متوّجة بسقائف، تعزفُ فيها فرق عسكريّة موسيقى للعشاق. جاب حدائق خجولة داستها الحمير. أشجار سامقة تنمو على جوانب الشوارع الرئيسية تتغذّى على مياه قذرة تهبط من الهضاب في مجارٍ مفتوحة. كان الحضور البريطاني في المنطقة التجارية من الوضوح بحيث يستنشق هواء خادع من درجات عرضٍ أخرى. آرمات عدد من المحلات بالإنكليزية كما يمرّ أبناء وطنه يرتدون ملابس كما في لندن، ويحملون مظلات حفاري القبور السوداء ذاتها. ما كاد يبتعد عن الشوارع المركزية حتى انهال عليه الفقر بصدمة صفعة؛ الناس يبدون في سوء تغذية، مروبصين، ورأى جنوداً بلباس بال ومتسولين على أبواب المعابد. في الثانية عشرة نهاراً طارت نواقيس الكنائس بصوت واحدٍ فانقطع الضجيج على الفور، توقّف المارّة، رفع الرجالُ قبعاتهم والنساء القليلات اللواتي كنّ يشاهدن ركعن ورسم الجميع علامة الصليب. دام المشهد مدّةَ قرع اثني عشر ناقوساً وسرعان ما عاود النشاط حيويته في الشارع كأنّ شيئاً لم يحدث.

الإنكليز

وصلت العربة المرسلة من قبل سومّرز متأخرةً نصفَ ساعة. كان السائق قد حمل ما يكفي من الكحول بين صدره وظهره، لكنّ جاكوب تود لم يكن في وضع يسمح له بالاختيار. قاده الرجلُ باتجاه الجنوب. كانتِ قد أمطرت لعدّة ساعات وصارت الشوارع في بعض المناطق عصيّةً على العبور، حيث أغمار الماء والطين تخفي المطبات المشؤومة للحفر القادرة على ابتلاع جوادٍ شاردٍ. على جوانب الشارع أطفال ينتظرون مع ثيرانهم، جاهزون لإنقاذ العربات المتورِّطة مقابل قطعة نقدية، لكن السائق وعلى الرغم من زوغان السكر استطاع أن يتفادى المطبّات وبدأا على الفور صعود هضبة. حين وصلا إلى ثِرّو أَلِغرِ حيث يعيش القسم الأعظم من الجالية الأجنبية انقلب مظهر المدينة فاختفت البيوت البائسة وبيوت الدعارة الموجودة إلى الأسفل. توقّفت العربة أمام بيت ريفي واسع الأبعاد، لكنّه ذو مظهر معذّب، مسخ من أبراج كبيرة صَلِفة وأدراج غير مجدية قائمة في تدرّجات الأرض وتضيئها مشاعل كثيرة لواها الليل. خرج خادم محلّي يرتدي بزّةَ بوّاب فضفاضة فتح له الباب، أخذ معطفه وقبّعته وقاده إلى صالة فُسيحة مزينة بأثاثٍ جيّد الصناعة، وستائر مسرحية قليلاً من القطيفة الخضراء المحمّلة والمثخنة بالتزيينات، لا يوجد فيها سنتيمتر واحد خالٍ يرتاح فيه النظر. افترضَ أن الجدار العاري يعتبر في تشيلي كما في أوروبا علامة فقر، وخرج من خطئه بعد زمن طويل حين زار بيوت

التشيليين المعتدلة. كانت اللوحات تعلّق مائلة لتقدير قيمتها من الأسفل وليضيع النظر في ظلّ السقوف العالية. وكان هناك مدخنةٌ مشتعلة بقطع ضخمة من الحطب، وعددٌ من العمال معهم فحم، توزّع دِفئاً غير منتظم يترك القدمين مجمّدتين والرأس ملتهباً؛ وهناك أكثر من اثني عشر شخصاً يرتدون على الطريقة الأوروبية وعدد من الخدم بلباس موحّد يطوفون بالصواني. تقدّم جِرمي وجون سومّرز لتحيّته.

ـ أُقدِّم إليك أختي روز ـ قال جِرمي وهو يقوده نحو عمق الصالة.

عندئذ رأى جاكوب تود المرأة التي ستخرّب عليه سلام الروح جالسةً على يمين المدخنة. بهرته روز سومّرز على الفور، ليس لجمالها بقدر ما لثقتها بنفسها وفرحها. لم يكن فيها شيء من بذاءة القبطان الكثيرة ولا من وقار أخيها جِرمي المزعج، كانت امرأة تشعّ تعبيراً كما لو أنّها جاهزة دائماً لتنفجر في ضحكة غنجٍ. تفعل ذلك فتمتدّ شبكة من التجاعيد الناعمة حول عينيها، ولسببٍ ما بدا هذا أكثر ما جذب جاكوب تود إليها. لم يستطع تقديرَ عمرها، ربّما بين العشرين والثلاثين، لكنّه افترض أنّها ستبقى على حالها عشرَ سنوات، لأنّها جيّدة العظام ولها هيئة ملكة. كانت تزدهي في ثوب من التفتا درّاقي اللون وبلا زينة، باستثناء أقراط بسيطة من اللؤلؤ في أذنيها. أدنى حدود المجاملة تشير إلى الاقتصار على الإيحاء بحركة تقبيل اليد، دون ملامسة الشفتين لها، لكنّ تفكيره ارتبك ولم يدرِ كيف طبع قبلة. وجاءت تلك التحية من عدم المناسبة بحيث بقيا برهة أبديّة عالقين في التردّد، هو يمسك بيدها كمن يمسك سيفاً، وهي تنظر إلى أثر اللعاب دون أن تجروً على تنظيفه كيلا تسبب الإهانة للزائر، إلى أن قطعت عليهما ذلك طفلة ترتدي لباس أميرة. عندئذ استيقظ تود من غفلته، وحين انتصب استطاع أن يلتقط إيماءة سخرية تبادلها الأخوان سومّرز. وفي محاولة للتمويه التفت نحو الطفلة بانتباهٍ مفرطٍ، مستعدّاً لمغازلتها.

ـ هذه هي إليثا، محميتنا ـ قال جِرمي سومّرز.

ارتكب جاكوب تود الحركة الخرقاء الثانية.

ـ كيف هذا، محميّتكم؟ ـ سأل.

ـ يعني أنّني لست من الأسرة ـ وضّحت إليثا بصبر وبنبرة من يتحدّث إلى أبله.

ـ لا؟

ـ إذا أسأت التصرّف أرسلوني إلى حيث الراهبات البابويات.

ـ ماذا تقولين، يا إليثا! لا تأخذ بكلامها، يا سيّد تود. فالأطفال تخطر لهم أمور غريبة. ـ طبعاً إليثا من أسرتنا ـ قاطعتها الآنسة روز ناهضةً.

قضت إليثا النهار تحضّر العشاءَ مع ماما فرِسيا. كان المطبخ في الفناء، لكنّ الآنسة روز جعلته ينضمّ إلى البيت عبر ممر مسقوف لتجنّب خزيَ تقديم الصحون باردةً أو ملطخة بزَرْقِ الحمام. كانت تلك الغرفة المسودّة بالشحم وهباب النار مملكة ماما فرِسيا التي لا جدال فيها. قطط وكلاب وإوز ودجاج تتنزّه على هواها فوق أرض القرميد الخشن دون حبس، وهناك المعزاةُ التي أرضعت إليثا تجترّ وقد شاخت كثيراً، ولم يجروْ أحد على التضحية بها، فهو بالنسبة إليها كمن يقتل أمّها. كانت الطفلة تحبّ رائحةَ العجين النيئ في القوالب حين تفعلُ الخميرةُ فعلها في نفخ العجين بين التنهدات ورائحةَ السكر المحروق المخفوق لتزيين قوالب الحلوى ورائحةَ الشوكولا في كتل تنحلُّ في الحليب. في أيّام أربعاء المسامرة كانت الخادمتان ـ مراهقتان محليتان تعيشان في البيت وتعملان في تحضير الطعام ـ تلمعان الفضّة، تكويان مفارش السفرة وتُظهران بريق الأواني البلورية. يرسلون عند الظهيرة السائق إلى حانوت الحلويات ليشتري حلوى جاهزة حسبَ وصفات محفوظة جيّداً منذ أيّام المستعمرة. كانت ماما فرِسيا تستغل المناسبة لتعلّق إلى طقم أحد الجوادين كيساً من جلد فيه حليب طازج يتحوّل مع خبب الذهاب والإياب إلى زبدة.

في الثالثة مساء تنادي الآنسة روز إليثا إلى غرفتها، حيث

يضع السائق والفرّاش حوض حمّام برونزياً له قوائم أسد، تلفه الخادمتان بملحفة وتملآنه بالماء الساخن المعطّر بأوراق النعناع وإكليل الجبل، فتبربط روز وإليثا في الحوض مثل طفلتين صغيرتين إلى أن يبرد الماء وتعود الخادمتان محملتين بالملابس وتساعدانهما على ارتداء الجوارب والجزمات والسراويل التي تصل إلى نصف الساق. قميص الباتِستة ثمّ زنار محشو على الوركين لإبرازِ رشاقة الخصر، ثم وعلى الفور ثلاث شلحات منشاة وأخيراً الفستانان اللذان يغطيانهما بالكامل ليبقى الرأس واليدان فقط في الهواء . وكانت الآنسة روز تستخدم أيضاً جوخاً متيناً مقسّى بواسطة عظام الحوت، مشدوداً حتى أنّها لا تستطيع التنفّسَ بعمق ولا تحريكَ ذراعيها فوق مستوى الكتفين، كما لا تستطيع ارتداء ملابسها وحدها أو الانحناء لأنّ عظام الحوت تتكسّر وتنغرز في جسدها مثل الإبر. كان ذاك هو الحمام الوحيد خلال الأسبوع، وهو احتفال لا يمكن أن يقارن إلا بغسل الشعر أيام السبت، ويمكن لأيّ ذريعة أن تُلغيه لأنّه يُعتبَر خطيراً على الصحّة. كانت الآنسة روز تستخدم خلال بقية الأسبوع الصابون بحذر، فهي تفضّل أن تفرك نفسها بإسفنجة مشبعة بالحليب وتنعش نفسها بماء الكولونيا المعطرة بالفانيلا، تماماً كما سمعت أنّه دارج في فرنسا منذ أيام مدام بومبادور، وكان باستطاعة إليثا أن تتعرّف عليها بعينين مغمضتين وسط حشدٍ من رائحة العقبات الخاصّة بها. وقد حافظت بعد الثلاثين على بشرة بعض الشابات الإنكليزيات الشفافة والهشّة قبل أن يحوّلها نور العالم والعجرفة ذاتها إلى رِقٍّ. كما حافظت على مظهرها بماء الورد والليمون لتنقية الجلد وعسل الهاماميليس لتنعيمه، والبابونج لبريق الشعر ومجموعة من البلاسم الغريبة والغسولات التي يأتي بها أخوها جون من الشرق الأقصى، حيث توجد أجمل نساء العالم، حسب قوله. كانت تخترعُ ملابسَ مستوحاة من المجلات اللندنية، تصنعها بنفسها في صالة خياطتها وتعدّل فيها بوحي من حدسها وعبقريتها بالأشرطة والأزهار والأرياش التي استخدمتها سنوات دون أن يبدو عليها القِدَمُ. لم تكن تستخدم المنديل الأسود مثل التشيليات لتغطي به رأسها حين تخرج،

العادة التي بدت لها نوعاً من الخَراقة، فقد فضّلت أدثرتها القصيرة ومجموعة قبعاتها على الرغم من أنّهم كانوا ينظرون إليها في الشارع وكأنّها مومِسٌ.

غفرت الآنسة روز، المسحورة بوجود وجهٍ جديد في الاجتماع الأسبوعي، القبلةَ غير اللائقة لجاكوب تود وقادته من ذراعه إلى طاولة مستديرة موضوعة في زاوية من زوايا الصالة. خيّرته بين عددٍ من المشروبات الروحية، ملحة على أن يُجرّب نبيذها الميستِلا، وهو مشروب من القرفة والأغوارديينتِ والسكر الذي لم يقدر على ابتلاعه وفرّغه خلسة في أصيص. ثمّ قدّمته للحضور: السيّد أبْلْغِرِن، صانع أثاث، ترافقه ابنته، الفتاة الباهتة والخجولة. مدام كولْبِرت مديرة مدرسة إنكليزية للبنات. السيّد إبلينغ، صاحب أفضل حانوت قبعات للرجال وزوجته، التي ترنّحت فوق تود طالبة منه أخباراً عن الأسرة الملكية الإنكليزية وكأنهم أقرباؤها. كذلك تعرّف على الجراحين باج وبويت.

ـ الطبيبان يجريان العمليات بالكلوروفورم ـ وضّحت الآنسة روز بإعجاب.

ـ ما زال هنا شيئاً جديداً لكن الممارسة الطبية في أوروبا تطوّرت ـ وضّح أحد الجراحين.

ـ أعرف أنّه عادة ما يستخدم في إنكلترا في التوليد. ألم تستخدمه الملكة فيكتوريا؟ ـ أضاف تود محاولاً أن يقول شيئاً ما، لأنّه لا يعرف عن الموضوع شيئاً.

ـ هنا توجد معارضة كاثوليكية كبيرة لهذا. فلعنة الكتاب المقدّس على المرأة أن تَلِدَ بألم، يا سيّد تود.

ـ ألا يبدو لكم ظلماً، أيّها السادة؟ لعنة الرجل في أن يعمل بعرق جبينه، لكن السادة، هنا في هذه الصالة دون أن نذهب بعيداً، يكسبون عيشهم من عرق الآخر ـ أجابت الآنسة روز خجلةً بعنف.

ابتسم الجرّاحان بانزعاجٍ، لكنّ تود راقبها مسحوراً. كان بودّه لو يمكث الليل بطوله إلى جانبها، على الرغم من أنّ العادة في

مسامرات لندن، حسب ما ذكر جاكوب تود، هو الذهاب بعد نصف ساعة. لاحظ أنّ الناس في هذه المسامرة مستعدّة للمكوث وافترض أنّ الدائرة الاجتماعية تبدو محدودة جدّاً، وربّما كان الاجتماع الوحيد خلال الأسبوع هو اجتماع آل سومّرز. كان نهبَ هذه الشكوك حين أعلنت الآنسة روز التسلية الموسيقية. أحضرت الخادمات مزيداً من الشمعدانات ، مضيئة الصالة بضوء نهار ساطع. وضعن كراسٍ حول البيانو، القيثارة، والجُنك، وجلست النسوة في شبه دائرةٍ ووقف الرجال خلفهنّ. جلس رجلٌ ممتلئ الوجنتين إلى البيانو وانبعثَ من يديه اللتين لجزّار لحنٌ ساحرٌ، بينما راحت ابنة صانع الأثاث تؤدّي أغنية اسكتلندية قديمة بصوتٍ هو من الروعة بحيث أنّ جاكوب تود نسي تماماً مظهره الشبيه بفأر مذعور. ألقت مديرة مدرسة البنات قصيدةً بطوليةً، طويلة أكثر من اللازم، وغنّت روز أغنيتين خبيثتين ثنائياً مع أخيها جون، على الرغم من عدم موافقة جِرمي الواضحة، ثمّ طلبت من جاكوب تود أن يهديهم شيئاً مما عنده. وهذا ما سمح للزّائرِ أن يزهو بصوته الجيّد.

ـ أنت لُقية حقيقيّة، يا سيّد تود! لن نفلتك. أنت محكوم بالمجيء كلَّ أربعاء! ـ صاحت هي حين توقّف التصفيق، دون أن تتوقّف عند التعبير الأبله الذي راقبها به الزائر.

شعر تود بأسنانه ملتصقة بسكر ورأسه يدور، لا يدري ما إذا كان نتيجة إعجابه بروز سومّرز فقط أم نتيجة المشروبات الروحية المُتناوَلة، والسيجار الكوبي القوي الذي كان يُدخّنه برفقة القبطان سومّرز أيضاً. إذ لا يمكن في هذا البيت رفض كأس أو صحن دون التسبّب بإهانة؛ وسرعان ما سيكتشف أنّها خاصّية قومية تشيلية، حيث يتجلّى حسن الضيافة بإجبار المدعوين على شرب وأكل ما يتجاوز كل مقاومة إنسانية. في التاسعة أعلنوا عن العشاء ومضوا في موكبٍ إلى صالة الطعام، حيث انتظرتهم صحون قويّة وعقبات جديدة. نُهضت النسوة عند منتصف الليل عن المائدة وتابعن حديثهن في الصالة، بينما تناولَ الرجالُ براندي ودخنوا في صالة الطعام. أخيراً وحين أوشك أن يُغمى على تود راح المدعوون يطلبون

معاطفهم وعرباتهم. آل إبلينغ، المهتمين بحيوية بالمهمة الأنكليكانية المفترضة في تييرّا دِل فُوِغو عرضوا عليه حمله إلى فندقه فقبل على الفور، خائفاً من فكرة العودة في أوج الظلمة عبر شوارع الكوابيس تلك مع سائق آل سومّرز السكران. بدت له الرحلة أبديّة، وشعر بنفسه غير قادر على التركيز في الحديث، فقد كان دائخاً ومعدته مقلوبة.

ـ زوجتي وُلِدت في أفريقيا، وهي ابنة مبشرين ينشرون هناك العقيدة الصحيحة؛ نعرف كم من التضحية يعني هذا، يا سيّد تود. نأمل أن تمنحنا امتياز مساعدتك في هذه المهمّة النبيلة بين السكان الأصليين ـ قال السيّد إبلينغ بوقار وهو يودّعه.

لم يستطع جاكوب تود النوم في تلك الليلة، فقد وخزته رؤى روز سومّرز بقسوة، وقبل الفجر اتخذ قراراً بالتودّد إليها جدّياً. لم يكن يعرف عنها شيئاً، لكنّ هذا لم يهمّه، ربّما كان قدره في خسارة مراهنة والوصول إلى تشيلي للتعرّف فقط على زوجته المستقبلية. ودَّ القيام بذلك في اليوم التالي، لكنّه لم يستطع النهوضَ من السرير، فقد انتابه مغص عنيف، وبقي على هذه الحال نهاراً وليلةً، فاقد الوعي حيناً ومُحتَضَراً أحياناً أخرى، إلى أن استطاع استجماع قواه والإطلال من الباب وطَلَب المساعدة. أرسل مدير الفندق بناء على طلبه يخبر آل سومّرز، الوحيدين الذين يعرفهم في المدينة، ونادى نادلاً لينظف الغرفة التي كانت تفوح منها رائحة إسطبلٍ بغالٍ. مَثل جِرمي سومّرز في الفندق عند الظهيرة يرافقه أشهر فصّادٍ في بالبارايسو، الذي ظهر أنّه يلمّ قليلاً بالإنكليزية، ثمّ وضّح له بعد أن فصده في ساقيه وذراعيه وتركه منهكاً أنّ جميع الأجانب يمرضون حين يطؤون أرض تشيلي لأوّل مرّة.

ـ لا داعي للذعر، فحسب معرفتي قليلون هم الذين يموتون ـ طمأنه.

أعطاه كينين في رقاقات من ورق الأرز، لكنّه لم يستطع ابتلاعها نظراً لتقلّصات الغثيان. كان في الهند ويعرف أعراض

الملاريا وأمراضاً استوائيّة أخرى تُعالج بالكينين، لكنّ هذا المرض لا يشبهها ولا من بعيد. وما أن غادر الفصّادُ حتى عاد النادِلُ ليغسل الخرق والغرفة من جديد. وكان جِرمي سومّرز قد ترك عنوان الطبيبين باج وبويت، لكنّه لم يملك الوقت لاستدعائهما إذ ظهرت امرأة ضخمة في الفندق تطلب رؤية المريض. كانت تجرّ كمّ يدها طفلةً ترتدي القطيفة الزرقاء وجزمة بيضاء وقبعة مطرزة بالأزهار لها شكل الحكايات. تلك هي ماما فرِسيا وإليثا وقد أرسلتهما روز سومّرز، التي كانت ثقتها بالفصد قليلة جدّاً. اقتحمتا الغرفة بثقة لم يجرؤ معها جاكوب تود المنهك على الاحتجاج. جاءت الأولى بصفة معالجة والثانية مترجمة.

ـ تقول ماما إنّها ستنزع لك البيجاما. أنا لن أنظر ـ وضّحت الطفلة ودارت باتجاه الجدار بينما عرّته الهندية بحركتين قويتين وراحت تدلكه كاملاً بالأغوارديينتِ.

وضعوا له في فراشه قرميداً ساخناً ولفوه بالبطانيات وسقوه بالملعقة منقوع أعشاب مُرّة محلى بالعسل لتهدئة آلام عسر الهضم.

ـ الآن سوف تسحب ماما المرض ـ قالت الطفلة.

ـ وما هذا؟

ـ لا تخف، لا يؤلم.

أغمضت ماما فرِسيا عينيها وراحت تمرّ بيديها على ظهره وبطنه متمتمة بالسحر بلغة المابوتشيين. جاكوب تود الذي شعر بأنّ وَسَناً لا يحتمل يغزوه غرق في نوم عميق قبل أن تنهي المرأة عملها ولم يدرِ متى اختفت ممرضتاه. نام ثماني عشرة ساعة واستيقظ مستحماً بالعرق. عادت ماما فرِسيا وإليثا صباح يوم التالي لتدليكه ثانية وإعطائه فنجان مرق دجاج كبيراً.

ـ تقول ماما إنّ عليك ألاّ تشرب بعد اليوم ماءً. فقط تشرب شاياً ساخناً جيّداً، ويجب ألا تأكل فاكهة أيضاً لأنّها ستعود وتنتابك رغبة بالموت ـ ترجمت الصغيرة.

عرف بعد أسبوع حين استطاع أن ينهض على قدميه وينظر إلى

نفسه في المرآة أنّه لا يستطيع أن يمثل أمام الآنسة روز بذلك المظهر: فقد هبط وزنه عدّة كيلو غرامات، وهزل ولا يستطيع أن يخطو خطوتين دون أن يسقط لاهثاً على كرسيّ. وحين أصبح في وضع يسمح له بإرسال شوكولا مع ملاحظة يشكر فيها ماما فرِسيا وإليثا، لأنّها أنقذت له حياته، عرف أنّ الشابّة غادرت مع صديقة وخادمة إلى سانتياغو في رحلة مجازفة نظراً للوضع السيئ للطريق والطقس. كانت الآنسة روز تقطع أربعة وثلاثين فرسخاً مرّة واحدة في العام، في بداية الخريف دائماً أو في عزّ الربيع لتشاهد المسرح وتسمع موسيقى جيّدةً وتقوم بمشترياتها السنوية من المخزن الياباني الكبير، المعطّر بالياسمين والمضاء بمصابيح الغاز مع كرات زجاجية وردية، حيث تحصل على الترهات التي يصعب الحصول عليها في الميناء. ومع ذلك فهذه المرّة كان هناك سبب جيّد للذهاب في الشتاء: ستقف لتُرسم لها صورة. فقد وصل إلى البلد الفنان الفرنسي الشهير مونبواسان، مدعوّاً من الحكومة ليؤسس مدرسة بين الفنانين الوطنيين. كان الرسام يرسم الرأس فقط والباقي يعمله مساعدوه، وللسرعة فإن الترصيع يطبق مباشرة على القماش، لكن على الرغم من هذه الأساليب الاحتيالية ما من شيء كان يمنح مكانة مثل لوحة «بورتريه» موقّعة من قبله. أصرّ جِرمي سومّرز على امتلاك لوحة لأخته لتتصدّر الصالون . كانت اللوحة تكلّف ست اونصات ذهبية وواحدة لكلّ مساعد ، لكنّ المسألة لم تكن مسألة توفير. ففرصة امتلاك لوحة حقيقية من عمل مونبواسان العظيم لم تكن تُمْنَحُ مرّتين في الحياة كما يقول زبائنُه.

ـ ليست الكلفة هي المهمّة أريده أن يرسمني بثلاث أيدٍ. ستكون أشهر لوحاته وستنتهي لتعلّق في متحف بدل تعليقها فوق مدختنتا ـ علّقت الآنسة روز.

كانت تلك سنة الفيضانات التي سُجّلت في النصوص المدرسية وفي ذاكرة الأجداد. فقد جرف الطوفان آلاف المساكن وحين هدأ

الطقس أخيراً وبدأت المياه تهبط كانت هزّات خفيفة، شعر بها الناس وكأنّها ضربة فأس من الربّ، قد انتهت إلى تدمير ما طرّاه وابل المطر. طاف الأوغاد بين الركام واستغلوا الفوضى ليسرقوا البيوت، وتلقّى الجنود تعليماتٍ بإعدام من يفاجئونه في مثل هذه الأعمال دون تباطؤٍ . لكنهم مدفوعين بحماس الوحشية راحوا يوزعون طعنات سيوفهم حبّاً بسماع الأنين، فكان لا بد من سحب الأمر قبل أن يقضوا على الأبرياء أيضاً. جاكوب تود المنغلق على نفسه في الفندق يُداري رشحاً وضعفاً ناتجاً عن أسبوع المغص، قضى الساعات قانطاً من قرع أجراس الكنائس الذي لا ينقطع ويدعو إلى التوبة، قرأ الصحف المتأخّرة وبحث عن رفيق يلعب معه الورق. خرج إلى الصيدلية بحثاً عن مقوٍّ لمعدته، لكنّه وجد أنّ الدكان عبارة عن غرفة صغيرة فوضوية، مفعمة بالمرطبانات البلورية الزرقاء والخضراء حيث يوجد صانع ألماني قدّم له زيت عقرب وروح ديدان، فأسف لأوّل مرّة لوجوده بعيداً عن لندن.

كان يلقى صعوبةً بالنوم ليلاً نظراً لمشاجرات ومشادات السكارى والجنازات التي تؤدّى بين الثانية عشرة والثالثة فجراً. المقبرة الملتهبة كانت في أعلى إحدى الهضاب وتطلّ على المدينة. ومع العاصفة فتحت فجوات وتدحرجت قبور على السفوح في خليط من عظام تزاوجُ بين جميع الموتى في الكرامة ذاتها. كثيرون علّقوا قائلين إنّ الموتى كانوا أفضل حالاً قبل عشر سنوات حين كانوا يقبرون أثرياء الناس في الكنائس والفقراء في الهوات والأجانب على الشاطئ. هذا بلد غريب، استنتج تود، وقد عصب منديلاً على وجهه لأنّ الريح راحت تجرف معها رائحة الفاجعة المسبّبة للغثيان، التي حاربتها السلطات بصلاءات نيران كبيرة من خشب الأوكاليبتوس. ما أنْ شعر بتحسّنٍ حتى أطلّ يرى المواكب. لم تكن بشكلٍ عام تلفتُ الانتباه لأنّها تتكرّر ذاتها خلال أيام الجمعة الحزينة السبعة وفي احتفالات دينية أخرى، وقد تحوّلت في تلك المناسبة إلى أعمال جماهيرية لتطلب من السماء نهايةً للعاصفة؛

تخرجُ من الكنائس صفوفٌ طويلة من المؤمنين تترأسهم أخويات فرسان يرتدون السواد، يحملون على نقالات تماثيلِ القديسين في بزّات مطرّزة بالذهب والأحجار الكريمة. حمل صفٌّ منهم مسيحاً سُمّر إلى صليبٍ وتاج شوكهِ حول عنقه. وضّحوا له أنّ الأمر يتعلّقُ بمسيح أيّار الذي جيء به خصيصاً لهذه المناسبة، لأنّه كان أكثر صور العالم إحداثاً للمعجزات، والوحيد القادر على تعديل الطقس. قبل مئتي عام سوّى زلزالٌ مُروّعٌ العاصمةَ بالأرضِ وانهارت كنيسة سان أغوستين كاملة باستثناء المذبح حيثُ كان ذلك المسيح. انزلق تاج الشوك عن الرأس إلى العنق، حيث ما زال ، لأنّهم في كلّ مرّة حاولوا إعادته إلى مكانه عادت الأرضُ لتُزلزل. كانت المواكب تجمعُ رهباناً وراهباتٍ، أتقياءَ مُخْتَضَرين من كثرة الصيام، شعباً متواضِعاً يصلّي وينشد بصوتٍ مجروح، توّابين بأثواب طويلة خشنة، ونادمين يجلدون ظهورهم العارية بسياط من جلدٍ منتهية بنتوءات معدنية حادّة. كان بعضهم يسقط مغشيّاً عليه فتعتني بهم نسوة كنّ ينظفن لحمهم المفتوح ويسقينهم مرطباتٍ، لكن ما أن يستعيدوا وعيهم حتى يدفعوهنّ ليعودوا إلى الموكب. كانت تمرّ صفوف من الهنود الحمر يعذّبون أنفسهم بهيجان مجنون، وفرق موسيقى تعزف أناشيد دينية؛ وضوضاء الصلوات النادبة تبدو سيلاً جارفاً والهواء الرطب تفوح منه رائحة نتن عرق وبخّور. كانت هناك مواكب أرستقراطيين، بلباس فاخر، لكنّه قاتم وبلا مجوهرات، وأخرى لجمهور بائس حافٍ يرتدي الأسمال، يلتقون في الساحة دون تماس أو اختلاط. ومع تقدّمهم يزداد اللغطُ ودلائل التقوى تصبح أكثر شدّةً، المؤمنون يعوون طالبين الغفران عن أخطائهم، واثقين من أنّ سوء الطقس عقاب إلهي على ذنوبهم؛ والنادمون يُهرَعون جماعاتٍ والكنائس لا تكفي بحيث ظهرت صفوف من الرهبان تحت خيم ومظلاتٍ لتلبية الاعترافات. أذهلَ المشهدُ الإنكليزي الذي لم يحضر في أيّ من أسفاره شيئاً بمثل غرابته أو كآبته. بدا له وهو المعتاد على الجلالة البروتستانتية أنّه

عاد إلى أوج العصور الوسطى، لن يصدّقه أصدقاؤه في لندن أبداً. حتى وهو على مسافة حكيمة استطاع إدراك رعشة البهيمة البدائية والمعذّبة التي تجوب الجمهور البشري أمواجاً. صعد بجهدٍ على قاعدة نصب في الساحة الصغيرة أمام كنيسة لاماتريث، من حيث يستطيع أن يحصل على رؤيةٍ بانورامية للحشود. فجأة شعر بأنّهم يشدّونه من بنطلونه، خفض نظره فرأى طفلة مذعورة وعلى رأسها معطف ووجهها ملطخ بالدم والدموع، ابتعد بفجاجة لكنّه تأخر فوسّخت بنطلونه. أطلق قَسَماً وحاول أن يبعدها بالإيماء، فهو لم يستطع أن يتذكّر الكلمات المناسبة لذلك بالإسبانية، لكنّه فوجئ حين ردّت عليه بإنكليزية تامّة أنّها تائهة وربّما يستطيع هو أن يأخذها إلى بيتها. عندئذٍ نظر إليها بشكلٍ أفضل.

ـ أنا إليثا سومّرز. هل تذكرني؟ ـ تمتمت الطفلة.

فكّرت بالذهاب إلى الموكب مستغلّة وجود الآنسة روز في سانتياغو وندرة وجود جِرمي سوّمرز في البيت في تلك الأيام لأنّ أقبية مكتبه قد غرقت، لذا أزعجت ماما فرِسيا حتّى أذعنت المرأةُ لطلبها. كان ولياها قد منعاها من ذكر الطقوس الكاثوليكية أو الهندية أمام الطفلة خاصّة أو تعريضها لمشاهدتها، لكنّها هي أيضاً تموت رغبة لمشاهدة مسيح أيّار على الأقل لمرّة واحدة في حياتها. وخلصت إلى أنّ الأخوة سومّرز لن يعرفوا بالأمر أبداً. وهكذا خرجتا بصمت من البيت، وهبطتا الهضبة سيراً على الأقدام، ركبتا عربة تركتهما في الساحة وانضمتا إلى صفّ من الهنود التائبين. كل شيء كان سيخرج كما خُطّط له لو لم تترك إليثا يد ماما فرِسيا، التي لم تنتبه مأخوذة بالهستيريا الجماعية في صخب وهيجان ذلك اليوم. بدأت تصرخُ، لكنّ صوتها ضاع في صخب صلوات الأخوية وقرع طبولها الحزين. راحت تجري بحثاً عن مربيتها، لكنّ جميع النساء لحْنَ متماثلات في المعاطف السوداء، وراحت قدماها تنزلقان على الأرض المرصوفة بالحجارةِ المغطاةِ بالطين والشمع والدم. وسرعان ما انضمت الصفوف المختلفة في حشدٍ واحدٍ

يتجرجر مثل حيوان جريح، بينما الأجراس تدوّي مجنونة وصفارات السفن تطلق صفيرها في الميناء. لم تدرِ كم بقيت مشلولة من الذعر حتى راحت تتضّح الأفكار شيئاً فشيئاً في دماغها. كان الموكب قد هدأ خلال ذلك، فالجميع راكعون على ركبهم والمطران شخصيّاً يقيم قدّاساً مغنّى في طريقٍ أمام الكنيسة . فكّرت إليثا بالسير باتجاه ثِرّو ألِغرِ، لكنّها خافت أن تباغتها الظلمةُ قبل العثور على بيتها، فهي لم تخرج وحيدةً قط ولا تعرف كيف تهتدي. قرّرت ألا تتحرّك من مكانها حتى تتفرّق الحشود فربّما عثرت عليها ماما فرِسيا . في هذه الأثناء وقعت عيناها على شخصٍ ذي شعر أحمر طويل متعلّق إلى نصب الساحة، عرفت فيه المريض الذي اعتنت به مع مربيتها. فشقّت طريقها إليه دون تردّدٍ.

ـ ماذا تفعلين هنا؟ هل أنت جريحة؟ ـ صاح الرجلُ.

ـ بل ضائعة؛ هل تستطيع أخذي إلى البيت؟

نظّفَ جاكوب تود وجهها بمنديله وتفحّصها بسرعة متبيّناً أنّها لم تُصَب بأذى مرئي. وخلص إلى أنّ الدم لا بدّ دم المتسوِّطين.

ـ سأحملك إلى مكتب السيّد سومّرز.

لكنّها رجته ألاّ يفعل، لأنّه لو علم حاميها بأنّها كانت في الموكب سيطرد ماما فرِسيا. خرج تود بحثاً عن عربة أجرة من الصعب الحصول عليها في تلك اللحظات بينما الطفلة تسير صامتة لا تفلت يده. شعر الإنكليزي لأوّل مرّة في حياته برعشة رِقّة أمام تلك اليد الصغيرة الفاترة المتمسّكة بيده. راح ينظر إليها من حين لآخر خلسة، متأثراً بالوجه الطفولي ذي العينين اللوزيتين السوداوين. أخيراً عثرا على عربة يجرّها بغلان، قبل سائقها حملهما إلى أعلى الهضبة بضِعف التعرفة المعتادة. قاما بالرحلة صامتين وبعد ساعة ترك تود الطفلة أمام بيتها. ودّعته شاكرةً، لكن دون أن تدعوه للدخول. رآها تبتعد صغيرةً وهشّةً، مغطاة حتى قدميها بالمعطف الأسود. فجأة دارت الطفلة نصف دورة وجرت نحوه ثمّ مدّت ذراعيها

إلى عنقه وقبّلته على خدّه. شكراً، قالت مرّة أخرى. عاد جاكوب تود إلى فندقه في العربة ذاتها. يلمس من حين لآخر خدّه، مفاجأً بذلك الشعور العذب والمحزن الذي ألهمته به الصغيرة .

أفادت المواكب في زيادة التوبة الجماعية وكذلك في وقف الأمطار،كما استطاع أن يتأكّد جاكوب تود بنفسه، مبرّرة مرّة أخرى السمعة الرائعة لمسيح أيار. انقشعت السماء في أقلّ من ثمان وأربعين ساعة وأطلّت شمسٌ وجلة واضعة علامة تفاؤل في موسيقى شقاء تلك الأيام. مضى ما مجموعه تسعة أسابيع قبل أن تتجدّد مسامرات أيّام الأربعاء في بيت آل سومّرز التي توقّفت بسبب العواصف والأوبئة، وعدّة أسابيع أخرى قبل أن يجرؤ جاكوب تود على التلميح بمشاعره الرومانسية للآنسة روز، التي تظاهرت حين فعل ذلك أخيراً بأنّها لم تسمعه، لكنّها خرجت أمام إلحاحه بردّ مُفحمٍ:

ـ الشيء الوحيد الحسن في الزواج هو الترمّل ـ قالت.

ـ إن زوجاً، مهما كان غبياً، يزيّن دائماً ـ ردّ هو، دون أن يفقد ملاحته.

ـ ليس في حالتي. فالزوج لا بد سيكون عائقا ولا يستطيع أن يمنحني شيئاً ليس عندي.

ـ الأولاد مثلاً؟

ـ لكن كم تعتقد عمري، يا سيّد تود؟

ـ ليس أكثر من سبعة عشر!

ـ لا تسخر. لحسن الحظ أنّ عندي إليثا.

ـ أنا عنيد، يا آنسة روز، ولا أعتبر نفسي مهزوماً أبداً.

ـ أشكرك، يا سيّد تود. ليس الزوج هو الذي يُزَيّن، بل الطامحون الكُثر.

في جميع الأحوال كانت روز السبب الذي لأجله بقي جاكوب

تود في تشيلي مدّة أطول من الأشهر الثلاثة المحدّدة لبيع كتبه المقدسة. كان آل سومّرز علاقته الاجتماعية التامة، فبفضلهم فُتِحَتْ له أبواب الجالية الأجنبية المزدهرة على مصراعيها، مستعدّة لمساعدته في مهمّته الدينية في تييرّا دِل فُوِغو. همّ بأن يتعلّم شيئاً عن الهنود الباتاغونيين، لكنه فهم، بعد أن ألقى نظرة ناعسة على بعض الكتيبات في المكتبة، أنّه سيان عرف أم لم يعرف، لأنّ الجهل بهذا الخصوص جماعي. إذْ يكفي أن يقول ما يرغب الناس بسماعه، وهو لهذا يملك لساناً ذهبياً. كان عليه كي يضع حمولته من الكتاب المقدّس بين أيدي زبائن تشيليين أثرياء أن يحسّن إسبانيته المقلقلة التي تمكّن، خلال الشهرين اللذين عاشهما في إسبانيا، وبفضل سمعه الجيّد من تعلّمها بسرعة وبشكل أفضل من كثير من البريطانيين الذين وصلوا إلى البلد قبل عشرين عاماً. أخفى في البداية أفكاره المفرطة في ليبراليتها، لكنّه لاحظ أنّهم في كلّ لقاء اجتماعي يحاصرونه بالأسئلة ويحيط به مستمعون مذهولون دائماً. فخطاباته المناهضة لتجارة الرق والمنادية بالمساواة والديمقراطية تهزُّ سبات أولئك الناس الطيبين، وتتسبّب بنقاشات سرمدية بين الرجال وبصيحات الذعر بين السيدات الناضجات، لكنّها جذبت حتماً أكثرهنّ شباباً. صنَّفَهُ الرأي العام على أنّه مهزوز وأفكاره الملهبة مسلية، بالمقابل كان لسخرياته من الأسرة الملكية البريطانية وقعٌ مشؤوم بين أعضاء الجالية الإنكليزية، الذين كانت الملكة فيكتوريا بالنسبةِ إليهم لا تُمسّ، فهي بمثابة الله والإمبراطورية. كان ريعه المتواضع لا يُستهان به، فهو يسمح له بأن يعيش ببعض البحبوحة دون أن يكون قد عمل بجدّية قط، وهذا ما وَضَعَه في مصاف الفرسان. ما أن اكتشفوا أنّه غير مرتبط حتى لم يعد ينقصه فتيات في عمر الزواج هامّات للإمساك به، لكنّه ما أن عرف الآنسة روز حتى لم يعد يملك عينين لغيرها. تساءل ألف مرّة لماذا تبقى الفتاة عازبة والجواب الوحيد الذي خطر له لتلك الـ لاأدري العقلانية هو أنّ السماء نذرتها.

ـ حتى متى ستعذّبينني، يا آنسة روز؟ ألا تخافين أن أملّ من ملاحقتك؟ ـ كان يمزح معها.

ـ لن تملّ، يا سيّد تود. فملاحقة القط أكثر تسلية من الإمساك به ـ كانت تجيبه .

فصاحة المبشر المزيف كانت شيئاً جديداً في ذلك الجو، وما أن عُرِف أنّه دَرَسَ الكتاب المقدّس بوعي حتى قدّموا له الكلمة. كان هناك معبد أنكليكاني صغير لا تنظر إليه السلطة الكاثوليكية بارتياح، لكنّ الجالية البروتستانتية كانت تجتمع أيضاً في بيوت خاصّة. «أين رأيتم كنيسة دون عذارى وشياطين؟ *الغرينغويين* جميعاً ملحدون، لا يؤمنون بالبابا، لا يعرفون الصلاة، ويقضون الوقت بالغناء، ولا يتناولون حتى القربان»، هكذا كانت تتمتم ماما فرِسيا مذعورة حين يكون دورُ تقديم خدمة الأحد في بيت آل سومّرز. حضّر تود لقراءة قصيرة عن خروج اليهود من مصر في إشارة على الفور إلى وضع المهاجرين، الذين عليهم مثل يهود الكتاب المقدّس أن يتأقلموا في الأرض الغريبة، لكنّ جِرمي سومّرز قدّمه للجمع على أنّه مبشّر وطلب منه أن يتكلّم عن الهنود الحمر في تييرّا دِلْ فْوِغو. لم يكن جاكوب تود يعرف تحديد موقع المنطقة ولا لماذا تحمل هذا الاسم الموحي، لكنّه استطاع أن يثير مستمعيه إلى حدِّ البكاء بقصّة المتوحشين الثلاثة الذين اصطادهم قبطان إنكليزي ليحملهم إلى إنكلترا. خلال أقل من ثلاثة أعوام صار هؤلاء الأشقياء الذين كانوا يعيشون عراة في البرد الجليدي ويرتكبون عادةً أفعالَ أكلة لحوم البشر ـ قال ـ يلبسون لباساً مناسباً وصاروا مسيحيين صالحين، تعلموا العادات الحضارية، بل وتقبّلوا الطعام الإنكليزي. ومع ذلك لم يُوَضَّح أنّهم ما أن أُعيدوا إلى وطنهم حتى عادوا على الفور إلى عاداتهم القديمة كما لو لم تمسّهم إنكلترا ولا كلمة يسوع قط. وباقتراح من جِرمي سومّرز نظمت هناك حملة تبرعات لمهمة نشر الإيمان، فجاءت النتيجة حسنة إلى حدّ أنّ جاكوب تود استطاع أن يفتح حساباً مصرفياً في فرع بنك لندن في بالبارايسو. راح

الحساب يتغذّى أسبوعياً بمساهمات البروتستانتيين وينمو على الرغم من الحوالات الكثيرة التي كان تودْ يقوم بها لتمويل نفقاته الخاصّة حين لم تكن دخوله تكفي لتغطيتها. وهكذا كلّما زادت الإيرادات تضاعفت العوائق والذرائع لتأجيل البعثة الإنكليكانية. هكذا مضت سنتان.

وصل الإحساس عند جاكوب تود بالراحة في بالبارايسو وكأنه وُلِدَ فيها. كان بين التشيليين والإنكليز صفات عدّة مشتركة: كلّ شيءٍ يحلونه من خلال الوكلاء والمحامين، يشعرون بارتباط لا معقول بالتقاليد، بالرموز الوطنية والرتابة، ويتبجّحون بالفرديّة ومعاداة الفخفخة، التي يزدرونها على أنّها علامة من علامات الفوقية الاجتماعية؛ يبدون لطفاء وعقلاء بينما هم قادرون على ارتكاب الفظائع الكبيرة. ومع ذلك وخلافاً للإنكليز كان التشيليون يشعرون بالرعب من اللامركزية ولا يخشون شيئاً مثل خشيتهم من أن يبدوا تافهين. لو تكلّمتُ الإسبانية بشكل سليم، فكّر جاكوب تود، لكنت كما لو في بيتي. أقام في نزل أرملة إنكليزيّة تحمي القطط وتصنع أفضل قوالب حلوى الميناء. كان ينام مع أربعة قطط على السرير، مرافقَاً أفضل ممّا في حياته كلّها، يفطر يوميّاً من حلوى مضيفته المغرية. تواصل مع تشيليين من كلّ الطبقات، بدءاً من أكثرهم تواضعاً، وقد تعرف عليهم خلال تجوّله في الأحياء المنخفضة للميناء، وحتى أكثرهم رفعةً، وكان قد قدّمه إليهم جِرمي سومّرز في *نادي الوحدة* حيث قبلوه كعضوٍ مدعو. وحدهم الأجانب ذوو الأهمية الاجتماعية المعترَف بها كانوا يستطيعون التفاخرَ بذلك الامتياز، فقد كان نقطة تجمّع إقطاعيين وسياسيين محافظين، تُقاس فيه قيمة الأعضاء بكناهم. فُتحت له الأبواب بسبب مهارته في لعب الورق والنرد، حيثُ يخسر بملاحة كبيرة، وقليلون من كانوا ينتبهون إلى ربحه الكثير. هناك صار صديقاً لأغوستين دِلْ بالْيِهْ، صاحب أراضٍ زراعية في تلك المنطقة وقطعان أغنامٍ في الجنوب،

الذي لم تطأه قدمه قط، لأنّه جاء من أجل ذلك بمشرفين من اسكتلندا. منحته هذه الصداقة الفرصةَ لزيارة بيوت الأسر الأرستقراطية التشيلية الصارمة وهي أبنية مربّعة ومظلمة ذات غرف كبيرة شبه فارغة، مزينة بلا أناقة بأثاث ثقيل، شمعدانات جنائزية وغرفة بصلبان دامية، عذراواتٍ من الجصّ وقديسون يرتدون ملابس النبلاء الإسبان القدماء. كانت بيوتاً مفتوحة على الداخل مغلقة على الشارع بسياج من الحديد، فظّة وغير مريحة، لكنّها مجهزة بممرات رطبة وقناءات داخلية مزروعة بالياسمين والبرتقال والورد.

حين طفح الربيعُ دعا أغوستين دِلْ بالْيِهْ آلَ سومّرز وجاكوب تود إلى أحد عقاراته الريفية. كان الطريقُ مزعجاً ويستطيع الفارس أن يقطعه في أربع أو خمس ساعات على الجواد، لكنّ القافلة مع الأسرة والضيوف خرجت فجراً ولم تصل حتى حلول الليل. كان آل دِلْ بالْيِهْ يمضون في عربات تجرّها الثيران، وقد وضعوا فيها طاولات ودواوين مزأبرة النسيج. يتبعون قافلة من البغال مع المعدات والعمال على الخيول، مسلحين بالبنادق القصيرة البدائيّة للحماية من قطاع الطرق، الذين ينتظرون عادة كامنين في منعطفات الأكمات. وكانت تُضاف إلى البطء المنهك للأعصاب مطبّاتُ الطريق، التي تحرنُ فيها العربات، والتوقّفُ الكثير للراحة، حيث يُقدِّمُ الخدمُ الطعامَ البارد من سلالهم وسط سحب من الذباب. لم يكن تود يعرف شيئاً عن الزراعة، لكن يكفي إلقاء نظرة حتى يعرف أنَّ كلّ شيء في هذه الأرض الخصيبة يُعطي محاصيل وفيرة. كانت الثمار تسقط عن الأشجار وتتعفّن دون أن يزعج أحدٌ نفسه بالتقاطها. في المزرعة وجد أسلوب الحياة ذاته الذي لاحظه قبل سنوات في إسبانيا: أسرة كبيرة العدد مُتَّحدة بروابط الدم ونظام شرف صارم. كان مضيفه بطريركاً قويّاً وإقطاعياً يمسك بقبضة محكمة بمَصير سلالته، ويتباهى متعجرفاً بنسبٍ يستطيع أن يرسمه حتى يصل إلى المحتلين الإسبان الأوائل. أجدادي، كان يحكي، قطعوا أكثر من ألف كيلومتر مدرعين بدروع حديدية ثقيلة، واجتازوا جبالاً وأنهاراً وأكثر

صحارى العالم جفافاً كي يؤسّسوا مدينة سانتياغو. كان بين أهله رمزاً للسلطة والحشمة، لكنهم خارج طبقته يعتبرونه الشيطان الرجيم. فلديه قبيلة من الأولاد غير الشرعيين، وله سمعة سيئة مفادها أنّه صفّى أكثر من مستأجر في الحالات الأسطورية لهيجان مزاجه السيئ، لكن أحداً لم يَذكر قَطْ هذا القتل ولا ذنوبه الأخرى الكثيرة. كانت زوجته في الأربعين من عمرها لكنّها تبدو عجوزاً مرتعشة ذليلة، ترتدي الحداد دائماً على أولادها الذين ماتوا في طفولتهم، ومخنوقة من ثقل المشدّ والدينِ وذلك الزوج الذي كانت من نصيبه. أمّا أولادها الذكور فيقضون ساعات فراغهم في الصلوات والمشاوير والقيلولة واللعب واللهو، بينما الإناث يطفين مثل حوريات غامضة في غرفهن والحدائق، بين حفيف الشلحات، الواقعة دائماً تحت عينِ صاحباتها المراقبة. علمّوهنّ منذ صغرهنّ حياة الفضيلة والإيمان والغيرية؛ فقدرُهنّ هو الزواج المصلحي والأمومة.

في الحقل حضروا مصارعة ثيران لا تشبه ولا من بعيد مشهد الشجاعة والموت في إسبانيا، لا شيء من البزّات البرّاقة والصلف والتأثر والمجد، بل مشاجرة سكارى جسورين يعذّبون حيواناً بالرماح والسباب، ممرّغين نطحاً بالغبار بين اللعنات والقهقهات. أخطر ما في المصارعة هو إخراج البهيمة الهائجة والمثخنة بالجراح حيّةً من الدائرة. شكر تود الله أنّهم وفّروا على الثور الذل الأخير لقتله أمام الجمهور، فقلبه الإنكليزي الطيّب يفضّل أن يرى المصارعَ لا الحيوان ميتاً. كان الرجال يلعبون *الترسيليو والروكامبو* مساء، يخدمهم كما الأمراء جيش من الخدم العبوسين والمتواضعين، الذين لم يكن يرتفع نظرهم عن الأرض ولا صوتهم عن الهمس. وهم عبيد دون أن يبدوا كذلك. يعملون مقابل الحماية والسقف وجزء من المحصول؛ نظرياً كانوا أحراراً، لكنّهم يبقون مع ربّ العمل، مهما بلغ طغيانه ومهما قست الظروف، نظراً لأنّه لم يكن لديهم مكان يذهبون إليه؛ فالعبوديّة أُلغيت منذ أكثر من عشر سنوات

دون ضجّة كبيرة. لم تكن تجارة الأفارقة مربحة قط في تلك النواحي، حيث لا توجد زراعات واسعة، لكنّ أحداً لم يذكر مصيرَ الهنود الحمر الذين انتزعت منهم أراضيهم وأُلقوا في الفاقة ولا مستأجري الأراضي، الذين يباعون ويشرون مع العقارات مثل الحيوانات. كما لم يكن هناك من يتكلّم عن قتل العبيد الصينيين والبولينيزيين المخصصين لجمع زرق الطيور في جزر تشنتشاس. ليس هناك من مشكلة إذا لم ينزلوا من البواخر، فالقانون يمنع العبوديّة على اليابسة، لكنّه لا يقول شيئاً عنها في البحر. بينما الرجال يلعبون بالورق أصاب الضجرُ الآنسة روز مع السيدة دِل بالْيِهْ وبناتها العديدات دون أن تُظهر ذلك. بالمقابل كانت إليثا تخبّ في الحقل المفتوح مع باولينا، الابنة الوحيدة لأغوستين التي أفلتت من نموذج نساء تلك الأسرة الهزيل. صحيحٌ أنّها أكبر من إليثا بعدّة سنوات، لكنها سعدت معها في ذلك اليوم كما لو أنها من عمرها، كلاهما مسدلتا الشعر ووجهاهما للشمس تجلدان مطيّتيهما.

الآنسات

كانت إليثا سومّرز طفلة نحيلة وصغيرة، ولها ملامح رقيقة مثل رسم بريشة صغيرة. في عام 1845 حين أتمّت الثالثة عشرة من عمرها، وبدأ يرتسم ثدياها وخصرها كانت ما تزال تبدو تافهة، على الرغم من أن الملاحة راحت تُلمح في حركاتها التي ستصبح أفضل سمات جمالها، وقد منحت مراقبة الآنسة روز الصارمة لهيكلها العظمي استقامةَ الرمح: كانت تجبرها على الحفاظ على استقامتها بوساطة قضيب حديديٍّ مشدود إلى ظهرها خلال ساعات التدريب اللامتناهية على البيانو والتطريز. لم تكبر كثيراً وحافظت على مظهرها الطفولي الخادِع، الذي أنقذ حياتها أكثر من مرّة. بدت من الطفولة في بلوغها بحيث استمرّت تنام منكمشة في سرير طفولتها محاطة بدُماها وهي ترضعُ إصبعها، وتُقلّد موقف جِرمي سومّرز النفور، لأنّها اعتبرته علامةَ قوّة داخلية. تعبت مع مرور السنين من التظاهر بالضجر، لكنَّ التدريب أفادها في السيطرة على مزاجها. تُساهم في مهمات الخدم: يوم لصنع الخبز، آخر لطحن الذرة، يوم لتشميس الفرش وآخر لغلي الثياب الداخلية. تقضي الساعات قابعةً خلف ستارة الصالة تلتهم أعمال مكتبة جِرمي سومّرز الكلاسيكية واحداً فواحداً، وروايات الآنسة روز الرومانسية والصحفَ المتأخرة وكلّ مقروء يقع بين يديها، مهما كان مزعجاً. استطاعت أن تجعل جاكوب تود يهديها واحداً من الكتب المقدّسة باللغة الإسبانية، حاولت فكّ رموزه بصبر هائل، لأنّ طفولتها كانت

باللغة الإنكليزية. غرقت في العهد القديم بذهول مرضيٍّ نظراً لرذائل وعواطف الملوكِ الذين يُغرون نساء الغير، الأنبياءِ الذين يُعاقِبون بأشعّة رهيبة والآباء الذين ينجبون من بناتهم. في غرفة المتاع المُشتَهلَك، حيث تراكم الأثاث القديم عثرت على خرائط، كتبِ رحلاتٍ، وثائق إبحار عمّها جون، التي أفادتها في التدقيق بأنحاء العالم. علّمها المربون الذين تعاقدت معهم الآنسة روز الفرنسيةَ، الكتابةَ والتاريخَ والجغرافيا وبعضَ اللاتينية، الكافية أكثر من كلّ ما كانوا يلقنونه للطالبات في أفضل مدارس الإناث في العاصمة، حيث أن الشيء الوحيد الذي كنّ يتعلمنه بعد كلّ حساب هو الصلوات وأصول اللياقة الجيّدة. القراءات غير المنظمة وحكايات القبطان سومّرز أطلقا العنان لخيالها. كان هذا العمّ البحّارُ يظهرُ في البيت بحمولة هداياه، مثيراً خيالها بحكاياته غير المعهودة عن الأباطرة الزنوج على عروش الذهب الخالص، عن القراصنة الماليزيين الذين يجمعون عيوناً بشريةً في صناديق اللؤلؤ، وعن أميراتٍ محروقات على محارق أزواجهنّ الشيوخ الجنائزية. كانت في كلّ زيارة من زياراته، تؤجِّل كلّ شيء، بدءاً من الفروض المدرسية وحتى دروس البيانو. تقضي العامَ في انتظاره ووضع الدبابيس على الخريطةِ متخيّلةً درجات العرض في أعالي البحار حيث تمضي سفينته. كانت إليثا قليلة الاحتكاك بربيباتها وتعيش في عالم بيتِ المحسنين إليها المغلق، بوهم أبدي مفاده أنّها لم تكن هناك بل في إنكلترا. أمّا جِرمي سومّرزُ فيوصي على كلِّ شيء من خلال قائمة المواد بدءاً من الصابون وحتى الأحذية مرتدياً ملابس خفيفة في الشتاء ومعطفاً في الصيف، لأنّه يتبع تقويم نصف الكرة الشمالي. كانت الطفلة تصغي وتراقب باهتمام، ولها مزاجٌ مرحٌ ومستقل، لا تطلب أبداً مساعدة من أحد وتمتلك خاصيّة الاختفاء إرادياً، ضائعة بين الأثاث والستائر وأزهار ورق الجدران. في اليوم الذي استيقظت وقميصها ملطخ بخلاصة حمراء ذهبت إلى الآنسة روز وأخبرتها بأنّها تنزف من الأسفل.

ـ لا تتكلّمي عن هذا مع أحد، فهو خاصّ جدّاً. صرتِ امرأة

وعليك أن تتصرّفي على هذا الأساس، انتهت الصبينات. حان الوقت كي تذهبي إلى مدرسة مدام كولبِرت للبنات ـ كان هذا كلّ ما شرحته لها أمّها بالتبني، والذي رشّته رشّاً دون أن تنظر إليها، بينما أخرجت من الخزانة بضع عشرة منشفة صغيرة كفكفت حواشيها بنفسها.

ـ الآن دُعِكتِ، يا صغيرة، سيتبدّل جسدُك، وستغيم أفكارك ويستطيع أيُّ رجلٍ أن يفعل بك ما يحلو له ـ حذّرتها فيما بعد ماما فرِسيا، التي لم تستطع إليثا أن تخفي عنها الخبر.

كانت الهندية تعرف أعشاباً قادرة على قطع الدفق الشهري للأبد، لكنّها امتنعت عن إعطائها لها خوفاً من سادتها. أخذت إليثا هذا التحذير مأخذ الجد وقرّرت أن تبقى يقظة كي تمنع وقوع النبوءة. شدّت جذعها بمئزر من الحرير، واثقة من أنّه إذا كانت هذه الطريقة فعّالة طوال قرون لتقليص حجم أقدام الصينيات، كما كان يقول عمّها جون، فإنّها لن تخطئ في محاولة فلطحة الثديين. كذلك عزمت على الكتابة؛ فقد رأت عمّتها روز تكتب لسنواتٍ في دفاترها، وافترضت أنّها تفعل ذلك لمحاربة لعنة الأفكار الغائمة. أمّا فيما يتعلّق بالقسم الأخير من النبوءة ـ ويستطيع أيُّ رجلٍ أن يفعلَ بك ما يحلو له ـ فلم تولهِ الأهميّة ذاتها، لأنّها ببساطة لم تكن قادرة على وضع نفسها في موضع أن يكون هناك رجال في مستقبلها. جميعهم كانوا شيوخاً أكبر منها بعشرين سنة على الأقل، فالعالم خالٍ من الذكور من جيلها. الوحيدان اللذان كانا يعجبانها كزوج هما القبطان جون سومّرز وجاكوب تود وكانا خارج نطاقها، لأنّ الأوّل كان عمّاً لها والثاني عاشقاً للآنسة روز، كما تعرفُ بالبارايسو كلّها.

بعد سنوات وحين تذكّرت طفولتها وشبابها، فكّرت إليثا بأنّ من الممكن للآنسة روز والسيد تود أن يشكّلا زوجين جيّدين، فهي تخفّفُ من خشونة تود وهو يخرجها من السأم، لكن الأمور جرت بطريقة أخرى. فمع تقلّب السنين حين سيسرّحان شعرهما الأشيب

ويجعلان من العزلة عادة طويلة، سيقعان في كاليفورنيا تحت ظروف غريبة، وسيعود هو ليغازلها بالحدّة ذاتها وستعود هي لترفضه بالعزم ذاته. لكن هذا ما حدث بعد ذلك بكثير.

لم يترك جاكوب تود فرصة للتقرّب من آل سومّرز تفوته، ولم يوجد زائر أكثر منه مواظبةً ودقّةً في المسامرات، ولا أكثر انتباهاً حين تغنّي الآنسة روز بترديدٍ قويّ، ولا من هو أكثر استعداداً للاحتفال بدعاباتها، بما فيها تلك التي تنطوي على شيء من القسوة التي كثيراً ما عذّبته بها. كانت شخصية مليئة بالتناقضات، لكن ألم يكن هو كذلك أيضاً؟ ألم يكن ملحداً يبيع الكتاب المقدّس ويغشّ نصف العالم بحكاية بعثة أنكليكانية مزعومة؟ كانت تتساءل لماذا لم تتزوّج إذا كانت بتلك الجاذبية؛ فالمرأة العازبة في عمرها ليس لها مستقبل ولا مكان في المجتمع. كانت تدور في الجالية الأجنبية شائعة عن فضيحة في إنكلترا منذ سنواتٍ مضت وهو ما يفسّر وجودها في تشيلي، متحوّلة إلى حاملة مفاتيح أخيها، لكنّه لم يحاول أن يتحقّق من التفاصيل قط، مفضّلاً اللغز على اليقين من شيءٍ ما كان ليستطيع التسامح معه، فيردّدُ: الماضي لا يهمّ كثيراً. كان يكفي خطأ واحد في الكتمان أو الحساب لتلطيخ سمعة المرأة ومنعها من تكوين حياة زوجية. إنّه سيمنح سنوات من عمره مقابل أن تتجاوب معه، لكنّها لم تُبدِ أيّة علامة تدلّ على أنّها ستتنازل أمام حصاره لها، وإن لم تكن تحاول إحباطَه. كانت تتسلّى بإطلاق العنان له ثمّ كبحه فجأة.

ـ السيّد تود طائر قبيح ومشؤوم، له أفكار غريبة، أسنان جواد ويدان مبلّلتان بالعرق. لن أتزوّج منه أبداً حتى ولو كان آخر عازب في العالم ـ اعترفت الآنسة روز لإليثا.

لم تستظرف الصغيرةُ التعليق. فهي مدينة لجاكوب تود، ليس لأنّه أنقذها في موكب مسيح أيّار وحسب بل أيضاً لأنّه سكت على

الحادث، كما لو أنه لم يحدث قط. لقد أحبّت هذا الحليف الغريب: له رائحة كلبٍ كبير، مثل العم جون. الانطباع الحسن الذي أحدثه لديها تحوّل إلى ودٍّ ووفاء حين سمعته مختبئة خلف ستارة القطيفة الخضراء الثقيلة يتكلّم مع جِرمي سومّرز.

ـ عليّ أن أتخذ قراراً بخصوص إليثا، يا جاكوب. فهي لا تملك أدنى فكرة عن موقعها في المجتمع. الناس بدأت تتساءل ولا شكّ أنها تتصوّر مستقبلاً ليس لها. ليس هناك ما هو أخطر من شيطان الخيال القابع في روح الأنثى.

ـ لا تُبالِغْ، يا صديقي. فإليثا ما زالت صغيرة، لكنّها ذكية وستعثر بالتأكيد على موقعها.

ـ الذكاء عثرة بالنسبة للمرأة. روز تريد إرسالها إلى مدرسة مدام كولْبِرت، لكنّني لست من أنصار تربية البنات إلى هذا الحد، إذ تصبح غير مطواعة. كل في مكانه، هذا هو شعاري.

ـ العالم يتبدّلُ، يا جِرمي. الرجالُ الأحرار في الولايات المتحدة متساوون أمام القانون. لقد أُلغيت الطبقات الاجتماعية.

ـ نحن نتكلّم عن النساء، وليس عن الرجال. الولايات المتحدة بلد تجّار وعمّال بلا تقاليد ولا معنى للتاريخ عندهم. المساواة غير موجودة في أيّ مكان، ولا حتى بين الحيوانات، خاصّة في تشيلي.

ـ نحن أجانب، يا جِرمي، لا نكاد نبربرُ بالقشتالية. ماذا تهمّنا الطبقات الاجتماعية التشيلية؟ لن ننتمي أبداً إلى هذا البلد...

ـ علينا أن نقدّم المثل الحسن. إذا لم نستطع أن نحافظ، نحنُ البريطانيين، على الترتيب في بيتنا فماذا يمكن أن يُنْتَظَرَ من الآخرين.

ـ إليثا ترعرعت في هذه الأسرة. لا أظنُّ أنّ الآنسة روز تقبل تحطيمها لمجرّد أنّها تكبر.

وهكذا كان. تحدّت روز أخاها بلائحة أمراضها الكاملة. في

البداية مغص ثمّ شقيقة مقلِقة ذهبت ببصرها بين ليلة وضحاها. دخل البيت خلال عدّة أيام في حالة من السكون: أُسدلت الستائر، صاروا يسيرون على رؤوس أصابعهم ويتكلّمون همساً. انقطعوا عن الطبخِ فيه لأنّ رائحة الطعام تزيد الأعراض. صار جِرمي سومّرز يأكل في النادي ويعودُ إلى البيت خائفاً، مشوّشاً كمن يزور مشفى. عمي روز والوعكات المتعدّدة وكذلك صمت مستخدمي البيت الماكر راحت تُلغّم على الفور قواه. وللطامّة الكبرى تحوّلت ماما فرِسيا، التي علمت بشكل غامض بنقاشات الأخوين الخاصّة، إلى حليفة رهيبة لسيّدتها. كان جِرمي سومّرز يعتبرُ نفسَه رجلاً مثقفاً وذرائعياً، عصيّاً على توعّد ساحرة مستطيرة من أمثال ماما فرِسيا، لكن ما أن أشعلت الهندية الشموع السوداء وأطلقت دخان المريمية في كلّ مكان بذريعة طرد البعوض حتى أغلق على نفسه بين المذعور والغاضب. يسمعها ليلاً تُجرجر قدميها الحافيتين بجانب بابه، تنشد بصوتٍ خفيض الرقى واللعنات. وجد يوم الأربعاء ضبّاً ميتاً في زجاجة براندي له، فقرّر التصرّف مرّة واحدة وللأبد. طرق باب أخته لأوّل مرّة وقُبِل في حرم الألغاز الأنثوية الذي كان يُفضِّلُ عدَمَ معرفته، تماماً كما لا يعرف صالة الخياطة، المطبخ، غرفة الغسيل ومقصورات العليّة، التي تنام فيها الخادمات وبيت ماما فرِسيا البائس في عمق الفناء. فعالمه كان القاعات والمكتبة برفوف خشب المُغنة المصقول مع الطاولة الفاخرة المحفورة وغرفة نومه المفروشة ببساطة إسبارطيّة، وغرفة صغيرة أرضها من البلاط الإيطالي لنظافته الخاصّة، حيث قرّر أن يضع ذات يوم مرحاضاً حديثاً كما في لائحة موادّ نيويورك، لأنّه قرأ أنَّ نظامَ النّونية وجمع الغائط البشري في قواديس لاستخدامه كسمادٍ مصدرُ أوبئة. كان عليه أن ينتظر اعتياد عينيه على العتمة بينما يستنشق مضطرباً خليطاً من رائحة أدوية وعطر فانيلا حاد. وروز لا تكادُ تُلمَحُ محدّدة ومعذّبة، مستلقية على ظهرها في سريرها دون وسادة، وقد صالبت يديها فوق صدرها كما لو أنّها تُمارس موتها، وبجانبها إليثا

تعصر قطعة قماشٍ مُبلَّلٍ بمنقوع الشاي الأخضر لتضعه على عينيها.

- اتركينا لوحدنا، يا صغيرة - قال جِرمي سومّرز جالساً على كرسيٍّ بجانب السرير.

قامت إليثا بانحناءة محتشمة وخرجت، لكنّها كانت تعرف نقاط ضعف البيت كما تعرف أصابعها واستطاعت أن تسمع الحوارَ، الذي كرّرته على ماما فرِسيا وسجّلته بعدها في يومياتها، واضعة أذنها على الجدار الرقيق الفاصل.

- حسناً يا روز. لا نستطيع أن نستمر في الحرب بيننا. لِنتَّفِق. ما الذي تريدينه؟ - سأل جِرمي المهزوم مسبقاً.

- لا شيء، يا جِرمي... - زفرت هي بصوت لا يكاد يكون مسموعاً.

- لن يقبلوا إليثا أبداً في مدرسة مدام كولبِرت، فهناك لا تذهب إلا بنات الطبقة الرفيعة والبيوت الراقية. الجميع يعلمون أنّ إليثا مُتَبنّاة.

- أنا آخذُ على عاتقي أمر قبولهم لها - صاحت هي بتأثّر غير متوقّع من مُحتَضَرة.

- اسمعيني، يا روز، إليثا لا تحتاج إلى تربية أكثر. عليها أن تتعلّم مهنة كي تكسب عيشها. ماذا سيحلّ بها عندما لن نكون نحن لنحميها.

- إذا تربّت جيّداً فستتزوّج جيّداً - قالت روز رامية منديل الشاي الأخضر على الأرض ومستوية في السرير.

- إليثا ليست جميلة تماماً، يا روز.

- أنت لم تنظر إليها جيّداً، يا جِرمي. إنّها تتحسَّنُ يوماً بعد يوم، ستكون جميلة، أؤكِّدُ لك ذلك. سيفيض عنها خاطبو ودّها.

- رغم يتمها ودون صداق؟

ـ سيكون لها صداقها ـ ردّت الآنسة روز خارجة من السرير تلمّساً وخاطية خطوات عمياء، شعثاء الشعر وحافية القدمين.

ـ كيف هذا؟ نحن لم نتكلّم بهذا قط...

ـ لأنّ الوقت لم يكن قد حان، يا جِرمي. إنّ فتاة بعمر الزواج تحتاج إلى مجوهرات، وصندوقٍ فيه ثياب كافية لعددٍ من السنين، وكلّ ما لا بدّ منه لبيتها، إضافة إلى مبلغ جيّد من المال يفيد الزوجين للشروع بتجارة ما.

ـ وهل يمكن أن نعرف ما هي مساهمة الخطيب؟

ـ البيت، ثمّ سيكون عليه أن يعيل المرأة بقيّة أيّامها. في جميع الأحوال ما زال أمام إليثا عدّة سنوات كي تصير في عمر الزواج، عندئذٍ سيكون لديها صداق. سنتحمّل أنا وجون مسؤولية منحه لها، ولن نطلب منك ريالاً واحداً. لكن ليس هناك ما يستحق إضاعة الوقت بالكلام عنه الآن. عليك أن تعتبر إليثا ابنة لك.

ـ ليست كذلك، يا روز.

ـ إذاً عاملها كما لو أنّها ابنة لي. هل أنت موافق على هذا على الأقل؟

ـ بلى، موافق ـ أذعن جِرمي سومّرز.

جاءت المنقوعات في النهاية بالمعجزة. تحسّنت المريضة كلّياً، استعادت بصرها خلال أربع وعشرين ساعة وتألّقت. عادت لتخدم أخاها بعنايةٍ ساحرة. وما كانت بمثل تلك العذوبة والبشاشة معه قط. عاد البيتُ إلى إيقاعه الطبيعي وخرجت من المطبخ إلى صالة الطعام صحون ماما فرِسيا الكروليوية اللذيذة، الخبزُ الفوّاح الذي تصنع عجينته إليثا وكذلك الحلوى الناعمة، التي طالما ساهمت في سمعة حسن ضيافة آل سومّرز. عدّلت الآنسة روز منذ تلك اللحظة من سلوكها الخاطئ تجاه إليثا بعنف تجلّى في تربية أمومية لم تبرهن عليها في إعدادها للمدرسة قط، بينما بدأت في الوقت ذاته حصاراً لا

يُقاوم على مدام كولبِرت. لقد قرَّرت أن يكون لإليثا دراستها وصدّاقها وسمعة لجمالها. حتى ولو لم تكن كذلك، لأنّ الجمال، حسب تأكيدها، مسألة أسلوب. فأيّة امرأة تتصرّف بثقة كبيرة بجمالها ستنتهي بإقناع العالم كلّه بأنّها كذلك. الخطوة الأولى لتحرير إليثا ستكون زواجاً جيّداً، نظراً لأنّ الفتاة ليس لها أخ يكون واجهةً لها، كما في حالتها ذاتها. فهي نفسها لم تكن ترى في الزواج فضيلة، فالزوجة ملكٌ للزوج بحقوق أقل من خادم أو طفل، ثمَّ إنّ امرأة وحيدة ودون ثروة ستكون عرضةً لأسوأ التماديات. باستطاعة امرأة متزوجة، إذا تمتّعت بالدهاء، أن تتحكّم بزوجها على الأقل، بل وبقليل من الحظ أن تترمل باكراً.

ـ أقدّم نصف حياتي مقابل أن يكون لي حريّة الرجل نفسها. الشيء الوحيد الذي نستطيعه هو أن نخرج بفائدة من القليل الذي عندنا.

لم تقل لها إنّها في المرّة الأولى التي حاولت فيها الطيران وحدها ارتطم أنفها بالواقع، لأنّها لم تكن تريد أن تغرس أفكاراً تمردية في ذهن الصغيرة. كانت مصمّمة على أن تمنحها مصيراً أفضلَ من مصيرها، تدرّبها على فن المداراة والمناورة والمكائد، لأنّها أكثر جدوى من السذاجة، فهي متأكِّدة من ذلك. صارت تحبسُ نفسها معها ثلاث ساعات صباحية وأخرى مثلها مسائية لدراسة النصوص المدرسية المستوردة من إنكلترا، كثّفت دراسة الفرنسية مع المدرّس، لأنّه ما من فتاة ذات تربية يمكنها جهل هذه اللغة. وكانت تراجع خلال بقية الوقت شخصيّاً كلَّ غرزة في جهاز عرسها، ملاحفها، مناشفها، مفارش سفرتها ولباسها الداخلي المطرّز بإتقان، تخبّئها فيما بعد في صناديق ملفوفة بالكتان ومعطّرة بالخزامى، تخرجان محتويات الصناديق كلّ ثلاثة أشهر وتنشرانها تحت الشمس، متجنبتان بذلك تخريب الرطوبة والعثّ لها خلال أعوام انتظار الزواج. اشترت صندوقاً صغيراً لمجوهرات الصدّاق وكلّفت أخاها جون بمهمّة ملئه بهدايا أسفاره. جمعت ياقوتاً أزرق من

الهند وزمرّداً وجمشتاً من البرازيل، أطواقاً وأساور من ذهب البندقية، بل ومشبكاً من الماس أيضاً. لم يعلم جِرمي سومّرز بالتفاصيل وبقي جاهلاً الطريقة التي يموّل بها أخواه تلك الترهات.

صارت دروس البيانو ـ التي أصبح يعطيها لها مدرّس وصل من بلجيكا ويستخدم سعفاً صغيراً يضرب به أصابع طلابه الثقيلة ـ عذاباً يومياً مضنياً لإليثا. كذلك صارت تذهب إلى أكاديمية لرقص الحجرة، وراحت الآنسة روز تجبرها باقتراح من معلّم الرقص على السير لساعات موازنة كتاباً على رأسها بهدف جعلها تنمو مستقيمة. كانت تنفّذ مهماتها، تقوم بتمارينها على البيانو وتسير باستقامة مثل شمعة وإن لم تكن تحمل الكتاب على رأسها، لكنّها تتسرّب ليلاً حافية إلى فناء الخدم وكثيراً ما كان يُباغتُها الفجر نائمة على خرقة تعانق ماما فرِسيا.

بعد عامين على الفيضانات تبدّل الحظ وتمتَّع البلدُ بطقس جيّدٍ. هدوء سياسيّ ورغدٍ اقتصاديّ. قلق التشيليون جدّاً، فهم معتادون على الكوارث الطبيعية، وطيبة الطبيعة إلى ذلك الحد يمكن أن تكونَ بالنسبة إليهم تحضيراً لطوفان أو زلزال أعظم. ثمّ إنّه تمّ اكتشاف مكامن ذهب وفضّةٍ غنيّة في الشمال. خلال الاحتلال، حين كان الإسبان يجوبون أمريكا بحثاً عن هذه المعادن حاملين معهم كلّ ما كانوا يعثرون عليه، كانت تشيلي تُعتبر ذيل العالم، لأنّها بالمقارنة بثروات بقيّة القارّة، لم يكن لديها مما يمكن أن تقدّمه إلاّ القليل. خلال الرحلة القسرية عبر جبالها الهائلة وصحراء شمالها القمريّة راح الجشعُ ينفد في قلب أولئك المحتلين، وإذا ما بقي شيءٌ منه، أخذ الهنود الحمر الجموحون على عاتقهم تحويله إلى ندم. كان القباطنة المنهكون والفقراء يلعنون تلك الأرض التي لا يبقى أمامهم من وسيلة فيها غير أن يغرزوا أعلامهم ويستلقوا ليموتوا، لأنّ العودة دون مجد كانت أسوأ. بعد ثلاثمئة عام جاءت هذه المناجم، المخفيّة عن عيون جنود إسبانيا الطامعين وظهرت فجأة بالسحر،

كمكافأةٍ غير متوقّعة لأحفادهم. تكوّنت ثروات جديدة، انضمّت إليها ثروات الصناعة والتجارة الأخرى. شعرت أرستقراطيّة الأرض التي أمسكت بالمقلاةِ من قبضتها دائماً بأنّها مهدَّدة في امتيازاتها، وانتقل ازدراء أثرياء الفاتورة الجدد ليصبح علامة تميّز.

عشق واحد من هؤلاء الأغنياء باولينا، الابنة الكبرى لأغوستين دِلْ بالْيِهْ. إنّه فِليثيانو رودريغِثْ دِ سانتا كروث، الذي نجح خلال سنوات قليلة بفضل منجم ذهب مستثمَر مناصفة مع أخيه. لم يكن يُعرف عن أصوله إلاّ القليل، باستثناء الشكّ بأنّ أسلافه كانوا يهوداً تحوّلوا إلى المسيحية، وكنيتهم الرنانة اتُّخِذَت لإبعاد شك محاكم التفتيش، وهو سبب أكثر من كافٍ كي يُرفَض كلّياً من قبل آل بالْيِهْ المتعجرفين. كان جاكوب تود يميّز باولينا من بين بنات أغوستين الخمس لأنّ طبيعتها الجريئة والمرحة تذكّره بالآنسة روز؛ فللشابة طريقة منفتحة في الابتسام تتناقض مع ابتسامة أخواتها المحجوبة خلف مراوحهنّ وطرحاتهن. وحين علمت بنيّة والدها بوضعها في ديرٍ مغلق لمنع غرامياتها، قرّر جاكوب تود، بعكس كلّ حكمة، مساعدتها. تدبّر أمره ، قبل أن يأخذوها، وتبادل معها عدّة جملٍ بغفلة من سيّدتها. ونظراً لوعيها بأنّها لا تملك وقتاً للتوضيح أخرجت باولينا من نحرها رسالة بدت، من كثرة ما طُويت وأُعيد طيّها، حجراً ورجته توصيلها إلى عاشقها. انطلقت الشابّة في اليوم التالي مخطوفة من بيت أبيها في رحلة لعدّة أيّام عبر طرقٍ مُحالة إلى كونثِبْثيون، مدينة في الجنوب قريبة من احتياطي السكان الأصليين، حيث ستقوم الراهبات بواجب إعادتها إلى صوابها من خلال الصلوات والصيام. أمر والدها بحلاقة رأسها كيلا يخطر للمغترية فكرة التمرّد أو الهرب. أخذت الأمُّ جدائلها، لفتها في قطعة من قماش الباتِستة المطرّز وحملتها هديةً لتقيّات كنيسة لا ماتريث لتصير شعراً مستعاراً للقدّيسين، ولم يتمكّن جاكوب تود خلال ذلك من تسليم الرسالة وحسب بل عرف أيضاً من أخوة الفتاة موقع الدير الدقيق، ومرّرَ المعلومةَ إلى المحزون فِليثيانو رودريغِثْ دِ سانتا

كروثْ، الذي خلع مشكوراً ساعة جيبه مع سلسالها الذهبيّ الخالص وأصرّ على إعطائها لرسول غرامياته المبارك، لكنّ هذا رفضها شاعراً بالإهانة.

ـ لا أعرف كيف أكافئك على ما فعلته ـ همس فِليثيانو مرتبكاً.

ـ ليس عليك أن تفعل.

بقي جاكوب تود زمناً طويلاً لا يعرف شيئاً عن الثنائي التعس، لكن خبر هرب الآنسة اللذيذ صار بعد شهرين حديثَ كل لقاء اجتماعي، ولم يستطع أغوستين المتفاخر منع الناس من إضافة تفصيلاتٍ أخرى غريبة ولفها بالسخرية. الرواية التي قدّمتها باولينا بعد أشهر لجاكوب تود أنّها استطاعت ذات مساء من مساءات حزيران الشتوية ذات المطر الناعم والعتمة المبكرة، أن تفلت من الرقابة وتهرب من الدير بلباس راهبة مستجدّة، حاملة شمعدان فضّة المذبح الأكبر. انتقل فِليثيانو رودريغِثْ دِ سانتا كروثْ بفضل معلومة من جاكوب تود إلى الجنوب واتصل بها منذ البداية سرّاً، منتظراً فرصة لقائها. كان ينتظرها في ذلك المساء على مسافة قصيرة من الدير وتأخّر عدّة ثوانٍ للتعرف على تلك المستجدّة نصف الصلعاء التي انهارت بين ذراعيه دون أن تُفلِت الشمعدان.

ـ لا تنظر إليّ بهذا الشكل، يا رجل، فالشعر ينمو ـ قالت له وهي تقبّله بملء فمها على فمه.

حملها فِليثيانو في عربة مغلقة عائداً بها إلى بالبارايسو. ووضعها مؤقتاً في بيت أمّه الأرملة، أكثر المخابئ التي استطاع تصوّرها احتراماً، بهدف حماية شرفها ما استطاع ذلك، وإن لم يكن هناك من طريقة تستطيع تجنيبهما وصمةَ الفضيحة. الاندفاع الأول لأغوستين كان مواجهة مُضلّل ابنته في مبارزة، لكنّه حين قرّر ذلك عرف أنّه يتابع تجارةٍ له في سانتياغو. عندئذ انهمك في العثور على باولينا، بمساعده أولاده وأحفاده المسلحين والعازمين على الانتقام لشرف الأسرة، بينما صلّت الأمّ والأخوات بصوتٍ واحدٍ

صلاة السبحة من أجل الابنة الضالّة. العمّ المطران، الذي نصح بإرسال باولينا إلى الراهبات، حاول أن يضع قليلاً من العقل في الرؤوس، لكنّ أولئك النماذج الفحوليين لم يكونوا جاهزين لخُطَبٍ مسيحيٍّ طيّب. كانت رحلة فِليثيانو جزءاً من استراتيجيّة وضعها مع أخيه وجاكوب تود. ذهب دون ضجيج إلى العاصمة بينما بدؤوا خطّة العمل في بالبارايسو، ناشرين في صحيفة ليبرالية خبر اختفاء الآنسة باولينا دِلْ بالْيِهْ، الخبر الذي عملت الأسرة جيّداً على عدم نشره. وهذا ما أنقذ حياة العاشقين.

قبِل أغوستين دِلْ بالْيِه أخيراً بأن الزمن لم يعد زمن تحدّي القانون، وأنّه من الأفضل غسل الشرف بعرس علنيّ بدل ارتكاب جريمة قتل مُضاعَفة. وُضِعَت أسس مصالحة قسرية ثمّ وبعد أسبوعٍ حين أصبح كلّ شيءٍ جاهزاً عاد فِليثيانو. مَثَل الهاربان في منزل آلِ دِلْ بالْيِه يرافقهما أخو العريس ومحامٍ والمطران. بقي جاكوب تود غائباً بفطنة. ظهرت باولينا في معطفٍ بسيط جدّاً، لكنّها حين خلعته وجدوا أنّها ترتدي ما تتحدى به إكليلَ مَلِكَة. تقدّمت مأخوذة من ذراع حماتها المستقبلية، المستعدة للذود عن فضيلتها لكنّهم لم يمنحوها الفرصة لذلك. وبما أنّ آخر ما كانت ترغب به الأسرةُ هو خبرٌ آخر في الصحيفة، لم يجد أغوستين دِل بالْيِهْ بُدّاً من استقبال ابنته المتمرّدة وطالبِ ودّها غير المرغوب فيه. فعل ذلك وهو محاط بأولاده وأحفاده في صالة الطعام، التي تحوّلت في تلك المناسبة إلى محكمة، بينما حُشِرَت نساء الأسرة الأخريات في الطرف الآخر من البيت يعلمن بالتفاصيل من خلال الخادمات، اللواتي كنّ يتلصّصنَ من خلف الأبواب ويجرين حاملاتٍ كلّ كلمة. قلنَ إنّ الفتاة مَثَلَتْ بكلِّ ذلك الماس المتلألئ بين شعر رأسها الواقف وواجهت والدَها دون أيّ ملمحِ تواضعٍ أو خوفٍ، معلنةً أنّها ما تزال تملك الشمعدان. والحقيقةُ أنّها أخذته كي تزعجَ الراهبات. رفع أغوستين دِلْ بالْيِهْ مقرعة للجياد، لكنّ الخطيب اعترضه ليتلقّى هو الضربة، وعندئذٍ تدخّلَ المطران، المنهك، لكن بثقلِ سلطته السليم وبالحجة التي

لاتدحض ومفادها أنّه لا يمكن أن يكون هناك زواج علنيّ لإسكاتِ الشائعات إذا كان وَجْها الخطيبين متورّمين.

- اطلب منهم أن يقدِّموا إلينا فنجان شوكولا، يا أغوستين لنجلس ونتكلّم كأناسٍ محتشمين - اقترح صاحبُ المقام الكنسي.

وهكذا فعلوا. أمروا الابنة وأرملة رودريغِثْ دِ سانتا كروث، أن تنتظرا في الخارج، لأنّها مسألة تتعلّق بالرجال، ثمّ توصّلوا إلى اتفاقٍ بعد أن استهلكوا عدداً من أباريق الشوكولا المزبدة. حرّروا وثيقةً وُضِّحت فيها الأهداف الاقتصادية وسلامة شرف كِلا الجانبين. وَقّعوا أمام الكاتب بالعدل وشرعوا بوضع تفاصيل العرس. وبعد شهر حضر جاكوب تود حفلة موسيقية راقصة لا تنسى طفح فيها كرم آل دِل بالْيِهْ الباذخ: كان هناك رقصٌ، غناءٌ وطعامٌ حتى اليوم التالي، وراح وآبَ المدعوون وهم يُعلّقون على جمال العروس وحظّ الحموين الذين يزوّجون ابنتهم من صاحب ثروة راسخة وإن كانت حديثة. أمّا الزوجان فانطلقا على الفور إلى شمال البلد.

سمعة سيّئة

أسِفَ جاكوب تود لرحيل فِليثيانو وباولينا، فقد أقام علاقة صداقة جيّدة مع مليونير المناجم وزوجته النبيهة. كان يشعر بنفسه واسعَ الحريّة مع ربي العمل الشابين كما بدأ يشعر بالانزعاج بين أعضاء *نادي الوحدة*. فالصناعيون الجدد حديثون وليبراليون ومشبعون بالأفكار الأوروبية، على العكس من الأقلية الإقطاعية السابقة التي بقيت متخلفة نصف قرن. كان مايزال عنده مئة وسبعون نسخة من الكتاب المقدّس موضوعة تحت السرير، لا يتذكّرها لأنّه خسر الرهان منذ زمن. استطاع أن يتقن الإسبانية بما يكفي كيلا يحتاجِ لمساعدة في تدبّر أمره، ومع أنّه لم يلقَ تجاوباً إلا أنّه بقي عاشقاً لروز سومّرز، وهما سببان كافيان لبقائه في تشيلي. تحوّلت فظاظةُ الشابة المستمرّة إلى عادة لطيفة وما عاد باستطاعتها أن تهينه. تعلّم تلقيها بسخرية وردّها إليها دون خبث مثل لعبة كرة وحدهما يعرفان قواعدها. اتصل ببعض المثقفين ليقضي ليالٍ بطولها يناقش معهم الفلاسفة الفرنسيين والألمان وكذلك الاكتشافات العلمية التي تفتح آفاقاً جديدة أمام المعرفة الإنسانية. كان يملك ساعات طويلة للتفكير والقراءة والمناقشة. راح يُثني على أفكارٍ يسجّلها في دفتر سميك تالف من الاستعمال، وينفق قسماً جيّداً من المال على كتب يطلبها من لندن وأخرى يشتريها من مكتبة سانتوس تورنِرو، في حي إلْ ألمنْدرال حيث كان يعيش الفرنسيون أيضاً ويوجدُ أفضل ماخور في بالبارايسو. كانت المكتبة نقطة

التقاء المثقفين والطامحين والكتّاب. اعتاد تود على قضاء أيام بكاملها في القراءة، يسلّم بعدها الكتبَ إلى رفاقه الذين يترجمونها بشكل بائس وينشرونها في نشرات متواضعة تدور من يدٍ إلى أخرى.

كان خواكين أنديِتَا أفتى مجموعة المثقفين، لا يكادُ يكمل الثامنة عشر عاماً، لكنّه يغطي على عدم تجربته بنزعة قياديّة طلقة. بل وإنّ شخصيّته المثيرة تبدو أكثر بروزاً نظراً لفتوّته وفقره. لم يكن خواكين هذا رجلاً كثير الكلام، بل عملياً، واحداً من القلائل الذين يملكون الوضوح والجرأة الكافيتين لتحويل أفكارِ الكتب إلى دافع ثوريّ، بينما الآخرون يفضلون مناقشتها إلى ما لانهاية وهم متحلقون حول زجاجةٍ خمر في القسم الخلفيّ من المكتبة. ميَّز تود أنْديِتا منذ البداية فهو يملك شيئاً مقلقاً ومؤثّراً جذبَه إليه. لاحظ حقيبته التالفة وقماش بزّته البالي، الشفاف والمهترئ مثل قشرة البصل. لم يكن يضع رجلاً فوق رجلٍ كي يخفي فجوات نعل جزمته، كما أنّه لم يخلع سترته قط، لأنّ قميصه، حسب ما كان تود يتباهى، لا بدّ مغطى بالرفء والرقع. لم يكن لديه معطفٌ لائق، ومع ذلك فهو أوّل من يبكّر للخروج شتاءً لتوزيع المنشورات ولصق اللافتات داعياً الشغيلة إلى التمرّد على تمادي أصحاب العمل، أو البحارةَ للتمرّد ضدّ القباطنة والشركات البحرية، وهو العمل غير المجدي عادة لأن المخصوصين في غالبيتهم أميُّون. بقيت دعوته للعدالة في مهب الريح واللامبالاة الإنسانية.

اكتشف جاكوب تود من خلال استقصاءات حذرة أنّ صديقه كان مستخدماً في *شركة الاستيراد والتصدير البريطانية*؛ يُسجّل مقابل راتب بائس وساعات عمل مُضنية الموادّ التي تمرّ بمكتب الميناء. كما كان مطالَباً بقبّةٍ منشّاةٍ وحذاء لامع. يقضي حياته في صالة بلاتهوية وسيّئة الإضاءة، حيث تصطفّ المكاتب الواحد بعد الآخر حتى اللانهاية وتتكدّس رزم ودفاتر سميكة يعلوها الغبار لايراجعها أحد خلال سنوات. سأل تود جرمي سومّرز عنه، لكنّ هذا لم يعرفه، لاشكّ، قال، إنّه يراه يومياً، لكنّه لا يقيم علاقة شخصيّة مع مرؤوسيه

ونادراً ما يستطيع أن يعرفهم بأسمائهم. عبر قنواتٍ أخرى عرف أنّ أنْديِتا كان يعيش مع أمّه، لكنّه لم يستطع أن يعرف شيئاً عن الأب، فافترض أنّه بحّار عرضيّ والأم من أولئك النسوة الشقيات اللواتي لا يدخلن في أيّة طبقة اجتماعية، ربّما لقيطة أو مُنكَرَة من أسرتها. كانت لخواكين أنديتا ملامح أندلسية وملاحة رجولةِ مصارعِ ثيرانٍ شاب؛ كلّ ما فيه يدل على العزيمة، اللدانة، والتحكّم؛ فحركاته دقيقة، ونظرته ثاقبة وكبرياؤه مؤثّر. كان يعارض مثالية تود الطوباوية بإحساس حجريّ بالواقع. فتود يطالب بخلق مجتمع مشترك، خالٍ من الرهبان والشرطة، يحكمه ديمقراطياً قانون أخلاقيّ وحيد لا محيص عنه.

ـ أنت في القمر، يا سيّد تود. عندنا الكثير مما يتوجّب عمله، وعلينا ألاّ نضيع الوقت في مناقشة أوهام ـ كان خواكين أنديِتا يُقاطِعه.

ـ لكن كيف سنخلق المجتمع الكامل إذا لم نبدأ بتخيّله؟ ـ يردّ الآخر رافعاً دفتره، الذي يزداد حجماً، وقد أضاف إليه مخطّطات مدنٍ طوباوية يزرع فيها كلّ مواطن غذاءه والأطفال يترعرعون مُعافين وسعداء ترعاهم الجماعة، فبانتفاء الملكية الخاصّة تنتفي المطالبة بملكية الأولاد.

ـ علينا أن نحسّن الكارثة التي نعيشُ فيها. أول ما يجب عمله هو ضمّ الشغيلة والفقراء والهنود الحمر، منح الأرض للفلاحين وتقليص سلطة الرهبان. من الضروري تغيير الدستور، يا سيّد تود. هنا لا يُصوِّتُ إلاّ الملاّك، أي أنّ الأغنياء يحكمون. الفقراء ليسوا في الحسبان.

كان جاكوب تودْ يتصوّرُ في البداية طرقاً مُختلفَة لمساعدة صديقه، لكنّه اضطرّ للتراجع لأنّ مبادراته تسبّب له الإهانة. كلّفه ببعض الأعمالِ كي يملك حجّة لمنحه نقوداً، فينفّذُ أنديِتا عمله بضمير ويرفضُ بعدها كلّ طريقة للدفع. إذا قدّم له تود تبغاً، كأس براندي أو مظلّته في ليلة عاصفة، جاءت ردّة فعل أنديِتا صلِفة باردة، تاركاً الآخر مرتبكاً وأحياناً مُهاناً. لم يذكر الشاب حياته

الخاصّة أو ماضيه قطّ، إذ يبدو أنّه يتجسّد قليلاً ليشارك لساعاتٍ في الأحاديث الثورية أو القراءات الحماسية في المكتبة، قبل أن يتحّول إلى دخان في نهاية هذه السهرات؛ ولم يكن عنده نقود ليذهب مع الآخرين إلى الحانة كما لم يكن يقبل دعوة لا يستطيع أن يردّها.

وذات ليلة لم يستطع تود تحمّل الشكّ زمناً أطول فلحق به عبر متاهة شوارع الميناء، حيث يستطيع الاختفاء في عتمة البوابات ومنعطفات تلك الأزقة الاعتباطية، الملتوية عن عمد لمنعِ الشيطان من الدخول إليها. رأى خواكين أنذيِتا يشمّر بنطلونه، يخلع حذاءه، يلفه بورقة صحيفة ويخبّئه بحذرٍ في حقيبته المهلهلة التي أخرج منها شبشباً فلاحيّاً لينتعله. لم يكن يوجد في مثل تلك الساعة المتأخرة إلا بعض الأرواح القليلة الهائمة والقطط الشاردة تعبثُ في القمامة. تقدّم تود، الذي شعر بنفسه مثل لصّ في الظلمة يكاد يطأ على أعقاب صديقه، ويستطيع سماع لهاثه وحركة يديه اللتين كان يفركهما دون انقطاع كي يقاوِم لسع الريح الصرصر. قادته خطواته إلى بيت صغير، مدخله إحدى تلك الأزقة التقليدية في المدينة. نتن بولٍ وبراز صفعه في وجهه، فنادراً ما تمرُّ شرطة الصحّة العامّة بخطافاتها الطويلة لفتح المجارير المسدودة في هذه الأحياء. تفهّم حرص أنذيِتا على خلع حذائه: لم يكن يعلم ما يطأ، فقدماه تغوصان في سائل لزج نتنٍ. في الليل الذي لا قمر فيه كان النور النادرُ يتسرّبُ من خلال درفات نوافذ مخلّعة، معظمها بلا زجاج سدّت بالكرتون أو ألواح الخشب. ويمكن لمحُ ما في داخل الغرف البائسة المنارة بالشموع. السحابة الناعمة تضفي على المشهد جوّاً خيالياً. رأى خواكين أنذيِتا يُشعلُ عودَ ثقاب، يحميه من النسمة بجسده، يخرج مفتاحاً ويفتح باباً تحت نور اللهب المرتعش. هذا أنتَ، يا بُني؟ سمع بصفاء صوتاً أنثوياً، أكثر وضوحاً وشباباً ممّا توقّع. أغلق البابُ على الفور. مكث تود وقتاً طويلاً في الظلمة يراقب البيت البائس ورغبة تنتابه بقرع الباب، الرغبة التي لم تكن مجرّد فضول، بل عاطفة جامحة تجاه صديقه. ويحي، هاأنا أتحوّل إلى أبله، تمتم أخيراً. دار نصف دورة وعاد إلى *نادي الوحدة* ليتناول جرعة ويقرأ

الصحفَ، لكنّه ندم قبل وصوله، فهو غير قادرٍ على مواجهة التناقض بين الفاقة التي خلّفها توّاً وراءه وهذه الصالات بأثاثها الجلدي وثرياتها البلورية. عادَ إلى غرفته، توُجّجه نار شفقة شبيهة بتلك الحرارة التي أصابته خلال أسبوعه الأوّل في تشيلي.

هكذا كانت الأشياء في نهاية 1845 ، حين عينّ أسطولُ بريطانيا العظمى البحري التجاري قسيساً في بالبارايسو لرعاية حاجات البروتستانتيين الروحية. وصل الرجل مستعدّاً لتحدّي الكاثوليكيين، وبناء معبد أنكليكاني لإعطاء أخويته دفعاً جديداً. كان عمله الرسمي الأوّل هو فحص حسابات المشروع التبشيري في (أرض النار) تْييرّا دِلْ فْوِغو، الذي لم تُلمح نتائجه في أيّ مكان. جعل جاكوب تود أغوستين دِلْ بالْيِهْ يدعوه إلى الريف بهدف منح القس وقتاً كي يفرّغ شحناته، لكنّه عندما عاد بعد أسبوعين وجد أنّ القسَّ لم ينسَ المسألة. عثر تود لزمنٍ على حججٍ جديدة لتجنّبه، لكنّه اضطرّ أخيراً لمواجهة مستشار قانوني ثمّ لجنةً من الكنيسة الأنكليكانية. وتورّط في توضيحاتٍ صارت أكثر وهمية حين راحت الأرقامُ تُثبتُ الاختلاسَ باضطرادٍ وبجلاء ساطعٍ. أعاد الأموال المتبقيّة في الحساب، لكنّ سمعته تعرّضت إلى صفعة قاسية. انتهت بالنسبة إليه مسامرات أيام الأربعاء في بيت آل سومّرز وما عاد هناك من يدعوه من الجالية الأجنبية؛ يتفادونه في الشارع والذين لهم معه تجارة أنهوها. طالَ خبرُ الخدعةِ أصدقاءه التشيليين، الذين اقترحوا عليه بطريقةٍ حذرةٍ لكن بعزمٍ ألاّ يعودَ للظهور في *نادي الوحدة* إذا أراد تفادي التعرّض لمذلّة الطرد. لم يقبلوه بعدها في ألعاب المضرب أو في مشرب الفندق الإنكليزي، وسرعان ما وجد نفسه معزولاً، حتى أصدقاؤه الليبراليون أداروا له ظهورهم. أسرة دِل بالْيِه بكاملها أحجمت عن تحيته، باستثناء باولينا، التي حافظ تود على تواصل بريدي متباعد معها.

كانت باولينا قد أنجبت ولدها الأول في الشمال وتبدي في رسائلها رضاها عن حياتها الزوجية. فلِيثيانو رودريغث دِ سانتا

كروث الذي راح يزداد ثروةً، حسب ما يقوله الناس، كان زوجاً قلّ مثيله، مقتنعاً بأنّ المهارة التي برهنت عليها باولينا حين فرّت من الدير ولوت ذراعَ أسرتها لتتزوّج منه يجب ألا تذوب في المهمات المنزلية، بل أن يستفيد منها لمصلحتهما معاً. زوجته المتربية كآنسة، ولا تكاد تعرف القراءة والجمع، طوّرت ولهاً حقيقياً بالتجارة. في البداية استغرب فِليثيانو هذا اهتمامها بالاستقصاء عن تفاصيل عملّية الحفر ونقل المعادن، صعود وهبوط البورصة التجارية، لكنّه سرعان ما تعلّم احترام حدس زوجته الخارق. فهو باتباع نصائحها وبعد سبعة أشهر من زواجهما حقّق فوائد كبيرة بالمضاربة بالسكّر. كرّمها ممتنّاً بطقم شاي من الفضّة المشغولة في البيرو، يزن تسعة عشر كيلو غراماً. رفضت باولينا، التي لا تكاد تستطيع التحرّك بكتلة ابنها الأوّل الكثيفة في بطنها، الهديّة دون أن ترفع نظرها عن الخف الذي تنسجه.

ـ أُفضّل أن تفتح لي حساباً باسمي في أحد بنوك لندن وأن تضع فيه عشرين بالمئة من الأرباح التي أحقّقها لك.

ـ لماذا؟ ألا أعطيك كلَّ ما ترغبين وأكثر بكثير؟ ـ سأل فِليثيانو مهاناً.

ـ الحياةُ طويلة ومليئة بالمخاوف. لا أريد أبداً أن أصبح أرملة فقيرة خاصّة وأنّ لديَّ أولاداً ـ وضّحت متلمّسةً بطنها.

خرج فِليثيانو صافقاً البابَ، لكنّ شعوره النقيّ بالعدالة كان أقوى من تعكر مزاجه كزوج مُتَحَدّى، ثمّ إنّ هذه العشرين بالمئة ، قرّرَ، ستكون حافزاً قويّاً لباولينا. عمل ما طلبته رغم أنّه ما سمع قط عن امرأة متزوّجة لها مالها الخاصّ. إذا كانت الزوجة لا تستطيع أن تنتقل بمفردها، أو توقّع وثائق شرعية، أو تلجأ إلى العدالة، أو تبيع أو تشتري دون تفويض من زوجها، فهي لن تستطيع التصرّفَ بحساب مصرفي واستخدامه على هواها. سيكون من الصعب توضيح ذلك للمصرف وللشركاء.

ـ تعال معنا إلى الشمال فالمستقبل للمناجم وتستطيع أن تبدأ

هناك من جديد ـ اقترحت باولينا على جاكوب تود، حين علمت خلال إحدى زياراتها القصيرة إلى بالبارايسو أنّه وقع في كارثة.

ـ وماذا سأفعل هناك، يا صديقتي؟ ـ همس الآخر.

ـ تبيع نسخ كتابك المقدّس ـ سخرت باولينا، لكنّها سرعانٍ ما تأثّرت لحزن الآخر السحيق وقدّمت له بيتها وصداقتها وعملاً في مكاتب الزوج.

لكنّ تود كان محبطاً من سوء حظّه وخزيه العام، ولم يجد لديه القوّة للبدء بمغامرة أخرىٍ في الشمال. فالفضول والقلق اللذان شكّلا دافعاً له في الماضي حلَّ محلّهما الآن الهوس باستعادة السمعة الطيبة الضائعة.

ـ أنا مهزوم، يا سيّدتي، ألا ترين؟ إنّ رجلاً بلا شرفٍ رجلٌ ميتٌ.

ـ تبدّلت الأيّام ـ واسته باولينا ـ سابقاً كان شرفُ المرأة المثلوم لا يُغسَلُ إلاّ بالدم. لكن، ها أنت ترى، يا سيّد تود، في حالتي غُسِلَ بإبريق من الشوكولا. وشرف الرجال أكثر مقاومة بكثير من شرفنا. لا تقنط.

أراد فِليثيانو رودريغِثْ دِ سانتا كروث، الذي لم ينس تدخّله زمن غرامياته الخائبة مع باولينا، أن يقرضه مالاً كي يعيد حتى آخر سنتيم أموال البعثات التبشيرية، لكنّ تود بين خيار أن يكون مديناً للصديق أو للقسيس البروتستانتي فضّل الخيار الثاني، لأنّ سمعته كانت على كلّ الأحوال مدمّرة. لكنّه اضطرّ أخيراً أن يودّع القطط والحلوى، لأنّ الأرملة الإنكليزيّة صاحبة النزل طردته بسلسلة لا متناهية من التوبيخ واللوم. فالمرأة الطيّبة كانت قد ضاعفت من جهودها في المطبخ لتمول نشر عقيدتها في تلك المناطق ذات الشتاء الراسِخ، التي تعوي فيها ريح شبحية ليلاً ونهاراً، كما كان يقول جاكوب تود، وقد أسكره البيان. حين علِمت بما حلَّ بوفوراتها على يد المبشر الزائف أخذها غضب عادل فطردته من بيتها. استطاع بمساعدة من خواكين أنذْيِتا، الذي بحث له عن مأوى آخر، أن ينتقل

إلى غرفة صغيرة، تُطلُّ على البحر في أحد الأحياء المتواضعة في الميناء. كانت ملكية البيت تعودُ إلى أسرة تشيلية ليس عندها تطلعات الأخرى الأوروبية. بدا بناءً قديماً، من الطوب المطليّ بالكلس وسطحه من القرميد الأحمر، مؤلف من إيوان في المدخل وغرفة كبيرة تكاد تكون خالية من الأثاث تستخدم كصالةٍ وغرفةِ طعام ونومٍ للأبوين، ثم غرفة أصغر بلا نوافذ ينام فيها جميع الأطفال، وأخرى في العمق يؤجرونها. بينما المالك يعمل معلّماً للأطفال وتساهم زوجته في الميزانية من خلال الشموع اليدوية التي تصنعها في المطبخ. كان البيتُ متشرّباً برائحة شمع يشعر بها تود باشمةً في كتبه وثيابه وشعره بل وحتى في روحه، دخلت تحت جلده إلى حدّ أنّها بقيت تفوح منه تلك الرائحه حتى بعد سنوات كثيرة على الجانب الآخر من العالم. صار لا يتردّد إلاّ على الأحياء المنخفضة من الميناء، حيث لاأحد تهمّه سمعة غريبٍ بائسٍ أحمرّ الشعر ، سيّئة كانت أم حسنة؛ يأكل في مطاعم الفقراء ويقضي أياماً بكاملها مع الصيادين، منهمكاً بالشباك والزوارق. أفادته التمارين الرياضية فقد مكّنته من نسيان كبريائه المثلوم. وحده خواكين أنديِتا واصل زيارته. كان يحبسان نفسيهما ويتناقشان في السياسة ويتبادلان النصوص الفلسفيّة، بينما يتراكض أولاد المعلّم وتطفو رائحة الشمع مثل خيط من ذهب ذائب على الطرف الآخر من الباب. لم يشِر خواكين أنديِتا إلى أموال البعثة التبشيرية قط ، وإن كان لا يمكن أن يجهله، نظراً لأنّ الفضيحة جرت بصوت عال طوال أسابيع. وحين حاول تود أن يوضّح له أنه لم ينوِ السطو قط وأنّ كل شيء جاء بسبب رأسه السيئ في الأرقام وفوضاه التي يُضرب بها المثل وحظّه السيئ، رفع خواكين أنديِتا إصبعه إلى فمه في إشارة عالمية للصمت. وبدافع خزي وتأثّرٍ عانقه جاكوب تود بارتباك فضمّه الآخر لحظةً، لكنّه سرعان ما انفصل عنه بفظاظة وقد احمرَّ حتى أذنيه. تراجع الاثنان دفعة واحدة مذعورين دون أن يفهما كيف اخترقا قاعدة أساسية في السلوك تمنع الاحتكاك بين جسدي رجلين إلاّ في المعارك والرياضات القاسية. راح الإنكليزي يضيع اتجاهه خلال الأشهر اللاحقة، أهمل مظهره هائماً بذقن لم تُحلق منذ عدّة أيامٍ، تفوح منه

رائحة الشمع والكحول. حين يتجاوز الحد في شرب الجنّ كان يهذي كالممسوس ضدّ الحكومات والأسرة المالكة الإنكليزية، العسكر والسياسيين، نظام الامتيازات الطبقية، الذي يقارنه بنظام السلالات في الهند والدين بعامة والمسيحية بخاصّة.

ـ عليك أن تذهب من هنا، يا سيّد تود ـ أنت تُجّنَ ـ تجرّأ خواكين أنذيتا على القول له ذات يوم حين أنقذه في إحدى الساحات عندما أوشكت الشرطة على حمله.

هكذا تماماً وجده القبطان جون سومّرز الذي هبط من سفينته في الميناء منذ عدّة أسابيع يخطب مثل مجنون في الشارع. كانت سفينته قد تعرّضت لصدمات كثيرة أثناء عبورها كابو دِ هورنوس مما اضطرها للخضوع إلى عمليات إصلاح طويلة. كان جون سومّرز قد قضى شهراً كاملاً في بيت أخويه جِرمي وروز؛ مما دفعه للبحث عن عملٍ في واحدة من تلك البواخر الحديثة التي تعمل على البخار فور عودته إلى إنكلترا، لأنّه لم يكن مستعداً لتكرار تجربة الوقوع في قفص الأسرة. صحيح أنّه يحبّهم لكّنه يفضّل ذلك عن بُعد. رَفَض السفن البخارية حتى ذلك الوقت لأنّه لم يستطيع تصوّر مغامرة البحر دون تحدٍّ للأشرعة والطقس، التي تبرهن على محتِد القبطان الجيّد، لكنّه اقتنع أخيراً أنّ المستقبل للمراكب الجديدة، الأكبر والأكثر أماناً وسرعة. وحين انتبه إلى أنّه يفقد بعضاً من شعره عزا ذلك إلى حياة القعود. سرعان ما أثقل عليه السأم مثل درعٍ فراح يهرب من البيت ليتنزّه في الميناء قلقاً مثل حيوان ضار مُحاصَر. انتبه جاكوب تود إلى القبطان فخفضَ جانب قبّعته وتظاهر بأنّه لم يره كي يتفادى إذلال إهمالٍ آخر، لكنّ البحّار استوقفه فجأةً وحيّاه بربتاتٍ مؤثّرة على كتفيه.

ـ تعال نشرب بعض الجرعات، يا صديقي! ـ وجرّه إلى بار قريب.

تبيّن أنّ المكان واحد من زوايا الميناء المعروفة بين أبناء الأبرشية بمشروبها المحترَم، حيث يقدّمون صحناً وحيداً له شهرة مستَحقّة: حنكليس مقلي مع البطاطا وسلطة البصل النيئ. شعر تود،

الذي اعتاد أن ينسى الأكل في تلك الأيام التي عانى فيها من عوز ماليّ دائم، برائحة الطعام الشهية فظنّ أنّه سيُغشى عليه. موجة من الامتنان والمتعة بلّلت عينيه. أشاح جون سومّرز بصره عنه أدباً حين راح الآخرُ يلتهم حتى آخر فتات في الصحن.

ـ لم أستحسن فكرةَ البعثات التبشيرية بين الهنود الحمر قط ـ قال تماماً حين بدأ تود يسأل ما إذا كان قد عرف بالفضيحة المالية ـ هؤلاء الناس المساكين لا يستحقون مأساة التنصير. ماذا تفكّر أن تفعل الآن؟

ـ أعدت ما كان قد بقي معي من الحساب، لكّنني ما زلت مديناً بمبلغ مهم.

ـ وليس عندك من طريقة لدفعه أليس كذلك؟

ـ آنيّاً لا، لكن...

ـ لكن لا شيء، يا رجل. لقد منحت هؤلاء المسيحيين الطيبين ذريعة ليشعروا بأنفسهم أنهم فضلاء والآن منحتهم دافعاً للفضيحة لبعض الوقت. التسلية جاءتهم رخيصة. حين سألتُك ماذا تفكّر أن تفعل كنت أعني مستقبلك، وليس ديونك.

ـ ليس لديّ مشاريع.

ـ عُدْ معي إلى إنكلترا. لا مكان لك هنا. كم أجنبياً في هذا الميناء؟ أربعة حقراء يعرفون بعضهم بعضاً. صدّقني لن يتركوكَ بسلام. بينما تستطيع أن تضيع بين الحشود في إنكلترا.

بقي جاكوب تود ممعناً النظرَ في قاع كأسه، تعلوه ملامح هي من القنوط بحيث جعلت القبطان يُطلق واحدة من قهقهاته.

ـ لا تقلْ لي إنّك ستبقى هنا من أجل أختي روز!

كانت حقيقة. فالجحود العام كان من الممكن أن يصبح أكثر احتمالاً بالنسبة إلى تود لو أنّ الآنسة روز برهنت على حدّ أدنى من الوفاء أو التفهّم، لكنّها رفضت استقباله وأعادت إليه الرسائل التي حاول من خلالها أن ينظّف سمعته. لم يعرف أن رسائله لم تصل إلى

وجهتها قط لأنّ جرمي سومّرز الذي خرق اتفاقية الاحترام المتبادل مع أخته كان قد قرّر حمايتها من قلبها الطيّب ذاته، ومنعها من ارتكاب حماقة أخرى يصعب إصلاحها. كذلك جون ما كان يعرف، لكنّه تنبّأ باحتياطات جِرمي وخلص إلى أنّه من الممكن أن يكون قد فعل الشيءَ ذاته في مثل تلك الظروف. إن فكرة أن يرى بائع الكتاب المقدّس المحزن يتحوّل إلى متطلّعٍ ليد أخته روز بدت له مشؤومة: لمرّة واحدة اتفق تماماً مع جِرمي.

- أإلى هذا الحد كانت واضحة نواياي تجاه الآنسة روز؟ - سأل جاكوب تود منزعجاً.

- لنقل إنّها لم تكن سرّاً، يا صديقي.

- أخاف ألا يكون أمامي أدنى أملٍ بقبولها لي ذات يوم...

- أنا أيضاً أخاف هذا.

- هل تصنع معي المعروف العظيم وتتدخل باسمي أيّها القبطان؟ لو تستقبلني الآنسة روز لمرّة واحدة؛ على الأقل، أستطيع أن أوضّح لها...

- لا تعتمد عليّ لأعمل قوّاداً، يا سيّد تود. لو أنّ روز تجاوبت مع مشاعرك، لعرفت بذلك. أختي ليست حييّة أؤكّد لك. أكرِّر عليك، يارجل، الشيء الوحيد الذي بقي لك هو أن تذهب من هذا الميناء اللعين. ستتحوّلُ هنا إلى شحّاذٍ. سفينتي ستنطلق خلال ثلاثة أيّام باتجاه هونغ كونغ ومن هناك إلى إنكلترا. ستكون رحلة العبورُ طويلة، لكنّك لستَ مستعجلاً. فالهواء العليل والعمل القاسي علاج صائب لحماقة الحب. أقوله لك أنا، الذي أعشق في كلّ ميناء امرأة وأتعافى ما أن أعود إلى البحر.

- ليس معي نقود للتذكرة.

- سيكون عليك أن تعمل كبحّار وتلعب معي في المساءات بالورق. إذا لم تنس حيل المقامر الغشاش التي كنت تعرفها حين جئتُ بك إلى تشيلي منذ ثلاث سنوات، بالتأكيد سوف تفقرني خلال الرحلة.

بعد أيّام قليلة أبحر جاكوب تود وهو أكثر فقراً مما كان حين وصل. الوحيد الذي رافقه إلى الميناء هو خواكين أنديِتا، الشاب الكئيب الذي طلب أذناً من عمله ليغيب لمدّة ساعة. ودّع جاكوب تود بشدَّةٍ قويّة من يده.

ـ سنعود ونلتقي، يا صديقي ـ قال الإنكليزي.

ـ لا أظنُّ ـ أجاب التشيلي، الذي كان لديه حدس أكثر وضوحاً بالمستقبل.

طالبو الودّ

بعد عامين من مُغادَرة جاكوب تود، حدث التبدّل النهائي عند إليثا سومّرز. فمن حشرة ناحلة في الطفولة تحوّلت إلى فتاةٍ ناعمة الملامح، كيّسةَ الوجه. قضت سنوات البلوغ الكريهة تحت وصاية الآنسة روز تؤرجِح كتاباً فوق رأسها، تدرس البيانو، تزرع الأعشاب المحلية في بستان ماما فرِسيا وتتعلّم في آنٍ معاً الوصفات القديمة لعلاج أمراض معروفة وأخرى في طريقها لتُعرف. بما في ذلك الخردل من أجل عدم المبالاة بالمسائل اليومية، وورق الأورتِنسيا لإنضاج الأورام واستعادة الضحكة، البنفسج لتحمّل الوحشة وحشيشة الأوجاع التي تتبل بها حساء الآنسة روز، لأنّ هذه العشبة النبيلة تعالج فظاظة أصحاب المزاج السيئ. لم تستطع الآنسة روز تخليصَ محميتها من الاهتمام بالمطبخ فأذعنت أخيراً لرؤيتها، تُضيّع الساعات الثمينة بين قدور ماما فرِسيا السوداء. فهي تعتبر المعرفة المطبخية مجرَّد زينة في تربية البنت، لأنّهم كانوا يؤهلونها لتعطي الأوامر للخدم، تماماً كما تفعل هي، لكن بين هذا وبين أن توسِّخ نفسها بالطشوت والمقالي مسافة كبيرة. فالآنسة لا يمكن أن تصدر عنها رائحة ثوم وبصل، لكنّ إليثا كانت تُفضّل العملَ على النظريّة وتلجأ إلى معارفها بحثاً عن وصفات تنسخها في دفترها وتحسّنها في مطبخها. كان باستطاعتها أن تقضي أيّاماً بكاملها في طحن البهارات والجوز للحلوى أو الذرةَ لحلوى المولّدين، تنظّف الترغلات لمرق التخليل

والفواكه للحفظ. في الرابعة عشرة من عمرها تفوّقت على الآنسة روز في حلواها الخجولة وتعلّمت لائحة طعام ماما فرسيا. في الخامسة عشرة أخذت مآدب أيام الأربعاء على عاتقها، وحين لم تعد الصحون التشيلية تشكّل تحدّياً اهتمّت بالمطبخ الفرنسي الأنيق، الذي تعلمته من مدام كولبِرت، وبالتوابل الهندية الغريبة التي اعتاد عمّها جون المجيءَ بها وصارت تعرفها من رائحتها، وإن لم تكن تعرف أسماءها. حين كان السائق يحمل رسالة إلى بيتٍ من بيوت أصدقاء آل سومّرز كان يقدّم المغلّف مرافقاً بحلوى خرجت توّاً من بين يدي إليثا، التي ارتقت بعادة تبادل الطبخ والحلوى المحليّة إلى مرتبة الفن. وصل انهماكها في هذا حدَّ أنّ جِرمي سومّرز صار يتصوّرها صاحبة صالة شايٍ ذاتها، المشروع الذي استبعدته الآنسة روز مثل كلّ مشاريعه المتعلّقة بالفتاة، دون أدنى حدود الاعتبار. فهي ترى أنّ امرأة تكسب عيشها بنفسها تخفض من مكانتها الطبقيّة مهما بلغ احترام مهنتها. بالمقابل أرادت لها زوجاً جيّداً ومنحت نفسها مدّة سنتين للحصول عليه في تشيلي، وبعدها قد تحمل إليثا إلى إنكلترا فهي لا تستطيع المجازفة بتركها تكمل العشرين وهي عازبة دون خطيب. على المرشّح أن يكون قادراً على تجاهل أصلها الغامض والهيام بفضائلها. كان من المحال التفكير بذلك بين التشيليين، فالزواج عند الطبقة الأرستقراطية يتمّ بين أبناء عمومة والطبقة الوسطى لا تهمها، فهي لا تريد أن ترى إليثا تمرّ بعوز مالي. تواصلت من حين لآخر مع أصحاب المؤسسات التجارية والمناجم، الذين يتاجرون مع أخيها جِرمي، لكنّ هؤلاء كانوا يجرون خلف كِنى وشعارات الأقلّية الحاكمة، ومن غير المحتمل أن يتوقّفوا عند إليثا، فجسدها لا ينطوي إلا على القليل الذي يمكن أن يلهب العواطف: فهي صغيرة وناحلة، خالية من الشحوب الحليبي أو امتلاء الجذع والردفين الدارج جداً. فقط عند النظرة الثانية يُكتشف جمالها الرصين ولطافةُ ملامحها وتعبيرُ عينيها العميق. تبدو دميةً خزفية جاء بها القبطان جون سومّرز من الصين. كانت الآنسة روز تبحث عن طامح قادرٍ على تثمين بصيرة محميّتها الجليّة وثبات مزاجها ومهارتها في قلب الأمور لصالحها، هذا الذي كانت ماما

فرِسيا تسميه الحظ وتفضّل هي أن تسميه الذكاء؛ تبحث عن رجلٍ ميسورٍ اقتصادياً وحسن المزاج يقدّم لها الأمان والاحترام، وتستطيع إليثا أن تسيّره بسهولة. فكّرت أن تعلّمها في الوقت المناسب آداب الاهتمامات اليومية الذكية التي تُنمّي في الزوج عادة الحياة المنزلية، نظام المداعبات الجريئة لمكافأته والصمت الكاذب لمعاقبته؛ أسرار سلبه إرادته، التي لم تملك هي نفسها فرصة لممارستها، وكذلك فنّ الحبّ الجسديّ القديم. لم تكن لتجرؤ أبداً على الكلام معها حول هذا، لكنّها كانت تملك عدداً من الكتب محبوسة تحت قفل مضاعف في خزانتها ستعيرها لها حين تحين اللحظة. كلّ شيء يمكن قوله كتابةً، تلك هي نظريّتها، وبشأن النظرية لا أحد يعرف مثلها. كان باستطاعتها أن تكتب رسالة حول كلّ أشكال ممارسة الحبّ الممكن منها وغير الممكن.

ـ عليك أن تتبنّى إليثا شرعياً كي تكون لها كنيتنا ـ طالبت أخاها جِرمي.

ـ استخدمتها لسنواتٍ، ماذا تريدين أكثر، يا روز؟

ـ أن تستطيع الزواج مرفوعةَ الرأس.

ـ تتزوّج، مِمَّنْ؟

لم تقل له الآنسة روز في تلك المناسبة من يكون، لكن كان في ذهنها شخص. إنّه ميشيل ستيوارد، ابن الثانية والعشرين، الضابط في الأسطول البحري الإنكليزي الذي نزل في ميناء بالبارايسو.

تحقّقت عبر أخيها جون أنَّ البحّار ينتمي إلى أسرة عريقة؛ ولن يُنظَرَ بعين الرضا إلى الابن الأكبر متزوّجاً من مجهولة بلا ثروة، وقادمة من بلد لم يسمعوا باسمه قط. كان من الضروري أن يكون لها صدّاق جذّاب وأن يتبناها جِرمي، وهكذا لا تعود مسألة أصلها عائقاً.

كان ميشيل ستيوارد ذا بنية رياضية له نظرة بؤبؤين زرقاوين بريئة، وسالفان وشوارب شقراء، أسنان جيّدة وأنف أرستقراطيّ. ساهمت ذقنه النفورة في التقليل من وجاهته والآنسة روز أمِلت نيلَ

ثقته لتقترح عليه أن يتحايل عليها بترك لحيته تنمو. كان، حسب القبطان سومّرز، مثالاً للأخلاق، وصفحة خدماته التي لا شائبة فيها تضمن له مستقبلاً لامعاً في وظيفته البحرية. أمّا أن يكون قد قضى زمناً طويلاً في الإبحار فهو في نظر الآنسة روز ميّزة هائلة لمن تتزوّج منه. كلّما فكّرت فيه أكثر ازدادت قناعتها بأنّها اكتشفت الرجل المثالي، لكن ونظراً لمزاج إليثا فإنّها لن تقبل به لأنّه مناسب فقط، فهي يجب أن تعشقه. كان هناك أمل: فالرجل يبدو وسيماً في بزّته وما من أحدٍ رآه دونها حتى تلك اللحظة.

ـ ستيوارد ليس أكثر من غبيّ يملك آداباً حسنة. وإليثا ستموت ضجراً إذا تزوّجت منه ـ ارتأى القبطان جون سومّرز حين حكت له مخططاتها.

ـ الأزواج كلُّهم مضجرون، يا جون. ما من امرأة لها جبهة بعرض إصبعين تتزوّج كي تتسلّى، بل كي تُعال.

كانت إليثا ما تزال تبدو طفلة، لكنّها أنهت دراستها وسرعان ما ستكون في عمر الزواج. ما زال هناك بعض الوقت، خلصت الآنسة روز، لكن عليها أن تعمل بحزم لتمنع أخرى أكثر حيوية من سرقة المرشّح خلال ذلك. وما أن اتخذت القرار حتى استخدمت كلّ مافي وسعها من ذرائع استطاعت تصوّرها لمهمّة جذب الضابط. كيّفت المسامرات الموسيقية لتتصادف مع المناسبات التي ينزل فيها ميشيل ستيوارد، دونما اعتبار للمشاركين الآخرين، الذين حفظت لهم أيّام الأربعاء لهذا النشاط المقدّس. تخلى بعضهم عن الحضور منزعجاً، وهذا بالضبط ما كانت تتطلّع إليه، فهي بذلك تستطيع أن تحوّل السهرات الموسيقية الوديعة إلى حفلات موسيقية وغنائية راقصة، وتحصر لائحة المدعوّين بالشبان العازبين والشابات في عمر الزواج من الجالية الأجنبية بدل آل إبلينغ ، سكوت، أبّلغرن المزعجين الذين راحوا يتحوّلون إلى مستحاثات. أفسحت الأماسي الشعرية والموسيقية المجال لألعاب الصالونات، الرقص غير

الرسمي ومنافسات الذكاء والأحاجي. كانت تنظّم حفلات غداء ريفية عبر طرقات مزعجة ونزهات على الشاطئ؛ حيث ينطلقون في عربات تتقدّمهم في الفجر حناتير أرضها من الجلد ومظلّتها من القشّ تحمل الخدم المكلفين بوضع سلال العصرونية اللامتناهية تحت الخيام والمظلاّت. تنتشر أمام النظر وديان خصيبة مزروعة بالأشجار المثمرة والكرمة ومراتع القمح والذرة، شواطئ المحيط الهادي شديدة الانحدار حيث تنفجر الأمواج غيوماً من زبد، وفي البعيد يلمح الجانب الشَموخ للجبال الثلجية. كانت الآنسة روز تتدبّر أمرها عادة كي تسافر إليثا وستيوارد في عربة واحدة، يجلسان معاً ويكونان رفيقين طبيعيين في ألعاب الكرة والغميضة، لكنها تحاول فصلهما في لعب الورق والدومينو لأنّ إليثا كانت ترفض رفضاً قاطعاً السماح بهزيمتها.

- عليك أن تجعلي الرجل يشعر بتفوّقه، يا صغيرة - وضّحت لها الآنسة روز بصبر.

- هذا يحتاج إلى جهد كبير - كانت إليثا تردّ دون أن تتزحزح.

لم يتمكّن جِرمي سومّرز من منع موجة نفقات أخته؛ فقد أخذت الآنسة روز تشتري قماشاً بالجملة وتبقي على فتاتين في الخدمة يخِطن طوال النهار ثياباً جديدةً منسوخة عن المجلاّت وتفرط في الاستدانة من بحارة التهريب لئلا تنقصهما العطور، الوردَ البرّيّ من تركيّا، وستّ الحسن والكحل للغز العيون، ومعجون اللؤلؤ الحيّ لصفاء الجلد. لأوّل مرّة لم يكن عندها وقت للكتابة فهي مشغولة بالاهتمام بالضابط الإنكليزي وبالبسكويت والمجفّفات كي يحملها معه إلى عرض البحر، وكلّه مصنوع في البيت ومقدّم في مرطبانات رائعة.

- إليثا حضّرتْ هذا لك، لكنّها من الخجل بحيث لا تستطيع تقديمه لك - قالت له دون أن توضّح أنّ إليثا تُحضّر ما يطلبونه منها دون أن تسأل لمن تصنعه، ولذلك كانت تفاجأ حين يشكرها.

لم يكن ميشيل ستيوارد محايداً أمام حملة الإغراء. كان يعبّر

عن شكره وهو المقتّرُ بالكلام برسائل مقتضبة ورسمية على ورق رسائل البحرية، وحين يكون على اليابسة عادة ما يحضر ومعه باقات من الورد والقرنفل. فهو قد درس لغةَ الأزهار، لكنّ هذه الرقة راحت تسقط في الفراغ، لأنّه لا الآنسة روز ولا أحد في ذلك الجانب القصيّ عن إنكلترا كان قد سمع بالفرق بين الوردة والقرنفلة، وأقلّ من ذلك معنى لون *الأنشوطة*، كما ضاعت تماماً جهودُ ستيوارد للعثور على الأزهار التي يزدادُ لونها تدريجيّاً، بدءاً من الوردي الباهت ومختلف تنوّعات اللون اللحمي حتى أكثر ألوان الأحمر شدّة كعلامة على عاطفته المتنامية. تمكّن الضابط مع الأيام من تجاوز خجله وانتقل من الصمت الشاق الذي ميّزه في البداية إلى الفصاحة المزعجة للمستمعين. كان يعرض بحيويّة أراءه الأخلاقيّة حول التوافه وعادة ما كان يضيع في توضيحات غير مجدية عن التيارات البحرية وخرائط الإبحار، أمّا المجال الذي تألّق فيه فهو الرياضات القاسية التي أظهرت شجاعتَه وعضلاتِه الجيّدة. وكانت الآنسة روز تحثّه على القيام ببراهين بهلوانية فيتدلّى من غصن في الحديقة حتى أنها استطاعت، بشيءٍ من الإصرار، أن تجعله يُمتعهما بالطرْق بالحذاء والالتواءات والقفزات القاتلة في رقصة أوكرانية تعلّمها من بحّار آخر. وبينما تحتفلُ الآنسة روز مبالِغَةً بكلّ شيء تكتفي إليثا بمراقبة الحالة بصمتٍ وجدّيةٍ دون أن تُعطي رأيها. مضت أسابيع على هذا النحو وميشيل ستيوارد يزن ويقيس نتائج الخطوة التي يرغب القيام بها ويتواصل مع والده عبر الرسائل لمناقشة خططه. تأخرُ الرسائل الحتمي أطال تردّده أشهراً عدّة. كان الأمر يتعلّق بأكثر قرارات حياته خطورة ويحتاج إلى جرأة لمواجهته أكثر من جرأة مقاتلة الأعداء الأشداء للإمبراطورية البريطانية في المحيط الهادي. أخيراً وفي نهاية إحدى المسامرات الموسيقية وبعد مئة تمرين أمام المرآة تمكن من استجماع الشجاعة التي كانت تتبدّد نتفاً، وشدّ صوته الذي يرقّ من الخوف كي يدرك الآنسة روز في الممر.

ـ أحتاج للكلام معك على انفراد ـ همس لها.

قادته إلى صالة الخياطة. حدس بما سيسمعه وذُهل من تأثّره هو نفسه، شعر بوجنتيه تلتهبان وقلبه يخبُّ. سوّى من وضع جعدة أفلتت من قنزعة شعره وجفّف عرق جبينه خفيةً. فكّر ميشيل ستيوارد أنّه لم يرها بمثل ذلك الجمال قط.

ـ أعتقدُ أنّكِ تكهّنْتِ بما عليّ أن أقوله لك، يا آنسة روز.

ـ التكهّن خطير، يا سيّد ستيوارد. إنّني أسمعك...

ـ الأمر يتعلّق بمشاعري. لا شكّ أنّك تعرفين عمّا أتكلّم. أُريد أن أعبّر لك عن أنّ مقاصدي جدّية لا شائبة فيها.

ـ لا أنتظر أقلّ من شخص مثلك. هل تعتقد أنّك لقيت تجاوباً؟

ـ وحدكِ من يستطيع الإجابة على هذا ـ تلعثم الضابط الشاب.

بقيا برهة ينظران الواحد إلى الآخر، هي مرفوعة الحاجبين علامة ترقّب وهو خائف من أن ينهار السقف على رأسه. أخذها الغندور من كتفيها وقد قرّر التصرّف قبل أن تصبح لحظة السحر رماداً، وانحنى ليقبّلها. لم تستطع الآنسة روز التي أخذتها المفاجأة الحراك. شعرت بشفتيها رطبتين وبشارب الضابط الناعم في فمها دون أن تفكّر بحق أيّ شيطان خرجت الأمور سيئة، أخيراً حين تمكنت من القيام بردّة فعل أبعدته بعنفٍ.

ـ ماذا تفعل! ألا ترى أنّني أكبر منك سنّاً بكثير! ـ صاحت وهي تُجفِّفُ فمها بقفا يدها.

ـ ما همّ العمر؟ ـ تمتم الضابط مرتبكاً لأنّه كان قد قدّر أن الآنسة روز لم تتجاوز السابعة والعشرين.

ـ كيف تتجرّأ! هل فقدت صوابك؟

ـ لكن أنت... أنت أوحيت إليّ... لا يمكنني أن أكون وقعت بكلّ هذا الخطأ ـ تمتم الرجل المسكين مصعوقاً من الخجل.

- أُريدك لإليثا وليس لي! - صاحت الآنسة روز مذعورة وخرجت راكضةً لتغلق على نفسها غرفتها بينما المنحوس طالب الودّ طلب دثاره وقبّعته وانطلق دون أن يودّع أحداً كيلا يعود إلى ذلك البيت أبداً.

سمعت إليثا من زاوية في الممر كلّ شيء عبر باب صالة الخياطة المشقوق. هي أيضاً اختلط عليها تفكيرها من الاهتمامات بالضابط. فالآنسة روز برهنت دائماً عن عدم مبالاة بمريديها حتى اعتادت اعتبارها عجوزاً. فقط في الأشهر الأخيرة حين رأتها تكرّس نفسها روحاً وجسداً لألعاب الإغواء انتبهت إلى قوامها الرائع وجلدها البراق. ظنّتها مجنونة حبّاً بميشيل ستيوارد ولم يخطر ببالها أنّ الغداءات الريفية والرعوية تحت المظلات اليابانية والبسكويت بالزبدة للتخفيف من إزعاجات الإبحار، كانت حيلة من حاميتها للإيقاع بالضابط وتسليمه إليها على طبق. صفعتها الفكرة مثل لكمة على صدرها وقطعت عنها الهواء، لأنّ آخر ما كانت ترغبُ به في هذا العالم إنّما هو زواج مرتّب من خلف ظهرها. كانت واقعة في نزوة حديثة لأوّل حبّ وأقسمت بيقين راسخ بأنّها لن تتزوّج من آخر.

رأت إليثا سومّرز خواكين أنديِّتا لأوّل مرّة ذات يوم جمعة في أيار من عام 1848 ، حين وصل إلى البيت يقود عربة تجرّها عدّة بغالٍ، محمّلة حتى أعلاها بشحنات *شركة الاستيراد والتصدير البريطانية*. كانت تحتوي على سجاد عجمي وثريات دامعة ومجموعة من الصور العاجية أوصى عليها فِليثيانو رودريغِثْ دِ سانتا كروثْ لتزيين البيت الذي بناه في الشمال، وهي واحدة من الشحنات التي يوجد عليها خطر في الميناء، وستكون بأمان أكبر إذا خُفِظَت في بيت آل سومّرز حتى لحظة إرسالها إلى وجهتها الأخيرة. لو تمّت بقيةُ الرحلة في البرّ لتعاقَدَ جِرمي مع حرّاس مسلحين لحمايتها، لكنّه كان سيرسلها في تلك الحالة على متن سفينة تشيلية

ستنطلق خلال أسبوعين. ارتدى أنذيتا بزّته الوحيدة، داكنة اللون والمهترئة التي مضت تقليعتها، كان بلا قبّعة ولا مظلّة، وشحوبه الجنائزي يتناقض مع عينيه المشعّتين وشعره الأسود المتلألئ تحت باكورة رذاذ الخريف. خرجت الآنسة روز لاستقباله وماما فرِسيا، التي تحمل مفاتيح البيت في حلقة معلقة إلى خصرها دائماً وقادته حتى آخر ممر، حيث توجدُ الأقبية. رتّب الشاب العمال في صفٍّ فراحوا يمرّرون الحمولة من يد إلى يد عبر الأرض الوعرة والأدراج الملتوية والدهاليز غير المجدية، بينما هو يعدّها ويعلّمها ويسجل ملاحظاته في دفتره. استغلّت إليثا قدرتها على التخفّي واستطاعت أن تتأمّله على هواها. كان قد مضى شهران على إتمامها السادسة عشرة وأصبحت جاهزة للحبّ. حين رأت أصابعه الطويلة الملطخة بالحبر وسمعت صوته العميق، الواضح والطازج مثل هدير النهر، وهو يوزّع الأوامر الجافّة على العمال شعرت بالتأثر يصل حتى عظامها، وبرغبة هائلة للاقتراب منه وشمّه دفعتها للخروج من مخبئها خلف أصيص نخلات كبير. ماما فرِسيا المشغولة بالمفاتيح والمُزمجرة لأنّ بغال العربة وسخت المدخل لم تنتبه لشيء، لكنّ الآنسة روز استطاعت أن ترى بطرف عينها خجل الفتاة. لم تولِه أهميّة، فقد بدا لها مُستخدَمُ أخيها شيطاناً مسكيناً تافهاً، لا يكاد يكون شبحاً من أشباح ذلك اليوم الضبابيّ. اختفت إليثا في طريقها إلى المطبخ وعادت بعد دقائق قليلة ومعها كؤوس وإبريق برتقال مُحلّى بالعسل. لأوّل مرّة في حياتها هي التي قضت سنوات توازن الكتاب على رأسها، دون أن تفكّر ماذا تفعل، كانت واعية لخطواتها، لتماوج وركيها، ترنّح جسدها، زاوية ذراعيها، المسافة بين كتفيها وذقنها. أرادت أن تكون جميلة مثل الآنسة روز حين كانت الشابة الرائعة التي خلّصتها من مهدها المرتجل في صندوق صابون من مرسيليا، أرادت أن تغني بصوت البلبلِ الذي تُرَنّم به الآنسة أبْلْغرِن أغانيها الرعوية الاسكتلندية، أرادت أن ترقص بخفّة معلّمة رقصها المُحالة، وأرادت أن تموت هناك تماماً، يهزمها شعور قاطِع

وحرون مثل سيف يملأ فمها بالدم الحار ويضغط عليها بثقل الحبّ الطوباوي الرهيب حتى قبل أن تصوغه. بعد سنوات كثيرة ستتذكّر إليثا أمام رأسٍ بشري محفوظ في وعاء جِن هذا اللقاء الأوّل مع أنذيِتا، وستعود لتشعر بالقلق الذي لا يحتمل ذاته. ستتساءل ألفَ مرّة على طول الطريق ما إذا كانت قد ملكت الفرصة للهرب من هذه العاطفة الجيّاشة التي تلوي حياتها، ما إذا استطاعت في تلك اللحظات القصيرة أن تعود القهقرى وتنقذ نفسها، لكنّها في كل مرّة تصوغ ذلك السؤال كانت تخلص إلى أنّ مصيرها مرسوم منذ بداية الأزمان. وحين أدخلها الحكيم تاو شيين في الاحتمال الشعري للتقمص اقتنعت أنّه في كلّ حياة من حيواتها ستتكرر المأساة ذاتها: فلو أنّها ولدت من قبل ألف مرّة وولدت ألف مرّة أخرى في المستقبل لجاءت إلى العالم بمهمّة حبّ ذلك الرجل وبالطريقة ذاتها. لم يكن أمامها من مهرب. تاو شيين علّمها عند ذلك الصيغ السحرية لتخريب أعشاش *الكرما* والتخلّص من تكرار القلق الغرامي الممزّق للقلب في كلّ تقمّصٍ.

في ذلك اليوم من شهر أيّار وضعت إليثا الصينية على مقعد وقدّمت المرطبات للعمال، أوّلاً كي تكسب الوقت ريثما تثبت ركبتيها وتسيطر على تخشّب البغلة الماكرة الذي شلّ صدرها مانعاً مرور الهواء، ثمّ على خواكين، الذي تابع مهمّته بهمّة ولم يكد يرفع بصره عندما ناولته الكأس. عندما فعلت هذا وقفت أكثر ما استطاعت قرباً منه، مقدّرة اتجاه النسيم كي يحمل إليها رائحة الرجل الذي كان محسوماً أمر أنّه لها. استنشقت بعينين شبه مغمضتين رائحةَ ثياب رطبة، وصابون عادي وعرق طازج. نهرٌ من حمم ملتهبة جاب داخلها، خارت عظامها وفي لحظة ذعر اعتقدت فعلاً أنّها تموت. بدت تلك الثواني من الكثافة بحيث سقط الدفتر من بين يدي خواكين أنذيِتا كأن قوّة لا تُقاوَم انتزعته منه بينما حرارة نار موقدة أصابته أيضاً، أحرقته بانعكاسها. نظر إلى إليثا دون أن يراها، كان وجه الفتاة مرآة شاحبة اعتقد أنّه رأى فيه صورتَهُ ذاتها. بصعوبة امتلك

فكرة مبهمة عن حجم جسدها والهالة الداكنة لشعرها، لكنّه لن يستطيع إلاّ في المرّة الثانية بعد أيّام أن يغوص في هلاك عينيها السوداوين وملاحةِ حركاتها المائية. كلاهما انحنى ليلتقط الدفتر في آنٍ معاً، فاصطدم كتفاهما واندلق محتوى الكأس على ثوبها.

ـ انظري ماذا تفعلين، يا إليثا! ـ صاحت الآنسة روز مستنفرة، لأنّ صدمة هذا الحبّ المفاجئ قد أصابتها أيضاً.

ـ هيّا بدّلي هذا الثوب وانقعيه بالماء البارد لنرى ما إذا كانت ستزول البقعة ـ أضافت بجفاف.

لكنّ إليثا لم تتحرّك، بقيت معلّقة إلى عيني خواكين أنديِتا، مرتعدة، ممطوطة المنخرين تتشمّمه دون مواربة حتى أخذتها الآنسة روز من ذراعها وحملتها إلى البيت.

ـ قلتُ لك، يا صغيرة: أيّ رجل مهما كان بائساً يستطيع أن يفعل بك ما يحلو له ـ ذكّرتها الهندية الحمراء في تلك الليلة.

ـ لا أعرف عمّا تكلمينني، ماما فرِسيا ـ ردّت إليثا.

عندما تعرّفت إليثا على خواكين أنديِتا في ذلك الصباح الخريفي في فناء بيتها، اعتقدت أنّها عثرت على قدرها: ستكون عبدته للأبد. لم تكن قد عاشت بعد كفايةً كي تفهم ما جرى، أو توضّح بالكلمات الصخبَ الذي يخنقها وترسم خطّة، لكن لم يخنها الحدسُ بما لابدّ منه. إذ انتبهت بطريقةٍ مبهمة، لكنّها مؤلمة، إلى أنّها محاصرة. حدثت لديها ردّة فعل جسدية شبيهة بالوباء. بقيت تتخبّط أسبوعاً في مغصٍ تشنجّي لم تفدها فيه أعشاب ماما فرِسيا العجيبة، ولا مسحوق الزرنيخ المذاب في مشروب الكرز الروحي للصيدلي الألماني، إلى أن رأته ثانيةً. انخفض وزنها ووهنت عظامها مثل الترغلة، أمام ذعر ماما فرِسيا، التي راحت تغلق النوافذ كي تتفادى أن تحمل ريحُ الفتاة وتمضي بها باتجاه الأفق. قدّمت

لها الهندية عدّة خلائط ورقى من لائحتها الطويلة، وحين تأكّدت من أنّه ما من شيء يؤثّر لجأت إلى مجموعة تراتيل القديسين الكاثوليكيين. أخرجت من قاع صندوقها بعض الوفورات البائسة، اشترت اثنتي عشرة شمعة وراحت تحاور الراهب. وبعد أن باركهما في صلاة الأحد العامة الكبرى أشعلت واحدة أمام كلّ قدّيس في الغرف الجانبية للكنيسة، ثمانية تماماً، ووضعت ثلاثاً أمام صورة سان أنطونيو، قدّيس الفتيات العازبات اللواتي لا أمل لهن، والمتزوجات الشقيات وقضايا أخرى ضائعة. حملت الزائدة منها مع خصلة شعر وقميص من قمصان إليثا إلى أكثر الحكيمات الشعبيات (*ماتشي*) ثقة في المنطقة. كانت مابوتشية عجوزاً وعمياء منذ ولادتها، ساحرة سحراً أبيض، مشهورة بتنبؤاتها الحتمية الحدوث وبقدرة عقلها على شفاء أمراض الجسد وهموم الروح. كانت ماما فرِسيا قد أمضت سنوات مراهقتها في خدمة تلك المرأة تتعلّم منها وتخدمها. لكنّها لم تستطع أن تتبع خطواتها كما كانت ترغب، لأنّها لم تمتلك الموهبة. لا يمكن عمل أيّ شيء، يولد المرء مع الموهبة أو دونها. أرادت ذات مرّة أن تشرحها لإليثا والشيء الوحيد الذي خطر لها هو أن الموهبة هي القدرة على رؤية ما وراء المرايا. ونظراً لانعدام هذه الفطنة السريّة يبدو أنّ ماما فرِسيا تنازلت عن تطلّعاتها لتصبح حكيمة شعبية وكرّست نفسها لخدمة الإنكليز.

كانت الحكيمة الشعبية (*الماتشي*) تعيش وحيدة في انكسار بين هضبتين في كوخ من الطين سقفه من التبن يبدو على وشك الانهيار. ينتشر حوله خليط من صخور وحطب ونباتات في مرطبانات وكلاب ضامرة وطيور قبيحة سوداء تنكش عبثاً في الأرض باحثة عن شيء تأكله. في درب المدخل ترتفع غابة صغيرة من النذور والتمائم المزروعة من قبل الزبائن الذين شفوا في إشارة منهم إلى المعروف الذي تلقوه. كانت تفوح من المرأة رائحة كلّ المغليات التي حضّرتها في حياتها، ترتدي دثاراً من لون الأرض الجافّة ذاتها هناك،

وتمضي حافية وسخة لكنّها مزيّنة بخليط من الأطواق الفضية الخفيفة. بدا وجهها قناعاً داكناً من تجاعيد وليس في فمها غير سنّين وعيناها ميتتان. استقبلت تلميذتها القديمة دون أن تبدي ما يدلّ على أنّها عرفتها وقبلت هدايا الطعام وزجاجة مشروب اليانسون الكحولي. أشارت إليها بالجلوس أمامها ومكثت صامتة، تنتظر. في وسط الكوخ راحت تلتهب جذوتان نائستان والدخان يهرب عبر ثقب في السقف. كانت تعلّق إلى الجدران المسودّة من الهباب أوانٍ فخارية وصفيحية، نباتات ومجموعة من الوحوش الضارية المحنّطة، ورائحة الأعشاب الجافة والقشور الطبية تختلط مع نتن الحيوانات الميتة. تحدّثتا بالمابودونغو، لغة المابوتشيين. سمعت الساحرة قصّة إليثا مطوّلاً منذ وصولها في صندوق صابون مرسيليا وحتى الأزمة الحديثة، بعدها أخذت الشمعةَ والشعر والقميص وودّعت زائرتها مع تعليمات لعودتها حين تكون قد أكملت سحرها وطقوس التنبّؤ.

ـ معروف أنّ هذا لا علاج له ـ أعلنت ما أن عبرت ماما فرِسيا عتبة مسكنها بعد يومين.

ـ وهل ستموت طفلتي؟

ـ لا أعرف عن هذا، لكنّها ستعاني كثيراً، لا شكّ عندي بذلك.

ـ ما الذي بها؟

ـ إصرار على الحب. وهو شرّ قويّ. لا شكّ أنّها تركت النافذة مفتوحة في الليلة الصافية ودخل في جسدها أثناء نومها. لا يوجد سحر ضدّ هذا.

عادت ماما فرِسيا إلى البيت مستسلمة: إذا كان فنّ هذه *الماتشي* الحكيمة جدّاً لم يتمكن من تغيير مصير إليثا ففائدة معرفتها النادرة وشموع القديسين ستكون أقل بكثير.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الآنسة روز

راحت الآنسة روز تراقب إليثا بفضولٍ أكثر مما بشفقة لأنّها تعرف جيّداً الأعراضَ، فالزمنُ والعوائق في تجربتها ما تزالُ تُخمِدُ أسوأ نيران الحبّ. كان عمرُها سبع عشرة سنة حين عشقت بوَلَهٍ جامحٍ غندوراً فيينّيّاً. كانت تعيشُ آنذاك في إنكلترا وتحلم بأن تصبح مغنيةً أوبرا، رغم شدَّةِ معارضةِ أمِّها وأخيها جِرمي، رئيس الأسرة منذ وفاة والده. ما من أحدٍ منهما اعتبر الغناء الأوبرالي عملاً مرغوباً به للآنسة، خاصّة وأنّه يُمارَسُ في المسرح ليلاً وبلباسٍ يكشف العنقَ والكتفين. كما أنّها لم تلقَ دعم أخيها جون الذي التحق بالبحرية التجارية ولا يكاد يطلّ على البيت مرَّتين في العام وهو على عجلة من أمره دائماً. يصل طافحاً بالحيوية ومحمَّصاً بشمس مناطق أخرى، ليزعزع روتين الأسرة الصغيرة، مُتألقاً بوشمٍ أو ندبة ما جديدةٍ؛ يوزِّع هداياه، ويرهقهم بحكاياته الغريبة ويختفي على الفور في طريقه إلى أحياء العاهرات، حيث يمكث حتى ساعة العودة للإبحار. كان آل سومّرز نبلاء ريفيين بلا طموحات كبيرة. ملكوا أراضٍ لعدّة أجيالٍ، لكنّ الأب الذي ملّ الأغنام الخرقاء والمحاصيل الفقيرة فضّلَ محاولة الإثراء في لندن. كان مُحبّاً للكتب جدّاً وقادراً على انتزاع الخبز من فم أسرته والاستدانة للحصول على الطبعات الأولى موقّعةً من كتّابِهِ المُفَضّلين، ومع ذلك ليس لديه طمعُ جامِعي الكتبِ الحقيقيين. قرّرَ، بعد محاولات غير مجدية في التجارة،

إفساحَ المجال أمام موهبته الحقيقية وانتهى إلى افتتاح دكانٍ للكتبِ المستعملة ولكتبٍ أخرى طبَعَها بنفسه. أسَّسَ في القسم الخلفي من المكتبة مطبعة صغيرةً يستثمرها مع مساعدَيْن، ويُمارِسُ في سقيفة صغيرة في المحل ذاته تجارته بالمجلدات النادرة بخطى سلحفاة. وحدها بين أولاده الثلاثة كانت روز تهتمُّ بعمله، فقد ترعرعت على الشغف بالموسيقى والقراءة، فهي إذا لم تجلس خلفَ البيانو أو تمارس تمارين التنغيم استطاعوا العثورَ عليها تقرأ في أحد الأركان. تأسَّفَ الأبُ لأنّها الوحيدة العاشقة للكتب وليس جِرمي أو جون، اللذين باستطاعتهما أن يرثا تجارته. صفّى ولداه بعد موته المطبعة والمكتبةَ. انطلق جون إلى البحر وأخذ جِرمي على عاتقه أمّه الأرملة وأخته. كان يتمتع براتب مستخدم متواضع في *شركة الاستيراد والتصدير البريطانية* ودخلٍ بسيطٍ خلَّفَهُ لهم الوالدُ، إضافة إلى مساهمات أخيه جون المتباعدة التي لم تصل دائماً عدّاً ونقداً بل تهريباً. كان جِرمي المُستنكِر يحتفظ بعلبِ الهلاك تلكَ في سقيفة البيت لا يفتحها حتى زيارة أخيه المقبلة، الذي يأخذ على عاتقه أمر بيعها. انتقلت الأسرة إلى شقّة صغيرة وغالية بالنسبة لدخلهم، لكنّها حسنة الموقع في قلبِ لندن، لأنّهم اعتبروها استثماراً. إذ عليهم أن يُحْسِنوا تزويج روز.

بدأ جمالُ الشابة ينمو في السابعة عشرة من عمرها ففاض عنها طالبو ودّها حسنو الوضع المستعدون للموت حبّاً من أجلها، لكنها كانت تبحث عن مدرّس غناءٍ بينما تجتهد صديقاتُها في البحث عن زوج. هكذا تعرّفت على كارل برِتزِر، الرجل الفييني صاحب الصوت التينور الذي وصل إلى لندن للعمل في عددٍ من أعمال موزارت، والتي سيتوّجونها ذات ليلة رائقة النجوم بأعراس فيغارو بحضور الأسرة الملكية. لم يكن مظهره يوحي بشيء من نبوغه الهائل: يبدو جزّاراً؛ وجسدُه، العريض الكرش والهزيل من الركبتين وإلى الأسفل، خالٍ من الأناقة، أمّا وجهه الدموي، المتوّج بخصلة من الشعر الأجعد الباهت اللون فيبدو دهمائياً، لكنّه ما أن يفتح فمه

ليسحر العالم بدفق صوته، حتى يتحوّل إلى كائنٍ آخر، فتنمو قامته ويختفي كرشه في عرض صدره ويمتلئ وجهُه الألماني الضارب للحمرة بالنور الأولمبي. على الأقل هكذا كانت تراه روز سومّرز، التي تدبّرت أمرها وحصلت على بطاقات لكلّ عرض، فتصل إلى المسرح قبل فتحه بكثير، وتتحدى نظرات المارّة المستنكرة غير المعتادة كثيراً على رؤية فتاة من مقامها وحيدةً، تنتظر لساعات أمام باب الممثلين لتلمح المعلّم يهبط من عربته. أمعن الرجل النظرَ ليلةَ الأحد إلى الجمال الرابض في الشارع واقترب ليكلّمها. ردّت على أسئلته مرتعشة، اعترفت بإعجابها به ورغبتها بتتبّع خطواته عبر طريق الغناء الشاق، لكنه *الجميل والإلهي*، كما كانت كلماتها.

ـ تعالي بعد العرض إلى قمرتي ولننظر ماذا أستطيع أن أفعل لأجلك ـ قال هو بصوته الرائع وبنبرةٍ نمساويةٍ قويّة.

هكذا فعلتْ، محمولة إلى المجد. حين انتهى تصفيق الجمهور الذي شرّفه به وقوفاً، قادها حاجب بعث به كارل برِتزنِر إلى خلف الستائر. لم تكن قد رأت أحشاء المسرح قط، لكنّها لم تُضِع الوقتَ في تأمّل الآلات الفذّة التي تصنع الأعاصير ولا المناظر المصوّرة على الستائر، فهدفها الوحيد هو معرفة معبودها. وجدته مغطّى بدثار من القطيفة الزرقاء الملكية مطرّز على حوافّه بالذهب، المكياج مايزال يعلو وجهه والشعر المستعار الأجعد والأبيض على رأسه. تركهما الحاجب وحيدين وأغلق الباب. كانت تفوح من الغرفة المزدحمة بالمرايا والأثاث والستائر رائحة تبغ ومواد زينة وعفن. في زاوية منها ساترة مصوّر عليها مشاهد نساء بيضاوات في حريم تركيّ، وعلى الجدران عُلِّقت إلى علاّقات ملابس الأوبرا. حين رأتْ معبودها عن قرب خمد حماسها للحظاتٍ، لكنّه سرعان ماستعاد ما خسره. أخذ يديها بين يديه، حملهما إلى شفتيه وقبّلهما طويلاً، أطلق بعدها علامة دو من صدره هزّت ساترةَ الجاريات. انهارت تمنّعات روز الأخيرة مثل أسوار أريحا في سحابة غبار خرجت من شعر الفنان المستعار حين رفعه بحركة شغفٍ ورجولة وقذف به إلى

كرسيّ، بقي عليه جامداً مثل أرنبٍ ميتٍ. كان شعره مفلطحاً تحت شبكة متلبّدة، أضفت عليه مع المكياج مظهرَ سيّدةٍ بلاطٍ هرمة.

على الكرسيّ الذي سقط عليه الشعر المستعار قدّمت له روز بعد يومين، وبالضبط في الساعة الثالثة والربع مساءً، عذريتَها. تواعد التينور معها بذريعة أنّه سيريها المسرح في ذلك الثلاثاء، حيث لايوجد عرض. التقيا سرّاً في حانوتٍ للحلوى، تمتّع فيها بأصابعه الخمسة بالكريما وفنجاني شوكولا، بينما كانت تحرِّك شايَها دون أن تستطيع ابتلاعه خوفاً واستباقاً. ذهبا على الفور إلى المسرح. لم يكن يوجدُ في تلك الساعة أحدٌ غير امرأتين تنظفان الصالة وعامل إضاءة يُحضِّر مصابيح الزيت والمشاعل والشموع لليوم التالي. كارل برِتزنِر، الخبير في مآثرِ الحبّ، أحضر كما لو بالشعوذة زجاجة شمبانيا وصبّ كأساً لكلٍّ منهما، شرباهما دفعة واحدة على شرف موزارت وروسيني. وسرعان ما وضع الشابة في مقصورة المخمل الإمبراطوري التي لا يجلس فيها غير الملك، والمزينة من أعلاها إلى أسفلها بتماثيل الحب الخزفية الصغيرة والورد الجصّي وانطلق هو إلى الخشبة. غنّى لها وحدها لحناً من حلاّق إشبيلية وقد وضع قدماً على قطعة عمود كرتوني مدهون، تضيئه مشاعل أُشعِلَت توّاً، مظهراً كلّ رشاقة حباله الصوتية وهذيان تلوينات صوته اللامتناهية المرهف. عند تلاشي آخر علامة من تكريمه سمع انتحاب روز سومّرز البعيد، فهُرِع إليها برشاقة غير متوقّعة، عَبَر الصالة، تسلّق المقصورةَ بقفزتين وسقط على ركبتيه عند ركبتيها. وضع رأسه وقد انقطع نَفَسه في حضنها وغاص بوجهه بين ثنايا تنورتها الحريرية الطحلبية اللون. بكى معها، لأنّه ودون قصدٍ منه عشقها أيضاً، فما بدأ بعملية جذب غرامية عابرة انتهى خلال ساعاتٍ قليلة إلى هيجانٍ عاطفي.

نهضت روز وكارل يستند أحدهما إلى الآخر ويتعثران مرعوبين أمام ما لا بدّ منه، تقدّما دون أن يدريا كيف عَبْرَ ممرٌّ طويل مظلم، صعدا درجاً ووصلا إلى منطقة تبديل الملابس. ظهر

اسم التينور مكتوباً بخطٍّ مائل على أحد الأبواب. دخلا إلى الغرفة الغاصّة بالأثاث والخِرَق الفاخرة المشبعة بالغبار والعرق حيث التقيا للمرّة الأولى قبل يومين وحيدين. لم يكن فيها نوافذ فغرقا للحظة في ملاذ الظلمة، استطاعا استعادة الهواء الضائع في الانتحاب والتنهدات السابقة، بينما أشعل هو عود ثقاب ثم شموع أحد الشمعدانات الخمسة. تأملا بعضهما بعضاً على ضوء اللهب الأصفر المتراقص، وقد أربكهما سيلٌ جارفٌ من التأثر، فيهمّان بالتعبير دون أن يستطيعا نطقَ كلمة واحدة. لم تقاوم روز النظرات التي اخترقتها فخبّأت وجهها بين يديها، لكنّه أبعدهما بالرقة ذاتها المستخدَمَة من قبل في تناول حلوى الكريما. بدأا بتبادل قبلٍ انتحابية على الوجه مثل نقرِ حمامٍ انعطفت طبعاً باتجاه القبل الجدّية فيما بعد. كانت روز قد مرّت بلقاءاتٍ رقيقة، لكنّها متردّدة وفرورة، مع بعض طالبي ودّها وقد وصل الأمر باثنين منهما حدّ ملامسة خدّها بشفتيهما، لكنها لم تتصوّر قط أنّها من الممكن أن تصل إلى هذه الدرجة من الحميمية، حيث يستطيع لسانُ شخصٍ آخر أن ينجدل مع لسانها مثل أفعى جسورة، ولعاب الغريب يبلّلها من الخارج ويغزوها من الداخل، لكنّ الاشمئزاز الأوّلي سرعان ما هزته حميا شبابها وحماسها للشِعر الغنائي. لم تردّ على الدغدغات بمثلها فقط بل بادرت إلى نزع القبّعة ودثار فرو الجِمْلانِ الرمادي الذي يغطّي كتفيها. بين السماح بفكّ أزرار السترة وفكّ القميص حدث بعض التمنّع. استطاعت الشابة أن تتابع خطوات رقصة الجماع خطوة خطوة مهتديةً بالغريزة والقراءاتِ المُثيرة الممنوعة، التي كانت تستلّها بحذر من رفوف والدها. كان ذلك أكثر أيّام حياتها رسوخاً في ذاكرتها، تتذكّره بأدقّ تفاصيله، التي بُهرجت وبولِغَ بها في السنوات اللاحقة. ذلك هو مصدر خبرتها ومعرفتها الوحيد، باعث إلهامها الوحيد لتغذية خيالها وخلق الفنّ الذي سيجعلها شهيرة في بعض الدوائر السرّية جدّاً بعد سنوات. لا يمكن لهذا اليوم الرائع أن يُقارن إلاّ بذلك اليوم من آذار، بعد سنتين في بالباراسو حين وقعت

إليثا حديثة الولادة بين ذراعيها، عزاءً لها عن أولادٍ يجب ألا يكونوا لها، بسبب الرجال الذين لا تستطيع أن تحبّهم والبيت الذي لن تؤسِّسه أبداً.

ظهر أنّ التينور الفيينيّ كان عاشقا مهذّباً. يحبُّ النساءَ ويعرفهنَّ بعمق، استطاع أن يمحو من ذاكرته غراميات الماضي المتناثرة، خيبات الكثير من الوداعات، الغيرة، تعديات وخداعات علاقاتٍ أخرى ويستسلم ببراءة كاملة للوله القصير بروز سومّرز. لم يكن مصدر تجربته معانقة مؤثرة لعاهرات صغيرات ناحلات؛ فبرِتزنِر تباهى بأنّه لم يضطر لدفع شيء مقابل المتعة، لأنّ نساءً من طبقات متنوعة، بدءاً من الخادمات المتواضعات وصولاً إلى الكونتيسات المتعجرفات كنَّ يستسلمن له دون شرط عند سماعه يُغنّي. تعلّم فنون الحب آنَ تعلّمَ فنّ الغناء. كان في العاشرة من عمره حين عشقته من ستصبح مرشدته، فرنسية لها عينا نمر وثديا هيصَمٍ خالصٍ، بعمر كافٍ كي تكون أمّه، والتي بدأت عشقَها بدورها وهي في الثالثة عشرة من عمرها في فرنسا مع دوناتيان ـ ألفونس ـ فرانسوا دُ ساد. هي ابنة سجّان في الباستيل، تعرّفت على الماركيز الشهير في إحدى الزنزانات القذرة، التي كتب فيها قصصه الشاذة على ضوء شمعة. كانت تذهب لمراقبته عبر القضبان بدافع فضول الطفلة الخالص، دون أن تدري بأنّ والدها جاء بها للسجين مقابل ساعة ذهبية، هي آخر ممتلكات النبيل المفقور. ذات صباح وبينما كانت تختلس النظر إليه عبر ثقب المفتاح، أخرج والدها حزمة مفاتيح كبيرة من خصره، فتح البابَ وبدفعة واحدة رمى بها إلى الزنزانة، كمن يرمي بطعام لأسود. ما حدث هناك، لا تستطيع تذكّره، يكفي معرفة أنّها كانت بجانب دُ ساد، تبعته من السجن إلى فاقة الحرّية الأسوأ، تعلّمت منه أسوأ ما يمكنه أن يُعلّمها. أُدخل الماركيز في عام 1802 في مشفى شارنتون للأمراض العقلية بينما بقيت هي في الشارع لا تملك مليماً، لكنّها تملكُ معرفةً غراميّة واسعة أفادتها

في الحصول على زوجٍ ثريٍّ جدّاً، يكبرها باثنين وخمسين عاماً. مات الرجلُ بعد فترة قصيرة مُسْتَنْفَدَاً من زوجته الشابّة التي أصبحت أخيراً حرّةً تملك من المال ما يسمح لها بفِعْلِ ما يحلو لها. كانت في الرابعة والثلاثين من عمرها وعاشت تجربةَ التعلّم الوحشي بجانب دُساد، وعوزَها لكسرات الخبز في شبابها، واضطراباتِ الثورة الفرنسية، ورعبَ الحروب البونابرتية، وصار عليها أن تتحمّل قمع ديكتاتورية الإمبراطوريّة. بُشِمَت وروحها طلبث هدنة. فقرَّرت البحثَ عن مكانٍ آمن تقضي فيه بقيّة أيّامها بسلام واختارت فيينّا. في تلك المرحلة من حياتها تعرّفت على كارل بِرتزِنِر، ابن جيرانها الذي ماكاد يبلغ العشرَ سنوات، لكنّه يُغَنّي مثل بلبل في كورال الكاتدرائيّة. وبفضلها وقد صارت صديقة وموضع ثقة آل بِرتزِنِر لم يُخْصَ الصبيُّ في ذلك العام للحفاظ على جمال صوتِه الساحِر، كما كان مدير الكورال قد اقترح.

ـ لا تلمسوه وسيصبح خلال زمن قصير أفضل تينور في أوروبا ـ تنبّأت الجميلة. ولم تُخطئ.

على الرغم من الفارق الهائل بالسن قامت بينها وبين الصغير كارل علاقة غير معهودة. أُعْجِبَت بنقاء مشاعر الطفلِ وانهماكه بالموسيقى، ووجد هو فيها ربّةَ الفنّ التي لم تنقذ فحولته وحسب بل علّمته استخدامها أيضاً. في المرحلة التي تبدّل فيها صوته كلّياً بدأ حلاقة لحيته وطوّر مهارة الخصيّ المثالية لإشباع المرأة بطرقٍ لم تحتَط لها الطبيعة ولا العادة، لكنّه لم يعانِ من مخاطر مع روز سومّرز، لم يهاجمها بحميّا فوضى المداعبات المفرطة في جسارتها، إذ لم يكن الموضوع يتعلّق بصدمها بحيَلِ سراي حريم، وقد قرّر ذلك دون أن يخطر له بأنّ تلميذته ستتفوّق عليه بإبداعاتها في أقلّ من ثلاثة دروس عملية. كان رجلاً مهتمّاً بالتفاصيل ويعرف القوّة المبهرة للكلمة الدقيقة ساعة الحبّ. بيده اليسرى فكّ أزرار اللؤلؤ الصغيرة من ناحية الظهر واحداً فواحداً، بينما نزع باليمنى مشابك شعرها دون أن يضيع إيقاع القبلات المتداخلة مع سلسلة

المدائح. كلّمها عن قصر قامتها، عن بياض بشرتها النقيّ، والاستدارةِ الكلاسيكية لعنقها وكتفيها التي تؤجّج عنده حريقاً وإثارة جامحة.

ـ جنّنتني... لا أدري ما يحدث لي، لم أحبّ قط ولن أعود لأحبَّ أحداً مثلك. هذا اللقاء جاء بناء على مشيئة الآلهة ونحن محكومون بالتحابب ـ همس مرّةً وأخرى.

أنشدها قائمة كاملة، لكنّه فعل ذلك دون خبث مقتنعاً تماماً بنزاهته ومبهوراً بروز. فكّ أربطة المشدّ، عرّاها من ملابسها الداخلية حتى تركها في سروال الباتِستة الداخلي الطويل وقميص رقيق يكشف عن حبتي فريز حلمتيها، لم يخلع لها حذاء جلد الماعز ذي الكعب الملتوي ولا الجوربين الأبيضين المشدودين إلى الركبتين برباطين مطرزين. عند هذه النقطة توقّف مترصّداً ودويٌّ أرضيّ في صدره، مقتنعاً بأنّ روز سومّرز كانت أجمل امرأة في الكون، ملاكاً، وأنّ قلبه سينفجر متشظّياً إذا لم يهدأ. رفعها بين ذراعيه دون أيّ جهدٍ، عَبَر الغرفة ووضعها على قدميها أمام مرآة كبيرة ذات إطارٍ مُذهّب. كان نور الشموع المرتعش وملابس المسرحية المعلّقة إلى الجدران في خليط من البروكار والريش والقطيفة والمطرزات الحائلة يضفي على المشهد جوّاً وهمياً.

نظرت روز عزلاءَ وثملةً انفعالاً في المرآة، ولم تعرف تلك المرأة بلباسها الداخلي وشعرها المنكوش ووجنتيها المتأجّجتين، يُقبّلها رجل على عنقها ويداعب ثدييها بملء يديه. منحت هذه الوقفةُ اللاهثة الوقتَ للتينور كي يستعيدَ أنفاسه وشيئاً من صفائه الضائع في الاحتدامات الأولى. يحتاج إلى خياط جيّد، فكّرت روز، التي لم تكن قد رأت رجلاً عارياً قط ولا حتى أخويها في الطفولة، ومعلوماتها مصدرها الوصف المبالغ فيه للكتب المثيرة، وبعض البطاقات البريدية اليابانية التي اكتشفتها في أمتعة جون، حيث تبلغُ الأعضاء الذكرية أحجاماً هي بصراحة متفائلة. الخذروف الوردي والصلب الذي بدا أمام عينيها لم يخفها، كما كان يخشى كارل

برِتزنِر، بل على العكس أحدث عندها قهقهة جامحة وفرحة؛ وهو ما أضفى طابعه على ما جاء بعده. فبدل الاحتفال الوقور، بل وأكثر من ذلك، المؤلم لفكّ العذرية المعتاد تمتّعا بالتفافات مُداعِبة وتلاحقا في الغرفة قافزين فوق الأثاث مثل صبيين، شربا بقيّة الشمبانيا وفتحا زجاجة أخرى ليسكباها الواحد فوق الآخر دفقاً مزبداً، لفظا كلاماً بذيئاً هاذيين بين ضحكٍ وقَسَمٍ بالحب، تعاضّا وتلاعقا، تقلّبا بإفراط في مستنقع الحب المدشّنَ توّاً الذي لا قاع له طوال المساء وبعد حلول الليل ببرهة طويلة، دون أن تخطر ببالهما الساعة ولا بقيّة الكون. وحدهما في الوجود. قاد التينور الفييني روز إلى مستويات ملحمية، فتبعته، وهي الطالبة المتدرِّبة، دون تردّدٍ وحين وصلا إلى القمّة راحت تُحلّق وحدها بذكاء طبيعي مدهش مهتدية بالإشارات ومستفسرة عما لم تتمكّن من تكهّنه، تُذهِلُ المعلّمَ بل وتهزمُه أخيراً بمهارتها المرتجلة وهديّة حبّها المفحمة. حين تمكّنا من الهبوط إلى الواقع كانت الساعة تشير إلى العاشرة ليلاً، والمسرح مقفر وفي الخارج يسود الظلام متوّجاً بكثافةِ ضبابٍ كحلوى البيض.

بدأ بين الحبيبين تبادلٌ مسعورٌ للرسائل والأزهار والسكاكر والأشعار المنسوخة وآثار الحبّ الصغيرة طوال فترة لندن الغنائية؛ يلتقيان حيث يستطيعان، فقد أفقدهما الوله كلّ حكمة. يبحثانِ كسباً للوقتَ عن غرفٍ في فنادِق قريبة من المسرح، دون أن تشغلهما إمكانيةٌ أن يُعْرَفا. كانت روز تهرب من البيت بذرائع مضحكة والأم المذعورة لم تبح بشيءٍ من شكوكها لجرمي، مُصَلّيةً كي يكون جموح ابنتها عابراً ويختفي دون أن يخلّف أثراً. بينما يصل كارل برِتزنِر إلى التدريبات متأخراً، ومن كثرة ما تعرّى في كلّ ساعة اعترته نزلةُ بردٍ فلم يستطِع الغناء في حفلتين، لكنّه بعيداً عن الأسف لذلك استغلّ الوقت لممارسة الحب المهتاج بقشعريرة الحمّى. يحضر إلى الغرفة المستأجَرة حاملاً أزهاراً لروز وشمبانيا كي يشربا الأنخاب ويستحمّا، حلوى الكريما وقصائد مكتوبة على عجلٍ لقراءتها في

السرير، زيوتاً عطريّة لفرك مناطق كانت حتى ذلك الوقت مختومة، كتباً إيروسية يتصفحانها باحثين عن أكثر المشاهِد إلهاماً، ريشَ نعام للدغدغة وما لا نهاية له من الأدوات المخصَّصة لألعابهما. شعرت الفتاة بأنّها تتفتّح مثل زهرة مكتنزة، وتتضوّع عطرَ هيام لجذبِ الرجل، سحقِهِ، ابتلاعِهِ، هضمِهِ كما حشرة وأخيراً بصقِ عُظَيْماته التي تحوّلت إلى شظايا. كانت تسيطر عليها طاقة لاتحتمل، تختنق، لا تستطيع المكوث لحظةً واحدة ساكنة، ويلتهمها القلق. بينما كارل برتزِبر يتخبّط في الفوضى، مُثاراً أحياناً حتى الهذيان وأخرى منطفئاً، يُحاول القيام بواجباته الموسيقية، لكنّه كان يتآكل على مرأى العين، والنقاد الذين لا يرحمون قالوا: ممّا لاشكّ فيه أنّ موزارت يتقلّب في قبره وهو يسمع التينور الفييني يؤدّي ـ حرفياً ـ ألحانَه.

رأى العاشقان مذعورين لحظةَ انفصالهما تقترب فدخلا مرحلة الحبّ المُعاكَس. ناقشا موضوعَ الهرب إلى البرازيل أو الانتحار سويّةً، لكنّهما لم يذكرا إمكانيّة الزواج قط. أخيراً انتصرت الرغبةُ في الحياة على الإغواء المأساوي وأخذا بَعْدَ آخرِ عرضٍ عربةً وذهبا في إجازة إلى فندق ريفي في الشمال الإنكليزي. فقد قرّرا التمتع بتلك الأيام المُغفلة قبل أن يرحل كارل برتزِبر إلى إيطاليا حيث عليه أن ينفّذ عقوداً أخرى. وستجتمع به روز في فيينا بعد أن يؤمّن مسكناً مناسِباً ويرسلَ إليها مالاً للرحلة.

كانا يتناولان طعامَ الإفطار تحت مظلّة في شرفة الفندق الصغير وسيقانهما مُغطاة ببطانية صوفية لأنّ هواء الشاطئ كان قاطعاً وبارداً حين قاطعهما جِرمي سومُرز مهاناً ووقوراً مثل نبيٍّ. كانت روز قد تركت أثراً جعل من السهل على أخيها معرفة مكانها واللحاق بها حتى ذلك المُنتجع المعزول. حين رأته أفلتت منها صرخة مُباغَتة أكثر مما هي صرخة رعب، لأنّ هيجان الحب منحها شجاعة. في تلك اللحظة فقط كوّنت فكرة عمّا ارتكَبته وتبدّى لها ثقلُ

النتائج بكلّ حجمها. نهضت على قدميها عازمة على الدفاع عن حقّها في الحياة على هواها، لكنّ أخاها لم يمنحها الوقت للكلام وتوجّه إلى التينور مباشرة.

- أنت مدينٌ بتوضيحٍ لأختي. أعتقد أنك لم تقل لها إنّك متزوّج وعندك ولدان - باغتَ الغاوي.

كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي أهمل روايته لروز. كلّمها حتى التخمة. أسلمها أكثر التفاصيل حميمية في غرامياته السابقة، دون أن ينسى شذوذات الماركيز دُ ساد التي قصّتها عليه مرشدته الفرنسية بعينيها اللتين لنمر، لأنّها كانت تُبدي فضولاً مرضياً لمعرفة متى ومع من وخاصّة كيف كان يُمارِسُ الحبَّ، منذ العاشرة من عمره وحتى اليوم السابق لتعرّفه عليها. قال لها كلّ شيء دون تردُّدٍ حين انتبه كم كانت تُحبُّ سماعه وكيف تضمّه إلى النظرية والممارسة. لكنّه لم يذكر شيئاً عن الزوجة والطفلين إشفاقاً على تلك العذراء الجميلة التي قدّمت نفسها إليه دون شروط. لم يرغب بتدمير سحر ذلك اللقاء: روز سومّرز كانت تستحقُّ التمتّعَ بحبِّها الأوّل على مداه.

- أنت مدين لي بإصلاح ما أفسدت - تحدّاه جِرمي سومّرز صافعاً وجهه بضربة قفّاز.

كان كارل برِتزِر يحبّ الحياة ولن يرتكب وحشية التورّطِ في مبارزة. فهم أنّ لحظة الانسحاب قد حانت وأسف لأنّه لن يملك لحظات على انفراد معها كي يوضّح لها الأمور، فهو لا يرغب بتركها ممزّقةَ القلب. تفكّر أنّه أغواها بضمير شريرٍ ليهجرها بعد ذلك. كان بحاجة لأن يقول لها مرّة أخرى كم يحبّها حقيقةً ويأسف لأنّه ليس حرّاً ليحقّق معها حلمهما، لكنّه قرأ في وجه جِرمي سومّرز أنّه لن يسمح له بذلك. أخذ جرمي أخته التي بدت مصعوقةً من ذراعها، وحملها بحزم إلى العربة دون أن يمنحها فرصة الوداع من حبيبها أو أخذ أمتعتها القليلة. قادها إلى بيت عمّة لها في اسكتلندا

حيث كان عليها أن تبقى حتى ينجلي أمرها. إذا حدثت المأساة الأسوأ، كما سمّى جرمي الحملَ، فإنّ حياتها وشرف الأسرة دُمّرا للأبد.

ـ ولا كلمة من هذا لأيٍّ كان، ولا حتى لأمّنا أو لجون، هل فهمت؟ ـ هذا هو الشيء الوحيد الذي قاله لها أثناء الرحلة.

قضت روز أسبوعاً من القلق حتى تبيّنت أنّها ليست حاملاً. حمل إليه الخبرُ نسمةً من الراحة كما لو أنّ السماء برّأتها. قضت ثلاثة أشهر إضافيّة تخيط ثياباً للفقراء وتقرأ وتكتب خلسة، دون أن تنهمر من عينيها دمعة واحدة. تفكّرت خلال هذا الوقت بمصيرها وانقلب شيء ما في داخلها، لأنّها حين أنهت حبسها في بيت عمّتها أصبحت شخصاً آخر. هي وحدها من انتبه إلى التبدّل. ظهرت في لندن كما كانت حين ذهبت، طلقةً ، هادئةً، مهتمّةً بالغناء والقراءة ، دون أيّة كلمة حنق ضدّ جِرمي لأنّه انتزعها من ذراعي حبيبها، أو حنينٍ لرجلٍ خدعها، بدت رياضيّة في موقفها لتجاهل افتراء الغريب ووجوه الحزن في أسرتها. ظاهرياً بدت الفتاةَ السابقة ذاتها، ولا حتى أمّها استطاعت أن تجد ثغرةً في بنيتها التامّة تسمحُ لها بتوبيخ أو نصيحةٍ. ثم إنّ الأرملة لم تكن في وضع يؤهّلها لمساعدةِ ابنتها أو حمايتها: فالسرطان كان يلتهمها بسرعة. التبدّل الوحيد في سلوك روز كان نزوتها بقضاء ساعاتٍ في الكتابة محبوسةً في غرفتها، تملأ عشرات الدفاتر بحرف صغيرٍ تحتفظ بها تحت القفل والمفتاح. وبما أنّها لم تحاول إرسال رسالة واحدةً قط فإنّ جِرمي سومّرز الذي لم يخفَ شيئاً غير السخرية، ما عاد يهتمّ بنزوة الكتابة وافترض أنّ أخته فعلت عين الصواب بنسيانها التينور الفيينيّ المشؤوم. لكنّها لم تكتفِ بعدم نسيانه، فهي تتذكّر بوضوح الظهيرة كلّ تفصيلٍ مما جرى وكلّ كلمة أو همسة نطق بها. الشيء الوحيد الذي محته من ذاكرتها هو انزعاجها من أنّها خُدِعت. أمّا زوجة وابنا كارل برِتزنِر فقد اختفوا ببساطة لأنّهم لم يشغلوا أيّ حيّز في إفريز ذكريات حبّها الفسيح.

لم يستطع الانسحابُ إلى بيت العمّة في اسكتلندا أن ينهي الفضيحة، لكن بما أن تأكيد الشائعات لم يكن ممكناً فإنّ أحداً لم يجرؤ على إزعاج الأسرة بشكلٍ واضح. عاد طالبو ودّ روز، الذين طاردوها من قبل، واحداً واحداً، لكنّها أبعدتهم بحجّة مرضِ أمّها. ما يُسكَتُ عنه كأنّه لم يحدث، كان جِرمي يؤكّدُ، مستعدّاً ليقتل بالصمت كلَّ أثرٍ من ذلك الحدث. بقي هروبُ روز المخجل عالقاً على حافّة الأشياء دون ذكرٍ، وإن كان ذكرُ الأخوين له عبوراً يبقي على الحنق طازجاً، لكنّه بات يوحّدهما بالسر المشترك أيضاً. بعد سنواتٍ، حين لم يعد الموضوعُ يهمّ أحداً تجرّأت روز وحكت لأخيها جون، الذي اتخذت أمامه دور الطفلة المدلّلة والبريئة دائماً. وبعد زمن قصير من وفاة والدتهم عرضوا على جِرمي مسؤولية مكتب *شركة الاستيراد والتصدير البريطانية* في تشيلي؛ فرحل مع أخته روز حاملين السرّ طازجاً إلى الجانب الآخر من العالم.

وصلا في نهاية شتاء 1830 ، حين كانت بالباريسو ما تزال قرية، لكن توجد فيها شركات وأسر أوروبيّة. اعتبرت روز تشيلي عقوبةً لها فتحمّلتها بصبرٍ، مذعنة لدفع ثمن غلطتها بذلك النفي الحتميّ، دون أن تسمح لأحدٍ وخاصّةً لأخيها جِرمي أن ينتبه إلى قنوطها. تَدَرُّبها على عدم الشكوى وعدم الكلام حتى في الحلم عن الحبيب الضائع حافظ على تماسكِها حين كانت تخنقها الإزعاجات. أقامت في الفندق بأفضل ما يمكن، مستعدة للانتباه إلى نفسها من المراوح والرطوبة، لأنّ وباء الخنّاق الدفتريائي كان قد أُفلت وراح الحلاقون يحاربونه بعملياتٍ جراحية وحشية وغير مجديةٍ يقومون بها بموسى الحلاقة. خفّف الربيع ومن بعده الصيف من الانطباع السيئ الذي كوّناه عن البلد. قرّرت نسيانَ لندن والاستفادة من وضعها الجديد، على الرغم من الجوّ الريفي والريح البحرية التي صارت تنفذ إلى عظامها حتى في ظهيرة الأيّام المشمسة. أقنعت أخاها، وهذا بدوره أقنع الشركة، بضرورة الحصول على بيتٍ لائقٍ باسم الشركة وإحضار الأثاث من إنكلترا. طرحت المسألة كما لو

أنّها مسألة سلطة ومكانة: لم يكن من المناسب لممثل مكتب بمثل تلك الأهمية أن يقيم في فندق بائس. بعد ثمانية عشر شهراً، حين دخلت الطفلة إليثا في حياتهم كان الأخوان سومّرز يعيشان في بيتٍ كبير في ثِرّو ألِغرِ، وكانت الآنسة روز قد نحّت الحبيبَ القديم إلى ركن مختوم من الذاكرة مكرسة نفسها تماماً لشغل مكان مرموق في المجتمع الذي تعيش فيه. في السنوات اللاحقة كبرت بالبارايسو وتطوَّرت بالسرعة ذاتها التي تركت بها روز الماضي وراءها وتحولت إلى المرأة الغنية ذات المظهر السعيد، التي ستشغل بعد أحد عشر عاماً جاكوب تود. ولم يكن المبشر المزيّف أوّل من رفضته، لكنّها لم تكن مهتمة بالزواج؛ فقد اكتشفت صيغاً رائعة للحفاظ على الرومانسية الرعوية مع كارل برِتزِنِر، وهي تعيش في كلّ لحظة ولهَهَا المتأجج وهذياناتها الأخرى التي ابتدعتها في صمت ليالي عزوبتها.

الحبّ

لا أحد كان يستطيعُ أن يعرفَ ما يجري في روح إليثا المريضة بالحبّ أفضلَ من الآنسة روز. عرفت على الفور هويّة الرجل، لأنّ الأعمى وحده يمكنه ألا يرى العلاقةَ بين هذيانِ الفتاةِ وزيارةِ مستخدم أخيها ومعه صناديق كنز فِليثيانو رودريغِث دِ سانتا كروث. دافعها الأوّل كان إبعاد الشاب بضربة ريشة، لأنّه تافه وفقير بائس، لكنّها سرعان ما أدركت أنّها هي أيضاً أحسّت بجاذبيته الخطيرة، ولم تستطع أن تنتزعه من رأسها. صحيح أنَّ أوّل ماأمعنت النظر فيه هو ثيابه المرقعة وشحوبه المفجع، لكن نظرة ثانية منها كفت لتثمين هالته المأساوية التي لشاعرٍ رجيم. وبينما كانت تطرّز في صالة خياطتها الصغيرة قلّبت ألفَ مرّة تعثّر حظّها الذي طالما أفسدَ عليها خططها للحصول على زوجٍ مُرْضٍ وغني لإليثا. صارت أفكارها سدى من المكائد لهزيمة ذلك الحبّ قبل أن يبدأ، بدءاً من إرسال إليثا إلى مدرسة داخلية للآنسات في إنكلترا أو اسكتلندا حيث توجد عمّتها العجوز، وحتى قول الحقيقة لأخيها كي يتخلّص من مستَخدَمِه. ومع ذلك تنتش في أعماق قلبها ورغماً عنها رغبةٌ سرّية تتمنّى فيها لإليثا أن تعيشَ ولهها حتى يُضنيها، كي تُدرِك الفراغَ الهائل الذي خلّفه التينور في حياتها قبل ثمانية عشر عاماً.

صارت الساعات تمرّ على إليثا ببطءٍ مرعب في دوّامة من المشاعر المختلطة، لا تعرف الليل من النهار، الأربعاء من الجمعة،

وما إذا كان الوقت الذي مرَّ عليها منذ عرفت الشابَّ ساعات أو سنين. تشعر فجأةً بدمها يزبدُ وبجلدها يمتلئ بالنتوءات التي سرعان ما تتلاشى بشكلٍ غامض تماماً كما ظهرت. كانت ترى الحبيبَ في كلّ مكان، في ظلمة الزوايا، في شكل الغيوم، في فنجان الشاي، وخاصّة في أحلامها. لم تكن تعرف اسمه ولم تجرؤ على سؤال جِرمي سومّرز عنه خشيةَ الوقوع في موجة من الشبهات، لكنّها تتسلّى لساعات وهي تتصوّر له اسماً يليقُ به. كانت بحاجة ماسّة لأحدٍ تتكلّم معه عن حبّها، تحلّلُ كلّ تفصيلٍ من تفاصيل زيارة الشاب، تتأمّل بما صمتت عنه، وما كان عليها أن تقوله وما نقلته بنظراتها وخجلها ومقاصِدها، لكن لم يكن هناك من تثقُ به. تلهّفت لزيارة من زيارات القبطانِ جون سومّرز، ذلك العمّ القرصان الذي كان الشخصية الأكثر سحراً في طفولتها، والوحيد القادر على فهمها ومساعدتها في مثلِ تلك اللحظة الحرجة. لم تكن تشكّ بأنّ جِرمي سومّرز سيعلن حرباً لاهوادة فيها على مستخدمِ شركته المتواضِع لو علم بالأمر، وهي لاتستطيع أن تتكهّن بموقف الآنسة روز؛ فقرّرت أنّه كلّما كان أهل بيتها أقل معرفة بالأمر كلّما زادت مساحة حريّة الفعل عندها وعند خطيبها المستقبلي. لم تضع نفسها قط موضع أنّها لن تلقى تجاوباً يضاهي الكثافة ذاتها في المشاعر، إذ ببساطة كان من المحال لحبّ بهذا الحجم أن يهزّها وحدها. أدنى حدود المنطق والعدل كانت تدلّ على أنّه في مكانٍ ما من المدينة يعاني هو العذابَ ذاته.

كانت إليثا تختبئ كي تلمس جسدها في أماكن سرّية لم تسبرها من قبل، تُغمِض عينيها فتكون يده هي التي تداعبها برقّة عصفور، شفتاه هما اللتان تقبّلان في المرآة، وخصره هو الذي تُعانقه في الوسادة، وهمسات حبّه هي التي تحملها الريح. حتى أحلامها لم تفتها قوّةُ خواكين أنديِتا؛ تراه يظهر طيفاً هائلاً يترنّحُ فوقها ليلتهمها بألف طريقة هانئة ومهيّجة. عاشق، شيطان، ملاك، لم تكن تعرف. ما كانت ترغبُ بالاستيقاظ، وتمارس بحزم تعصّبي المهارة

المتعلّمة من ماما فرِسيا للدخول والخروج من الأحلام بإرادتها. وقد وصلت من التحكّم بهذا الفن حدًّ أن حبيبها المتوهّم صار يحضر بجسده، فتستطيع لمسه، شمَّهُ، سماع صوته قريباً نقيّاً تماماً. لو استطاعت أن تبقى نائمةً، لما احتاجت لشيءٍ آخر: تستطيع أن تستمرّ بحبّه في سريرها إلى الأبد، هكذا فكّرت. كانت ستموت في هذا الهذيان لو أنّ خواكين أنذيِتا لم يمْثُل فيما بعد في البيت ليخرج طرودَ الكنز لإرسالها إلى الزبون في الشمال.

عرفت قبل ليلةٍ بأنّه سيأتي، لكن ليس بالحدس أو التوجّس، كما ستُلمح بعد سنواتٍ حين روته لتاو شيين، وإنّما لأنها سمعت ساعةَ العشاء جِرمي سومّرز يعطي تعليماته لأخته وماما فرِسيا.

ـ سيأتي المستخدم نفسه ليأخذ الشحنة التي جاء بها ـ أضاف حين مرّ، دون أن تنتابه ريبة بإعصار العواطف التي ستطلقها كلماته لأسبابٍ مختلفة لدى الإناث الثلاث.

أمضت الفتاةُ الصباح على الشرفة ترقب الطريق الذي يصعد عبر الهضبة إلى البيت. عند الظهيرة رأت العربة التي تجرّها ستة بغال يتبعها عمّال مسلحون على جياد. شعرت بسلام جليديّ، كما لو أنّها ماتت، دون أن تدري أن الآنسة روز وماما فرِسيا تراقبانها من البيت.

ـ رغم كلّ ذلك الجهد في تربيتها هاهي تعشق أوّل سافل تعبر به في الطريق! ـ تمتمت الآنسة روز.

كانت قد قرّرت صنع المُحال لمنع الكارثة، دون قناعة زائدة، لأنّها تعرف أكثر من اللازم الصلادةَ الكبيرة للحب الأوّل.

ـ أنا سأسلّم الشحنة. قولي لإليثا أن تدخل إلى البيت ولا تدعيها تخرج تحت أيّة حجّة ـ أمرت.

ـ وكيف تريدينني أن أفعل ذلك؟ ـ سألت ماما فرِسيا بمزاجٍ سيّئ.

ـ أغلقي عليها إذا تطلّب الأمر.

- أغلقي عليها أنتِ إن كنت تستطيعين. لا تورّطيني - ردّت وخرجت تجرجر شبشبها.

كان من المحال منع الفتاة من الاقتراب من خواكين أنذيِتا وتسليمه رسالة. فعلت ذلك دون مواربة وهي تنظر إلى عينيه بعزم هو من الضراوة بحيثُ لم تملك الآنسة روز الشجاعة لاعتراضها ولا ماما فرِسيا للوقوف في طريقها. عندئذٍ أدركت المرأتان أن السحر أقوى من المتصوَّر وأنّه لا توجد أبواب بمفاتيح ولا شموعٍ مباركة كافية لفكّه. كان الشاب بدوره قد قضى الأسبوع مهووساً بذكرى الفتاة، التي ظنّها ابنة ربّ عمله، جِرمي سومّرز، وبالتالي من المحال الوصول إليها، لم يخطر له الانطباع الذي خلّفه عندها ولا أنّها بتقديمها كأس العصير الخالد في زيارته السابقة أعلنتهُ حبيباً لها، وللسبب نفسه انتابه رعب مريع حين سلّمته ذلك المغلّف المغلَق. وضعَهُ مرتبكاً في جيبه وتابع مراقبةَ عملية تحميل صناديق الكرتون حين كانت أذناه تلتهبان وثيابه تبتل ورعشات حمّى تجوب ظهرَهُ. بينما إليثا تراقبه بإمعانٍ واقفةً، بلا حراكٍ، صامتةً على بعد خطواتٍ منه، غيرَ آبِهةٍ بسيماء الغضب عند الآنسة روز والحزن عند ماما فرِسيا. وحين ربط آخر صندوقٍ في العربة ودارت البغالُ نصفَ دورة لتبدأ هبوط الهضبة، اعتذر خواكين أنذيِتا عن الإزعاجات من الآنسة روز وحيّا إليثا بانحناءة خفيفة جدّاً ومضى بأسرع ما استطاع.

لم تحتوِ رقعة إليثا إلا على سطرين لتدلّه أين وكيف سيلتقيان. كانت الحيلة من البساطة والفطنة بحيث أنّ أيّ شخص يمكن أن يخلط بينها وبين خبيرة في قلّة الحياء: على خواكين أن يحضر بعد ثلاثة أيّام إلى صومعة *عذراء النجدة الدائمة*، وهي كنيسة صغيرة منتصبة على هضبة ثِرّو أَلِغْرِ كحامية لأبناء السبيل، على مسافة قصيرة من بيت آل سومّرز. اختارت إليثا المكان لقربه والتاريخ لأنّه يُصادِف يوم أربعاء. فالآنسة روز وماما فرِسيا والخدمُ سينشغلون بالعشاء، ولن ينتبه أحدٌ إليها إذا ما خرجت لبرهة. فمنذ مغادرة

المصدود ميشيل ستيوارد لم يعد هناك من سبب للرقص ولم يعد مقبولاً حتى في الشتاء المبكر، لكنّ الآنسة روز حافظت على العادة لنزع فتيل الشائعات التي كانت تدور على حسابها وحساب ضابط البحرية. فإلغاء السهرات الموسيقية في غياب ستيوارد يعادل الاعتراف بأنّه السبب الوحيد للقيام بها.

في السابعة تربّصَ خواكين ينتظر قلقاً. رأى من بعيد بهاءَ البيت المُضاء وعرضَ العربات والمدعوين والمصابيح المشتعلة لسائقي العربات الذين ينتظرون في الطريق. اضطُرَّ مرتين أو أكثر للاختباء عند مرور عسس الليل الذين يتفقّدون المصابيح التي تُطفئها الريحُ في الصومعة، وهي عبارة عن بناء مربع صغيرٍ من الطوب مُتَوَّجٍ بصليب من الخشب المدهون، وكانت أكبر قليلاً من مُعتَرَف، تضمّ صورةً جصّيةً للعذراء ودورقاً فيه أزهار جافّة. الليلة مقمرة، لكنّ سحائب كثيفة تعبر السماء وتخفي بين الحين والآخر القمر الساطع كلّياً. في التاسعة تماماً شعر بحضور فتاةٍ ولمح هيئتها الملفوفة من رأسها حتى قدميها في معطف أسود.

ـ كنتُ بانتظارك، يا آنسة ـ هذا هو الشيء الوحيد الذي خطر له التلعثم به شاعراً بنفسه كأبله.

ـ أنا انتظرتك دائماً ـ ردّت عليه دون أدنى تردُّد.

نزعت معطفها فرأى خواكين أنّها ترتدي ثياباً احتفالية وقد شمّرت تنورتها وانتعلت شبشباً، تحمل في يدها جواربها البيضاء وحذاء شمواه كيلا توّسخها بالطين في الطريق. كان شعرها الأسود المفروق من وسطه جُمع على جانبي الرأس في جديلتين مطرزتين بشريطتين ملساوين. جلسا في عمق الصومعة على المعطف الذي وضعته هي على الأرض، مختفيين خلف التمثال، صامتين، متلاصقين تماماً لكن دون أن يتلامسا. لم يجروْا خلال برهة طويلة على النظر الواحد للآخر في العتمة العذبة. مصعوقان من

القرب المتبادل، يتنفسان الهواء ذاته متأجّجين على الرغم من عصف الريح التي تتركهما في ظلمة.

ـ اسمي إليثا سومّرز ـ قالت أخيراً.

ـ وأنا خواكين أنذِيتا ـ أجاب.

ـ خطر لي أنّك تُدعى سِباستيان.

ـ ولماذا؟

ـ لأنّك تشبه سان سِباستيان، الشهيد. أنا لا أذهب إلى الكنيسة البابوية (الكاثوليكية) لأنّني بروتستانتية، لكنّ ماما فرِسيا حملتني أحياناً لتفي بنذورها.

وهنا انتهى الحوار لأنّهما لم يعرفا ماذا يقولان أكثر؛ كانا يطلقان نظرات من طرف عيونهما فيخجلان في آنٍ معاً. إليثا تتلقّى رائحةَ صابونه وعرقه، لكنّها لا تجرؤ على الاقتراب بأنفها، كما كانت ترغب. الأصوات الوحيدة في الصومعة هي الريح وتنفّسهما المُضطرب. بعد دقائق قليلة أعلنت أنّ عليها أن تعود إلى البيت، قبل أن يلاحظوا غيابها وتودّعا مصافحةً. هكذا سيلتقيان أيّام الأربعاء القادمة دائماً في ساعاتٍ مختلفة ولزمنٍ قصير. يتقدّمان في كلّ لقاء من تلك اللقاءات المضطربة بخطواتِ عملاق في هذيانات الحبّ وعواصفه. حكى الواحد للآخر ما لابدّ منه سريعاً، فالكلمات بدت إضاعةً للوقت وسرعانَ ما أخذا بأيدي بعضهما واستمرّا بالكلام، والجسدان يزدادان قرباً مع اقتراب الروحين، إلى أن تبادلا القبل على الفم في الأربعاء الخامس، في البداية امتحاناً وبعدها سبراً ثم أخيراً ضياعاً في اللذة حتى إفلات الاضطرام الذي يستنفدهما. عندها كانا قد تبادلا الخلاصات المكثفة لسنواتِ إليثا السبعة عشر، وسنواتِ خواكين الواحدة والعشرين. ناقشا موضوع سلّة وملاحف الباتِستة وبطانية السمّور تماماً كما ناقشا موضوعَ صندوق صابون مرسيليا، فارتاح أنذِيتا إلى أنّها ليست ابنةَ أحدٍ من آل سومّرز، ولها أصل غير أكيدٍ كأصله على الرغم من أنّ هوّة

اجتماعية واقتصاديّة تفصل بينهما. علمت إليثا أنّ خواكين كان ثمرة حبٍّ عابر، فالأبُ تبخّر بالسرعة التي زرع فيها بذرته وكبر الطفلُ دون أن يعرف اسمه، حاملاً كنية أمّه محكوماً بشرطه كابن حرام، الذي حدَّ كلَّ خطوة من خطوات طريقه. طردت الأسرةُ الابنةَ التي فقدت شرفها من حضنها وتجاهلت الابنَ غير الشرعيّ. كان الجدّان والأخوال تجاراً وموظفين من الطبقة المتوسّطة، غارقين في مستنقع الأحكام المبتسرة، يعيشون في المدينة ذاتها على مسافة ميلٍ أو أقل منهما، ومع ذلك لا يلتقون أبداً. يذهبون أيّامَ الأحد إلى الكنيسة ذاتها، لكن في ساعاتٍ مختلفة، لأنّ الفقراء لم يكونوا يذهبون إلى صلاة الظهيرة. لم يلعب خواكين الموصوم بالعار في الحدائق العامّة ذاتها كما لم يتربَّ في مدارس أولاد أخواله، لكنّه ارتدى لباسهم ولعب بدُماهم التالفةِ، التي كانت توصلها خالة حنون إلى الأخت المكروهة عبر طرقٍ ملتوية. كانت أمّ خواكين أنذيِتا أقل حظّاً من الآنسة روز ودفعت ثمن ضعفها أغلى. كلاهما كان لهما العمر ذاته، لكن بينما تزدهي الإنكليزية شباباً استنفدت الأخرى الفاقةُ والضنى ومهنة تطريز جهاز العرائس البائسة على ضوء شمعة. لم ينقص الحظّ السيئ من كرامتها وربّت ابنها على مبادئ الشرف الراسخة، علّمت خواكين منذ نعومة أظفاره أن يسير مرفوعَ الرأسِ يتحدى أيّة سخرية أو إشفاق.

ـ سأستطيع ذات يوم أن أخرج أمي من هذا البيت البائس ـ وعد خواكين في ثرثرات الصومعة ـ وسأمنحها حياةً كريمةً كتلك التي كانت لها قبل أن تفقد كلّ شيء...

ـ لم تفقد كلَّ شيء. عندها ابن ـ قالت إليثا.

ـ أنا مأساتها.

ـ المأساة هي أنّها عشقت رجلاً سيئاً. أنتَ خلاصُها ـ حدّدت هي.

كانت لقاءات الشابين قصيرة جدّاً، وبما أنّها لم تكن تتمّ في

ساعة واحدة لم تستطِع الآنسة روز الاستمرارَ بالمراقبة ليلاً ونهاراً؛ تعلمُ أنّ شيئاً يتمُّ من وراء ظهرها، لكّنه لا يصل حدَّ حبسِ إليثا تحت القفل والمفتاح أو إرسالها إلى الريف كما يقتضي الواجبُ، وامتنعت عن ذكر شكوكها أمام أخيها جِرمي. كانت تفترض أنّ إليثا وعشيقها يتبادلان الرسائل، لكنّها لم تتمكّن من السطو على واحدة منها، على الرغم من أنّها استنفرت جميع الخدم. كانت الرسائل موجودة ومن الكثافة بحيث أنّها لو رأتها لصعقت. لم يكن خواكين يرسلها بل يسلّمها لإليثا في كلّ لقاء؛ يقول لها فيها ما لم يكن يجرؤ على قوله لها وجهاً لوجه كبرياءً وحياءً؛ فتخبّئها في صندوق على عمقِ خمسة وثلاثينِ سنتيمتراً تحت الأرض في بستان البيت الصغير، حيث تتظاهر يوميّاً بالانشغال بأعشاب ماما فرِسيا الطبيّة. شكّلت تلك الصفحات المقروءة ألفَ مرّة في اللحظات المسروقة الغذاءَ الرئيسيّ لعاطفتها، لأنّها تكشفُ عن جانب في شخصيّة خواكين لايتبدّى حين يكونان معاً، حيثُ تبدو كأنّ شخصاً آخر كتبها. ذلك الشاب الأبيُّ، المتحفِّزُ دائماً، المكفهر والمعذّب، الذي يعانقها مجنوناً ويدفعها على الفور، وكأنّ الاحتكاك يحرقه، يفتح لها بكتاباته أبواب روحه ويصف مشاعره مثل شاعر. فيما بعد وحين ستلاحق إليثا آثار خواكين غير الأكيدة ستصبحُ هذه الرسائل نافذتها الوحيدة إلى الحقيقة، والبرهان القاطِع على أنّ ذلك الحبّ الجامح لم يكن مسخاً من خيال المراهقة، بل وُجد كنعمةٍ قصيرةٍ وعذابٍ طويل.

بعد الأربعاء الأوّل في الصومعة زالَ المغصُ عن إليثا دون أن يترك أثراً، وما من شيءٍ في سلوكها أو مظهرها أوحى بسرّها باستثناء بريق عينيها الشيطاني واستخدامها ذكاءها في الاختفاء المتكرر. كانت أحياناً تُعطي انطباعاً بأنّها موجودة في أكثر من مكان في معاً، مربكة الجميع، أو لا أحد يستطيع أن يتذكّر أين ولا متى رآها، وفي اللحظة التي يبدؤون بمناداتها تتجسّدُ بموقف من

يجهل أنّهم كانوا يبحثون عنها. أحياناً أخرى تكون في صالة الخياطة الصغيرة مع الآنسة روز أو تُحضّر طعاماً مع ماما فرِسيا، لكنّها صارت من الصمت والشفافية بحيث أنّه ما من واحدة من المرأتين تملك إحساساً بأنّها تراها، فحضورها الهفهاف يكادُ لايُدرَك وحين تغيب لا أحد ينتبه إلا بعد ساعاتٍ.

ـ تبدين روحاً! سئمت من كثرة البحث عنك. لا أريدك أن تخرجي من البيت أو أن تبتعدي عن ناظري ـ كانت الآنسة روز تأمرها تكراراً.

ـ لم أتحرَّك من هنا طوال المساء ـ تردّ إليثا بشجاعة وهي تظهر بنعومة في زاويةٍ وبيدها كتابٌ أو تطريز.

ـ أحدثي صوتاً، بالله عليكِ، يا صغيرة! كيف سأراكِ إذا كنتِ أكثر صمتاً من أرنب؟ ـ كانت ماما فرِسيا تتعلّلُ بدورها.

كانت تقول نعم وتفعل ما يحلو لها، تتدبّر أمرها كي تبدو مُطيعةً وتقعَ في النفس موقعاً حسناً. حقّقت خلال أيّام قليلة براعةً مدهشة في تشويش الواقع، كما لو أنّها مارست فنّ السحر طوالَ حياتِها. وأمام استحالة الإمساك بها في تناقض أو كذبة مثبَتة اختارت الآنسة روز كسبَ ثقتها وعرّجت على موضوع الحبِّ في كلّ لحظةٍ. الذرائع صارت أكثر من اللازم: إشاعات عن صديقات، قراءات رومانسية تتشاركان فيها، أو كُتيبات أوبرات إيطالية جديدة تحفظانها عن ظهر قلب، لكنّ إليثا لا تفلت كلمة واحدة قد تخونُ مشاعرها. عندئذٍ بحثت الآنسة روز عبثاً عن علامات دامغة في البيت، نكشت ثيابَ وغرفةَ الشابّة، قلّبت مجموعة دماها وعلب موسيقاها وكتبها ودفاترها، لكنّها لم تستطع العثور على يوميّاتها. ولو عثرت عليها لانزعجت لأنّه لا يوجد في تلك الصفحات أيّ ذكر لخواكين أنديِتا. فإليثا لا تكتب إلاّ لتتذكّر. كانت يومياتها تحتوي على كلّ شيء، بدءاً من الأحلام المتكرّرة وحتى لائحة وصفات المطبخ والنصائح المنزلية اللامتناهية إلى طريقة تسمين الدجاج أو

إزالة بقع الدهن. أيضاً هناك تأملات حول الولادة. السلة الصغيرة الفاخرة وصندوق صابون مرسيليا، لكن ما من كلمة واحدة عن خواكين أنديِتا. لم تكن بحاجة ليومياتٍ كي تتذكّره. سيكون هذا بعد سنوات عدّة حين تبدأ برواية هذه الصفحات عن غرامياتها أيّام الأربعاء.

أخيراً جاءت ليلة لم يلتقِ فيها الشابان في الصومعة، بل في مكان إقامة آل سومّرز. وقد مرّت إليثا للوصول إلى تلك اللحظة بشكوك مُضنية لا متناهية، لأنّها كانت تدرك أنّها خطوة حاسمة. مجرّد لقائهما سرّاً دون رقابة يعني ضياع شرفها، كنز الفتاة الذي لا يُقدّر بثمن، وما من مستقبل ممكنٍ لها دونه. أوجعوا رأسها بتكرار: «إنّ امرأة بلا فضيلة لا قيمة لها، ولا تستطيع أبداً أن تُصبح زوجة وأمّاً، وخير لها أن تربط حجراً إلى عنقها وترمي بنفسها في البحر»، وفكّرت بأنّه لا يوجد ما يخفّف الغلطة التي سترتكبها، فهي تفعل ذلك بعد تفكّر وحساب. في الثانية فجراً وحين لم تبقَ روح واحدة مستيقظة في المدينة ووحدهم العسس يطوفون، يترصّدون في الظلمة، تدبّر خواكين أنديِتا أمره ليتسلّل مثل لصّ إلى المكتبة عبر الشرفة حيث تنتظره إليثا في ثوب نومها، حافية، مرتعدةً برداً وتلهّفاً. أخذته من يده وقادته في الظلمة عبر البيت إلى غرفةٍ خلفية، يحفظون فيها ملابس الأسرة في خزائن كبيرة وصناديق لموادّ مختلفَة من ملابس وقبعات استخدمتها الآنسة روز مرّة وأخرى على امتداد سنوات. على الأرض كانت ستائر الصالة وصالة الطعام ملفوفة في صرر من كتّان تحافظ عليها مشدودة بانتظار الفصل القادِم. في جميع الأحوال فقد وضعت احتساباً حشيشة القطّ في كُؤَيْس الأنيسادو، الذي تشربه الآنسة روز قبل نومها، وفي كأس البراندي الذي كان جِرمي يتمتّع به وهو يدخّن سيجاراً كوبياً بعد العشاء. تعرفُ كلّ سنتيمتر في البيت، تعرف بالضبط أين يُطقطِق خشب الأرض، كيف تفتح الأبواب دون صرير وتستطيع أن تقود خواكين في الظلمة دون أيّ نور آخر غير نور ذاكرتها. تبعها هو

وديعاً شاحباً من الخوف، متجاهلاً صوت الضمير المختلط بضمير أمّه التي كانت تذكّره بأصول شرف الرجل المحترم الصارمة. لن أفعل ما فعله أبي بأمّي أبداً، راح يقولُ لنفسه وهو يتقدّمُ تجرّه الفتاة من يده تلمّساً، عارفاً أنّه ما من اعتبارٍ يُجدي، فقد هزمته تلك الرغبة الجامحة التي لم تتركه بسلامٍ منذ رآها في المرّة الأولى. بينما إليثا تتخبّط بين أصوات التحذيرُ التي تُدوّي في رأسها ودافع الغريزة بوسائلها العجيبة. لم تملك فكرة واضحة عمّا سيجري في غرفة الخزائن، لكنّها تذهبُ مستسلمة مسبقاً.

كان من المُحال الإبقاء على بيت آل سومّرز المعلّق في الهواء مثل عنكبوت في مهبّ الريح دافئاً، رغم مجامر الفحم التي تشعلها الخادمات طوال سبعة أشهر في العام، فالملاحف دائماً رطبة بسبب نَفَسِ البحر المتواصل، وينامون مع زجاجات ماء ساخن عند القدمين؛ فالمطبخُ هو المكان الوحيد الدافئ دائماً، حيث فرن الحطب، وهو جهاز ضخم متعدّد الاستخدامات، لا ينطفئ أبداً. في الشتاء يُطقطِق الخشبُ، تتفكّك ألواحه ويبدو هيكل البيت كأنّه على وشك الشروع بالإبحار، مثل فرقاطة قديمة. لم تتمكّن الآنسة روز من الاعتياد على عواصف المحيط الهادي قط، تماماً كما لم تعتدْ الهزّات الأرضية. الهزّات الأرضية الحقيقيّة التي طالما جعلت العالم ينقلب عاليه سافله وتقع كلّ ستّ سنواتٍ تقريباً. وبرهنت هي في كلّ مرّةٍ عن دم باردٍ مُدهِش، لكنَّ الهزّات اليومية التي تزعزع الحياة جعلت مزاجَها سيئاً جدّاً. لم تقبل أن تضع أواني الخزفِ والكؤوس على الأرض قط، كما يفعل التشيليون، وحين يهتزُّ أثاث المطبخ وتسقط صحونه محطّمةً تلعنُ البلدَ بأعلى صوتها. في الطابق الأرضيّ كانت غرفة حفظ الأشياء التي يتحابب فيها إليثا وخواكين على صرّة ستائر الكريتون المزهّرة الكبيرة التي تحلّ محل ستائر القطيفة الخضراء، الثقيلة صيفاً. كانا يمارسان الحبّ بين الخزائن المهيبة، وصناديق القبعات، وصرر ثياب الآنسة روز الربيعية. لا البردُ ولا رائحة النفتلين أوهنت من عزيمتهما، فهما قد تخطّيا كلّ العوائق العمليّة، والخوفَ من النتائج ورعونتهما كجرويين. لم يكونا

يعرفان ماذا يفعلان لكنّهما راحا يبتدعان في مسارهما طائشين ومشوّشين، يقود أحدهما الآخر في صمت تامّ دون مهارة كبيرة، فهو في الحادية والعشرين من عمره كان بِكراً مثلها. اختار في الرابعة عشرة من عمره أن يصبح راهباً إرضاءً لأمّه، لكنّه في السادسة عشرة من عمره شرع بقراءاته الليبرالية وأعلن نفسه عدوّاً للرهبان، وليس للدين، وقرّر أن يحافظ على بكارته حتى يُخرج أمّه من البيت البائس، فقد بدا له ذلك مساهمة دنيا أمام تضحياتها التي لا تُحصى. على الرغم من عذريّة الشابين وخوفهما الرهيب من أن يُباغَتا، استطاعا أن يعثرا في الظلمة على ما يبحثان عنه. فكّا أزراراً وأربطةً، تخلّصا من خفرهما وتناقشا عاريين يشرب أحدهما نَفَسَ وريقَ الآخر. استنشقا روائح غير معهودة، وضعا هذا هنا وذاك هناك بحماسةٍ وهمّة نزيهة لفكّ الألغاز وإدراك عمق الآخر وضياعهما معاً في هوّة واحدة. تلطّخت ستائر الصيف بالعرق الحار ودم البكارة والمني، لكنّ أحداً منهما لم يحذر علامات الحب هذه. لم يكن باستطاعتهما تقريباً أن يتبينا حوافَ الآخر في الظلمة، قياسَ الفضاء المتوافر كيلا يُسقطا أكداس الصناديق وعلاّقات الثياب في صخب أذرعهما.

باركا الرياحَ والمطرَ على السطوح لأنّها تغطي على طقطقة الأرض، لكن طرق قلبيهما كان من الصخب واحتدام لهاثهما وتنهدات الحب من الضوضاء بحيث أنّهما استغربا كيف لم يستيقظ البيت كلّه.

مع الفجر خرج خواكين أنديّتا من نافذة المكتبة ذاتها، وعادت إليثا إلى سريرها منهكة، وبينما نامت هي ملفوفة بعدّة بطانيات سار هو ساعتين هابطاً الهضبة في العاصفة. عَبَر المدينة بحذرٍ دون أن يلفت انتباه العسس ليصل إلى بيته حين راحت نواقيس الكنائس تُقرع داعية للصلاة الأولى. خطّط للدخول بحذر، ليغتسلَ قليلاً، يُبدّل قبّةَ القميص وينطلق إلى العمل ببزّته المبلّلة، لأنّه لم يكن يملك غيرها، لكنّ أمّه كانت تنتظره بالماء الساخن للمتّة وخبز قديم محمّص، كما في كلّ صباح.

ـ أين كنتَ، يا وَلَدي؟ ـ سألته بكثير من الحزن بحيث لم يستطع خداعها.

ـ أكتشفُ الحبّ، يا أمّاه ـ رد وهو يعانقها مشعّاً.

كان خواكين أنذيتا يحيا معذّباً برومانسية سياسيّة لا صدى لها في بلد أناسه عمليّون وحكماء. تحوّل إلى متعصّب لنظريات لامينز الفرنسي الذي قرأه في ترجمات متواضعة وركيكة، تماماً كما قرأ الموسوعيين. ناصر الليبرالية الكاثوليكية في السياسة وفصلَ الدين عن الدولة؛ يعلنُ عن نفسه مسيحيّاً بدائيّاً مثل الرسل والشهداء، لكنّه عدوّ للرهبان، خونةِ المسيح وعقيدته الحقيقيّة، كما كان يقول، ويقارنهم بالعَلَق يتغذّون على ثقة المؤمنين، ومع ذلك حَذِرَ كثيراً من التوسّع في تلك الأفكار أمام أمّه، التي لو فعل لماتت كمداً. كذلك أعلنَ نفسه عدوّاً للأقلّية الحاكمة لعدم جدواها وانحطاطها، وللحكومة لأنّها لا تمثّل مصالح الشعب بل مصالح الأغنياء، كما كان باستطاعة زملائه أن يبرهنوا بأمثلة لا تحصى في اجتماعات مكتبة سانتوس تورنِرو وكما كان يوضّحُ لإليثا بصبر، على الرغم من أنّها لم تكن تسمعه تقريباً، فهي مهتّمة بشمّه أكثر ممّا بخطبه. كان الشاب على استعدادٍ للمقامرة بحياته مقابل لمحة بطولة عقيمة، لكنّه يخاف في داخله من النظر إلى عيني إليثا والتكلّم عن مشاعره. استقرّا على رتابةً ممارسة الحبّ مرّةً واحدةً في الأسبوع على الأقل في غرفة الخزائن ذاتها التي تحوّلت إلى عشّ. ليس عندهما من الوقت إلا دقائق رائعة ونادرة بدا لها أنّ من الغباوة إضاعتها بالتفلسف؛ فلو كان الأمر يتعلّقُ بالكلام لأحبت أن تسمع عن ذوقه، ماضيه، أمّه، عن خططه للزواج منها ذات يوم؛ وباستطاعتها أن تضحي بأيّ شيء مقابل أن تسمع منه الجمل الرائعة التي يكتبها في رسائله، أن يقول لها إنّ قياس مقاصد الريح أو صبرَ الأمواجِ على الشاطئ أسهل عنده من قياس كثافة الحبّ، وإنّه لا يوجد ليلٌ شتوي قادر على إطفاء نيران عاطفته، وهو يقضي

النهار حالماً والليالي أرقاً، يعذّبه بلا هوادة جنون الذكريات، ويعدّ بضيقِ مَنْ حُكِمَ بالإعدام الساعات المتبقّية لعناقها مرّة أخرى. «أنتِ ملاكي وهلاكي، بحضورك أدرك النشوة الإلهية وفي غيابك أهبط إلى الجحيم، ما ماهية هذه الهيمنة التي لك عليّ، يا إليثا؟ لا تكلّميني عن الغد أو البارحة فأنا لا أعيش إلا للحظة هذا اليوم التي أعودُ فيها لأغرق في ليل عينيك السوداوين اللامتناهي». هي التي تشبّعت بروايات الآنسة روز والشعراء الرومانسيين الذين حفظت أشعارهم عن ظهر قلب، تضيع في متعة الإحساس المسمِّم بأنّها معبودة مثل إلهة دون أن تُدرِك عدم الانسجام بين تلك التصريحات المنتفخة وشخصيّة خواكين أندْيِتا الواقعية، فهو في رسائله يتحوّل إلى الحبيب الكامل، القادِر على وصف مشاعِره بنفسٍ ملائكي تختفي فيه الخطيئة والخوف لتفسح المجال أمام التمجيد المُطلق للحواسّ. ما من أحد أحبّ بهذه الطريقة قط ، فهما قد خُلِقا بين كلّ الفانين للوله الذي لا يُقلّد، هكذا راح خواكين يقول في رسائله فصدّقته. ومع ذلك كان يُمارس الحب على عجلٍ ونهم دون تلذّذ به، كمن يرزح تحت رذيلة وتُضنيه الخطيئة. لا يمنح نفسه الوقت لمعرفة جسدها أو البوح بجسده نفسه؛ تهزمه عجالة الرغبة والسرّ؛ ويبدو له أنّ الوقت لن يكفيهما على الرغم من تطمينات إليثا بأنّ أحداً لا يذهب إلى تلك الغرفة ليلاً، وأن آل سومّرز ينامون مخدّرين، وماما فرِسيا تنام في مسكنها البائس في عمق الفناء بينما غرف بقية الخدم في العلّية. كانت الغريزةُ تؤجِّج جرأةَ الفتاة وتحثُّها على اكتشاف الإمكانات المتعدّدة للذّة، لكنّها سرعان ما تعلّمت كبحَ الذات، فمبادراتها في الألعاب الغرامية كانت تضع خواكين في وضعيّة الدفاع؛ شعر بنفسه منتقداً، مجروحاً أو مُهدَّداً في رجولته؛ تضنيه أسوأ الشكوك، فهو لم يكن يستطيع أن يتصوّر كلّ تلك الشهوانية عند فتاة في السادسة عشرة من عمرها، أفقها الوحيد جدران بيتها. الخوف من الحَمْل كان يزيدُ الحالةَ سوءاً، لأنَّ أحداً منهما لا يعرف كيف يتفاداه. خواكين يفهم آليّة الإخصاب بشكل مبهم ويظنّ أنّه إذا انسحب في

الوقت المناسب يكون بأمان، لكنّه لم يوفّق دائماً في ذلك. انتبه إلى خيبة إليثا، دون أن يعرف كيف يواسيها، وبدل المحاولة كان يلوذ على الفور بدوره كمرشد فكري، الذي يشعر فيه بالثقة بالنفس. هي تتلهّف لمداعبات حبيبها أو على الأقل للاستراحة على كتفه، وهو يبتعدُ، يرتدي ملابسه بسرعة ويستنفد الوقت الرائع الذي يبقى أمامهما في توليف خلاصات جديدة لأفكاره السياسيّة ذاتها المكرّرة ألفَ مرّة. كانت تلك العناقات تترك إليثا على جمرٍ، لكنّها لم تسمح لنفسها بقبولها حتى في أعمق أعماق وعيها، لأنّها تضعُ نوعيّة الحب موضعَ الشك. تسقط في مكيدة الشفقة وعذر الحبيب، مفكّرة بأنّهما لو ملكا الوقت والمكان الآمن لتحابّا بشكلٍ أفضلَ. صارت الساعات القادمة والليالي التي تحلم فيها بما قد يحدث في المرّة القادمة في غرفة الخزائن أفضل بكثير من الهزّات المشتركة.

انهمكت إليثا بالجدّية التي صبّتها على كل أعمالها لتعمل من عاشقها مثالياً حتى صار هوسها. فقط كانت ترغب بأن تخدمه دون شرط فيما تبقى من حياتها، تضحّي وتعاني كي تُجرّب تفانيها، وتموت لأجله إن تطلّب الأمر. لم تُدرِك وهي مخنوقة بسحر تلك العاطفة الأولى أنّه لا يبادلها الحبّ بكثافة موازية. ففتاها لم يكن حاضراً تماماً. حتى في أكثر عناقاتهما تأجّجاً فوق كومة الستائر، كانت روحه تهيم في مكانٍ آخر، غائباً، جاهزاً للذهاب. فهو لايكشف عن نفسه إلا قليلاً وبشكل فرور في لعبة الخيال الصيني المضنية، لكنّه حين يودّعها يسلّمها واحدة من رسائله العجيبة فيتحوّلُ الكونُ عندها إلى بلّور مهمّته الوحيدة عكس مشاعرها. وبانغماسها في مهمّة العشق المطلق المضنية لم تشك بقدرتها على الاستسلام، وبالتالي لم تعترف بغموض خواكين. كانت قد ابتدعت حبيباً تامّاً وتغذّي وهمها بعنادٍ لا يُقهر. يُعوّضها خيالُها عن عناقات حبيبها الفظة التي تتركها ضائعةً على حافّة الرغبة الغامضة غير المشبعة.



القسم الثاني

1848 ـ 1849



الخبر

الحادي والعشرون من أيلول ، يوم بدء الربيع حسب تقويم الآنسة روز، قاموا بتهوية الغرف، شمّسوا الفرشَ والبطانيات، شمّعوا الخشبَ وبدّلوا الستائرَ. غسلت ماما فرِسيا ستائر الكريتون المزهرة دون أن تعلق بكلمة واحدة، مقتنعة بأنّ البقع الجافّة هي بول فئران. جُهّزت جرارٌ كبيرة في الفناء فيها رماد ساخن مع قشور *الكيلاي* نقعت فيها الستائرَ يوماً كاملاً، نشّتها بماء الأرز وجفّفتها تحت الشمس؛ ثمّ كوتها امرأتان وحين عادت كأنّها جديدة علّقتاها كي تستقبل الفصلَ الجديد. خلال ذلك تقلّبت إليثا وخواكين غير آبهين بتقلبات ربيع الآنسة روز، فوق ستائرِ القطيفةِ الخضراء الوثيرة أكثر من ستائر الكريتون. انتهى البردُ والليالي صارت صافية؛ ومضى عليهما ثلاثة أشهر في الحبّ حيث تباعد الفاصلُ بين رسائل خواكين أنذيِتا المزركشة بالعبارات الشعرية والتصريحات الملتهبة بشكلٍ ملحوظ. كانت إليثا تشعر بعاشقها غائباً فتعانق شبحاً أحياناً. وعلى الرغم من كرب الرغبة غير المشبعة وشحنة كلّ تلك الأسرار الموهِنة استعادت الفتاة هدوءاً ظاهريّاً. كانت تقضي ساعات النهار بأعمالها السابقة، تتسلّى بكتبها وتمارين البيانو أو تنهمك في المطبخ وصالة الخياطة، دون أن تبدي أدنى اهتمام بالخروج من البيت، لكن إذا ما طلبت منها الآنسةُ روز ذلك رافقتْها بهمّة من ليس عندها ما هو أفضل لتفعله.

كانت تنام وتستيقظ باكراً، تتمتع بشهية وتبدو معافاة، إلاّ أنّ أعراض الحالةِ الطبيعية التامّة أثارت شكوكَ الآنسة روز وماما فرِسيا، فلا تحيدان النظر عنها. لم تثقا بأنّ سكرة الحبّ قد تبخّرت فجأة، لكن وبما أنّها مضت عدّة أسابيع وإليثا لم تظهر علامة اضطراب خفّفتا شيئاً فشيئاً المراقبة. ربّما أفادت شموع سان أنطونيو قليلاً، فكّرت الهنديّة، ثمّ وبعد كلّ شيءٍ قد لا يكون حبّاً، فكّرت الآنسة روز دون قناعة كبيرة.

وصلت أخبار الذهب المكتَشف في كاليفورنيا إلى تشيلي في آب. في البداية سَرَت كإشاعةٍ هلوسَ بها البحارة السكرانون في مواخير إل ألمِنْدرالْ، لكن قبطان السفينة *أولالِيا* أعلن بعد أيّام أنّ نصف بحارته هربوا إلى سان فرانسيسكو.

ـ الذهب في كلّ مكان، يمكن أخذه بالمجرفة . شوهدت كراتٍ بحجم البرتقالة! أيّ واحد يملك شيئاً من الشطارة سيصبح مليونيراً! ـ حكى يخنقه الحماس.

عثر شخصٌ، اسمه مارشال، في كانون الثاني من ذلك العام، على مقربةٍ من طاحونة مُزارعٍ سويسري على ضفاف نهر ريو أمريكانو، على حرشفةِ ذهب في الماء. هذا الجسَيم الأصفر الذي أفلت العنان للجنون عُثر عليه بعد تسعة أيّام من انتهاء الحرب بين المكسيك والولايات المتحدة بتوقيع معاهدة غوادلوبٌ هيدالغو. حين انتشر الخبر لم تكن كاليفورنيا تنتمي إلى المكسيك، وهذه المنطقة لم تهمّ أحداً كثيراً قبل أن يُعرف أنّها تقوم على كنزٍ لا ينضب؛ فهي بالنسبة للأمريكيين منطقة هنود والطليعيون يفضّلون احتلال أورِجون، التي اعتقدوا أنّها أصلح للزراعة. كانت المكسيك تعتبرها مقمرة للصوص ولم تتشرّف بإرسال قواتها للدفاع عنها خلال الحرب. بعدها بقليل راح سام بْرانان ، ناشر إحدى الصحف والمبشر المورموني، المرسَل لنشر العقيدة، يجوب شوارع سان فرانسيسكو معلناً الخبر. ربّما لم يصدّقوه، فسمعته سيّئة قليلاً ـ كانوا يتهامسون بأنّه أساء استخدام مال الربّ، وحين طالبته

الكنيسة المورمونية بإعادته أجاب بأنّه سيفعل... لكن بإيصالٍ موقّعٍ من الرب ـ لكنّه راح يدعم كلماته بمرطبان مليء بمسحوق الذهب، مرّ من يدٍ إلى أخرى ملهِباً الناس. ومع صيحة ذهب! ذهب! ثلاثة من كلّ أربعة رجالٍ هجروا كلّ شيءٍ وانطلقوا إلى الملذات. اضطروا لإغلاق المدرسة الوحيدة لأنّه لم يبق حتى الأطفال. أحدث الخبر في تشيلي الصدمة ذاتها؛ فمتوسط الأجر اليومي عشرون سنتيماً في اليوم والصحافة تحدّثت عن أنّهم اكتشفوا أخيراً إلْدورادو، المدينة التي حلم بها المحتلون، حيث الشوارع مرصوفة بالمعدن الثمين: «ثروات المناجم مثل ثروات حكايات السندباد أو فانوس علاء الدين؛ ويُحدّد الربحُ اليوميّ، دون خوف من المبالغة، بأونصة من الذهب الخالص»، هذا ما نشرته الصحف اليومية وأضافت أنّه يوجد ما يكفي لإثراء آلاف الرجال لعقود بكاملها. نيرانُ الجشع اضطرمت على الفور بين التشيليين، الذين تمتّعوا بروح المُعدّنين، وبدأ الهربُ باتجاه كاليفورنيا في الشهر التالي. ثمّ أنّهم كانوا في منتصف الطريق بالنسبة لأيّ مغامر يُبحِر من الأطلسي. فقد كانت الرحلة من أوروبا إلى بالبارايسو تستغرق ثلاثة أشهر ثم شهرين آخرين للوصول إلى كاليفورنيا. وكانت المسافة بين بالبارايسو وسان فرانسيسكو لا تصل إلى سبعة آلاف ميل، بينما هي بين شرق أمريكا الشمالية، مروراً بـ كابو دِ هورنوس عشرون ألف ميلٍ تقريباً. وهذا كما قدّرَ خواكين أنديِتا سبقٌ مهمّ بالنسبة للتشيليين، ذلك أنّ أوّل الواصلين سيطالبون لأنفسهم بأفضلَ العروق المعدنية.

خرج فِليثيانو رودريغِثْ دِ سانتا كروثْ بالتقديرِ ذاته وقرّر الإبحار مع خمسة من أفضل وأوفى المعدّنين، واعداً إيّاهم بتعويضٍ كحافز لهم ليتركوا أسرهم ويشرعوا بهذه الحملة المليئة بالمخاطر. استغرق ثلاثة أسابيع في تحضير الأمتعة الكافية لإقامته لعدّة أشهر في أراضي شمال تلك القارّة التي كانوا قد تصوّروها مقفرةً ومتوحشة. وهو يتفوّق كثيراً على معظم المتهوّرين الذين ينطلقون على عماها يد أمامهم وأخرى خلفهم، مدفوعين بإغواء الثروة

السهلة، لكن دون أن تكون عندهم فكرة عن مخاطر ومشاقّ الحملة. لم يكن ليذهب وهو مستعد لقصم ظهره في العمل مثل فلاّح، لذلك سيمضي جيِّدَ التموين ويحمل معه خدماً موثوقين، كما وضّح لزوجته، التي تنتظر طفلها الثاني، ومع ذلك أصرّت على مُرافَقَتِهِ. كانت باولينا تفكّر بالذهاب مع مربيتين وطبّاخِها، وبقرة ودجاجات حيّة كي تزوّد الطفلين بالحليب والبيض خلال مرحلة العبور، لكن زوجها أصرّ لأوّل مرّة على رفضه بحزم. ففكرة الرحلة في مثل تلك الأوديسة مع الأسرة على كاهله مخطّط جنونٍ كامل. لقد فقدت زوجته عقلها.

ـ ما اسم ذلك القبطان صديق السيّد تود؟ ـ قاطعته باولينا في منتصف إطنابه، وهي توازن فنجان شوكولا فوق بطنها الهائل، وتقضم فطيرة بحلوى الحليب صُنِعت حسب وصفة راهبات كلاريساس.

ـ تراه جون سومّرز؟

ـ أقصد ذاك الذي كان قد ملّ الإبحار بالسفن الشراعية وصار يتحدّث عن سفن البخار.

ـ هو نفسه.

بقيت باولينا مفكّرة برهةً، تقذف بالحلوى في فمها ولا تولي أدنى اهتمام بلائحة المخاطر التي يستحضرها زوجها. سمنت ولم يبقَ عندها من الفتاة الهيفاء التي فرّت من الدير حليقة الرأس إلاّ القليل.

ـ كم عندي في حسابي في لندن؟ ـ سألت أخيراً.

ـ خمسون ألف جنيه. أنت سيّدة ثريّة جدّاً.

ـ لا يكفي. هل تستطيع أن تقرضني ضعفه بفائدة عشرة بالمئة، أدفعه لك خلال ثلاث سنوات؟

ـ يا للأشياء التي تخطر لك، يا امرأة، بحقّ الله! ولماذا تريدين كلّ ذلك؟

ـ لسفينة بخارية. التجارة العظيمة ليست الذهب، يا فِليثيانو، فهو في الأساس ليس أكثر من خراء أصفر. التجارة العظيمة هم المعدّنون. إنّهم بحاجة إلى كلّ شيء في كاليفورنيا وسيدفعون نقداً. يقولون إنّ السفن البخارية تبحر مباشرة، وليس عليها أن تذعن لنزوات الريح، إنّها أكبر وأسرع. السفن الشراعية صارت من الماضي.

تابع فِليثيانو خططه، لكنّ التجربة علّمته عدم ازدراء تحذيرات زوجته المالية. بقي عدّة ليالٍ يُغالب النوم، يسير مروبصاً في صالات بيته الفاخرة، بين أكياس المؤن وصناديق المعدّات، براميل البارود وأكوام أسلحة الرحلة، يقيس ويزن كلمات باولينا. وكلّما فكّر أكثر، كلّما بدت له فكرة الاستثمار في النقل أكثر صواباً، لكنّه استشار أخاه قبل أن يتخذ أيّ قرارٍ.

ـ ويحنا، يا أخي! كيف لم يخطر لنا هذا من قبل؟

خلال ذلك كان خواكين أندْيتا، يحلم مثل آلاف التشيليين الذين بعمره، ومن أيّ منشأ كانوا بأكياس الذهب المسحوق وبكراته مرميّة على الأرض. عددٌ من معارفه كانوا قد رحلوا، بمن فيهم واحد من رفاقه في مكتبة سانتوس تورنِرو، الشاب الليبرالي الذي كان يثرثِرُ ضدّ الأغنياء والأوّل في إدانة المال، لكنّه لم يستطع مقاومةَ النداء فمضى دون أن يودِّع أحداً. كانت كاليفورنيا تُمثّل بالنسبة لخواكين الفرصة الوحيدة للخروج من البؤس وإخراج أمّه من البيت المشترك، والبحث عن شفاء لرئتيها المريضتين، وللانتصاب أمام جِرمي سومّرز مرفوعَ الرأس، مليءَ الجيوب لطلب يدَ إليثا. ذهب... ذهب في متناول يديه... كان باستطاعته أن يرى أكياس مسحوق المعدن وقفف كراته الهائلة مترعة، الأوراق النقدية في جيوبه، والقصر الذي سيأمر ببنائه أكثر رسوخاً وأكثر رخاماً من *نادي الوحدة*، كي يغلق أفواه أقربائه الذين أهانوا أُمّه. يرى نفسه خارجاً من كنيسة لا ماتريث أيضاً آخذاً بذراع إليثا سومّرز وهما أسعد عروسين على سطح الكرة الأرضية. إنّها مجرّد مسألة جرأة. ما المستقبل الذي

تقدّمه له تشيلي؟ في أفضل الأحوال سيشيخ وهو يُحصي المنتجات التي تمرّ بمكتب *شركة الاستيراد والتصدير البريطانية*. لا يمكنه أن يخسر شيئاً، لأنّه في جميع الأحوال لا يملك شيئاً. حمّى الذهب بدّلته، ذهبت شهيّته ولم يعد يستطيع النوم، يسير على أحر من الجمر وعيناه اللتان لمجنون تترصدان البحر. أعاره صديقه صاحب المكتبة خرائط وكتباً حول كاليفورنيا، ونشرة حول الكيفية التي يغسل بها المعدن، قرأها بشراهة وهو يخرج حساباته اليائسة محاولاً تمويل رحلته. وأخبار الصحافة لا يمكنها أن تكون أكثر إغواءً : «في قسم من المناجم يُدعى دراي ديجينز لا يحتاج المرء لأكثر من ملعقة عادية لاستخراج المعدن من الصخور. وفي أخرى يوجد الآن مفصولاً ولا يستخدم فيها إلا آلات بسيطة جدّاً، تتكوّن من عربات عادية من الخشب قاعها دائري بطول عشرة أقدام وعرض قدمين في الجانب العلوي، ولا حاجة لرأس المال، فالمنافسة في العمل كبيرة، ورجال لم يكونوا قادرين تقريباً على تأمين الحاجات الضروريّة لشهرٍ صار عندهم الآن آلاف البيسوات من المعدن الثمين».

حين ذكر أنذيتا إمكانية إبحاره باتجاه الشمال جاءت ردّة فعل أمّه سيّئة مثل ردّة فعل إليثا. قالتا الكلمات ذاتها دون أن تكونا قد التقتا قط: «إذا أنت ذهبتَ يا خواكين أنا سأموت» وكلاهما حاولتا جعله يرى مخاطر ذلك المشروع التي لا تحصى، وأقسمتا له أنّهما تفضّلان ألفَ مرّةٍ الفاقةَ المستعصية بجانبه على ثروة خيالية فيها خطر فقدانه للأبد. أكّدت له أمّه أنّها لن تخرج من البيت المشترك حتى ولو صار مليونيراً، لأنّ صداقاتها هناك وليس عندها مكان تذهب إليه في هذا العالم. وقالت: أما بالنسبة لرئيتها فليس هناك ما يمكن عمله، غير انتظار أن تنفجرا. من جهتها عرضت إليثا أن تهرب في حال منعهم لها من الزواج، لكنّه لم يكن يسمعها، ضائعاً في هذياناته، واثقاً من أنّه لن يملك فرصة أخرى مثل تلك، وتركُها تفلت منه جبن لا يُغتفَر. سخّر لنزوته الجديدة الجهد الكثيف ذاته

الذي استخدمه من قبل في نشر أفكاره الليبراليّة، لكن نقصته الإمكانات لتحقيق خططه. لا يستطيع أن يُحقِّقَ قدره دون مبلغ من المال للتذكرة والتزوُّد بما لا غنى عنه. مَثُلَ في المصرف ليطلب قرضاً صغيراً، لكنّه لم يملك ما يدعمه به وحين رأوا سحنته الشبيهة بشيطان بائس رفضوه ببرود، ففكّر لأوّل مرّة أن يلجأ إلى أقرباء أمّه، الذين لم يتبادل معهم حتى تلك اللحظة كلمةً واحدة، لكنّه كان عزيزَ النفس أكثر من اللازم. رؤى المستقبل الباهر لم تكن تتركه بسلام، بصعوبة صار يستطيع القيام بعمله، والساعات في المكتب تحوّلت إلى عقوبة. يبقى، والريشة في الهواء، ينظر دون أن يرى الصفحة البيضاء بينما يردّد عن ظهر قلب أسماء السفن التي يمكن أن تقلّه إلى الشمال. كانت الليالي تمرّ بين أحلام عاصفة وأرق مضطرب. يُصبح على جسد منهك وخيال يفور. يرتكب أخطاء مُبتَدِئ بينما الحماسُ من حوله يبلغ مستوى الهستريا. الجميع يريدون الذهاب، والذين لا يستطيعون ذلكَ شخصياً يعدّون مشاريع، يستثمرون في شركات مشكّلة على عجلٍ، أو يرسلون ممثلين موثوقين بدلاً عنهم بالاتفاق على تقاسم الأرباح. الفتية أوّل من رحلوا، والمتزوِّجون سرعان ما تركوا أولادهم وأبحروا أيضاً دون أن ينظروا إلى الخلف، على الرغم من القصص الوحشية عن أمراض مجهولة وحوادث مفجعة وجرائم همجية. أكثرُ الرجال مسالمة صار على استعداد لمواجهة المخاطرِ، الرصاص واللكم، وأكثر الناس حكمة غادروا الأمان المحقق في سنوات من الجهد، وراحوا ينطلقون إلى المغامرة مع متاع هذيانهم. بعضهم أنفق ما وفّره على التذكرة وآخرون غطوا الرحلة بالاستخدام كبحارة أو برهنِ عمله المستقبلي، لكنّ المتطلّعين كانوا من الكثرة بحيث أنّ خواكين أندْيِتا لم يجد مكاناً في سفينة على الرغم من البحث يوماً إثر يوم في المرفأ.

في كانون الأوّل لم يستطع التحمّل أكثر. وحين سجّل تفصيل شحنة وصلت إلى الميناء، كما كان يفعل بدقّةٍ كلَّ يومٍ، بدّل الأرقام

في السجلّ، ثمّ وزّع الوثائق الأصليةَ للتفريغ. وهكذا وبفنّ إيهام الحساب أخفى عدّة صناديق مسدساتٍ ورصاص قادمة من نيويورك. استطاع خلال ثلاثة ليالٍ متتالية الإفلاتَ من مراقبة الحرس، والتحايل على الأقفال، والدخول إلى أقبية *شركة الاستيراد والتصديرِ البريطانية* وسرقة محتوى تلك الصناديق. اضطُرَّ إلى فعل ذلك في عدّة مشاوير، لأنّ الشحنة ثقيلةٌ. أخرج في البداية الأسلحة في جيوبه ومحزّمة إلى ساقيه وذراعيه تحت الثياب، ثم حمل الرصاص في جيوبه. كاد العسس الذين يطوفون ليلاً في عدّة مناسبات يكتشفونه، لكنّه استطاع أن يفلت في الوقت المناسب. كان يعرف أنّ أمامه عدّة أسابيع قبل أن يُطالِب أحد بالصناديق ويكتَشِفَ السرقة؛ وافترض أيضاً أنّ من السهل متابعة خيط الوثائق المفقودة والأرقام المُبدّلة حتى يعثروا على المُرْتَكِب، لكنّه أَمِلَ أن يكون عند ذلك في عرض البحر. فهو حين يصير له كنزه الخاص سيعيد حتى آخرِ سنتيم سرقه مع فائدته، لأنّ السبب الوحيد لارتكاب ذلك العمل السيئ، كرّر على نفسه ألف مرّة، هو القنوط. فالأمر يتعلّق بحياة أو موت: بحياةٍ موجودة، كما يفهمها، في كاليفورنيا، فبقاؤه مُحاصَراً في تشيلي يُعادل الموتَ البطيء. باع قسماً من غنيمته بسعرٍ زهيدٍ في الأحياء المنخفضة من الميناء كما باع الباقي إلى أصدقائه في مكتبة سانتوس تورنِرو، بعد أن جعلهم يُقسِمون على حفظ السر. لم يملك أولئك المثاليون المتحمسون سلاحاً بين أيديهم قط، لكن مضى عليهم سنوات وهم يستعدّون بالكلام لثورةٍ طوباويةٍ ضدّ الحكومة المُحافظة؛ وعدم شراء المسدسات من السوق السوداء سيمثل خيانة لمقاصدهم ذاتها، خاصّة إذا أخذوا بالحسبان سعر الصفقة الرابحة. احتفظ خواكين باثنين له، عازماً على استخدامهما لشقّ طريقه، لكنّه لم يقل شيئاً عن خطط الرحيل لرفاقه. في تلك الليلة أيضاً حمل يده اليمنى إلى قلبه ليقسم باسم الوطن على أن يُقدّم حياتَه من أجل الديمقراطية والعدالة. في صباح اليوم التالي اشترى تذكرةً من الدرجة الثالثة في أوّل سفينة شراعية مبحرة في تلك

الأيام، وبعض أكياس الطحين المُحمّص والفاصولياء والأرز ولحم الخيل المجفف وشرائح دهن الخنزير، التي إذا ما وزّعت بتقنين أقامت أودَه خلال عبوره. الريالات القليلة التي فاضت عنه ربطها إلى خصره بوساطة حزام.

في ليلة 22 كانون الأوّل ودّع إليثا وأمّه وانطلق في اليوم التالي في طريقه إلى كاليفورنيا.

اكتشفت ماما فرِسيا رسائل الحب بالمُصادَفة، حين كانت تقتلع بصلاً في بستانها الضيّق فاصطدمت الشوكة بعلبة الصفيح. لم تكن تعرف القراءة، لكن كفتها نظرة لتعرف بماذا تتعلّق. نزعت لتسليمها إلى الآنسة روز، إذ يكفي أن تكون بين يديها لتشكّل تهديداً لها، كان باستطاعتها أن تقسم بأنّ الرزمة المربوطة بشريطة تنبض مثل قلب حيّ، لكنّ حبّها لإليثا أقوى من الحكمة، وبدل أن تمضي بها إلى ربّة عملها أعادتها إلى علبة البسكويت وخبّأتها تحت تنورتها الواسعة وذهبت تتنهّد إلى غرفة الفتاة. وجدت إليثا جالسة في كرسيّ بظهر مستقيم ويدين على التنورة كما لو أنّها في صلاة، تنظرُ إلى البحر عبر النافذة، مخنوقة إلى حدّ إحساسها بالهواء من حولها كثيفاً ومليئاً بالإنذارات. وضعت العلبة على ركبتي الشابّة ومكثت عبثاً تنتظر توضيحاً.

ـ هذا الرجلُ شيطان. لن يأتيك إلا بالفاجعة ـ قالت لها أخيراً.

ـ الفواجع بدأت. ذهب منذ ستّة أسابيع إلى كاليفورنيا وأنا قد انقطعت دورتي الشهريّة.

جلست ماما فرِسيا متربّعةً على الأرض، كما كانت تفعل حين لم تكن تستطيع فعل شيء آخر، وبدأت تنوس بجذعها إلى الأمام وإلى الخلف متأوّهةً بنعومة.

ـ اسكتي، يا ماما، يمكن أن تسمعنا الآنسة روز ـ توسّلت إليثا.

ـ ابن بالوعة ، *هواتشو* (ابن حرام)! ماذا سنفعل، يا صغيرتي؟ ـ تابعت المرأةُ تأسّفها.

ـ سأتزوّج منه.

ـ كيف إذا كان الرجلُ قد ذهب؟

ـ سيكون عليَّ الذهاب للبحث عنه.

ـ ويحك، يا صغيرة، مباركٌ اسمُ الربّ! هل جُنِنْتِ؟ أنا سأعمل لك علاجاً وستصبحين خلال أيّامٍ قليلة كأنّك جديدة.

حضّرت المرأة منقوعاً من الحمحم المخزني ومشروب زرق الدجاج بالبيرة السوداء، أعطتها إلى إليثا لتشربها ثلاث مرّت في اليوم؛ ثم جعلتها تأخذ حمامات كبريت جلوساً، ووضعت لها ضمادات من الخردل على بطنها. النتيجة أنّها اصفرّت وصارت تسير مشبعة بعرق دبقٍ له رائحة غاردينيا متعفنة، لكنّ الأسبوع مضى دون أن يحدث أيٌّ من أعراض الإجهاض. حدّدت ماما فرِسيا أنّ الجنين ذكر وهو لا شكّ ملعون ولذلك يتمسّك بأحشاءِ أمّه بتلك الطريقة. كان هذا الشرّ يتخطى إمكاناتها، فهو قضية الشيطان، وما من أحد غير *الماتشي* تستطيع التغلّبَ على مثل هذه المصيبة الجبّارة. طلبت في ذلك المساء إذناً بالخروج، وقطعت مرّة أخرى سيراً على قدميها الطريقَ الشاق إلى الشِعْب لتَمْثُلَ منخفضةَ الرأس أمام الساحرة العجوز العمياء. حملت لها كهديّة قالِبَي حلوى سفرجل وبطّة مطبوخة بالطرخون.

سمعت *الماتشي* آخر الأحداث تعلوها علائم الانزعاج، كأنّها تعرف مسبقاً ما حدث.

ـ قلت لك إنّ العناد شرّ قويّ جدّاً: يمسك بالدماغ ويمزّقُ القلب. هناك أنواع كثيرة من العناد، لكنّ أسوأها هو عناد الحبّ.

ـ هل تستطيعين عمل شيء للطفلة كي تُسقِطَ *الهواتشو*؟

ـ موضوع الاستطاعة أستطيع. لكنَّ هذا لا يشفيها. عليها أن تلحق برجلها فقط.

ـ ذهب بعيداً بحثاً عن الذهب.

ـ أسوأ عنادٍ بعد الحبّ هو عناد الذهب ـ أطلقت *الماتشي* حكمها.

أدركت ماما فرِسيا استحالةَ إخراج إليثا وحملِها إلى شِعْب *الماتشي* لإجهاضها والعودة بها إلى البيت دون علم الآنسة روز. كانت الساحرة في المئة من عمرها ولم تخرج من مسكنها البائس منذ خمسين سنة، وبذلك لا تستطيع الذهابَ إلى مسكن آل سومّرز لمعالجة الشابة. لم يبقَ أمامها من حلٍّ غير القيام به بنفسها. سلّمتها *الماتشي* عود كوليغْوِ ناعم ومرهماً داكناً نتناً، ثمّ شرحت لها تفصيلياً كيف تدهن القصبة بذلك المغلي وتدخلها في رحم إليثا. كما علّمتها على الفور كلمات السحر التي ستقضي على طفل الشيطان وتحمي الأمَّ في آنٍ معاً. يجب القيام بهذه العملية ليلة الجمعة، اليوم الوحيد المسموح فيه لذلك، نبّهتها. عادت ماما فرِسيا متأخرة جدّاً ومنهكة جدّاً، تحمل الكوليغْوِ والمرهم تحت معطفها.

ـ صلّي، يا صغيرة، لأنّني سأعالجك خلال يومين ـ نبّهت إليثا حين حملت لها شوكولا الإفطار إلى سريرها.

نزل جون سومّرز في بالبارايسو في اليوم الذي حدّدته *الماتشي*. كان ثاني يوم جمعة من شهر شباطٍ صيفٍ وفير، فالخليج يعجُّ بقرابة خمسين سفينة راسية وأخرى تنتظر دورها في عباب البحر كي تقترب من البرِّ في الوقت المناسب. استقبل جِرمي والآنسة روز وإليثا، كما هي العادةُ دائماً، العمَّ الرائع الذي يصل مُحمّلاً بالأخبار والهدايا. كانت البرجوازية التي تتواعدُ لزيارة السفن وشراء المُهرّبات، تختلط برجال البحر والمسافرين وعمّال التحميل والتفريغ ومستخدمي الجمارك، بينما العاهرات القابعات على مسافة معينة يعملنَ حساباتهن. في الأشهر الأخيرة ومنذ أثار خبرُ الذهبِ طمعَ الرجال في كل شواطئ العالم، صارت السفن تدخل وتخرجُ بإيقاع محموم والمواخير ما عادت تكفي. ومع ذلك لم تكتفِ

النساءُ الأكثر إقداماً بربح تجارتهنّ الجيّد في بالبارايسو وقدّرْنَ كم يستطعن أن يكسبن في كاليفورنيا، حيث يوجد مئتا رجل مقابل كلّ أربع نساء، حسب ما كنّ يسمعن. كان الناس يتعثّرون في الميناء بالعربات والحيوانات والطرود، ويتكلّمون بعدّة لغاتٍ، ويسمعون صفير السفن والحرّاس. الآنسة روز تمعن النظر في ركّاب الزوارق ومنديل معطّرٌ بالفانيلا على أنفها بحثاً عن أخيها المُفَضّل، بينما إليثا تستنشق الهواء بدفقات سريعة، محاولةً عزلَ الروائح وتحديدها في نتن السمك الموجود في السلال الكبيرة تحت الشمس التي تختلِط بروائح روث البهائم والتحميل والعرق البشري. هي أوّل من رأى القبطانَ سومّرز فشعرت براحة بلغت حدَّ البكاء. انتظرَتْهُ شهوراً عدّة واثقةً من أنّه الوحيد القادر على تفهّم ضيق حبّها العاثِر. لم تكن قد قالت كلمةً واحدة للآنسة روز عن خواكين أنديِتا وأقل منها إلى جِرمي سومّرز، واثقةً من أنّ عمّها البحّار، الذي لا يمكن أن يُفاجئه أو يخيفه شيءٌ، سيساعدها.

ما كاد القبطانُ يضع قدمه على اليابسة حتى انكبّتا عليه مسرورتين؛ أخذهما من خصريهما بذراعي القرصان القويين، رفعهما في آنٍ معاً وبدأ يدورُ بهما مثلَ خذروفٍ وسط صيحات فرح الآنسة روز واحتجاج إليثا، التي أوشكت على التقيّؤ. حيّاه جِرمي سومّرز مصافحاً، متسائلاً كيف لم يتغيّر أخوه إطلاقاً في السنوات العشرين الأخيرة، وبقي الطائش الذي كان عليه.

ـ ماذا بك يا صغيرة؟ وجهك شاحب جدّاً ـ قال القبطان متفحّصاً إليثا.

ـ أكلتُ فاكهة غير ناضجة، يا عمّ ـ وضّحت وهي مستندةً إليه كي لا تسقط دائخةً.

ـ أعرف أنكما لم تأتيا إلى الميناء لاستقبالي، بل لتشتريا عطوراً، أليس صحيحاً؟ سأقول لكما من الذي عنده أفضلها وجاء بها من قلب باريس.

في هذه اللحظة مرّ غريبٌ بجانبه، لطمه مصادفة بحقيبة يحملها على كتفه. التفت جون سومّرز حنقاً، لكنه حين عرفه أطلق واحدةً من لعناته المميّزة بصوت ساخر وأوقفه من ذراعه.

ـ تعال أعرّفك على أسرتي، أيّها الصيني ـ ناداه بودّ.

راقبته إليثا دون مواربة، لأنّها لم ترَ آسيوياً عن قرب قط، وهاهي أخيراً تملك أمامها واحداً من سكّان الصين، هذا البلد الخُرافي الذي كان يظهر في كثير من حكايات عمّها. بدا رجلاً غير واضح العمر، يميل إلى الطول، بالمقارنة مع التشيليين، وإن بدا بجانب القبطان الضخم طفلاً؛ يسير دون رشاقة، مفلطحَ الوجهِ، بجسم فتى نحيل وتعبيرٍ قديم في عينيه المشقوقتين. كان اعتداله كدكتورٍ يتناقض مع الضحكة الطفولية التي انبثقت من أعماق صدره حين توجّه إليه جون سومّرز؛ يرتدي بنطلوناً على مستوى القصبتين وقميصاً من قماش خشن وحزاماً على خصره يحمل فيه سكيناً كبيرة. ينتعل خفّاً صغيراً ويضع قبعة قشّ ضيقة وتتدلى على ظهره جديلة طويلة. سلّم حانياً رأسَه عدّة مرّاتٍ دون أن يترك الحقيبة أو ينظرَ إلى وجه أحد. الآنسة روز وجِرمي سومّرز، اللذان حيّرتهما الإلفة التي عامل بها أخوهما شخصاً من مقام لا شكّ أدنى، لم يعرفا كيف يتصرّفان وردّا عليه بحركةٍ مقتضبة وجافّة. أمام ذعر الآنسة روز مدّت إليثا يدها لكنَّ الرجلَ تظاهر بأنّه لم يرها.

ـ هذا تاو شيين أسوأ طاهٍ ملكته في حياتي، لكنّه يعرف معالجة جميع الأمراض، لذلك لم أرمِ به بعد عن سطح السفينة ـ سخر القبطان.

كرّر تاو شيين سلسلة جديدة من الانحناءات، وأطلق ضحكة أخرى دون سبب ظاهر واختفى على الفور، متراجعاً إلى الوراء. سألت إليثا ما إذا كان يفهم الإنكليزية. من وراء ظهر المرأتين همس جون سومّرز في أذن أخيه أنّ الصينيّ يستطيع أن يبيعه أفيوناً من

أفضل الأنواع، ومسحوقَ قرنٍ وحيد القرن للعجز الجنسي في حال قرّر ذات يوم الانتهاء من عادة العزوبة السيّئة. سمعته إليثا، مختبئة وراء مروحتها، مأخوذة بالفضول.

وزّع القبطانُ، في ذلك المساء في ساعة الشاي، الهدايا التي أحضرها: معجون حلاقة إنكليزي، طقم مقصات طليطلية وسيجار هافاني لأخيه، أمشاط من درع سلحفاة ومعطف من مانيلا لروز، وحلية لصداقِ إليثا كما هي العادة. كانت في هذه المرّة طوقاً من اللؤلؤ شكرته الفتاة عليه متأثّرة ووضعته في علبة مجوهراتها، إلى جانب الملابس الداخلية التي تلقتها. راح صندوق الزواج يمتلئ بالكنوز بفضل حرص الآنسة روز وسخاء هذا العمّ.

- تبدو لي عادة الصداق تافهة خاصّة حين لا يكون هناك خطيب في متناول اليد - ابتسم القبطان - أم أنّ هناك واحداً في الأفق؟

تبادلت الفتاة نظرة رعب مع ماما فرِسيا، التي دخلت في تلك اللحظة ومعها صينية الشاي. لم يقل القبطان شيئاً لكنّه تساءل كيف لم تنتبه أخته إلى التبدلات عند إليثا. قليلاً ما يفيد حدس الأنثى على ما يبدو.

انقضت بقيّة المساء في الاستماع إلى حكايات القبطان الرائعة عن كاليفورنيا، على الرغم من أنّه لم يذهب إلى هناك بعد الاكتشاف الخيالي، ولا يستطيع أن يقول غير أنّ سان فرانسيسكو ضيعة أقرب إلى البؤس، لكنّها تقع في أجمل خليج في العالم. كانت جلبة الذهبِ الموضوعَ الوحيد في أوروبا والولايات المتحدة، والخبر وصلَ حتى ضفاف آسيا القصية. سفينته جاءت مكتظّة بالركاب المتوجّهين إلى كاليفورنيا، ومعظمهم ليس عنده أدنى حدود المعرفة بالمناجم، وكثيرون منهم لم يروا الذهب ولو مركّباً على سنّ. لم يكن هناك من طريقة مريحة أو سريعة للوصول إلى كاليفورنيا، والإبحار يستمرّ

شهوراً في أكثر الظروف حذراً، وضّح القبطانُ، لكنّ السفر في البرّ عبر القارّة الأمريكية وبتحدّي هول الطبيعة واعتداء الهنود يتأخر أكثر وإمكانات النجاة فيه أقل بكثير. ومن يغامرون بالمركب حتى بَنما يعبرون البرزخ في النقالات عبر الأنهار الموبوءة بالضواري، وعلى البغال عبر الأدغال، وعند الوصول إلى شواطئ المحيط الهادي يأخذون مراكب أخرى نحو الشمال. عليهم أن يتحمّلوا حرّاً شيطانياً، هوائم سامّة، بعوضاً، وباء كوليرا وحمّى صفراء إضافة إلى الشرّ البشري. المسافرون الذين يبقون أحياء دون خدش، متغلّبين على انزلاق المطيات في المنحدرات الشديدة وأخطار البحيرات يجدون أنفسهم على الجانب الآخر ضحايا قطّاع الطرق الذين يجرّدونهم من أملاكهم، أو المرتزقة الذين يأخذون منهم مبالغ باهظة لقاء حملهم إلى سان فرانسيسكو، مُكَدّسين مثل الحيوانات في سفن فوضوية.

ـ هل كاليفورنيا كبيرة جدّاً؟ ـ سألت إليثا، محاولة ألاّ يخون صوتها لهفة قلبها.

ـ هاتي الخريطة كي أريها لك. إنّها أكبر من تشيلي.

ـ وكيف يتمّ الوصول إلى الذهب؟

ـ يقولون إنّه يوجدُ في كلّ مكانٍ...

ـ لكن لو أراد أحدٌ أن يعثر على شخصٍ في كاليفورنيا مثلاً...

ـ هذا أمرٌ صعب تماماً ـ ردّ القبطانُ دارساً تعابير إليثا بفضول.

ـ وهل ستذهب إلى هناك في رحلتك القادمة، يا عمي؟

ـ لَدَيَّ عرضٌ مُغرٍ أعتقد أنّني سأقبل به. بعض المستثمرين التشيليين يريدون أن يقيموا خدمة منتظمة للشحن والركاب إلى كاليفورنيا. يحتاجون إلى قبطانٍ لسفينتهم البخارية.

ـ إذن سنراك بتواتر أكبر، يا جون ـ هتفت روز.

ـ أنتَ ليس عندكَ تجربة بالبخار ـ نبّهه جِرمي.

ـ لا، لكنّني أعرفُ البحرَ أكثرَ من أيّ شخصٍ كان.

انتظرت إليثا حتى ساد الصمت البيتَ ليلةَ الجمعة المحدّدة لتذهب إلى البيت الصغير في الفناء الأخير لتلتقي بماما فرِسيا. غادرت سريرها وهبطت حافيةً، لا ترتدي إلا ثوب نوم باتِستة. لم تفكّر بالعلاج الذي ستتلقاه، لكنّها واثقة من أنّها ستمرّ بلحظة سيئة، ففي تجربتها باتت جميع الأدوية مزعجة، وأدوية الهندية إضافة إلى ذلك مثيرة للاشمئزاز. «لا تهتمي، يا صغيرة، كانت المرأةُ قد قالت لها، فسأعطيك من الأغواردييِنتِ ما يجعلك لا تتذكّرين الألم عندما تستيقظين من السكرة. لكنّنا سنحتاج إلى الكثير من القماش لوقف الدم». كانت إليثا قد سارت الطريق ذاته في العتمة عبر البيت لاستقبال حبيبها، ولم تكن تحتاج للكثير من الحذر. لكنّها في تلك الليلة مضت بطيئةً جدّاً، متأخرةً، راغبةً بمجيء واحد من تلك الأعاصير التشيلية القادرة على الإطاحةِ بكلّ شيء أرضاً، ليكون عندها ذريعة كيلا تذهب إلى موعدها مع ماما فرِسيا. شعرت بقدميها مشلولتين وبرعشةٍ جابت ظهرها. لم تدرِ هل كان برداً أم خوفاً ممّا سيجري أم أنّه آخر تحذير من ضميرها. منذ شكوك الحمل الأولى سمعت الصوتَ يناديها؛ إنّه صوت الطفل في أعماق بطنها، يُطالِب بحقّه بالحياة، كانت واثقة من ذلك. حاولت ألا تسمعه، ألا تُفكّر، لكنّها متورطة وما أن يُلاحَظَ وضعُها حتى لا يعود هناك أمل أو عفو لها. لا يمكن لأحد أن يتفهّم غلطتها، لم يكن هناك من طريقة لاستعادة الشرف الضائع. لا صلوات ولا شموع ماما فرِسيا ستمنع الكارثة، وحبيبها لن يدور نصف دورة في منتصف الطريق ليعود فجأة ويتزوج منها قبل أن يفتضح أمر الحمل. تأخّر الوقت على ذلك. أرعبتها فكرةُ أن تنتهي نهاية أمّ خواكين الموسومة بعارٍ

مخزٍ، مطرودة من أسرتها تعيش في الفقر والعزلة مع ابن غير شرعيٍّ، لا تستطيع أن تُقاوم الإنكار، تفضّل الموت مرّة واحدة وللأبد، تستطيع أن تموت في تلك الليلة ذاتها، على يدي المرأة الطيبة التي ربّتها وتحبّها أكثر من أيّ شخصٍ في العالم.

انسحبت الأسرة باكراً لكنّ القبطان والآنسة روز بقيا منغلقين في صالة الخياطة يتمتمان لساعات. في كلّ رحلة كان جون سومّرز يجلبُ لأخته كتباً، وحين ينطلق يحمل معه رزماً غامضة، تظنُّ إليثا بأنّها تحتوي على كتابات الآنسة روز. رأتها تلفُّ بعنايةٍ دفاترَها، ذاتها التي تملأها بخطّها المضغوط في مساءاتها الفارغة، التي احتراماً أو خجلاً لم يذكرها أحد، تماماً كما لم يُعلّقوا على لوحاتها المائية الباهتة. كانت الكتابة والرسم يُعامَلان كانحراف بسيط، لاشيء يُخْجَلُ منه حقيقة، لكنّه أيضاً ليس شيئاً يُتَبَاهى به. استقبل آل سومّرز فنون الطهي عند إليثا باللامبالاة ذاتها، وكانوا يتلذّذون به بصمت ويبدّلون الحديث، بينما يصفّقون تصفيقاً غير مُستَحَق لعزفها الإكراهي، مع أنّهم لا ينفعون تقريباً في مرافقة إيقاع أغاني الغير. طوال حياتها وإليثا ترى حاميتها تكتب ولم تسألها قط ماذا تكتب، كما لم تسمع أنّ جِرمي وجون فعلا ذلك. شعرت بالفضول لمعرفة سبب حملِ عمّها لدفاتر الآنسة روز بحذر، لكن ودون أن يقول لها أحدٌ شيئاً كانت تعرف أنّ هذا سرٌّ الأسرار الأساسية التي يستند إليها توازن الأسرة، وخرقه يمكن أن يهوي بنفخة واحدة بقلعة الورق التي يعيشون فيها. منذ برهة طويلة وجِرمي وروز ينامان في غرفتيهما، وتفترض أنّ عمّها جون خرج على جواده بعد العشاء. ونظراً لمعرفتها بعادات القبطان تصوّرته في إحدى جولات لهوه مع بعض صديقاته الطائشات، ذاتهن اللواتي كنّ يُحيينه في الشارع حين لا تكون الآنسة روز معهم. كانت تعرف أنّهم يرقصون ويشربون، لكن وبما أنّها ما كادت تسمع أحداً يتكلّم همساً عن العاهرات، لم تخطر لها فكرة أكثر دعارة. فبإمكانية القيام بما كانت

تقوم به مع خواكين أنذيتا حبّاً، مقابل نقودٍ أو رياضةٍ بعيدة عن تفكيرها. وحسب تقديراتها لم يكن عمّها ليعود قبل بزوغ صباح اليوم التالي، لذلك ما أن وصلت إلى الطابق الأرضيّ حتى أصابها ذعر هائل حين أخذها أحد ما من ذراعها، في الظلمة. شعرت بحرارةِ جسدٍ كبيرٍ مثل جسدها، رائحة خمر وتبغ في وجهها فعرفت فيه على الفور عمّها. حاولت أن تفلت بينما تطلق وهي تجري بعض التوضيحات حول سببِ وجودها بقميص النوم في مثل تلك الساعة. لكنّ القبطان قادها بحزم إلى المكتبة، التي بالكاد تضيئها بعض أشعة القمر عبر النافذة. أجبرها على الجلوس في كرسيّ جِرمي الجلدي وراح يبحث عن ثقاب لإشعال المصباح.

ـ حسناً، يا إليثا، الآن ستقولين لي أيّة شياطين أصابتك ـ أمرها بنبرة لم يستخدمها معها قط.

بلمحة بصر من فطنتها عرفت إليثا أنّ القبطان لن يكون حليفها، كما توقّعت. التسامح الذي كان يتبجّح به لا يفيد في مثل حالتها: إذا كان الأمر يتعلّق بسمعة الأسرة الحسنة، فولاؤه لأخويه. حافظت الفتاةُ صامتةً متحدِّيةً على نظرتها.

ـ تقول روز إنّكِ على علاقة حبّ مع أحمق مثقوب الحذاء، هل هذا صحيح؟

ـ رأيته مرّتين، يا عمّ جون، كان هذا منذ أشهر. لا أعرف حتى اسمه.

ـ لكنّك لم تنسيه، أليس صحيحاً؟ الحبّ الأوّل مثل الجدري، يترك آثاراً لا تُمحى. هل رأيته على انفراد؟

ـ لا.

ـ لا أصدِّقك. هل تعتقدين أنّني غبي؟ باستطاعة أيٍّ كان أن يرى كيف تغيّرتِ، ياإليثا.

ـ أنا مريضةٌ، يا عمّي. أكلتُ فاكهةً غير ناضجة وأمعائي متقلّبة، هذا كلّ شيء. الآن تماماً كنتُ في طريقي إلى المرحاض.

ـ لك عينا كلبة في مرحلة الإخصاب.

ـ لماذا تُهينني، يا عمّي!

ـ اعذريني، يا صغيرة. ألا ترين أنّني أُحبُّك كثيراً. لا أستطيع أن أسمح لك بتدمير حياتك. أنا وروز لدينا مشروع رائع لك... هل تُحبّين إنكلترا؟ أستطيع أن أتدبّر إبحاركما خلال شهر، وهو وقت سيسمح لكما بشراء ما تحتاجان للرحلة.

ـ إنكلترا؟

ـ ستسافران في الدرجة الأولى، مثل ملكتين، وستنزلان في لندن في نزلٍ ساحِرٍ على مسافة قصيرة من قصر باكينغهام.

أدركت إليثا أنّ الأخوة قد قرّروا مصيرَها. آخر ما كانت ترغب به هو الارتحال باتجاه معاكس لاتجاه خواكين، ليصبح بينهما محيطان.

ـ شكراً، يا عمّي. تسحرني معرفة إنكلترا ـ قالت بأكبر عذوبة استطاعت افتعالها.

صبّ القبطانُ كأسَ براندي بعدَ آخر، أشعل غليونه وقضى الساعتين اللاحقتين يعدّد مزايا الحياة في لندن، حيث تستطيع آنسةٌ مثلها التردّدَ على أفضل مجتمع، الذهابَ إلى الرقص، إلى المسرح، إلى الحفلات الموسيقية، شراءَ أجملِ الملابس وتحقيقَ زواج جيّد؛ فهي الآن في عمرٍ يسمحُ لها بذلك. ثمّ ألا تحبّ أيضاً الذهاب إلى باريس أو إلى إيطاليا؟ يجب ألا يموت أحدٌ قبل أن يرى البندقيةَ وفلورنسا. هو سيأخذ على عاتقه إرضاء نزواتها، ألم يفعل هذا دائماً؟ العالم مليء بالرجال الوسيمين والمهمين والميسورين، وتستطيع أن تتأكد من ذلك بنفسها، ما أن تخرج من الحفرة التي تغوص فيها في هذا الميناء المنسي. بالبارايسو ليست المكان

المناسب لفتاةٍ بجمالها وتربيتها. لم يكن ذنبها أنّها عشقت أوّل من عبر أمامها، فقد عاشت محبوسة. ثم ذلك الفتى، ماذا كان يُدعى؟ مستخدم عند جِرمي، أليس كذلك؟ سرعان ما ستنساه . الحبُّ، أكّدَ، يموت حتماً باحتراق ذاتي أو يقتلع من جذوره بالبعد. لا أحد أفضل منه يستطيع أن ينصحها، قد يكون سيئاً، لكنّه خبير في المسافات والعشق المتحوّل إلى رماد.

ـ لا أعلم عمّا تكلّمني، يا عمّي. الآنسة روز ابتدعت رواية رومانسية انطلاقاً من كأس عصير برتقال. جاء شخص ليترك بعض الطرود، قدّمتُ له مرطّباً، تناوله وذهب. هذا كلُّ شيء. لم يحدث شيء ولم أره بعدها.

ـ إذا كان كما تقولين، فأنت محظوظة: لن يكون عليك أن تقتلعي هذا الوهمَ من رأسك.

تابع جون سومّرز شرابَه وكلامه حتى الفجر، بينما إليثا المنكمشة في كرسيّ الجلد تستسلم للنعاس مفكّرةً بأن السماء استجابت لتوسّلاتها بعد كلّ شيء. لم يكن زلزالاً مناسباً ما أنقذها من علاج ماما فرِسيا الرهيب: بل عمّها. وفي بيت الفناء البائس انتظرت الهنديّة الحمراء الليلَ بطوله.

الوداع

دعا جون سومّرز أخته روز مساءَ يومِ السبتِ لزيارة باخرة آل رودريغِثْ دِ سانتا كروث. إذا خرج كلُّ شيءٍ كما يجب في مباحثات تلك الأيّام فسيكون من نصيبه ترؤسها، محقّقاً بهذا حلمه بالإبحارِ على البخار أخيراً. استقبلته باولينا بعد ذلك في صالة الفندق الإنكليزي *«إنكلِش هوتِل»* حيث نزلت. كانت قد سافرت من الشمال لتطلق مشروعها بينما زوجها في كاليفورنيا منذ عدّة شهور. استغلاّ رحلات البواخرِ المتواصلة ذهاباً وإياباً ليتواصلا عبر رسائل صارمة تختلِطُ فيها التصريحات العاطفية الزوجية بالخطط التجاريّة. اختارت باولينا جون سومّرز لتضمّه إلى شركتها بالحدس، فهي تتذكّر بشكل غائمٍ أنّه أخُ جِرمي وروز سومّرز ، *الغرينغوبيين* اللذين دعاهما أبوها إلى عقاره في مناسبتين، لكنّها لم تره إلاّ مرّة واحدة ولم تكد تتبادل معه بضع كلماتٍ مجاملة. إشارتها الوحيدة هي صداقتهما المشتركة مع جاكوب تود، لكنّها قامت في الأسابيع الأخيرة ببعض الاستقصاءات وسُرّت لما سمعته؛ فالقبطان يتمتّع بسمعة جيّدة بين أهل البحر والمكاتب التجارية؛ ومن الممكن الثقة بتجربته وكلمته، وهي أكثر من عاديّة في أيام الجنون الجماعي تلك، التي يستطيع أيُّ شخصٍ فيها استئجار سفينة، وتشكيلَ شركةٍ من المغامرين والإقلاع بها. وهم بعامّة من المتأنّقين والسفن نصف متفكّكة، لكن هذا لم يكن ذا أهميّة كبيرة، لأنّهم ما أن يصلوا إلى كاليفورنيا حتى تموت الشركات وتبقى السفنُ مهجورة

وينطلقَ الجميع إلى مكامن الذهب. لكنّ باولينا بعيدة النظر. لم تحتج للبدء بالامتثالِ لشروط الآخرين فشريكاها الوحيدان هما زوجها وأخوه، وعلى الفور صار القسم الأكبر من الرأسمال لها، مما مكّنها من اتخاذ القرارات بحرّية كاملة. باخرتها التي عَمَّدتها باسم *فورتونا* (الحظّ)، مع أنّها صغيرة إلى حدٍّ ما وتخبّطت سنواتٍ عدّة في البحار، إلاّ أنّ وضعها سليم. كانت على استعداد لتدفع جيّداً لطاقم الإبحار كيلا يهرب في زوبعة الذهب، لكنّها تتبجّحُ بأنّه لا يوجد راتب قادر على ضبطِ النظام على ظهر الباخرة دون قبطانٍ له يد من حديد. كانت فكرة زوجها وأخيه تصدير مُعدّات المناجم ، الخشب للمساكن، ملابس العمل، الأدوات المنزلية، اللحوم المجفّفة، الحبوب، الفاصولياء ومنتجات أخرى لا تتلف، لكنّها ما أن وضعت قدمها في بالبارايسو حتى لاحظت أنَّ الكثيرين خطرت لهم الخطّة ذاتها، وبالتالي فالمنافسة ستكون ضارية. ألقت نظرةً حولها فرأت فضيحة الخضار والفواكه في ذلك الصيف الكريم؛ وهي من الوفرة بحيث لا يمكن بيعها، فالخضار تنمو في فناءات البيوت والأشجار تتكسّر تحت حملها من الثمار، وبالتالي قليلون هم المستعدون لدفع ثمن ما يأخذونه مجاناً. فكّرت في مزرعة والدها، حيث المحصول يتلف في أرضه لأنّ أحداً لا يهتّم بجمعه. لو تستطيع حمله إلى كاليفورنيا، خلُصَتْ، لأصبحَ أكثر قيمة من الذهب ذاته. منتجات طازجة، خمور تشيلية، أدوية، بيض، ثياب أنيقة، أدوات موسيقية، ثمّ ولماذا لا؟ عروض مسرحيّة، أوبرات عادية وإسبانية؛ فسان فرانسيسكو تستقبل مئات المهاجرين يومياً. الآن يتعلق الأمر بمغامرين وقطّاع طرق، لكن سيصل دون شك مستعمرون من الجانب الآخر من الولايات المتحدة، مزارعون شرفاء، محامون، أطباء، معلمون، وكلّ أنواع الناس المحتشمين المستعدين للإقامة مع أسرهم. حيث توجدُ النساء توجدُ الحضارة وما أن تبدأ هذه (الحضارة) في سان فرانسيسكو، قرّرتْ، حتى تكون باخرتي هناك مع كلّ الحاجيات.

استقبلت باولينا جون سومّرز وأخته روز في ساعة الشاي،

حين خفّ حرّ الظهيرة قليلاً وبدأت تهبّ نسائم بحرٍ رطبة. كانت ترتدي ملابس فاخرة أكثر من اللازم بالنسبة لمجتمع الميناء المعتدل، فهي مسربلةٌ من قدميها وحتى قمّة رأسها بالموسلين والتطريز سكريٍّ اللون، مع تاجٍ من خصلات شعرٍ فوق أذنيها ومجوهرات أخرى مقبولة في تلكَ الساعة من النهار. كان ابنها ذو السنتين يتخبّط بين ذراعي مربية موحّدة اللباس، وكلب صغير صوفي الشعر عند قدميها يتلقى قطع حلوى تضعها هيٍ في فمه. انقضى نصف الساعة الأولى بالتعارف وشرب الشاي وتَذَكّرِ جاكوب تود.

ـ ماذا حلّ بهذا الصديق الطيّب؟ ـ أرادت باولينا أن تعرف، والتي لن تنسى أبداً تدخّل الإنكليزي الفذّ في غرامياتها مع فِليثيانو.

ـ لم أعرف عنه شيئاً منذُ فترة طويلة ـ أخبرها القبطان ـ انطلق معي إلى إنكلترا منذ سنتين. كان محبطاً جدّاً، لكنّ هواء البحر أنعشه واستعاد كامل مزاجه الحسن حين نزل إلى البر. آخر ما علمت عنه أنّه يريد أن يُشكّل مستعمرة طوباوية.

ـ ماذا؟ ـ صاحت باولينا والآنسة روز بصوتٍ واحد.

ـ مجموعة للعيش خارج المجتمع، لها حكومتها وقوانينها الخاصّة بها، ويعملون بهدي مبادئ العدالة والحبّ والعمل المشترك، كما يبدو لي. على الأقل هذا ما وضّحه لي ألف مرّة خلال الرحلة.

ـ معتوه أكثر ممّا فكّرنا به جميعاً ـ خلُصَت الآنسة روز بشيء من الأسف على خاطب ودٍّ وفيّ.

ـ الناس الذين لهم أفكارهم الخاصّة بهم ينتهون دائماً إلى الاشتهار بالجنون ـ علّقت باولينا ـ أنا، دون أن أذهب بعيداً، لديّ فكرة بودّي مناقشتها معك، ياقبطان سومّرز. تعرفُ *فورتونا* (الحظّ). كم تستغرق من الوقت، بكلّ سرعة البخار، بين بالبارايسو وخليج بِناس؟

ـ خليج بِناس؟ هذا في جنوب الجنوب!

ـ صحيح. إلى الأسفل من بورتو أيْسِنْ.

ـ وماذا سأفعل هناك؟ ليس فيه غير الجزر والغابات والمطر، يا سيّدتي.

ـ تعرف تلك المناطق؟

ـ نعم، لكنّني فكّرت أنّ الأمر يتعلّق بالذهاب إلى سان فرانسيسكو...

ـ تذوّق هذه الحلوى، فهي لذيذة ـ قدّمتها وهي تُداعبُ الكلبَ.

بينما كان جون وروز سومّرز يتحدّثان مع باولينا في صالة الفندق الإنكليزي راحت إليثا تجوب حيَّ إل ألمِندرال مع ماما فرِسيا. ففي تلك الساعة يبدأ اجتماعُ الطلاب والمدعوّين لحضور اجتماعات الرقص في الأكاديمية، وقد سمحت لها الآنسة روز بالذهاب استثناءً ترافقها مربيتها كظلّها لساعتين. لم تكن تسمحُ لها في العادة بالإطلال على الأكاديمية دونها، لكنّ مدرّس الرقص لايقدّم المشروبات الروحية إلا بعد غياب الشمس وهذا ما يُبقي على الشبّان الجسورين بعيدين خلال ساعات المساء الأولى. أقنعت إليثا، العازمةُ على استغلال خروجها دون الآنسة روز، الهنديّةَ بمساعدتها في خططها.

ـ امنحيني بركتك، يا ماما. عليَّ أن أذهب إلى كاليفورنيا للبحث عن خواكين ـ طلبت منها.

ـ لكن كيف ستذهبين وحيدة وحاملاً ـ صاحت المرأةُ مرعوبةً.

ـ سواءً ساعدتني أم لا سأفعلُ ذلك.

ـ سأقول كلَّ شيء للآنسة روز.

ـ إذا فعلتِ ذلك قتلتُ نفسي. وسآتيك بعدها لأنغِّصَ عليك لياليك. أقسمُ لك ـ أجابت الفتاة بعزم ضارٍ.

كانت قد شاهدت في اليوم السابق مجموعة من النساء يساومن على الإبحار. ونظراً لمظهرها المختلف تماماً عن مظهر النساء اللواتي يعبرن عادةً في الشارع، والمغطيات شتاءً وصيفاً بالمعاطف السوداء، افترضت أنّهن أنفسهنّ المتسكّعات اللواتي يتسلّى معهنّ العمّ جون. وكانت ماما فرِسيا قد وضّحت لها في إحدى المناسبات قائلة: «إنَّهنّ ثعالب، يُضاجعن مقابل النقود، وسيمضين زحفاً إلى النار» والتقطت جملةً من القبطان، وهو يحكي لجِرمي سومّرز عن التشيليات والبيرويات اللواتي يذهبن إلى كاليفورنيا بهدف السيطرة على ذهب المعدّنين، لكنّها لم تستطع أن تتصوّر كيف يتدبرن أمرهنّ لعمل ذلك. قرّرت أنّه إذا كان باستطاعة هذه النسوة القيام بالرحلة وحيداتٍ ودون مساعدة فهي أيضاً تستطيع ذلك. راحت تسير بسرعةٍ وقلبٍ مضطرب تغطّي المروحة نصفَ وجهها وتتصبَّبُ عرَقاً في قيظِ كانون الأوّل؛ تحمل معها مجوهرات صداقها في كيس صغير من القطيفة. غنائمها الجديدة صارت نقمة حقيقية عليها فالحزام يضغط على خصرها بشدّة. زادت الروائح الكريهة الصادرة عن المجارير المكشوفة التي تجري فيها مياه الصرفِ من غثيانها، ومع ذلك تسير باستقامة تماماً كما تعلّمت في سنوات موازنة الكتاب على رأسها وعزف البيانو وقضيبٌ معدني مشدود إلى ظهرها. بينما بالكاد تتمكّنُ ماما فرِسيا، التي تئن وتتمتم بصلوات بلغتها، من اللحاق بها بسبب دواليها وبدانتها. إلى أين نمضي، يا صغيرة، بالله عليك. لكنّ إليثا لم تستطع الردّ عليها لأنّها لاتعرفُ. هناك شيء واحد واثقة منه: المسألة لا تتعلّقُ برهن مجوهراتها وشراء تذكرة إلى كاليفورنيا، لأنّه لم يكن هناك من طريقة لفعل ذلك دون أن يعلم عمّها جون. على الرغم من عشرات السفن التي ترسو يومياً فإنّ بالبارايسو مدينة صغيرة والجميع يعرفون القبطان جون سومّرز في الميناء. كما أنّها لم تكن تحمل وثائق شخصيّة، وخاصّةً جواز السفر الذي من المحال الحصول عليه نظراً لإغلاق مفوّضية الولايات المتحدة في تشيلي، بسبب حبّ

عاثرٍ قامَ به دبلوماسيٌّ أمريكي مع سيّدة تشيليّة. قرّرت إليثا أن الطريقة الوحيدة للحاق بخواكين أنديِتا إلى كاليفورنيا هي أن تندسّ خلسةً في السفينة. فعمّها حكى لها أنّ أشخاصاً يركبون في السفن خلسةً أحياناً بالاتفاق مع أحد الملاحين. وربّما استطاع بعضهم أن يستمرّ متخفياً طوال مرحلة العبور. آخرون يموتون وتنتهي أجسادهم إلى البحر دون علمه، لكنّه إذا اكتشفهم عاقب المندس ومن ساعده على حدٍّ سواء. تلك هي إحدى الحالات، قال، التي يمارس فيها سلطته المُسَلَّم بها كقبطان: في عباب البحر لا يوجد قانون أو عدالة غير قانونه وعدالته.

كانت معظم الصفقات غير الشرعية في الميناء تتمُّ في الحانات. وإليثا لم تطأ مثل تلك الأماكن قط، لكنّها رأت امرأة تتوجّه إلى محلٍّ قريبٍ وتعرّفت فيها على واحدة من اللواتي كنّ في اليوم السابق على الرصيف يبحثن عن طريقة للإبحار. شابّة ربعة القامة لها ضفيرتان سوداوتان متدليتان على ظهرها، ترتدي تنورة قطنيةً وقميصاً مطرَّزاً ومنديلاً على كتفيها. تبعتها إليثا دون أن تفكّر بالأمر مرّتين، بينما بقيت ماما فرِسيا في الشارع تُطلق تحذيراتها: «هنا لا تدخل إلاّ العاهرات، يا صغيرتي، وهي خطيئة مميتة». دفعت البابَ واحتاجت لعدّة ثوانٍ حتى ألفت الظلمة ورائحة التبغ والبيرة القديمة التي يتشبّع بها الهواء؛ فالمكان مزدحم بالرجال. التفتت كلُّ العيون لتنظر إلى المرأتين. سيطر صمت ترقُّبٍ ثم بدأت جوقة من التصفير والتعليقات البذيئة. تقدّمت الأخرى بخطوٍ ثابت نحو طاولة في العمق، محرّكة يديها يمنة ويسرة حين يحاول أحدٌ لمسها، لكنّ إليثا تراجعت على عماها، مذعورةً، دون أن تفهم جيّداً ما يحدث ولا لماذا يصيح لها أولئك الرجال. اصطدمت عند خروجها بشخص يدخل. أطلق الرجل صيحةً بلغة أخرى واستطاع الإمساك بها حين راحت تنزلق على الأرض. رآها فصعِقَ: إليثا، بثيابها البتولية ومروحتها في غير مكانها إطلاقاً. نظرت إليه بدورها فتعرَّفت فيه فوراً على الطباخ الصيني الذي سلّم عليه عمّها في اليوم السابق.

ـ تاو شيين؟ ـ سألت شاكرةً حسنَ ذاكرتها.

سلّم الرجل جامعاً يديه أمام وجهه ومنحنياً تكراراً بينما الصفير مستمرّ في البار. نهض بحاران واقتربا مترنحين. أشار تاو شيين لإليثا إلى الباب وخرجا.

ـ آنسة سومّرز؟ ـ استقصى في الخارج.

أشارت إليثا بالإيجاب، لكنّها لم تتمكّن من قول أكثر من ذلك فقد قاطعهما بحارا البار اللذان ظهرا في الباب، سكرانين تماماً ويبحثان عن مشادّة.

ـ كيف تتجرّأ على إزعاج آنسة بهذه الروعة، يا صينيَّ الخراء؟
ـ هدِّداه.

حنى تاو شيين رأسه، دار نصف دورة وقام بحركة من يذهب، لكنّ واحداً من الرجلين اعترضه ممسكاً بجديلته وشدّه بها، بينما الآخر يتمتم بعبارات المغازلة نافثاً في وجه إليثا نَفَسَهُ الذي تفوح منه رائحة النبيذ المتخمّر. دار الصيني على الفورِ بسرعة سنور وواجه المعتدي، وسكينه الهائلة في يده، يلمعُ نصلُها مثل مرآة في شمس الصيف. أطلقت ماما فرِسيا صرخة ودفعت دون أن تفكّر، أقرب البحارين إليها دفعة جواد، ثم أخذت إليثا من ذراعها وراحت تخبّ نزولاً في الشارع برشاقة غير معهودة فيمن هُنَّ بوزنها.

ركضتا قرابة الميل مبتعدتين عن المنطقة الحمراء دون أن تتوقّفا حتى ساحة سان أغوستين، حيث سقطت ماما فرِسيا مرتجفةً على أوّل مقعد وقعت عليه.

ـ ويحك، يا صغيرة! إذا عرف السادة بهذا قتلوني! هيّا بنا إلى البيت فوراً...

ـ حتى الآن لم أفعل ما جئتُ لأجله، يا ماما. عليَّ أن أعود إلى الحانة.

شبكت ماما فرِسيا ذراعيها، رافضة رفضاً قاطعاً التحرّك من

هناك، بينما إليثا تتمشّى بخطوات كبيرة محاولة أن ترتّب خطّة وسط تشوُّشِها. لم يكن لديها متسع من الوقت. تعليمات الآنسة روز في غاية الوضوح: في السادسة مساءً ستأخذهما العربة من أمام أكاديمية الرقص لتحملهما إلى البيت. عليها أن تعمل بسرعة، قرّرت، فهي لن تملك فرصة أخرى. وبينما هما في تلك الحالة رأتا الصيني يتقدَّمُ نحوهما رصيناً بخطوه المتردِّد وابتسامته التي لا يُعكِّرُها شيء. كرَّرَ انحناءاته المعتادة على شكل تحيّة ثمَّ توجّه إلى إليثا بلغةٍ إنكليزيّة جيّدة ليسأل ابنة القبطان جون سومّرز الكريمة ما إذا كانت بحاجةٍ لمساعدة. وضّحت أنّها ليست ابنته، بل ابنة أخيه، واعترفت له مضطربةً وبثقة مفاجئة أو قنوط أنّها في الحقيقة تحتاج لمساعدته، لكنَّ الأمر يتعلّق بمسألة خاصّة جداً.

ـ هل هو شيء لا يمكن للقبطان أن يعرف به؟

ـ لا يمكن لأحدٍ أن يعرف به.

اعتذر تاو شيين. فالقبطان رجلٌ طيّبٌ، قال، صحيحٌ أنّهُ اختطفه بطريقة سيئة وصعد به إلى السفينة، لكنّه أحسن معاملته وهو لايُفكِّر بخيانته. انهارت إليثا مُكتَئبةً على المقعد ووجهها بين يديها، بينما ماما فرِسيا تراقبهما دون أن تفهم كلمة إنكليزية واحدة، لكنّها تتكهن بالنوايا. أخيراً اقتربت من إليثا وشدّت كيس القطيفة التي تحمل فيه المجوهرات.

ـ هل تعتقدين أنّ أحداً يفعل شيئاً مجانياً في هذا العالم؟ ـ قالت.

فهمت إليثا على الفور. جفّفت دمعها وأشارت إلى المقعد داعيةً الرجلَ للجلوس. أدخلت يدها في كيسها وأخرجت طوقَ اللؤلؤ، الذي أهداه إليها عمّها جون في اليوم السابق ووضعته على ركبتي تاو شيين.

ـ هل تستطيع أن تُخبِّئني في سفينة؟ أحتاج للذهاب إلى كاليفورنيا ـ وضّحت.

ـ لماذا؟ ليست مكاناً للنساء، بل لقطّاع الطرق فقط.

ـ سأذهب بحثاً عن شيء.

ـ الذهب؟

ـ أثمن من الذهب.

بقي الرجلُ فاغرَ الفم فهو لم يرَ امرأة تصل إلى هذا الحدّ في الحياة الواقعية قط، فقط في الروايات الكلاسيكية التي تموت فيها البطلات دائماً في النهاية.

ـ تستطيعين أن تشتري تذكرة بهذا الطوق. لستِ بحاجة لأن تسافري خلسة ـ أشار تاو شيين الذي لا يفكّر أن يُشوِّش حياته بخرق القانون.

ـ ما من قبطان سيقلُّني دون إخطار الأسرة أوّلاً.

تحوّلَ ارتباكُ تاو شيين الأوّلي إلى خجل صريح: هذه المرأة لاتفكّر إلا بتدنيس شرف أسرتها وتنتظر منه مساعدتها. لا شكّ أنّ شيطاناً دخل في جسدها. عادت إليثا وأدخلت يدها في الكيس، أخرجت مشبكاً من ذهبٍ وفيروز ووضعته على ساقِ الرجل بجانب الطوق.

ـ هل أحببت ذات مرّة أحداً أكثر من حياتك ذاتها، يا سيِّد؟

نظر تاو شيين إلى عينيها لأوّل مرّة منذ أن تعارفا ولا بدّ أنّه رأى فيهما شيئاً، لأنّه أخذ الطوق ووضعه تحت القميص، مُعيداً إليها المشبك. نهضَ، سوّى بنطلونه القطنيّ وسكّين الجزّار في حزام الخصر وانحنى من جديد باحتفالية.

ـ ما عدت أعمل عند القبطان سومّرز. غداً تُبحِر السفينة *إميليا* ذات الساريتين إلى كاليفورنيا. تعالي في العاشرة من هذه الليلة وسأصعد بك إلى متنها.

ـ كيف؟

ـ لا أدري، سنرى؟

قام تاو شيين بانحناءة أخرى مهذّبة ومضى بحذرٍ وسرعة شديدة حتى بدا كأنّه تبخّر. عادت إليثا وماما فرِسيا في الوقت المناسب إلى أكاديمية الرقص لتلتقيا بسائق العربة، الذي كان ينتظرهما منذ نصف ساعة وهو يشرب من زقّه.

إميليا سفينة فرنسية الأصل، كانت ذات مرّة رشيقة وسريعة، لكنّها مخرت بحاراً كثيرة وفقدت منذ قرون حميّة الشباب؛ تقطعها ندبٌ بحريّة قديمة، وتحمل ثِقَلاً من الرخويات العالقة بوركيها مثلَ قوّادة، مفاصلها المنهكة تئنُّ من لطم الأمواج، وشراعها الملطخ والمرقّع ألفَ مرّة يبدو آخر أثرٍ لبعضِ الملابسِ الداخلية. انطلقت من بالبارايسو صباح الثامن عشر من شباط من عام 1849 الساطع وعلى متنها ستة وثمانون راكباً ذَكَراً، وخمس نساء وستّ بقرات، وثمانية خنازير وثلاثة قطط وثمانية عشر بحّاراً وقبطاناً هولندياً وبحاراً تشيلياً وطبّاخاً صينياً وإليثا أيضاً، لكنّ ما من أحدٍ يعرفُ بوجودها غير تاو شيين.

تكوّم ركّاب القمرة الأولى فوق برج المقدّمة دون كبير راحة، إلاّ أنّهم أكثر راحة من البقيّة الموجودين في حجراتٍ صغيرة جدّاً في كلٍّ منها أربعة أسرّة صغيرة، أو على أرض السطح بعد أن بحثوا عن مكان يضعون فيه أمتعتهم. غرفة صغيرة تحت خط الطفو خُصّصت للتشيليات الخمس الذاهبات لمراودةِ الثروة في كاليفورنيا. في ميناء كالياو ستصعد بيرويتان وسوف تنضمان إليهنَّ دون حساسية كبيرة، اثنتين في كلّ سرير فردي. أصدر القبطان فنسنت كاتز أوامرَه للبحارة بعدم إقامة أدنى احتكاك اجتماعي مع السيدات، فهو غير مستعد للتسامح مع تجارة غير نزيهة في سفينته، ثمَّ إنّ تلك النسوة لا يَبْدينَ من الورعات جدّاً، لكن أوامره خُرِقَت كما هو منطقيّ مرّة وأخرى خلال الطريق؛ فالرجال يشتاقون لرفقة النساء، وهنَّ مومسات متواضعات قذفن بأنفسهنّ إلى المغامرة، ولا يحملن في

جيوبهنّ مليماً واحداً. كان على البقرات والخنازير المربوطة جيّداً في زرائب صغيرة في البرج الثاني أن تمدّ بالحليب الطازَج واللحم البحّارةَ الذين تتكوّن وجبتهم بشكلٍ أساسي من الفاصولياء، والبسكويت المالح القاسي وما يمكنهم صيده. ولتعويض الندرة كان الركاب أصحاب الإمكانات الأكبر يحملون معهم مؤنهم، وخاصّة النبيذ والسيجار، لكنَّ الغالبية تصبر على الجوع. قطان من القطط الثلاثة يسيران طليقين كي يبقيا الجرذان على الخطّ وإلاّ فإنّها ستتكاثر دون تحكّم خلال شهري العبور. الثالث كان يسافر مع إليثا.

في جوف *إميليا* تكدّست أمتعة المسافرين المتنوّعة والحمولة المرسلة إلى كاليفورنيا للتجارة، مرتبة بطريقة يستغلون فيها المكان المحدود إلى أقصى حدوده. لا شيء من هذا كان يُلْمَسُ حتى وجهته الأخيرة ولا أحد يدخل هناك غير الطبّاخ، الوحيد المخوّل بالدنوّ من الأغذية الجافّة المقنّنة بصرامة. كان تاو شيين يحتفظ بالمفاتيح معلّقةً إلى خصره وهو مسؤول شخصيّاً أمام القبطان عن محتوى العنابِر. هناك في أعمق أعماق السفينة وأكثرها ظلمة ، وفي فجوة من أربعة أمتار مربّعة، مكثت إليثا. سريرها كيس وجدران جحرها البائس وسقفه مكوّنة من صناديق وعلب بضائع، لانور إلا ذيل شمعة؛ عندها قصعة للطعام وإبريق ماء ومبولة، باستطاعتها أن تخطو خطوتين، تتمطّى بين الصناديق، تبكي وتصرخ على هواها، لأنّ لطم الأمواج للسفينة يبتلع صوتها. كان تاو شيين هو صلتها الوحيدة بالخارج؛ ينزل بحججٍ مختلفة كلما استطاع ليُطعمها ويُفرّغ المبولة. في كلّ شركة هناكَ قط في عنبر السفينة للتحكّم بالجرذان، لكن في أسابيع الإبحار الرهيبة جُنّ عاثرُ الحظ فقطع تاو شيين رأسه أخيراً إشفاقاً عليه.

دخلت إليثا إلى السفينة في كيس على كتف واحدٍ من الحمّالين الكثيرين الذين حمّلوا البضائع والأمتعة في بالباريسو. لم تعرف قط كيف تدبَّرَ تاو شيين أمره للحصول على تواطؤ الرجل وأفلت من مراقبة القبطان وقائد السفينة، اللذين يسجّلان كلّ شيءٍ يدخل. كانت

قد هربت قبل ساعات بواسطة حيلة معقّدة، تضمّنت تزوير دعوة مكتوبة من أسرة دِل بالْيه لزيارة مزرعتهم لعدّة أيّام. لم تكن فكرةً غير معقولة. فقد دعتها بناتُ أغوستين دِلْ بالْيه في مناسبتين أخريين إلى الريف، والآنسة روز سمحت لها بالذهاب، دائماً برفقة ماما فرِسيا. ودّعت جِرمي والآنسة روز وعمّها جون بتردُّدٍ مزيّف، وهي تشعر بثقل صخرة على صدرها. رأتهم يتناولون طعام إفطارهم، يقرؤون الصحفَ الإنكليزية، غريبين تماماً على مخطّطاتها. تردّد مؤلم كاد يجعلها تتراجع. هم أسرتها الوحيدة ويمثلون آمالها ورغد عيشها، لكنّها عبرت خطَّ الحشمة الذي لارجعة عنه. كان آل سومّرز قد ربوها على القواعد الصارمة للسلوك الجيّد لأنّ غلطة خطيرة تلطّخ مكانة الجميع. بهربها ستتلطخ سمعة الأسرة، لكن على الأقل هناك الشكّ: باستطاعتهم دائماً أن يقولوا إنّها ماتت. مهما يكن التفسير الذي سيقدّمونه فهي لن تبقى هناك لتراهم يعانون من العار. بدت لها أوديسة الخروج بحثاً عن حبيبها الطريقَ الوحيد الممكن، لكنّ حزناً شديداً انتابها في لحظة الوداع الصامت تلك فأوشكت على الانفجار بالبكاء والاعتراف بكلّ شيء. عندئذٍ جاءتها صورة خواكين أنديتا الأخيرة ليلة رحيله بدقّة فظيعة لتذكّرها بواجب حبّه. سوّت بعض خصلات شعرها الفالتة من التسريحة، وضعت قبّعة قشها الإيطالية وخرجت مودِّعةً بحركة من يدها.

أخذت معها الحقيبةَ التي أعدّتها لها الآنسة روز ووضعت فيها أفضلِ ملابسِها الصيفية، كما أخذت بعض الريالات التي اختلستها من غرفة جِرمي سومّرز ومجوهرات صداقها. انتابها إغواء السطو على مجوهرات الآنسة روز أيضاً، لكنّ احترام تلك المرأة التي قامت بدور أمّها هزمها. تركت في غرفتها في الصندوق الفارغ ملاحظة قصيرة تشكرهم على الكثير الذي تلقته منهم، معبّرة تكراراً عن حبّها الشديد لهم. ثمّ أضافت اعترافاً بما حملت كي تحمي الخدم من أيّ شكٍّ. كانت ماما فرِسيا قد وضعت لها أقوى أحذيتها وكذلك دفاترها

وحزمة رسائل حبّ خواكين أندْيتا. كما حملت معها البطانية الصوفية القشتالية الثقيلة، هديّةَ عمّها جون. خرجتا دون أن تُثيرا الشكّ. تركهما السائق في شارع أسرة دِلْ بالْيه وغاب عن الأنظار دون أن ينتظر أن يفتحوا لهما. مضت ماما فرِسيا وإليثا في طريقهما إلى الميناء للقاء تاو شيين في المكان والساعة المتفق عليهما.

كان الرجل بانتظارهما. أخذ الحقيبة من يدي ماما فرِسيا وأشار لإليثا باتباعه. تعانقت الفتاة ومربيتها طويلاً. كانتا واثقتين من أنّهما لن تعودا لتتقابلا. لكن أيّاً منهما لم تذرف دمعة.

ـ ماذا ستقولين للآنسة روز يا ماما؟

ـ لا شيء. الآن سأذهب إلى حيث أهلي في الجنوب، ولن يعثر عليّ أحد أبداً.

ـ شكراً، يا ماما. سأذكرك دائماً...

ـ وأنا سأصلي كي يحالفك التوفيق، يا صغيرتي ـ كان هذا آخر ما سمعته إليثا من شفتي ماما فرِسيا، قبل أن تدخل في أحد بيوت الصيادين البائسة خلف خطوات الطبّاخ الصيني.

في الغرفة الخشبية المكفهرة التي لا نوافذ لها وتفوح منها رائحة شِباكٍ رطبة تهويتها الوحيدة تأتي من الباب، سلّم تاو شيين إليثا بنطلوناً قبيحاً وقميصاً كبيراً بالياً من كثرة الاستخدام طالباً منها ارتداءه. لم يقم بحركة من سيخرج أو سيلتفت حشمة. تردّدت إليثا، فهي لم تخلع ملابسها أمام رجل غير خواكين أندْيتا قط، لكنّ تاو شيين لم يلحظ ارتباكها، إذ ليس لديه شعور بالاحتشام؛ فالجسد ووظائفه تبدو له طبيعية ويعتبر الحياء عائقاً أكثر مما هو فضيلة. أدركت أنّها لم تكن لحظة مناسبة للخجل، فالسفينة ستقلع في ذلك اليوم بالذات والزوارق الأخيرة تحمل الأمتعة المتأخرة. خلعت قبّعةَ القش وفكّت حذاءها الجلدي وفستانها، أفلتت أربطة ملابسها الداخلية وأشارت للصيني وهي تموت حياءً أن يساعدها على فكّ

المشدّ. مع تكوّم ملابسها الفاخرة كطفلة إنكليزية على الأرض راحت تفقد شيئاً فشيئاً احتكاكها بالواقع المعروف وتدخل في حتميةِ الوهم الغريب الذي سيشكّل حياتها في السنوات اللاحقة. انتابها إحساس واضحٌ بأنّها تبدأ قصّة أخرى هي فيها البطلة والراوية في آنٍ معاً.

الابن الرابع

لم يكن لِ تاو شيين هذا الاسم دائماً. في الحقيقة لم يملك اسماً حتى الحادية عشرة من عمره، فأبواه كانا من الفقر مما لم يسمح لهما بالانشغال بتفاصيل كهذه: كان يسمّى ببساطة الابن الرابع. وُلِدَ قبل تسع سنوات من ولادة إليثا في قرية من مقاطعة كوانغتونغ، على بعد يوم ونصف سيراً على الأقدام من مدينة كانتون. أصله من أسرة تنتمي إلى الأطباء الشعبيين، تناقل رجال سلالته لأجيال لا تُحصى أباً عن جدٍّ معرفَتهم بالنباتات الطبيّةِ، فنَّ اجتزاز المزاج السيئ، سحر إبعاد الشياطين ومهارة تنظيم الطاقة، *الكي*. كانت الأسرة في العام الذي وُلِدَ فيه الابنُ الرابعُ في أكثرِ حالات الفقر إدقاعاً، إذ راحت تفقد الأرض على يد الراهنين والمحتالين. بينما يجمعُ ضباط الإمبراطورية الضرائبَ، يحتفظون بالمال لأنفسِهم ويطبّقون بعدها أتاواتٍ جديدةً لتغطية سرقاتهم، إضافة إلى تحصيل عمولاتٍ غير شرعية ورشاوى، ليس باستطاعة أسرة الابن الرابع، كما هو حال معظم الفلاحين، دفعها. وإذا تمكّنوا من إنقاذ بعض نقود دخلهم المسكين من موظفي الإمبراطورية السامين خسروها على الفور في القمار، إحدى التسليات القليلة المتاحة للفقراء، ومن الممكن الرهان في سباق الضفادِع والجنادِب وصراع الصراصير أو في *الفان تان*، إضافة إلى ألعاب شعبية كثيرة أخرى.

كان الابن الرابع طفلاً مرحاً، يضحك من لا شيء، لكنّه ذو قدرة

هائلة على الانتباه والفضول للمعرفة. في السابعة من عمره عرف أنّ ذكاء الطبيب الشعبي الجيّد يكمن في الحفاظ على التوازن بين *الين واليانغ*، وعرف في التاسعة خصائصَ نباتات المنطقة، وصار باستطاعته مساعدة أبيه وأخوته الأكبر منه في التحضير المجهد للصقات والمراهم، والمقويات والبلاسم والشرابات والمساحيق وحبوب العقاقير الصيدلانية الريفية. كان والده وأخوه الأكبر يسافران سيراً على الأقدام من قرية إلى قرية يعرضان الشفاء والعلاج، بينما الولدان الثاني والثالث يزرعان قطعة بائسة من الأرض، رأسمال الأسرة الوحيد. أمّا مهمّة الابن الرابع فجمع النباتات، العمل الذي كان يُحبّه لأنّه يسمح له بالتيه في الضواحي دون رقابة، ليبتدع ألعاباً ويُقلّدُ أصوات عصافير. أمّه، التي لاتستطيع، لأنّها امرأة، العملَ في الأرض دون أن تتعرّضَ لسخرية الجيران، ترافقه أحياناً إذا بقي لديها قوّة بعد القيام بواجباتها المنزلية التي لا تنتهي. غالبوا العيش بصعوبة شديدة، تتراكم عليهم الديون في كلّ مرّة أكثر حتى جاء ذلك العام المشؤوم 1834، حين انصبّت على الأسرة أسوأ الشياطين. أولاً اندلق قدرٌ من الماء الغالي على البنت الصغرى، التي لم تكد تكمل الثانية من عمرها فاحترقت من رأسها وحتى قدميها. وضعوا بياض البيض على الحروق وعالجوها بالأعشاب الموصوفة لهذه الحالات، لكن الطفلة أنهكتها المعاناة وماتت في أقل من ثلاثة أيّام. لم تستعد الأمّ نفسها فقد فقدت أبناءً آخرين في الطفولة، خلّفَ كل منهم جرحاً في الروح، لكنّ حادث البنت الصغرى كان حبّة الأرز الأخيرة التي قلبت القصعة. بدأت صحتها تتراجع على مرأى منهم وصارت الأم تزداد يوماً بعد يوم نحولاً، يزدادُ جلدها اخضراراً وعظامها هشاشةً، دون أن تستطيع شرابات زوجها وقف تقدّم مرضها الغامض، إلى أن وجدوها ذات صباحٍ متخشّبةً تعلوها ابتسامة راحة وسلامٌ في عينيها لأنّها مضت أخيراً لتجتمع بأطفالها الميتين. كانت الطقوس الجنائزية في غاية البساطة لأنّ الأمر يتعلّقُ بامرأة. لم يستطيعوا

التعاقد مع راهب وليس لديهم أرز يقدّمونه للأقرباء والجيران خلال المراسم، لكنّهم اقتنعوا على الأقل بأنّ روحها لن تلوذ بالسقفِ أو الجبِّ أو كهوف الجرذان التي تستطيع فيما بعد أن تأتي منها وتعاقبهم. لولا الأم، التي حافظت بجهدها وصبرها الواضحين على الأسرة موحّدة، لكان من المحال وقف المصيبة. جاء عام الهواء الأصفر والمحاصيل السيّئة والمجاعة. امتلأت أرض الصين الفسيحة بالمتسوّلين وقطّاع الطرق. وابنة السبع سنين المتبقية للأسرة بيعَتْ لوكيل ولم يعرفوا عنها بعد ذلك شيئاً. الابن الأوّل المنذور للحلول محل الأب في مهنة الطبيب الجوّال، عضّه كلب مريضٌ ومات بعد فترة قصيرة متخشِّبَ الجسد مثل قوس، يُطلق الزبد من فمه. الابنان الثاني والثالث صارا في عمر العمل فوقعت على كاهلهم مهمّة العناية بالأب في حياته، والقيام بالطقوس الجنائزية عند موته وتشريف ذكراه وذكرى أسلافه الذكور الآخرين لخمسةِ أجيالٍ. الابن الرابع لم تكن له فائدة محدَّدة بشكل خاص وما من طريقةٍ لتغذيته، فباعه أبوه عبداً لمدّةِ عشر سنواتٍ لبعض التجار الذين مرّوا في قافلة بالقرب من القرية. كان الطفل في الحادية عشرة من عمره.

في الحقيقة جاءت تلك العبودية التي كان من الممكن لها أن تكون جحيماً على الفتى، أفضلَ من السنوات التي قضاها تحت سقف أبيه بفضل حادِثٍ من تلك التي كثيراً ما بدّلت فيما بعد طريقَهُ. بغلان يجرّان عربةً تحمل أثقل حمل في القافلة. أنينٌ يحطِّم الأعصاب يُرافق كلَّ دورة من عجلاتها، التي لم يشحّموها عمداً لإبعاد الشياطين؛ وربطوا الابن الرابع الذي راح يبكي مفجوعاً منذ انفصلَ عن أبيه وأخوته بحبلٍ إلى أحد الحيوانين منعاً لهربه. حملَ حافياً عطشاً، أمتعته النادرة في كيس على ظهره. رأى سطوح قريته والمشهد العائليّ تختفي. الحياة في ذلك الكوخ هي الشيء الوحيد الذي عرفه ولم يكن سيّئاً فأبواه عاملاه برقّةٍ وأمّه حكت له قصصاً وأيّ ذريعة كفته كي يضحك ويمرح، حتى في أعظم الأيامِ فقراً. خبَّ

خلفَ البغل مُقتنِعاً بأنّ كلَّ خطوة توغلُ به أكثرَ وأكثر في أرض الأرواح الشريرة، وخاف ألا يكفي صرير عجلاتِ العربة والجلاجل المعلّقة إلى العربة لحمايته. بصعوبة استطاع أن يفهم لهجة المسافرين، لكنّ الكلمات الملتقطة سريعاً راحت تنفذُ إلى عظامه خوفاً مريعاً؛ تحدّثوا عن العفاريت الكثيرة الحاقِدة التي تحوم في المنطقة، أرواح هائمة لموتى لم يلقوا الجنازةَ المناسِبة، فالجوع والهواء الأصفر والكوليرا زرعت المنطقةَ بالجثث ولم يبق ما يكفي من الأحياء لتكريم الموتى. من حسن الحظّ أن الأشباحَ والشياطين تتمتّع بسمعة أنّها خرقاء، لا تعرف كيف تنعطفُ في زاويةٍ وتبتعد بسهولة أمام عرضٍ من طعام أو هدايا من ورق. ومع ذلك ما من شيء يستطيعُ أحياناً إبعادَها، وتستطيع أن تتجسّد مستعدّةً لكسب حرِّيَّتها مغتالَةً غرباء، داخِلَةً في أجسادهم لتجبرَهم على القيام بأعمالٍ شرِّيرَةٍ لا تخطر بالبال. كانت قد مضت ساعات عدّة على المسير وحرّ الصيف والعطش شديدين، والفتى يتعثّر في كلّ خطوتين وسيّداه الجديدان يحثّانه بنفاد صبر، لكن دون خبث، بضربيات عصاً بسيطة على ساقيه. غربت الشمسُ فقرّروا التوقّف والتخييم. أراحوا حيوانات التحميل. أشعلوا ناراً وشربوا شاياً وتوزّعوا على مجموعاتٍ صغيرة ليلعبوا *الفان تان والماه جونغ*. أخيراً تذكّر أحدٌ ما الابنَ الرابعَ فمرّرَ له قصعة أرزٍّ صغيرةً وكأسَ شاي هاجمها بنهمِ جوعٍ مُتراكِم شهوراً وشهوراً. وهنا باغتهم صخبُ عواءٍ ورأوا أنفسهم محاطين بسحابةٍ من غبار. انضمّ إلى لَغطِ المُهاجِمين لغطُ المسافرين، والطفل المذعور زحف تحت العربة إلى حيث سمح له الحبل الذي رُبِط به. لم يتعلّق الأمر بفيلقٍ جهنّميّ، كما عرفوا على الفور بل بعصابةٍ من عصابات قطّاع الطرق الكثيرة التي تُهاجمُ، ساخرةً من عدم فعالية الجنود الإمبراطوريين، الطرقَ في أكثر اللحظاتِ قنوطاً. ما أن أفاق التجّار من الصدمة الأولى حتى أخذوا أسلحتهم وهاجموا اللصوص في معركة من الصياح والتهديد وإطلاق النارِ لم تدم إلاّ دقائقَ. حين استقرّ الغبارُ هرب أحدُ

المهاجمين وجثا الآخران على الأرض بجروحٍ بليغةٍ. نزعوا الخرقَ عن وجهيهما وتأكّدوا أنّ الأمر يتعلق بمراهقَين يرتديان الأسمالَ، مُسَلَّحَين ببنادق قصيرة ورماح بدائيّة فهُرعوا لقطع رأسيهما ليعانيا من مُغادرة هذا العالم مذلولين مقطّعين لا كما جاءا إليه كاملين. وضعوا الرأسين فوق خازوقين على جانبي الطريق. حين هدأت النفوس وجدوا أحدَ أفراد القافلة يتقلّب على الأرض وجرح رمحٍ وحشيّ في فخذه. خرج الابن الرابع، الذي مكث تحت العربة مشلولاً من الذعر، زاحفاً من مخبئه وطلب باحترام إذنَ التجارِ للعناية بالجريح، وبما أنّه لم يكن أمامهم بديل آخر أذنوا له بالتصرّف. طلبَ شاياً لغسل الدم، فتح كيسَه وعمل مرهماً من *الباي ياو*. وضع تلك العجينة البيضاء على الجرح وضمّد الساقَ شادّاً عليها وأعلن دون أدنى تردّدٍ أنّ الجرحَ سيندمِلُ خلال أقل من ثلاثة أيّام. وكان ذلك. أنقذه هذا الحدثُ من عبوديّةٍ عشر سنواتٍ ومن معاملةٍ أسوأ من معاملة الكلب، فقد باعَهُ التجارُ، نظراً لمهارته في كانتون لطبيبٍ تقليديٍّ شهير ومعلّمٍ في وخز الإبر - *زهونغ يي* - كان بحاجةٍ لصانع. مع هذا المُعلّم تعلّم الابنُ الرابعُ ما لم يكن سيتعلّمه أبداً من أبيه الريفيّ.

كان المُعلِّم العجوزُ رجلاً مرحاً، له وجهُ قمرٍ أملسَ ويدان ناشزتا العظام وحساستان، هما أفضل أدواته. أوّلُ ما فعله مع خادمه هو منحه اسماً. استشار كتباً فلكيّة وتكهّن ليتأكّد من الاسم المطابق للفتى: تاو. كان للاسم عدّة معانٍ، مثل: سبيل، اتجاه، معنى وانسجام، لكنّه يمثّلُ على الأخص رحلة الحياة. منحه المُعلّمُ كنيته ذاتها.

- سأسميك تاو شيين. هذا الاسم يضعكَ على طريق الطب. سيكون قدرُك التخفيف من آلام الآخرين وإدراك الحكمة، وستصبح *زهونغ يي* مثلي.

تاو شيين... تلقّى المتعلّم الشابّ اسمَهُ ممتنّاً. قبّلَ يديّ سيّده وابتسمَ لأوّل مرّةٍ منذ خرجَ من بيته. دافع الفرحة، الذي طالما رَقّصَهُ في السابق فرَحاً دونما سببٍ، عاد ليخفق في صدرِه والبسمةُ عادت لا تمّحي عنه، يسير في البيت قفزاً، يتذوّق طَعْمَ اسمِه مبتهجاً كأنّه حبّة سكاكر في فمه، يُردِّدُه بصوتٍ عالٍ ويحلم به حتى تماثل معه تماماً. علّمَه مُعلّمه الذي يتبع كونفوشيوس في الجوانب العمليّة وبوذا في الجانب العقائدي بقوّةٍ، لكن بنعومةٍ كبيرة، النظامَ المناسب لجعله طبيباً جيّداً.

ـ إذا استطعتُ تعليمك كلّ ما أبغيه أصبحتَ ذات يومٍ رجلاً مرموقاً ـ قال له.

كان يؤكّد أنّ الطقوس والشعائر ضروريّةٌ ضرورةَ قواعدِ التربية الحسنة واحترام المراتب؛ ويقول إنَّ المعرفةَ قليلةُ المنفعة دون حكمةٍ، ولا حكمة دون روحانيّة والروحانية الحقيقية تنطوي دائماً على خدمة الآخرين. إنَّ أساسَ الطبيب الجيِّد يكمن، كما وضّح مرّاتٍ كثيرةً، في القدرةِ على الرحمة وفهم الأخلاق اللذين يَفسدُ فنُّ الإشفاء المقدّس دونهما ويصبح مجرّدَ ثرثرة . أحبَّ ابتسامةَ تلميذه السهلة.

ـ قطعت شوطاً لا بأس به على طريق المعرفة، يا تاو. العالم سعيدٌ دائماً ـ كان يؤكّد.

بقي تاو شيين طوال العامَ يستيقظُ في الفجر، مثل أيّ تلميذٍ، ليمارسَ ساعةً من التأمّل والإنشاد والصلوات؛ ويملك يوماً واحداً للاحتفال بالعام الجديد. فالعمل والدراسة شغله الشاغل، عليه أن يُجيدَ تماماً الصينيّةَ المكتوبة، نصف الرسمية للتواصل في تلك البلاد الشاسعة التي تضمُّ مئات الشعوب واللغات، فمعلّمه صارمٌ في موضوع جمال ودقّة الخطّ الذي يميّز الرجل المثقّف عن الوغد. كذلك أصرَّ على تنمية حساسيّته الفنّيّة التي تميّز حسبَ قوله الكائن المتفوّق. كان كأيٍّ صينيٍّ متحضّر يشعر بازدراء جامحٍ تجاه

الحرب، ويميلُ بالمقابل نحو فنون الموسيقى والتصوير الفنّي والأدب. استطاع تاو شيين أن يتعلّم معه تقديرَ تطريز نسيج العنكبوت المزيّن بلؤلؤ الندى تحتٍ ضوء الفجر والتعبيرَ عن سعادته بقصائد غير متوقّعة مكتوبة بخطٍّ أنيق. الشيء الوحيد، حسب رأي المعلّم، الذي يُعتبَرُ أسوأ من عدم نظم الشعر هو نظمه بشكلٍ سيّئ. حضرَ الفتى في البيت اجتماعاتٍ متكرِّرة أبدع فيها المدعوون أشعاراً من وحيٍ اللحظة، وتأمّلوا الحديقةَ وقدَّمُ هو فيها الشاي وأصغى مذهولاً. يمكن إدراك الخلود بكتابة كتابٍ واحد، خاصّة إذا كان، كما يقول المُعلّم، شعراً، وهو كتب عدداً منها. أضاف تاو شيين إلى معارفه العمليّة التي أحرزها من رؤية والده يعمل، الكم النظري الهائل من الطب الصيني العريق. تعلّم الفتى أنّ جسم الإنسان يتكوَّنُ من خمسة عناصِرَ، الخشب والنار والتراب والمعدن والماء، مشتركة في خمسة كواكب وخمسة ظروف جوّية وخمسة ألوانٍ وخمس علامات. والطبيب الجيّد يستطيع من خلال الاستخدام المُناسِب للنباتات الطبيّة والوخزِ بالإبر وكؤوس الهواء، أن يقي ويشفي من أمراضٍ مُختلِفة، ويتحكَّمَ بالطاقة الذكريّة النشيطة والخفيفة، والطاقة الأنثوية السلبيّة والغامضة - *ين ويانغ*. ومع ذلك فالغاية من ذلك الفن ليست القضاء على الأمراض بقدر ما هي الحفاظ على الانسجام. كان المُعلّمُ ينصحه بقوله: «عليك أن تختارَ غذاءَك، توجّهَ سريرك وتقود تأمّلك حسب فصول السنة واتجاه الريح؛ وهكذا ستكون في انسجامٍ مع الكون».

كان *الزهمونغ يي* سعيداً بحظّه، مع أنّ عدم وجود مُتَحدِّرين من صلبه يُثقِلُ عليه في هدأةِ روحه كالظلمة. لم يُنجِب أولاداً على الرغم من الأعشاب العجيبة التي تناولها خلال حياة بكاملها لتنظيف دمه وتقوية عضوه، وكذلك العلاجات والسحر التي طبّقها على زوجتيه، اللتين ماتتا في شبابهما، وعلى محظياته العديدات اللواتي لحقن بهما. اضطرّ بتواضعٍ لقبول أنّ الذنب لم يكن ذنب تلك النسوة المتفانيات، بل ذنب ضُعف سائله الذكوري. ما من علاج من علاجات

الإخصاب التي أفادته في مساعدة الآخرين فعلت فعلها عنده واستسلم أخيراً إلى الواقع الذي لا يمكن نكرانه وهو أنّ كليتيه جافّتان. تخلّى عن معاقبة نسائه بمطالب غير مجدية وتمتّع بهنّ تماماً حسب مختاراته من كتب *الوسادة* الجميلة. ومع ذلك كان العجوز قد ابتعدَ عن هذه المتع منذ زمن طويل، واهتمَّ أكثر بتحصيل معارف جديدة وسبرِ درب الحكمة الضيّق، وتخلّص من محظياته اللواتي كنّ يلهينه بحضورهنّ عن مساعيه الفكرية، واحدةً بعد أخرى، فهو لا يحتاج لوجود فتاة أمام عينيه ليصفها في قصائد رفيعة، تكفيه الذكرى، كما تخلّى عن فكرة أن يكون لديه أولاد من صلبه، لكن عليه الاهتمام بمستقبله؛ إذ مَنْ سيساعدُهُ في المرحلة الأخيرة وفي ساعة موته؟ من سينظّفُ قبره ويكرِّمُ ذكراه؟ لقد درَّب تلامذةً له من قبل وغذّى عند كلٍّ واحدٍ منهم الطموحَ السريَّ لتبنّيه، لكنّ أحداً لم يكن أهلاً لذلك. تاو شيين لم يكن أكثر ذكاءً ولا حدساً من الآخرين، لكّنه يحمل في داخله هوس التعلّم الذي لاحظه المُعلّم على الفور، لأنّه مماثل لهوسه. ثمَّ إنّه كان ولداً عذباً ومرحاً ومن السهل التحبّب إليه، وقدَّره خلال سنوات معايشته الأخيرة إلى حدّ أنّه استغرب أنّه ليس من صلبه. ومع ذلك لم يُعْمِهِ تقديرُه لتلميذه، فالتجربة علّمته أن التبدلات في سنّ المراهقة عميقة جدّاً ولا يستطيع التكهُّنَ بنوعِ الرجل الذي سيصير إليه. فكما يقول المثل الصينيّ: «إذا كنتَ لامعاً في شبابك لا يعني أنّك ستكون مجدياً في رشدِك» خاف أن يخطئ مجدَّداً كما حدث له سابقاً وفضّل الانتظارَ بصبرٍ حتى تنجلي طبيعة الفتى من تلقاء ذاتها. سيرشده خلال ذلك تماماً كما يفعل مع أشجار حديقته الفتيّة ليساعده على النمو باستقامة. على الأقل هذا يتعلّم سريعاً، فكَّر الطبيبُ العجوز، وهو يقدّر كم من السنوات بقي له على قيد الحياة، إذ أنَّه حسب علامات النجوم والملاحظات الدقيقة لجسده ذاته لن يكون عنده وقت لتدريب تلميذٍ آخر.

سرعان ما عرف تاو شيين كيف يختارُ المواد من السوقِ وحوانيتِ الأعشاب - مساوماً كما يجب - واستطاع تحضير

العلاجات دون مساعدة. توصّل من خلال مراقبة عمل الطبيب إلى معرفة آليةِ عمل الجسم الإنساني المعقّدة، والإجراءات اللازمة لترطيب المحمومين، وأصحاب المزاج الحامي ومنح الحرارة للذين يُعانون من البرودة السابقة على الموت، وتحريض النسغ عند المصابين بالعقم وتجفيف أولئك المنهكين من كثرة الإفراز. كان يقوم برحلة طويلة في الحقل بحثاً عن أفضل الأعشاب في أوج فعاليتها، ينقلها فيما بعد ليصرَّها في خرقٍ رطبة للحفاظ عليها طازجة خلال الطريق إلى المدينة. اعتبره مُعلِّمه حين بلغ الرابعة عشرة بالغاً، فأرسله للعناية بالعاهرات مع التعليمات الصارمة بالامتناع عن الاتجار معهنَّ لأنّهنّ، كما يمكنه أن يتأكّد بنفسه عند فحصهنَّ، يحملن الموت على كاهلهنَّ.

ـ أمراض المواخير تقتل من الناسِ أكثر مما يقتلُ الأفيون والتيفوس. لكن إذا قمت بواجباتك وتعلّمتَ إيقاعاً جيّداً اشتريتُ لك فتاةً عذراء في الوقت المناسب ـ وعدَهُ المُعلِّمُ.

عاش تاو شيين الجوعَ في طفولته، لكنّ جسمَه تطاول حتى أصبح أطول أفراد أسرته. لم يشعر في الرابعة عشرة بميلٍ إلى فتيات الإيجار، بل بالفضول العلمي فقط. كنّ مختلفاتٍ جدّاً عنه ويعشن في عالم كان من البعد والسرّيّة بحيث لم يستطع اعتبارهنّ بشراً بشكل حقيقيّ. فيما بعد وحين باغتت الطبيعة تاو وأخرجته عن صوابه فراح يسير كالسكران ويتعثّر بظلّه، أسِف مربّيه لأنّه تخلّص من محظياته. ما من شيءٍ يلهي طالباً جيّداً عن مسؤولياته مثل انفجار القوى الجنسية. المرأة تهدّئه وتفيد في منحه معرفةً عمليّةً، لكنّ وبما أنَّ فكرةَ شراء واحدة بدت له عائقاً ـ فهو مرتاح في عالمه الذكري الخالص ـ أجبر تاو على تناول منقوعات تهدّئ من تأجّجه. لم يتذكر *الزهونغ بيي* براكينَ العاطفة الشهوانية فراح يعطي تلميذَه، بكلِّ نيّة حسنة، *كتبَ الوسادة* من مكتبته كجزء من تربيته، دون أن يقيس التأثير المثبط التي تنطوي عليه بالنسبة للفتى. حمله على حفظِ كلّ واحدة من المئتين واثنتين وعشرين وضعيّة للحبّ مع أسمائها

الشاعرية عن ظهر قلبٍ، عليه أن يعرفها دون تردُّدٍ في صور الكتبِ التوضيحية وهو ما ساهم بشكلٍ ملحوظ في إلهاء الشاب.

ألِفَ تاو شيين كانتون وعرفها تماماً كما عرف قريته الصغيرة. أحبَّ تلك البلدة القديمة المسوَّرة، بفوضى أقنيتها وشوارعها الملتوية التي تختلط فيها القصور والأكواخ اختلاطاً تاماً، وفيها من يعيش ويموت في قوارب عبر النهر دون أن تطأ قدمه اليابسة أبداً. اعتاد جوَّ الصيفِ الطويل، الرطِبَ والحارَّ، الذي تجلده الأعاصير الاستوائية، وجوَّ الشتاء اللطيفَ منذ تشرين الأوّل وحتى آذار. كانت كانتون مدينة مغلقة في وجه الغرباء على الرغم من انقضاضِ قراصنةٍ يحملون أعلام أُمَمٍ أخرى عليها فجأة. فيها بعض المحلات التجارية حيث يستطيع الأجانبُ تبادلَ البضائع منذ تشرين الثاني وحتى أيار، لكنّ الضرائب والقوانين الناظمة والعوائق من الكثرة بحيثُ فضَّلَ التجار الأجانب الاستقرار في ماكاو. عادة ما كان تاو شيين يعثر في الصباح الباكر وهو في طريقه إلى السوق على طفلاتٍ حديثاتِ الولادة مرميّات في الشارع أو طافيات في القنوات، ممزّقات أو منهوشات من الكلاب أو الجرذان فهنّ محتقرات ولا أحد يريدهنَّ. فلماذا تغذية ابنة لا قيمة لها ومصيرها الانتهاء لخدمة أهل زوجها. والمثل الشعبيّ يؤكِّد: «ولد مشوّه خير من بضع عشرة ابنة يملكن علم بوذا» على كلِّ الأحوال هناك أطفال كثيرون وهم يستمرون في التوالد مثل الفئران. المواخير ومدخنو الأفيون يتكاثرون في كلِّ مكان. كانت مدينة مزدحمة، غنيّة، وفرحة، مليئةً بالمعابدِ والمطاعم وبيوت القمار التي يُحتَفَلُ فيها بصخبٍ بأعياد التقويم. تتحوّلُ فيها حتى العقوبات والإعدامات إلى مناسباتٍ للهوِ. تجتمع حشود للهتاف للجلادين بصداراتهم الملطخة بالدماء ومجموعات سكاكينهم المسنونة التي يقطعون بها الرؤوسَ بضربةٍ صائبة؛ والعدالة تنفّذ بطريقة بسيطة وسهلة دون استئنافٍ أو قسوة غير ضروريّة إلا في حالات خيانة الإمبراطور، التي هي أسوأ جريمة ممكنة، إذ يُدفع ثمنها موتاً بطيئاً ومراقَبَةً لكلِّ الأقرباء

الذين يتحوّلون إلى عبيد. الارتكابات الأدنى يُعاقب عليها بالجلد أو بمنصّة من الخشب مفصّلة على قدّ جسم المذنبين لعدّة أيّام، بحيث لا يستطيعون الراحة ولا لمس رؤوسهم بأيديهم لتناول الطعام أو الحكّ. كان رواة القصص الذين يسافرون مثل الرهبان المتسولين عبر البلد محتفظين بتراث شفوي عريق يتألّقون في الأسواق. المشعوذون والبهلوانيون والحواة والشاذون والموسيقيون الجوّالون والسحرة والشطّار الخفيفون يتواعدون في الشوارع ومن حولهم صخب تجارة الحرير، الشاي، اليشم، التوابل، الذهب، دروع السلاحف، الخزف، العاج، والحجارة الكريمة. النباتات والفواكه واللحوم تقدّم، تعرض في خليط عجيب: ملفوف وبراعم خيزران غضّة إلى جانب أقفاص القطط والكلاب والراكون التي يقتلها اللحام ويقطع رؤوسها بحركة واحدة بناء على طلب الزبائن. أزقّةٌ طويلة ليس فيها غير الطيور، إذ لا يمكن لبيت أن يخلو من طيور أو أقفاص بدءاً من أكثرها بساطة وحتى المصنوعة من أرفع أنواع الخشب المطعّم بالفضّة والصدف. مناطق أخرى من السوق مخصّصة للأسماك الغريبة التي تأتي بالحظ الحسن. تاو شيين الفضولي دائماً يشرد ويبني صداقاتٍ، يجري بعدها ليقومَ بمهمّته في القطاع الذي يحتوي على موادّ مهنته وهو يعرفه مغمضَ العينين نتيجة روائح توابله ونباتاته وقشور أشجاره الطبية. كانت الأفاعي المجفّفة تتكوّم ملفوفة مثل صوانٍ مغبرّة، والضفادع والسمندر والحيوانات البحرية الغريبة تعلّق منضّدة في حبال مثل الأطواق، الجداجد والصراصير الكبيرة ذات الدروع القاسية المتلألئة تضعفُ في صناديقها، قرود من كلّ الأنواع تنتظر دورها بالموت، سيقان دببة، سعالى وقرون الظباء ووحيد القرن، وعيون نمور وزعانف سمك قرش ومخالب طيورِ ليل غامضة تُبتاعُ بالوزن.

أمضى تاو شيين السنوات الأولى في كانتون بالدراسة والعمل وخدمة معلّمه العجوز، الذي بلغ احترامه له احترام الجدّ. كانت سنوات سعيدة تبخّرت فيها ذكرى أسرته حتى نسي وجوهَ أبيه

وأخوته دونَ وجهِ أمّهِ التي تظهر له باستمرار. سرعان ما اعتادَ الدراسةَ وشُغِفَ بها. في كلِّ مرّة يتعلّم شيئاً جديداً يطير إلى معلّمه ليحكيه له دفقاً فيضحكُ العجوزُ ويقول: «كلّما تعلّمتَ أكثر اكتشفتَ كم هي معرفتك قليلة». قرّر تاو شيين بمبادرةٍ ذاتية إتقان الخانية والكانتونية لأنَّ عاميّة قريته محدودة جدّاً. كان يمتصّ المعارف من معلّمه بسرعة قصوى حتى أنّ العجوز اتّهمه مازحاً بأنّه يسرق منه حتى أحلامه، لكنّ شغَفَ المعلّمِ الخاصّ بالتعليم جعله كريماً فشارك الفتى في كلّ ما أراد التحقّق منه ليس فقط في مجال الطبِّ، بل أيضاً في احتياطيّه المعرفي الواسع وثقافته المهذّبة. طيبٌ بالطبيعة لكنّه صارمٌ في النقد ومطالب بالجهد لأنّه كما كان يقول: «لم يبق لي من الوقت كثيراً ولن أستطيع أن أحمل معي ما أعرفه إلى العالم الآخر، لذلك لا بدّ من أحد يستعمله بعد موتي» لكنّه أيضاً حذّره من الشراهة المعرفية التي يمكن أن تقيّد الرجل مثلها مثل النهم أو الغلمة وأكّدَ له: «العالِم لا يرغب بشيء، لا يصدر حكماً، ولا يضع خططاً، ويبقي على عقله مفتوحاً وقلبه في سلام». وكان يُوبّخه بحزن حين يخطئ، حتى أنّ تاو شيين فضّل الجلد بالسوط، لكنّ هذه الطريقة تثير اشمئزاز *الزهونغ يي* الذي لم يكن ليسمح أبداً للغضب بالتحكم بأعماله. المرّات الوحيدة التي ضربه فيها بقضيب خيزران بطريقةٍ احتفاليّة، دون غضبٍ لكن بنيّةٍ تعليمية ثابتة حدثت حين استطاع أن يثبت دون أدنى شكٍّ أنّ تلميذه أذعن لإغواء القمار، أو دفع مقابل امرأة. عادة ما كان تاو شيين يخلط حسابات السوق ليراهن في بيت القمار الذي بدت مقاومته له محالة، أو ليعزي نفسه قليلاً مستفيداً من التخفيض الممنوح للطالب بين يدي إحدى مريضاته في المواخير. لكنَّ معلّمه لا يتأخّر في اكتشافه لأنّه إذا خسر في اللعب لم يستطع أن يبينّ أين ذهبَ بالبقيّة، وإذا ربح لم يستطع التمويه على فرحته. أمّا النساء فيشمّ رائحتهنّ في جلد الفتى.

- اخلع قميصَكَ. عليّ أن أجلدك، لنر ما إذا كنت ستفهم في النهاية، يا ولدي. كم مرّة قلتُ لك إنَّ أسوأ الشرور في الصين هما

القمار والماخور؟ في الأوّل يخسر الرجال ثمرةَ عملهم وفي الثاني صحّتهم وحياتهم. لن تصبح أبداً طبيبا أو شاعراً جيّداً وأنت بهذه الرذائل.

كان تاو شيين في السادسة عشرة من عمره حين اندلعت في عام 1839 حربُ الأفيون بين الصين وبريطانيا العظمى. تلك المرحلة غزا فيها المتسوّلون البلد. حشودٌ بشرية غادرت الريفَ وظهرت بأسمالها وبثورها في المدن، التي صُدّوا مِنها بالقوّة وأُجبِروا على التشرُّد مثل قطعانِ الكلاب المتضوّرة جوعاً في دروب الإمبراطوريّة. عصابات من قطّاع الطرق والمتمرِّدين يتصارعون مع قوّات الحكومة في حربٍ كمائن لا نهاية لها. إنّه زمن الخراب والسلب. لم تستطع جيوشُ الإمبراطورية المنهكة، التي يقوم على رأسها ضبّاطٌ فاسِدون يتلقّون أوامرَ متناقِضَة من بكين، مواجهةَ الأسطول البحري الإنكليزي الجبّار والمدرَّب على النظام جيّداً، كما لم تكن هذه الجيوش تتمتّع بدعم شعبيٍّ من كثرة ما رأى الفلاّحون محاصيلهم تُدمَّر، ومدنهم الصغيرة الفقيرة تُحرق، وبناتهم تُغتصب من قبل الجنود الغارقين في الفوضى. بعد أربع سنوات من القتال تقريباً اضطُرَّت الصين لقبول هزيمةٍ مذلّة ودفع واحدٍ وعشرين مليون دولار للمنتصرين، وتسليمهم هونغ كونغ، ومنحهم حقَّ إقامة «امتيازات»، أحياء سكنية محميّة بقوانين من خارج الحدود. هناك عاش الأجانب مع شرطتهم وخدمهم وحكومتهم وقوانينهم، تحميهم جيوشهم الخاصّة بهم. كانوا قوميات حقيقيّة غريبة داخل الأراضي الصينية، يتحكّم فيها الأوروبيون بالتجارة وخاصّة الأفيون. لم يدخلوا كانتون إلا بعد خمس سنوات، وحين رأى معلِّمُ الوخز بالإبر الهزيمة النكراء لإمبراطوره المبجّل قرَّر أنّه لم يعد هناك من داعٍ لاستمراره على قيدِ الحياة.

تفكّكت روح *الزهونغ* يي العجوز وفقد رزانته المكتسبة بشقّ النفس على امتداد حياته، وازدادت حدّة الانهيار والشرود تجاه

الأمور المادّية عنده حتى اضطُرَّ تاو شيين إلى أن يضع الطعام في فمه في أيامٍ يمضيانها دون غذاء. اختلطت حساباتُهُ وبدأ الدائنون يطرقون بابَه، لكنّه ازدراهم دون اعتبارات كبيرة لأن كلَّ ما يتعلّق بالمال بدا له مخزياً والعلماء بحلٍّ منها. مع اختلاطات الخَرَف في تلك السنوات نسي مقاصده الطبية بتبنّي تلميذه وتأمين زوجة له، لقد كان مشوَّشاً فعلاً، وكثيراً ما مكث ممعناً النظر في تاو شيين بنظرة مرتبكة، غير قادرٍ على تذكّر اسمه أو تحديد هويته في متاهة الوجوه والأحداث التي تنقضُّ على دماغه دون ترتيب أو تنسيق. لكنّه ملك ما فاض عنه من الهمّة لتقرير تفاصيل جنازته، لأنَّ أهمّ حدثٍ في حياة أيّ صينيٍّ شهير هي جنازته ذاتها. فكرة إنهاء أنفاسه بميتةٍ أنيقة دارت في خلدِه منذ زمن، لكنّه انتظر نهاية الحرب يحفزه أملٌ سرّيٌّ وغير عقلاني برؤية نصر جيوش الإمبراطورية السماوية. بدت له عجرفة الأجانب غير مُحتَمَلة، وشعر باحتقار كبير لهؤلاء *الفان غْوِيْ* القساة، الأشباح البيضاء الذين لا يغتسلون ويشربون الحليب والكحول ويجهلون تماماً قواعد التربية الحسنة الأساسية، غير قادرين على تكريم أسلافهم بالشكل المتوجِّب. بدت له الاتفاقات التجارية معروفاً منحه الإمبراطور لأولئك المتوحشين الجحودين، الذين يطالبون بالمزيد بدل أن ينحنوا امتناناً ومدحاً. كان توقيع معاهدة نانكينغ آخر صفعة للـ *زهونغ يي*. فالإمبراطور وكلّ مواطن صينيٍّ حتى أكثرهم تواضعاً فقد شرفه. كيف يمكن استعادة الكرامة بعد مثل ذلك العار؟

سمّمَ العجوزُ نفسه بابتلاع الذهب. وجده تلميذه بعد عودته من إحدى رحلاته إلى الريف بحثاً عن النباتات متكئاً في الحديقة إلى وسائد حريرية، مرتدياً البياض علامة على حداده ذاته. كان الشاي بجانبه ما يزال فاتراً وحبر اللوحة طريّاً. على مكتبه الصغير بيت من الشعر غير منتهٍ ويعسوب يتبختر على نعومة الرّق. قبّل تاو شيين يديّ هذا الرجل الذي منحه الكثير ثمّ توقّف، كما رغب معلّمه، ليمعن النظر في تصميم أجنحة الحشرة الشفافة في ضوء المساء.

حضر جنازة المعلّم حشد كبير من الناس، لأنّه ساعد في حياته الطويلة آلاف الأشخاص للعيش بصحّة والموت دون ضيق. اصطفّ ضبّاط الحكومة وأصحاب الرفعة فيها بكلّ وقار، وألقى الأدباء أفضل قصائدهم، والمومسات حضرن مزينات بالحرير. حدّد أحد المتكهنين اليومَ المناسب للدفن وزار بيت المرحوم فنان الأدوات الجنائزية كي ينسخ ممتلكاته. طاف على الممتلكات ببطء دون أن يأخذ قياساتٍ أو يضع ملاحظاتٍ، لكنّه علّم تحت كمّيه الضخمين بظفره على لوح من الشمع صغير؛ ثمّ صنع مجسماتٍ ورقيّةً مصغّرة للبيت، بغرفه وأثاثه، إضافة إلى الأشياء المفضلة عند المرحوم لحرقها إلى جانب رزم الأوراق النقدية، إذ يجب ألا ينقصه في العالم الآخر ما تمتّع به في هذا العالم. مرّ التابوت الهائل والمزيّن مثل عربة إمبراطوريّة في شوارع المدينة العريضة بين صفين من جنودٍ في لباس المراسم، يتقدّمهم خيّالة مزينون بالألوان البراقة وفرقة موسيقى مزوّدة بالصنوج والطبول والنايات والأجراس والمثلثات المعدنية وسلسلة من الآلات الوتريّة. كانت الضوضاء غير محتملة تماماً كما يجب أن تكون بالنسبة لأهميّة المتوفى. على القبر كوّموا الأزهار والملابس والطعامَ، أشعلوا الشموعَ والبخورَ وأحرقوا أخيراً الأوراق النقدية والأشياء الورقية الكثيرة. وضعت اللوحة الخشبيّة القديمة المغطاة بالذهب التي حفِرَ عليها اسم المعلّم فوقَ القبر كي تستقبل روحه بينما يعود جسده إلى الأرض. كانت اللوحة من حقّ الابن الأكبر يضعها في مكان مشرّف في بيته بجانبِ أخرى لأسلافٍ آخرين ذكور، لكنّ الطبيب لم يكن عنده مَنْ يقوم بهذا الواجب وتاو شيين مجرّد خادِمٍ ومن الإخلال المطلق بالآداب تقديمها له ليفعل ذلك. كان تاو متأثراً بشكل ساذجٍ والوحيد الذي تنبعُ دموعه ونحيبه بين الحشود عن حزنٍ حقيقي، لكنّ اللوحة القديمة انتهت إلى يد حفيدٍ بعيد سيقع عليه الواجب الأخلاقي لتقديم التقدمات والصلاة أمامها كلّ خمسة عشر يوماً وكلّ عيد سنويّ.

انفضّ الدائنون بعد القيام بالطقوس الجنائزيّة الوقورة على

ممتلكات المعلِّم مثل أبناء آوى. خرقوا النصوص المقدّسة والمِخبرَ وخلطوا الأعشابَ وخرّبوا المستحضرات الطبيّة، مزّقوا القصائد الدقيقةَ، حملوا الأثاثَ والأشياء الفنّية، داسوا الحديقة فائقة الجمال وأجهزوا على البيت، وكان تاو شيين قد وضع إبر ذهب الوخز في علبة مع الأدوات الطبيّة وبعض العلاجات الجوهرية في مأمنٍ، وكذلك بعض النقود التي حصل عليها شيئاً فشيئاً في السنوات الثلاث الأخيرة حين راح مُعلّمه يضيع في وعرِ خبلِهِ الشيخوخي. لم يكن هدفه سرقة *الزهونغ يي* المُبجّل، الذي يُقدّره مثل جدّه، بل استخدام ماله لغذائه، فقد رأى الديون تتراكم وخاف من المستقبل. عجّل الانتحارُ بالأمور ووجد تاو شيين نفسه يملكُ موارد غير منتظرة. السطو على هذه الأموال قد يكلّفه رأسه وسيعتبر جريمة من شخص أدنى تجاه آخر أعلي، لكنّه وثق أنَّ أحداً لن يعلم بها إلا روح المرحوم، الذي لا شكَّ سيوافق على عمله. ألن يفضِّل مكافأةَ خادِمه الأمين وتلميذه بدل أن يدفع واحداً من ديونه الكثيرة لدائنيه الضواري؟ بهذا الكنز المتواضع وببدلٍ من الملابس نظيف هربَ تاو شيين من المدينة. مرّت فكرة عودته إلى مسقط رأسه سريعة لكنّه استبعدها على الفور. فهو بالنسبة إلى أسرته دائماً الابن الرابعِ وعليه الخضوع والطاعة لأخوته الأكبر منه؛ والعمل لأجلهم، يقبلَ الزوجة التي يختارونها له ويذعن للفاقة. لا شيء ناداه في هذا الاتجاه ولا حتى واجبات الابن تجاه الأب والأسلاف تلك التي تقع على عاتق أخوته الكبار. إنّه بحاجة للذهاب بعيداً حيث لا تطاله العدالة الصينيّة. كان عمره عشرين سنة وبقي له عام كي يكمل عشر سنوات في الخدمة، وأيّ واحد من الدائنين يستطيع أن يُطالِبَ بحق استخدامه كعبدٍ في ذلك الوقت.

تاو شيين

ركب تاو شيين مركباً صغيراً في طريقه إلى هونغ كونغ بقصدِ البدءِ بحياةٍ جديدةٍ. صار زهونغ يي، متدرِّباً على الطب التقليدي الصيني لدى أفضل معلّم في كانتون. كان مديناً بالشكر الأبديّ لأسلافه المبجّلين، الذين صلّبوا كَرْمته بطريقة ماجدة جدّاً. أوّل شيء قرَّرَه هو الحصول على زوجةٍ، فهو في عمر كافٍ للزواج ويزيد والعزوبة تُثقِلُ عليه كثيراً؛ وعدم وجود الزوجة علامة فقر جليّ. داعبَ فكرةَ الحصول على شابّة رقيقة، لها قدمان جميلتان، فـ *لِلِيكاها الذهبيان* يجب ألا يتجاوز طولهما الثلاثة أو أربعة بوصات ويجب أن يكونا مكتنزين وطريي الملمس مثل *ليلكي* طفلٍ عمره أشهر قليلة. كانت تفتنه طريقة مشي شابّةٍ على قدمين دقيقتين، بخطوات قصيرة ومتردّدة، كأنّها على وشك السقوط دائماً، وركاها إلى الوراء وتهتزّ مثل خيزران ضفّةِ المستنقع في حديقة مُعلِّمِه. إنّه يكره الأقدام الكبيرةَ، المفتولة العضلات والباردة، مثل قدمي فلاّحة. رأى في ضيعته بعضَ الطفلات المشدودات الأقدام من بعيد، مفخرة أسرهنَّ، تلك الأسر التي تستطيع تزويجهنَّ جيّداً دون شكّ، لكن فقط باتصاله مع العاهرات في كانتون أمسك بين يديه زوجاً من ذلك *الليلك الذهبي*، واستطاع أن يذوب نشوةً أمام النعلين الصغيرين المطرّزين اللذين يُغطّيانهما دائماً، لأنّ العظام المحطّمة تُصْدِرُ لسنواتٍ وسنواتٍ خلاصةً سيئة الرائحة. أدركَ بعد لمسهما أنّ أناقتهما هي ثمرة ألمٍ متواصِلٍ، وهو ما يجعلهما أكثر قيمة. عندئذٍ

قدَّرٍ كما يجب الكتبَ المخصّصة للأقدام الصغيرة، التي كان يجمعُها مُعلمُهُ، حيث يُعدِّدون خمسة أنواعٍ وثمانية عشر أسلوباً مختلفاً *لليلك الذهبيّ*. على زوجته أن تكونَ شابّة جدّاً أيضاً، فالجمال قصير الديمومة، يبدأ في حدودِ الثانية عشرة وينتهي بعد إتمام العشرين بقليل. هكذا بينَّ له مُعلمُه. لسبب ما تموت أكثر البطلات شهرة في الأدب الصينيّ دائماً لحظة كمال سحرهن، مباركات أولئك اللواتي يختفين قبل أن يرين أنفسهنّ محطّمات بالعمر ويمكن أن يُستَذْكَرْنَ في أوج طراوتهنّ. ثم إنّ هناك أسباباً عملية لتفضيل الشابة اليافعة الصالحة للزواج: فهي ستمنحه ذكوراً وسيكون من السهل ترويض طبعها لتصبح مطواعةً فعلاً. ليس هناك ما هو أكثر إزعاجاً من امرأة صاخبة، رأى بعضهنّ يبصقن ويصفعنَ أزواجهنَّ وأولادهنَّ حتى في الشارع أمام الجيران. هذه الإهانة من يدي امرأة هي أسوأ إذلالٍ للرجل. كان تاو شيين يحلمُ في الزورق، الذي ينقله ببطءٍ مسافة تسعين ميلاً من كانتون إلى هونغ كونغ، بتلك الفتاة، باللذة والأولاد الذين ستمنحهم له، مبتعداً للحظاتٍ عن حياته الماضية. راح يعدُّ مرّةً وأخرى النقودَ في جيبه، كما لو أنّه بحساباته المجرّدة يستطيع أن يزيدها، لكنّ من الواضحِ أنّها لا تكفي للوصول إلى زوجة بهذه النوعيّة. ومع ذلك، ومهما بلغ استعجاله فهو لا يفكّر بقبول أقلّ من ذلك والعيش بقيّة أيّامه مع زوجة كبيرة القدمين قويّة الشخصيّة.

ظهرت جزيرةُ هونغ كونغ فجأةً أمام ناظريه، بجبالها وطبيعتها الخضراء تنبثق مثل عروسٍ في مياه بحر الصين النيليّة. وما أن رسا المركبُ الخفيف الذي يُقلّه في الميناء، حتى لاحظَ تاو شيين وجود الأجانب المكروهين. في السابق لَمَح بعضَهم من بعيد، لكنّهم الآن قريبون، ويستطيع لو أنّه تجرّأ لَلَمَسَهُم ليتأكّد ممّا إذا كانت هذه الكائنات الكبيرةُ معدومة الظرافة بشراً فعلاً. اكتشف مذهولاً أنّ كثيرين من *الفان غْوِيْ* لهم شعر أحمر أو أصفر، وعيون حائلة اللون وجلد أحمر مثل جراد بحر مسلوق، والنساء برأيه قبيحات، يضعن قبّعات عليها ريش وزهور، ربّما للتورية على

شعرهنَّ الشيطاني. يرتدون ملابس رائعة، ثياباً متخشّبة ومشدودة على الجسد؛ افترض أنّ هذا هو سبب أنّهم يسيرون مثل الإنسان الآلي ولا يُحيّون بانحناءات لطيفة، يمرّون جاسئين، لا يرون أحداً، يُعانون حرَّ الصيفِ بصمتٍ تحت ملابسهم. كان في الميناء بضعة عشر مركباً أوروبيّاً بين خمسمئة مركبٍ آسيويّ من كلّ الأحجام والألوان. رأى في الشوارع بعضَ عرباتِ الخيول يقودها رجالٌ بلباس موحدّ، ضائعة بين آليات النقل البشري، والهوادجِ والمحفّات والنعوش والأفراد المجرّدين الذين ينقلون زبائنهم على ظهورهم. صدمته رائحةُ السمك في وجهه مثل لمسة كفٍّ وذكّرته بجوعه. عليه أوّلاً أن يعثرَ على بيت طعام، مُعَلَّمٍ بقطعٍ طويلة من القماش الأصفر.

أكل تاو شيين مثل أميرٍ في مطعم مزدحم بأناسٍ يتكلّمون ويضحكون، علامة السعادة والشهيّة التي لا تُخطئ، حيث تذوّقَ طعم الصحون الناعمة التي نسيها في بيت معلّم الوخز بالإبر. كان *الزهونغ يي* نهماً جدّاً للطعام اللذيذ خلال حياته ويتبجّح بأنّه امتلك أفضل طبّاخي كانتون في خدمته، لكنّه راح في سنواته الأخيرة يتغذّى على الشاي الأخضر والأرزّ مع نثراتٍ نباتية. إنّها المرحلة التي هرب فيها تاو شيين من عبوديّته، والتي ضَمُرَ فيها مثل الكثيرين من مرضى السل في هونغ كونغ. تلك هي وجبته المحترمة منذ زمن طويل لذا حمله الانهماك بالمذاقات والنكهات ونسيج الطعام إلى الهذيان. أنهى احتفاله بتدخين الغليون بأكبر متعة. خرج إلى الشارع وحيداً، طافياً وضاحكاً مثل مجنون: لم يشعر في حياته كلّها بنفسه مفعماً بمثل ذلك الحماس والحظّ الحسن. استنشق الهواء حوله، إنّه شبيه جدّاً بهواء كانتون وفكّر أنّه سيكون من السهل الهيمنة على هذه المدينة، تماماً كما هيمن على الأخرى قبل تسع سنواتٍ. سيبحث أوّلاً عن السوق وحيّ الأطباء الشعبيين وباعة الأعشاب، حيث يستطيع الحصول على مضافة وتقديم خدماته المهنيّة. وبعدها سيُفكّر بالمرأة صغيرةِ القدمين...

حصل تاو شيين في ذلك المساء ذاته على غرفة في عليّةِ بيت

كبيرٍ مقسّمٍ إلى مقاسم يؤوي أسرة في كلّ غرفة، وكر نمل حقيقيّ. غرفته نفقٌ معتم عرضه متر وطوله ثلاثة أمتار، بلا نافذة، مظلم وحارّ يشدّ إليه بخرَ الطعام ومباول المستأجرين الآخرين مختلطةً بنتانة القذارة الجليّة. كانت الحياة فيها بالمقارنة مع بيت مُعلّمه المتحضّر تشبه العيش في وكر جرذانٍ، لكنّه تذكّر أن كوخَ والديه أكثر فقراً. بما أنّه عازب، قرّرَ بأنه لا يحتاجُ لفضاء ولا لرفاهية أكبر، بل لزاوية يضع فيها حصيرته الصغيرة ويخبّئ ممتلكاته القليلة جدّاً. سيبحث فيما بعد حين سيتزوّج عن مسكن أكثر ملاءمة، يستطيع أن يحضّر فيه أدويته، ويعتني بزبائنه وتخدمه امرأته بالطريقة المطلوبة. أما الآن، وريثما يحقق بعض الاتصالات الضرورية للعمل، فذلك الفضاء يُقدّم له السقفَ على الأقل وشيئاً من الخصوصيّة. ترك أشياءه وذهب ليستحمّ ويحلق مقدّمة الرأسِ ويعيد ضفر جديلته. ماأن صار منظره مقبولاً حتى انطلق بحثاً عن بيت للقمار، عازماً على مضاعفة رأسماله في أقل وقتٍ ممكن، هكذا يستطيع أن يشرع في طريق النجاح.

في أقل من ساعتين وبرهانِهِ على *الفان تان* خسرَ تاو شيين كلَّ مالهِ لكنه لم يخسر معدّاته الطبية لأنّه لم يخطر له حملها معه. كان ضجيج صالة اللعب مصمّاً إلى حدّ أنّ المراهنات تتمُّ بالإشارة عبر دخان التبغ الكثيف. *الفان تان* بسيطة جدّاً، فهي عبارة عن قبضة من الأزرار تحت فنجان. تتمُّ المراهنات، تُعدّ الأزرارُ أربعاً بأربع ومن يعرف كم بقي: واحد اثنان ثلاثة أو لا شيء يربح. لم يكن باستطاعة تاو شيين أن يتابع بنظره يدي الرجل الذي يلقي الأزرار ويعدُّها. بدا له أنّه يحتالُ، لكنّ اتهامه جهاراً يشكّل إهانة هائلة يمكنها أن تودي بحياته إذا أخطأ. في كانتون كانت تجمع يوميّاً جثث خاسرين سليطين قرب بيوت القمار، ولا يمكن أن يكون الأمر مختلفاً في هونغ كونغ. عاد إلى نفقِ العلّية واستلقى على الحصيرةِ باكياً مثل طفل، مفكراً في ضربات الحزام التي تلقاها من مُعلّم المعالجة بوخز الإبر، العجوز. استمرّ قنوطه حتى اليوم التالي حين أدرك بوضوح مذهل قلقه وعجرفته. عندئذٍ راح يضحك من قلبه أمام

الدرس، مقتنعاً بأنّ روحَ مُعلّمه الجسورة قد مَثلت أمامه لتعلّمه شيئاً آخر. استيقظ وسط ظلمة مطبقة على ضوضاء البيت والشارع. كان قد مضى وقتٌ على الصباح، وما من نورٍ طبيعي يدخل إلى غرفته الحقيرة. ارتدى بدل ملابسه النظيفة الوحيدة في الظلمة، وهو مايزال يضحك، وأخذ حقيبته الطبيّة وانطلق إلى السوق. في المنطقة التي تصطفّ فيها بسطاتُ الواشمين المغطاة من أعلاها إلى أسفلها بقطع القماش والورق عارضين الرسوم؛ كان بالإمكان الاختيارُ بين آلاف التصميمات، بدءاً من الأزهار بالحبر الأزرق الهندي وحتى التنانين الرائعة بالألوان الخمسة، التي من الممكنِ أن تزيِّن بأجنحتها المنشورة ونفث نارها ظهر رجل ممتلئ كاملاً. بقي نصف ساعة يساوِمُ وتعاقد أخيراً مع فنّان على مقايضة وشمٍ متواضع بمشروب لتنظيف الكبد. وشمَ في أقل من عشر دقائق علىً ظهر يده اليمنى، يدِ المراهنة، كلمةَ «لا» بخطوط بسيطة وأنيقة.

ـ إذا أفادك الشراب فانصح أصدقاءك بخدماتي ـ طلب منه تاو شيين.

ـ إذا ناسبك وشمي فافعل الشيء ذاته ـ ردّ الفنان.

أكّد تاو شيين دائماً بأنّ ذلك الوشم جاءه بالحظ. خرج من الحانوت إلى ضوضاء السوق، متقدّماً بالدفع واللكم بالمرفقين في الشوارع الضيقة الغاصّة بالبشر. لم يكن يُرى أجنبيٌّ واحد والسوق يبدو مماثلاً تماماً لسوق كانتون. بدا الضجيج مثل شلاّل. الباعة يعلنون بأعلى أصواتهم عن ميزات بضائعهم، والمشترون يساوِمون بصياح عالٍ وسط الزقزقة الصامّةِ للعصافير المحبوسة في أقفاصها وأنين الحيوانات التي تنتظر دورَها للسكين، ونتن العرق والحيوانات الحيّة والميتة والروث والقمامة والتوابل والأفيون والطبخ، وكلّ أنواع منتجات ومخلوقات الأرضِ والهواء والماء التي هي من الكثافة بحيثُ يستطيع لمسها بأصابعه. رأى امرأة تعرض سرطاناتٍ . تخرجها حيّةً من كيس، تسلقها دقائق قليلة في قدرٍ لمائهِ لزاجة قاع البحر الدبقة، ثمّ تخرجها بمصفاة، تتبلها بصلصةِ الصويا وتقدّمها للمارّة في قطعة ورق. كانت يداها مليئتين

بالدوالي. ساومها تاو شيين على غداءٍ لمدّةِ شهر مقابل علاج مرضها.

- هيه، أرى أنّك تُحبّ السرطانات كثيراً - قالت هي.

- أكرهها، لكنّني سآكلها كنوعٍ من العقوبة كيلا أنسى درساً يجب أن أتذكره دائماً.

- وماذا لو أنّني لم أشفَ بعد شهر، هل ستعيد إليّ السرطانات التي أكلتها؟

- إذا استمرّت الدوالي بعد شهرٍ فقدتُ سمعتي. من سيشتري بعدها أدويتي؟ - ابتسم تاو شيين.

- حسناً.

هكذا بدأ حياته كرجلٍ حرٍّ في هونغ كونغ. شُفِيَت التهاباته بعد يومين أو ثلاثة وظهر الوشمُ كرسمٍ خالص من العروق الزرقاء. وبينما راح يجوب السوق عارضاً خدماته المهنيّة أكل خلال هذه المدّة مرّةً واحدةً في اليوم، ودائماً سرطانات مسلوقة، فهبط وزنُه حتى صار باستطاعته أن يمسك بقطعة نقدية بين أخاديد أضلاعه. في كلِّ مرّة يلقي بواحدٍ من تلك الحيوانات الصغيرة في فمه منتصراً على اشمئزازه يبتسمُ مفكّراً بمُعلّمِهِ، الذي لم يكن بدورِهِ يُحبُّ السرطانات. اختفت دوالي المرأة خلال ستة وعشرين يوماً فأشاعت ممتنّةً الخبرَ الطيِّبَ بين الجيران، وعرضت عليه شهراً آخر من السرطانات إذا عالجها من الماء الأبيض في العينين، لكنّ تاو اعتبر أنّ هذه العقوبة كافية ويستطيع أن يسمح لنفسه بترف ألا يعود ليتناول تلك الحشرات في حياته كلّها. كان يعود ليلاً إلى غرفته البائسة مُنهَكاً يعدُّ نقوده تحت ضوء الشمعة ويخبئها تحت لوح من ألواح الأرضية، ثمّ يُسخِّن ماء على فرن الفحم الصغير ليقضي وقته جُوْعاً لا يتناول غير الشاي. وحين تبدأ ساقاه أو إرادته بالضعف أحياناً يشتري قصعةً من الأرزّ، شيئاً من السكّر أو غليونَ أفيون يتمتّع به ببطءٍ ممتنّاً لوجود هدايا مذهلة في العالم مثل عزاء الأرز وحلاوة السكّر وأحلام الأفيون. ولم يكن ينفق إلا على الإيجار

ودروس الإنكليزيّة وحلاقة مُقدّمة الرأس وغسلٍ بديل ثيابه، لأنّه لم يكن باستطاعته السير مثل لابس أسمال. معلّمه كان يرتدي ثياباً شبيهة بثياب موظّفي الإمبراطورية الكبار وقد علّمه أنَّ «المظهر الحسن دليل تحضُّر ولا يتساوى *الزهونغ* يي بالطبيب الشعبي الريفي. كلّما زاد المريض فقراً كلّما وجب أن تكون ملابسكَ أفضل، احتراماً». راحت شهرته تنتشر شيئاً فشيئاً، أوّلاً في السوق وبين أُسَرِهِ، ثم في حي الميناء حيث عالج البحارة من جراح المشاجرات وداء الحفر والبثور الزهرية والتسمُّم.

صار لتاو شيين بعد ستّة أشهر زبائن مخلصين وبدأ ينتعش؛ انتقل إلى غرفة لها نافذة وفَرَشها بسرير كبيرٍ يُفيده عند الزواج وكرسيٍّ ومكتبٍ إنكليزيّ. كما حصل على بعض قطع الملابس فقد تاقَ منذ سنواتٍ لتحسين هندامه. قرّر تعلّم الإنكليزية، إذ سرعان ما عرف مكمن القوّة. حفنة من البريطانيين تتحكّم بميناء هونغ كونغ، تضع القوانين وتطبِّقها وتدير السياسة والتجارة. كان *الفان غوي* يسكنون في أحياء خاصّة ولا يقيمون علاقات إلا مع الصينيين الأثرياء للقيام بصفقات تجاريّة بالإنكليزيّة فقط. كانت الحشود الصينية الهائلة تشاطرها المكان والزمان لكن كأنّهم غير موجودين. عبر ميناء هونغ كونغ كانت المنتجات الأكثر رقّة ونعومة تخرجُ مباشرة إلى صالونات أوروبا المذهولة بهذه الثقافة القديمة والعريقة. درجت المنتجات الصينية. اشتدَّ الإقبال على الحرير لصناعة الملابس، ولا يمكن أنٍ تغيب الجسور والفوانيس والصفصاف الحزين تلك التي تقلّد الحدائق السريّة الرائعة في بكين. سقوف معابد الباغودة تستخدَمُ في الظلّات وموضوعات التنين وزهر الكرز تتكرّر إلى حدّ الغثيان في الزخرفة. ما من صالة إنكليزية تخلو من صالة شرقية وخيزران كوروماندِل، ومجموعات الخزف والعاج والمراوح التي طرّزتها أيدي طفلات *بالغرزة الممنوعة* والكناري الإمبراطوري في أقفاص منحوتة. لم تكن السفنُ التي تحمل هذه الكنوز إلى أوروبا ترجع فارغةً، إذ تُحضر أفيوناً من الهند لبيعه تهريباً، وبضائع بخسة أودت بالصناعات المحليّة

إلى الإفلاس. صار على الصينيين أن يُنافسوا الإنكليز والهولنديين والفرنسيين والأمريكيين الشماليين كي يتاجروا في بلدهم ذاته. لكنّ الفاجعة الكبيرة إنّما هي الأفيون، فقد استُخْدِمَ في الصين منذ قرون للتسلية ولأهدافٍ طبية لكنّه تحوّل إلى شرّ عصيٍّ على التحكم حين أغرق الإنكليز السوقَ به. فقد هاجم جميع قطاعات المجتمع التي أضعفها وشقّقها مثل خبز متعفّن.

في البداية نظرَ الصينيون إلى الأجانبِ باحتقار وقرفٍ وتفوّق من يشعرون بأنّهم وحدهم الكائنات المُتَحضِّرة فِعلاً في العالم، لكنّهم سرعان ما تعلّموا احترامهم والخوف منهم. كذلك كان الأوروبيون يتصرّفون متشرّبين بفكرة التفوّق العرقي، واثقين من أنّهم المبشِرون بحضارة في بلاد أهلها قذرون، قبيحون، ضعفاء، صاخبون، فاسدون ومتوحّشون، يأكلون القططَ والأفاعي ويقتلون بناتهم عند الولادة. لا يعرفون إلا القليل عن أنّ الصينيين استخدموا الكتابة قبلهم بألفِ سنة. إذ بينما كان التجّارُ يجهدون بفرض ثقافة المخدرات والعنف راح المبشرون يحاولون نصرنتهم. فالمسيحية يجب أن تنتشر بأيّ ثمن فهي العقيدة الوحيدة الحقيقيّة، ولم يعنِ لهم شيئاً أنّ كونفوشيوس عاش قبل المسيح بخمسمئة سنة، فهم بالكاد يعتبرون الصينيين بشراً، ومع ذلك يُحاوِلونِ إنقاذ أرواحهم ويدفعون لهم ثمن تحوّلهم إلى المسيحية أرزّاً. كان المسيحيون الجدد يستهلكون حصّتهم من الرشوة المقدّسة وينتقلون إلى كنيسة أخرى ليتحوّلوا من جديد مرحين جدّاً أمام نزوة *الفان غوي* في نشر معتقداتهم وكأنّها الوحيدة؛ فالروحانية بالنسبة إليهم، هم العمليون والمتسامحون، أقرب إلى الفلسفة منها إلى الدين، إنّها مسألة أخلاقٍ وليست مسألة عقيدة.

أخذ تاو شيين دروساً من واحد من أبناء بلده يتكلّم إنكليزيّة هلاميّةً ومجرّدة من الأحرف الساكنة، لكنّه يكتبها بشكل صحيح إلى حدٍّ كبير. بدت له الأبجدية الأوروبية بالمقارنة مع الخصائص الصينية من السهولة والسحر بمكان. استطاع تاو شيين خلال خمسة أسابيع أن يقرأ الصحافة البريطانية دون أن يتلكّأ بالحروف مع أنّه

يحتاج للعودة إلى القاموس كلّ خمس كلمات، يقضي الليل في الدراسة، يشتاق إلى معلّمه المبجّل الذي طبعه للأبد بالظمأ إلى المعرفة الملحة ظمأ السكران للكحول أو الطموحِ للسلطة. لم يعد يملك مكتبة العجوز ولا نبع تجربته التي لا تنضب، وما عاد يستطيعُ العودةَ إليه ليطلبَ نصيحته أو لمناقشةِ أعراض مريضٍ ما، صار ينقصه دليل ويشعر باليتم، ومنذ مات معلّمه لم يعد لكتابةِ أو قراءةِ الشعر، أو لمنحِ نفسه الوقت لتأمّل الطبيعة، التفكيرِ أو مراقبة الطقوس والاحتفالات اليوميّة التي طالما أغنت حياته في السابق. شعر بنفسه مليئاً بالصخب في داخله ويحنّ إلى فراغ الصمت والعزلة التي علّمه معلّمه ممارستها كأروع هبة. من ممارسة مهنته تعلّم من الطبيعة المعقّدة للكائنات البشريّة والفوارق العاطفية بين الرجال والنساء، الأمراض التي يمكن معالجتها بالأدوية فقط والأخرى التي تحتاج أيضاً لسحر الكلمة الدقيقة، لكن ليس لديه من يشاطره تجاربه. كان حلمه بشراء امرأة حاضراً دائماً في عقله، لكنّه حلمٌ باهت وواهن، مثل منظر جميلٍ مصوَّرٍ على الحرير، بينما حلمُ اقتناءِ الكتب والدراسة واتباع معلّمين آخرين مستعدين لمساعدته على طريق المعرفة، راح يتحوَّلُ إلى هوس.

هكذا كانت الحال حين تعرَّفَ على الدكتور إبانيزر هوبّز، الأرستقراطي الإنكليزي الذي لم يكن عنده شيءٌ من العجرفة ويهتمّ بعكس الأوروبيين الآخرين باللون المحلي للمدينة. رآه لأوّل مرّةٍ في السوق ينكش في أعشابٍ ومنقوعات النباتات في حانوت أحد الأطباء الشعبيين، ولا يتكلّم أكثر من عشر كلمات بالخانيّة يردّدها بصوتٍ جهوريّ وقناعة هي من القطعيّة بحيث اجتمع حوله حشدٌ بين ساخر وخائف. كان من السهل رؤيته من بعيدٍ لأنّ رأسَه يبرز فوق الجمهور الصيني. لم يرَ تاو شيين أجنبيّاً من قبلُ في هذه النواحي بعيداً عن القطّاعات التي يطوفون فيها عادةً فاقترب لينظرَ إليه عن قرب. كان ما يزال رجلاً شابّاً، طويلاً ونحيلاً، ملامحه نبيلة وعيناه زرقاوان. تيقّن تاو شيين أنّه يستطيع ترجمة كلمات ذلك *الفان غوي* وأنّه هو نفسه يعرف أخرى مثلها في الإنكليزية، وبالتالي من

الممكن أن يتواصلَ معه. حيّاه بانحناءة وديّةٍ فقلّدَ الآخرُ انحناءاته بارتباك. كلاهما ابتسمَ وراحَ يضحكُ ترافقه قهقهات المشاهدين اللطيفة. بدأا حواراً حارّاً بعشرين كلمة سيّئة اللفظ من طرفها إلى طرفها وإيماءاتٍ بهلوانٍ مضحِكة، أمام ضحك الفضوليين. وسرعان ما تواجدت مجموعة معتبَرَة من الناس تمنع المرورَ وكلّهم يكاد يموت ضحكاً مما جذب شرطةَ الخيّالة البريطانية، التي قرّرت فضَّ التجمّع على الفور وهكذا نشأ بين الرجلين تحالف قويّ.

كان إبانيزر هوبّز واعياً لمحدوديّة مهنته مثل وعي تاو شيين بالنسبة إلى مهنته. الأوّل يرغب بتعلّم أسرارِ الطب الشرقي التي لمحها خلال أسفاره عبر آسيا وبخاصّة التحكّم بالألم بواسطة إبر تدخل في نهايات الأعصاب، واستخدام المركبات النباتية والعشبية لمعالجة مختلف الأمراض التي تُعْتَبَرُ في أوروبا وبيلة. والثاني يشعر بافتتان نحو الطبِ الغربي وطرقه العدوانية في العلاج، إذ أن طريقته كانت فنّاً دقيقاً للتوازنِ والانسجام، مهمّةً بطيئةً لتصحيحِ مسار الطاقة الزائغة، والوقاية من الأمراض والبحث عن أسبابَ الأعراض. لم يمارس تاو شيين الجراحة قط، ومعرفته بالتشريح، التي كانت دقيقةً فيما يخصُّ مختلف مناطق النبض والوخز، اقتصرت على ما يستطيع رؤيته ولمسه، فهو يعرف عن ظهر قلبِ رسوم التشريح في مكتبة معلّمه القديم، لكن لم يخطر له أن يشقّ جثّةً. فهذه العادة لم تكن معروفة في الطبّ الصيني؛ ومعلّمه الذي قضى حياته في فنّ الإشفاء نادراً ما رأى الأعضاء الداخلية، وما كان قادراً على التشخيص إذا اصطدم بأعراضٍ غيرِ واردة في لائحة الأمراض المعروفة. بينما كان إبانيزر هوبّز يشقّ الجثث ويبحث عن الأسباب ويتعلّم بهذه الطريقة. فعل تاو شيين هذا لأوّل مرّةٍ في قبو المشفى الإنكليزي، ذات ليلة عاتية الأعاصير، كمساعِد للدكتور هوبّز، الذي وضع إبره الأولى توّاً للتخفيف من أوجاع شقيقة في العيادة التي يعتني فيها تاو شيين بزبائنه. وكان في هونغ كونغ بعضٌ من رجال البعثات مهتمين بشفاء الجسد كما بتحويل روح رعاياهم. حافظ الدكتور هوبّز على علاقات رائعة معهم، كانوا أقرب إلى السكّان

المحليين من أطباء الجالية البريطانية ويُعجبون بطرق الطب الشرقي. فتحوا أبوابَ مشافيهم الصغيرة *للزهونغ يي*. قاد حماس تاو شيين وإبانيزر هوبزْ للدراسة والتجريب حتماً إلى الودّ، يلتقيان سرّاً تقريباً، إذ لو عُرِفَت صداقتهما لخاطرا بسمعتهما. فلا المرضى الأوروبيون ولا الصينيون يمكن أن يقبلوا أن يكون عند أبناء العرق الآخر ما يُعلّمونه لهم.

ما أن أراحت المورادُ تاو شيين حتى عادت الرغبة بشراء زوجة لتشغل أحلامَه. جمع حين بلغ الثانية والعشرين وفوراته مرّةً أخرى، كما كان يفعل باستمرار وتبينّ مسروراً أنّها تكفي لامرأة صغيرة القدمين عذبة المزاج. وبما أنّه لم يكن يملك أبوين لمساعدته في ذلك، كما تقتضي العادة، فقد لجأ إلى وكيل. أروه وجوهَ عدّة مرشّحاتٍ، لكنّهن جميعاً بدين له متماثلات، إذ كان من الصعب عليه التكهن بمظهر فتاة ـ وأقل من ذلك بشخصيتها ـ من خلال رسوم بالحبر متواضعة. ولم يكن مسموح له رؤيتها بأمّ عينه أو سماع صوتها، كما رغب، كما لم يكن في أسرته عنصر نسائيّ يفعل ذلك نيابةً عنه، لكنّه يستطيع أن يرى قدميها تُطلان من وراء ستارة، إلا أنّهم حكوا له أنّ هذا أيضاً غير موثوق، لأنّ الوكلاء عادة ما يقومون بحيلٍ ويُروا *الِيلْكَ* امرأة أخرى، وبذلك عليه أن يسلم أمره للقدر. أوشك على ترك القرار للنرد لكنّ وشم يده اليمنى ذكّره بحظّه العاثِر في ألعاب النرد ففضّل ترك المهمّة لروحي أمّه ومعلّمه في وخز الإبر. وبعد أن جاب خمسة معابد وقدّم النذور لها، حسبَ بأعواد *واحد شين* حيث قرأ أنّ الوقت مناسب، هكذا اختار الخطيبةَ. لم تخنه الطريقة؛ فحين رفع المنديل الحريريَّ الأحمر عن رأس الزوجة المتوهّجة بعد الطقوس المتواضعة جدّاً، فهو لم يكن يملك من المال ما يكفي لحفل زواجٍ أكثر بهاءً، وجد نفسه أمامَ وجه متناسِق ينظر بعنادٍ إلى الأرض. ردّد اسمها ثلاث مرّاتٍ قبل أن تتجرّأ على النظر إليه بعينين مليئتين بالدموع وارتعاشٍ خفِر.

ـ سأكون طيّباً معكِ ـ وعدها، متأثّراً مثلها.

ما أن رفع تاو شيين ذلك النسيج الأحمر حتى عَبَدَ تلك الفتاة التي جاءته بالحظّ. باغته ذلك الحبُّ: لم يتصوَّر أنّ مثل تلك المشاعر ممكنة بين رجلٍ وامرأة. لم يسمع تعبيراً عن هذا النوع من الحبّ قطّ، فقط قرأ عنه إشارات غامضة في الأدب الكلاسيكي، حيث العذراوات، مثل المناظرِ والقمر، موضوعات إجبارية للإلهام الشعري، ومع ذلك كان يظنّ أنّ النساء مجردّ مخلوقاتٍ للعمل والإنجاب، كما هو حال الفلاحات اللواتي ترعرع بينهنَّ، أو أنهنَّ أشياء غالية للزينة. لم تكن لين من أيّ من هذه الأصناف، بل شخصاً غامضاً ومعقّداً، قادرة على إرباكه بسخريتها وتحدّيه بأسئلتها، تضحكه كما لا يستطيع غيرها، تبتدع له قصصاً محالةً، وتُثيره باللعب بالكلمات. بحضورها يبدو كلّ شيءٍ مناراً ببريق لا يُقاوَم. شكّلَ الاكتشافُ المُدهِشُ للحميمية مع كائن بشريٍّ آخر أعمقَ تجربة له في حياته، فمع المومسات حدثت لقاءات ديكٍ مستعجِل، لكنّه لم يملك الوقتَ والحبَّ قط كي يعرف واحدة منهنّ بعمق. إن فتح عينيه في الصباحِ ورؤيته لِلين نائمة بجانبه جعلته يضحك سعادةً ويرتعِد بعد ثانية قلَقاً.فماذا لو جاء صباح لم تستيقظ فيه؟ رائحة عرقها الحلو في ليالي الحبّ، الخطّ الرقيقِ لأهدابها المرفوعة بحركة مفاجأة دائمة، رقّة خصرها المحالة، كلّ شيءٍ يخنقه رقّةً. آه! وضحكتهما معاً. كان هذا أفضلها جميعاً، فرحة هذا الحب الطلقة. أثبتت كتبُ حبّ وسادة المُعلِّم القديم، التي طالما سبّبت له إثارة غير مُجديةٍ في المراهقة، فائدَتَها ساعة المتعة. كانت لين كما ينبغي على كلٍّ فتاة عذراء حسنة التربية، متواضعة في سلوكها اليومي، لكنّها ما أن فقدت خوفها من زوجها حتى تضوّعت طبيعتها الأنثوية العفويّة والحارّة. تعلّمت هذه التلميذةُ النهمةُ خلال وقتٍ قصير طرق الحبّ المئتين واثنين وعشرين، مستعدّة دائماً للحاق به في هذا السباق المجنون، واقترحت على زوجها ابتداع أخرى. من حسن حظٍّ تاو شيين أنَّ معارفه الرفيعة التي حصل عليها نظريّاً في مكتبة مربّيه ضمّت طرقاً لا تُحصى لإمتاع المرأة وعرف أن الصرامة أقل أهميّة من الصبر. كانت أصابعه مؤهَّلَةً لتحسّس مختلف أنواع النبض في الجسد وتحديد النقاط الحساسة بعينين مغمضتين؛ ويداه الحارتان والراسختان

الخبيرتان في تخفيف آلام مرضاه تحوَّلتا إلى أداتين مطلقتي الإمتاع بالنسبة للين. ثمَّ إنَّهَ اكتشف شيئاً نسي معلِّمه المبجَّل تعليمه له: أنَّ أفضل أفروديتيّ هو الحبّ. إذ يستطيعانِ أن يبلغا في الفراش من السعادة ما يجعل عوائق الحياة الأخرى تمّحي خلال الليل. لكنّ تلك العوائق كانت كثيرة كما تبدّى بعد وقت قصير.

الروحان اللتان استعان بهما تاو شيين لمساعدته في قراره على الزواج أوفتا تماماً. فقدما لين كانتا معصوبتين وهي خجولة وعذبة مثل سنجاب، لكن لم يخطر لتاو شيين الطلب من زوجته أن تكون قويّة وجيّدةَ الصحّة أيضاً، فالمرأة التي بدت لا تنضب ليلاً تتحوّل نهاراً إلى معاقة؛ لا تكاد تقطع فرسخين سيراً بخطواتها التي لمشوَّه حرب. صحيحٌ أنّها حين تفعل ذلك تتحرَّك بملاحة ورشاقة عود خيزران معرّض للنسيم كما كان من الممكن لمعلِّم الإبر العجوز أن يكتب في بعض قصائده، لكنّ هذا لم يَغْنِ أن المشوار القصير إلى السوق لشراء ملفوفة للعشاء لم يشكّل ضنئً حقيقيّاً *لليلكيها الذهبيين*. لم تشكُ بصوتٍ مرتفع قط، لكن تكفي رؤيتها وهي تتنفّس وتعضّ على شفتيها للتكهن بجهد كلِ حركة. كما لم تكن تتمتّع برئتين جيّدتين، فهي تتنفّس بصفيرٍ حادٍّ كصفير الحسّون، تقضي فصل الأمطار سائلة المخاط، وفترة الجفاف مختنقة لأنَّ الهواء الحار يبقى عالقاً بين أسنانها. لا أعشاب زوجها ولا مقوّيات صديقه الدكتور الإنكليزي استطاعت التخفيف عنها. وحين حبلت زادت أمراضها سوءاً فهيكلها الهش لم يكن يتحمّل وزن الطفل. وفي الشهر الرابع ما عادت تخرج إطلاقاً وجلست واهنةً أمامَ النافذةِ ترى الحياة تمرّ في الشارع. تعاقد تاو شيين مع خادمتين للقيام بالمهمات المنزلية ومرافقتها خوفاً من موتها أثناء غيابه. ضاعفَ ساعات عمله وحاصر لأوّل مرّة مرضاه ليقبض منهم أجره وهو ما ملأه خجلاً. شعر بنظرة معلّمه النقدية تذكّرُهُ بواجب خدمة الناس دون انتظار تعويض «ذلك أنّ من يعرف أكثر يزداد واجبه تجاه الإنسانية أكثر». ومع ذلك لم يكنِ باستطاعته أن يعتني بهم مجّاناً أو مقابل معروف، كما فعل من قبل، فقد كان بحاجة لكلّ سنتيمٍ للإبقاء

على لين مرتاحةً. في تلك الأثناء كان يملك تحت تصرّفه طابقاً ثانياً من بيتٍ قديم، حيث لقيت زوجته عناية لم يتمتّع بها أحد منهما من قبل، ومع ذلك لم يكن راضياً. فقد وضع نصب عينيه الحصول على بيتٍ فيه حديقة ليتمتع بالجمال والهواء النقيّ ومع ذلك وضّح له إبانيزر هوبز ـ نظراً لأنّه هو نفسه رفض أن يرى ما كان جليّاً ـ بأن السلّ الرئويّ متقدِّم وما من حديقة تستطيع شفاء لين.

ـ بدلَ أن تعمل من الفجر وحتى منتصف الليل لتشتري لها ملابس الحرير والأثاث الفاخر ابق معها أكثر ما تستطيع، يا دكتور شيين. عليك أن تتمتَّع بها ما دامت عندك ـ نصحه هوبّز.

اتفق الطبيبان، كلّ واحدٍ من وجهة نظر تجربته الخاصّة على أنّ الولادةَ ستكون بالنسبة إلى لين تجربة نارية. ما من أحد منهما يفهم في هذا الموضوع، فالأمر سواء في أوروبا أو في الصين هو بين يدي القابلات، لكنّهما قرّرا دراسته فهما لا يثقان ببراعة امرأة فظّة كما كانا يحكمان على كلّ اللواتي يعملن في هذه المهنة، فقد رأياهنّ يعملن بأيديهن الوسخة وسحرهنَّ وطرقهنّ القاسية لفصل الطفل عن أمّه، وقرّرا تحرير لين من هذه التجربة المشؤومة. ومع ذلك لم تشأ الشابّةُ أن تلد على مرأى من رجلين، وخاصّة حين يكون واحدٌ منهما *فان غوي* له عينان حائلتان، لا تستطيع أن تتكلّم معه بلغة الكائنات البشرية. توسّلت زوجها أن يذهب إلى قابلة الحيّ، لأنّ أدنى حدود الحشمة تمنعها من فتح ساقيها أمام شيطان أجنبيّ، لكنّ تاو شيين الجاهز دائماً لإرضائها برهن على تشدُّد مطلق واتفق الاثنان أخيراً على أنه هو من سيعتني بها شخصيّاً، بينما يبقى إبانيزر هوبّز في الغرفة المجاورة كي يمنحه التشجيع اللفظيّ في حال الحاجة.

أولُ تباشير الولادة كانت هجمة ربو كادت تقضي على لين فاختلطت جهود التنفّس بجهود الطلق لطرح المخلوق خارجاً، وسواء تاو شيين بكلِّ حبّه وعلومه أو إبانيزر هوبّز بنصوص طبّه، فقد عجزا عن مساعدتها. بعد عشر ساعاتٍ، حين صار أنين الأمّ

مجرّدَ حشرجةٍ مخنوقٍ جافّة والمولود لم يعط أيّة إشارةٍ للولادة، خرج تاو شيين طائراً يبحث عن قابلةٍ، وعلى الرغم من نفوره جاء بها جرّاً. وكانت، تماماً كما خاف تاو وهوبّز، امرأة عجوزاً كريهة الرائحة ومن المحال عليهما تبادل أدنى حدود المعرفة الطبيّة معها، لأنّ ما عندها لم يكن علماً بل تجربة طويلة وغريزة قديمةً. بدأت بإبعاد الرجلين بدفعة واحدة مانِعَة عليها الإطلال من وراء الستارة التي تفصل الغرفتين. لم يعرف تاو شيين ماذا حدث خلف تلك الستارة قط، لكنّه ارتاح حين سمع لين تتنفّس دون أن تختنق وتصرخ بقوّة. في الساعات التالية وبينما كان إبانيزر هوبّز ينامُ منهكاً في كرسيٍّ، وراح تاو شيين يستشير روحَ معلّمِهِ قانطاً، جاءت لين إلى العالم بطفلة منهكة. وبما أنّ الأمر يتعلّق بأنثى لم تهتم القابلة ولا تاو شيين بإنعاشِها، بل انهمكا معاً في إنقاذِ حياةِ الأمِّ، التي راحت تفقد قواها النادرة باضطرادٍ مع استمرار تدفّق الدم من بين ساقيها.

لم تأسف لين تقريباً على موت الطفلة وكأنّها تنبّأت بأنَ الحياة لن تسعفها لتربيتها. تعافت ببطء من الولادة وحاولت شيئاً فشيئاً أن تعود لتصبح رفيقةَ الألعاب الليلية السعيدة. وبالتأدّب المستخدم في التمويه على آلام قدميها أظهرت حماساً لعناقات زوجها المتأجّجة. «الجنس رحلة، رحلة مقدّسة»، كانت تقول له، لكنّها ما عادت تملك الحماسة لمرافقته. وبلغت رغبةُ تاو شيين بهذا الحبّ حداً بحيث تدبّر أمره لتجاهل العلائم الواشية والاستمرار بالاعتقاد حتى النهاية بأنّ لين لم تزل هي نفسها. سنوات وهو يحلم بأبناءٍ ذكور، لكنّه صار لا يريد إلا حماية زوجته من حملٍ آخر. تحوّلت مشاعره تجاه لين إلى احترام لا يستطيع الاعتراف به إلا لها. فكّر أنه ما من أحد سيفهم حبّه المضني للين، التي لا أحد يعرفها مثله، لا أحد يعرف النورَ الذي جاءت به إلى حياته. أنا سعيد، أنا سعيد، كان يُردّدُ ليبعِدَ الهواجسَ المشؤومةَ التي تُهاجِمه ما أن يغفل قليلاً. لكنّه لم يكن كذلك، ما عاد يضحك بخفّة الماضي ولا يكاد يستطيع التمتّع بها حين يكون معها، إلا في بعض لحظات الحب الجسدي التامّة، إذ

يعيش مشغولاً ويراقبها، مترصِّداً صحّتها، واعياً هشاشتها، وهو يقيس إيقاعَ تنفّسِها. صار يكره *ليلكيها الذهبيين*، اللذين طالما قبّلهما في بداية زواجه محمولاً بفوران الرغبة. كان إبانيزر هوبّز من أنصار أن تقوم لين بمشاوير طويلة في الهواء الطلق لتعزيز رئتيها وفتح شهيّتِها، لكنّها لا تكادُ تسير عشر خطوات حتى تُنهَك. لم يكن باستطاعة تاو البقاء بجانب زوجته طوالَ الوقت، كما اقترح هوبّز، فعليه أن يتموّن للاثنين. كلّ لحظة يقضيها بعيداً عنها تبدو له حياة ضائعةً في الشقاء، وقتاً مسروقاً من الحبّ. وضع في خدمة زوجته كلَّ بحوثه في تركيب الأدوية وخبرته المكتسبة خلال سنواتٍ ممارسته الطبية الطويلة، لكنّ لين تحوّلت بعد سنة من الولادة إلى ظلٍّ للفتاة السعيدة السابقة، يحاول زوجُها إضحاكَها فتخرج بسمتهما مزيّفة.

جاء يوم لم تستطع فيه لين الخروج من السرير. كانت تختنقُ وقواها تضيع في السعال الدامي محاولةً تنشّقَ الهواء. رفضت الأكلَ باستثناء ملاعق صغيرة من حساءٍ خفيف، فالجهد يخنقها، تنام غفلةً في لحظات هدوء السعال النادرة. حسب تاو شيين أنّه مضى عليها ستّ أسابيع تتنفّس فيها بشخير سائلٍ كما لو أنّها غُمِرت بماء، يرفعها بين ذراعيه فينتبه كيف راحت تفقد وزنها وتنكمشُ روحُها رعباً. ومن كثرة ما رآها تُعاني وجد أنّه لا بد من مجيء الموت راحةً لها، لكنّه في الفجر المشؤوم الذي استيقظ فيه معانقاً جسدها البارِد ظنّ أنّه يموت أيضاً. انبثقت صرخة طويلة ورهيبة من أعماق الأرض ذاتها مثل هدير بركان هزَّ البيتَ ثمَّ الحيَّ. جاء الجيران وفتحوا البابَ رفساً فرأوه عارياً يعوي وسط الغرفة وامرأته بين ذراعيه. اضطرّوا لانتزاعها منه والسيطرة عليه بكلّ ما أوتوا من عزم، حتى وصل إبانيزر هوبّز وأجبره على ابتلاع كميّة من صبغة الأفيون قادرة على هدّ أسدٍ.

غرق تاو شيين في الترمّلِ بقنوطٍ مطلق. بنى مذبحاً وضع عليه صورة لين وبعض ممتلكاتها وراح يقضي الساعات في تأمّلها. ما عاد يرى مرضاه ولا يشارك إبانيزر هوبّز دراساته وبحوثه. صار

يمقت نصائح الإنكليزي، الذي كان يؤكّد «أنّه لا يفلّ الحديد إلا الحديد» وأن أفضل شيءٍ لمعافاته هو زيارة مواخير الميناء، حيث يستطيع أن يختار ما يشاء من النساء مشوّهات الأقدام، كما كان يسمّي *الليالك الذهبية*. كيف يستطيع أن يقترح عليه مثل هذه الترهات؟ لا توجد من يمكنها أن تحلّ محلّ لين، لن يحبّ غيرها أبداً، هذا ما كان تاو شيين واثقاً منه. لم يقبل في تلك الأيام من هوبّز سوى زجاجات الويسكي السخية. قضى أسابيعَ في خدرِ الكحول إلى أن انتهت نقوده وراح يبيع ممتلكاته شيئاً فشيئاً، حتى جاء يوم لم يستطع فيه دفع الإيجار وانتقل إلى فندق من درجة دنيا. عندئذٍ تذكّر أنه زهونغ يي فعاد إلى العمل وإن بشقّ النفس وبثياب وسخة وجديلة منفوشة وحلاقة ذقنٍ سيّئة. ونظراً لسمعته الحسنة تحمّل المرضى مظهره المرعب وأخطاءه الناتجة عن ثمله بموقف الفقراء المذعن، لكنّهم سرعان ما انقطعوا عن استشارته، كما أنّ إبانيزر هوبّز توقّف عن استدعائه لمعالجة الحالات الصعبة لأنّه فقد الثقة بوجهة نظره. كانا قد تكاملا حتى ذلك الوقت بنجاح: صار باستطاعة الإنكليزي لأوّل مرّةٍ ممارسةَ الجراحة بفعالية بفضل المخدِّر والإبر الذهبية القادرةِ على التخفيف من الألم وتقليص النزيف ومدّة التئام الجراح، وتعلّمَ الصينيُّ استخدامَ المبضع وطرقاً أخرى من طرق الطب الأوروبيّ. لكنّ تاو شيين بيديه المرتعشتين وعينيه الغائمتين تسمّماً ودموعاً صار خطيراً أكثر مما هو مساعد.

في ربيع عام 1847 دار قدر تاو شيين كما حدث عدّة مراتٍ في حياته من قبل. ومع فقدانه التدريجي لمرضاه المواظبين وانتشار إشاعة ضياع مكانته كطبيبٍ صار عليه أن يركّز على أكثر أحياء الميناء يأساً، حيث لا أحد يطلبُ استشارته فالحالات كانت روتينية: رضوض، ضربات سكاكين، ثقوب رصاص. وذات ليلة استدعي تاو شيين إلى إحدى الحانات بشكلٍ إسعافيّ لخياطة بحّار بعد مشاجرة مريعة. قادوه إلى القسم الخلفي من المحلّ حيث جثا الرجل فاقداً الوعيّ، ومفتوحَ الرأس مثل بطيخة. كان منافسه عملاق نرويجيّ

رفع طاولةً خشبية ثقيلة واستخدمها كترسٍ لحماية نفسه من مهاجميه، وهم مجموعة من الصينيين العازمينَ على تلقينه درساً لا يُنسى. انقضوا جماعةً على النرويجيّ وكانوا سيمزقونه إرباً لو لم يهرع لنجدته عددٌ من بحّارة بحر الشمال الذين كانوا يشربون في البار ذاته، وما بدأ كنقاشٍ بين لاعبين سكارى تحوّل إلى معركة عرقيّة. عند وصول تاو شيين كان قد هرب منذ برهة طويلة من استطاع السير. انضمّ النرويجيّ سالماً إلى سفينته يحرسه شرطيان إنكليزيان، والوحيدون البادون للنظر هم صاحب الحانة والضحيّة المحتضرة والبحار الذي تدبّر أمره في إبعاد الشرطة. لو كان الجريح أوروبيّاً لانتهى بالتأكيد إلى المشفى الإنكليزي، لكن بما أنه آسيويّ لم تزعج سلطات الميناء نفسها كثيراً بالأمر.

كفت تاو شيين نظرة واحدة ليقرّر أنه لا يستطيع عملاً لهذه الشيطان البائس بجمجمته المحطّمة ودماغه الظاهر، هكذا وضّح للبحار الإنكليزي الملتحي والوقح.

ـ أيّها الصينيّ اللعين! ألا تستطيع أن تفرك الدم وتخيط الرأس؟
ـ طالبَهُ.

ـ جمجمته مشطورة، فلماذا خياطتها؟ له الحق بالموت بسلام.

ـ لا يمكنه أن يموت! فسفينتي ستنطلق فجراً وأحتاج لهذا الرجل على ظهرها! إنّه الطبّاخ!

ـ آسف ـ ردّ تاو شيين باعتذار واحترام محاولاً إخفاء انزعاجه الذي سبّبه له ذلك *الفان غوي* الطائش.

طلب البحّارُ زجاجة جنٍّ ودعا تاو شيين ليتناولها معه. إذا لم يكن من أملٍ في الطبّاخ فإنّ باستطاعته أن يتناول كأساً على اسمه، قال، كيلا يأتيه فيما بعد طيفه المسخّم، عليه اللعنة، ليهزّه من قدميه ليلاً. وقفا على بعد خطواتٍ من المُحتَضَر ليسكرا دونَ عجلة، بينما تاو شيين ينحني من حينٍ لآخر ليقيسَ له نبضَهُ، مقدّراً أنّه لم يبق له على قيد الحياة إلاّ دقائقَ معدوداتٍ، لكنّ الرجل أظهر مقاومةً أكثر من المُنتَظَر. لم ينتبه *الزهونغ يي* كيف راح الإنكليزيُّ يقدّم له الكأسَ

تلو الآخر، بينما لم يكد يشرب هو كأسه. وسرعان ما وجد نفسه دائخاً ولا يستطيع أن يتذكّر السبب الذي وُجِد لأجله هناك. ولم ينتبه تاو شيين حين انتفض مريضه بعدَ ساعةٍ مرتعشاً عدّة رعشات وفارق الحياة، فقد تدحرج على الأرضِ فاقداً الوعيَ.

استيقظ على نور الظهيرة الباهر، فتح عينيه بصعوبةٍ هائلة، وما كاد ينهض حتى وجد نفسه محاطاً بالسماء والماء. تأخّر برهة طويلة حتى انتبه إلى أنّه كان مستلقياً على ظهره فوق بكرة من الحبال على سطح سفينة. كان ارتطامُ الأمواج على جوانب السفينة يدوّي في رأسه مثل قرعِ النواقيس. ظنّ نفسَهُ يسمع أصواتاً وصراخاً، لكنّه غير متأكّدٍ من شيء، فقد يكون في الجحيم. استطاع أن ينهض على ركبتيه ويتقدّمَ حابياً عدّةَ أمتارٍ حين باغته الغثيان وسقط على وجهه. بعد برهة أحسّ بدفقة ماء باردٍ على رأسِه وبصوتٍ يتوجّه إليه بالكانتونيّة، رفع نظره فوجد نفسه أمام وجهٍ أجردَ وظريف يحيّيه بابتسامة عريضة ينقصها نصف الأسنان. سطل ماء بحرٍ ثانٍ أخرجه أخيراً من خَبَله. قبع الشاب الصينيُّ الذي راح يُبلِّله بهمّة إلى جانبه ضاحكاً ضحكاً مجلجلاً وهو يربتُ على فخذيه، وبدا وضعه المحزن ينطوي على طَرافةٍ لا تُقاوَم.

ـ أين أنا؟ ـ تمكّن تاو شيين من التلعثم.

ـ أهلاً بك على متن *ليبرتي*! نحن ماضون باتجاه الغرب على ما يبدو.

ـ لكنّني لا أريد الذهاب إلى أيِّ مكان. يجب أن أنزل على الفور.

لقيت مقاصده ضحكات أخرى وحين استطاع الرجلُ السيطرة على ضحكِه أخيراً وضّح له بأنّه تمّ التعاقد معه، تماما كما تمّ معه هو نفسه قبل أشهر. شعر تاو شيين بأنه سيُغْمى عليه. إنّه يعرف الطريقة. إذا نقصهم رجالٌ لإكمال طاقم السفينة يلجؤون إلى العمل السريع بإسكارٍ مغفّلٍ أو إفقادِه الوعي بضربة على الرأس للإمساك به رغماً عنه. كانت حياة البحر فجّة وسيّئة المردود، كثيرة الحوادِث، سيئة التغذية، وأمراضها تهدم الصحة، ففي كلِّ رحلة

يموت أكثر من واحدٍ تنتهي جثثهم للاستقرار في قاع المحيط دون أن يعود أحد لتذكّرهم. ثمَّ إنَّ القباطنة عادة ما يكونون طغاةً، لايقدّمون حساباتهم لأحد ويجلدون من يرتكب أدنى خطأٍ. اضطروا في شنغهاي للتوصّل إلى اتفاق فرسانٍ للحدِّ من اختطافِ الرجال الأحرار وعدم السرقة المتبادلة للبحّارة. فقبل الاتفاق كان كلّ واحدٍ ينزل إلى الميناء لتناول بعض الجرعات يتعرَّضُ لخطر الإصباح على متن سفينة أخرى. لذا قرّرَ بحّارُ *ليبرتي* استبدال الطبّاخ الميت بتاو شيين - ففي نظره كلّ الصفر متماثلون وسيان عنده هذا أو ذاك - ونقلوه بعد سكره إلى متنها. وقد وضع، قبل استيقاظه، بصمته على عقد يقيّده إلى خدمته لمدّة سنتين. ببطء راح يرتسم هول ما حدث في دماغ تاو شيين الدائخ. لم تخطر له فكرة التمرُّد، فهي تعادل الانتحار، لكنّه قرّر الهرب ما أن تطأ قدماه اليابسةَ في أيّة بقعة من بقاع الكرة الأرضيّة.

ساعدَه الشابُ في النهوض على قدميه وغسله ثمّ قاده إلى عنبرِ السفينة حيث تصطف القمرات والأسرّة المعلّقة. حدّد له مكانه ودرجاً ليضع فيه ممتلكاته. ظنَّ تاو شيين أنّه فقدَ كلَّ شيءٍ، لكنّه رأى حقيبته مع أدواته الطبيّة على الأرضية الخشبية التي ستشكّل سريره. خطرت للملاح فكرة إنقاذها الجيّدة، ومع ذلك بقي رسمُ لين هناك على المذبح. أدرك مرعوباً أنّه من المحتمل ألا تستطيع روح زوجته تحديد مكانه وسط المحيط. كانت أيّام الإبحار الأولى ضنى وتوعّكاً. تأخذه بين الفينة والأخرى رغبة برمي نفسه عن متن السفينة والانتهاء من عذاباته مرّة واحدة وللأبد. ما أن استطاع النهوض على قدميه حتى عُينّ في المطبخ البدائيّ حيث تعلّق الأواني إلى كلاّبات وتتلاطم مع ترنّح السفينة بجلبة مُصِمّة. سرعان ما نفدت المؤن الطازجة التي حُصِلَ عليها في هونغ كونغ ولم يبق غير السمك واللحم المملّح، البقول، السكّر، السمنة، الطحين المدوّد، وبسكويت قديم لا يكاد ينكسر حتى بالمطرقة. كلّ الأغذية كانت تُسقى بصلصة الصويا وبقي لدى كلّ بحار لتر أغوارديينتِ في اليوم ليسلو همومه ويمضمض فمه، لأنّ التهابَ اللثة أحد مشاكل الحياة في البحر. كان

تاو شيين يملك لمائدة القبطان بيضاً ومربّى إنكليزياً عليه أن يحميهما بحياته كما أمروه. الوجبات مقدَّرة كي تكفي لفترة العبور ما لم تحدث عوائق، كالعواصف التي تجرفهم عن خطّ سيرهم، أو نقص في الريح يشلّهم، وتكمّل بالسمك الطازَج الذي يقع في الشباك أثناء الطريق. لم يُنتظر من تاو شيين أن يتمتع بموهبة مطبخية، واقتصر دوره على التحكّم بالأغذية والمشروبات الروحية المخصّصة لكلّ رجلٍ ومكافحة التآكل والجرذان. كما أنَّ عليه مهمات النظافة والإبحار مثل أيِّ بحّارٍ آخر.

بعد أسبوعٍ بدأ يتمتّع بالهواء الطلق والعملِ القاسي ورفقة أولئك الرجال القّادمين من جهات الأرض الأربع، كلٌّ واحد بحكاياته وحنينه ومهاراته. يعزفون في أوقات استراحتهم على آلة معيّنة ويحكون حكايات أشباح البحر والنساء الغريبات في موانئ بعيدة. كان الملاّحون القادمون من مناطق كثيرة في العالم يتكلّمون لغات عديدة، ولهم عادات مختلفة، لكنّهم مرتبطون بشيء يشبه الصداقة، والعزلة ويقين الحاجةِ المُتبَادَلة يُحوّل رجالاً ما كانَ لينظر بعضُهم لبعض على اليابسة إلى رفاق. عادَ تاو شيين ليضحكَ ضحكةً ما ضحكها منذ مرض لين. ناداه الملاّحُ ذات صباحٍ ليقدّمه شخصيّاً إلى القبطان جون سومّرز، الذي لم يره إلا من بعيد في باب القيادة. وجد نفسَه أمام رجلٍ طويلٍ، مدبوغ برياح درجات عرضٍ كثيرة وله لحية داكنة وعينان فولاذيتان. توجّه إليه عبر الملاّح الذي يتكلّم قليلاً بالكانتونية لكنّه ردّ عليه بإنكليزيّة كتاب، وبنبرة الأرستقراطية المتكلّفة المتعلّمة من إبانيزر هوبّز.

ـ يقول لي السيّد أوغلِسبي أنّك تمثّل نوعاً من الطبيب الشعبي؟

ـ أنا زهونغ يي، طبيب.

ـ طبيب؟ كيف طبيب

ـ الطبّ الصيني أقدمُ بقرونٍ عدّة من الطبّ الإنكليزي، يا قبطان

ـ ابتسم تاو شيين بلطف ، ناطقاً بكلماتِ صديقه إبانيزر هوبّز الدقيقة ذاتها.

رفع القبطان سومّرز حاجبيه بإيماءة غضب من وقاحة ذلك الرجل الصغير، لكنّ الحقيقة جرّدته من سلاحه؛ فراح يضحك برغبة طيّبة.

ـ هيّا، يا سيّد أوغلِسبي، صبَّ لنا ثلاث كؤوس براندي لنشرب النخبَ مع الدكتور. فهذا ترف غريب جدّاً. هذه هي المرّة الأولى التي نحمل فيها على متن السفينة طبيباً خاصّاً بنا.

لم ينفّذ تاو شيين هدفه بالهرب في أوّل ميناء تلامسه *ليبرتي*، لأنّه لم يدرِ أين يذهب فعودته إلى حياة الترمّل المنهكة في هونغ كونغ ليس لها معنى كبيراً مثلها مثل الاستمرار بالإبحار. فالأمر سيّان هنا وهناك وهو كبحّار يستطيع على الأقل الارتحال وتعلّم طرق علاجٍ جديدة تُستخدم في مناطق أخرى من العالم. الشيء الوحيد الذي كان يُعذِّبه فعلاً هو ألا تستطيع لين في هذا الانتقال من موجة إلى موجةٍ تحديدَ موقعه، مهما صاح باسمها لكلّ رياح العالم. هبط في أوّل ميناء مثله مثل البقيّة بإذن للمكوث على اليابسة لمدّة ستّ ساعات، لكنّه بدل إضاعتها في الحانات ضاع في السوق باحثاً عن بهارات وأعشابٍ طبيّة بتكليفٍ من القبطان. فقد قال: «بما انّه يوجد لدينا طبيب، يجب أن يكون عندنا أدوية أيضاً». أعطاه كيساً فيه نقودٌ معدودة وحذّره من أنّه إذا حاول الهرب أو خداعه فسوف يبحث عنه حتى يقع عليه وسيقطع عنقه بيده ذاتها، إذ لم يولد بعد الرجل القادر على السخرية منه دون عقاب.

ـ هل هذا واضح، أيّها الصيني؟

ـ واضح، أيّها الإنكليزيّ.

ـ تناديني يا سيّدي!

ـ حاضِر، يا سيِّدي ـ ردّ تاو شيين خافِضاً بصرَه، فقد راح يتعلّم عدم النظر إلى وجوه البيض.

أوّل مفاجأة له كانت اكتشافه أنّ الصين ليست مركزَ الكون. هناك ثقافات أكثر وحشيّة، هذا صحيح، لكنّها أقوى بكثير. لم يكن يتصوّر أن البريطانيين يتحكّمون بجزء كبير من الكون، كما لم يكن يظنُّ بأنّ *الفان غويِّ* يملكون مستعمرات شاسعة في بلادٍ بعيدةٍ موزّعة على القارّات الأربع، كما جهد جون سومّرز بالتوضيح له ذات يوم حين اقتلع له ضرساً ملتهباً أمام شواطئ أفريقيا. قام بالعمليّة بنظافة ودون ألم تقريباً بفضل مركّب من إبره الذهبيّة في الصدغين وكريماً من الأوكاليبتوس المطبّقة على اللثة. حين انتهى واستطاع المريض المرتاح والممتنّ أن يأتي على زجاجة مشروبه الروحي، تجرّأ تاو شيين على السؤال عن وجهتهم. فقد كان يربكه الإبحار على عماها في خطّ أفق مختلط بين البحر والسماء اللامتناهية يشكّل نقطة الارتكاز الوحيدة

ـ نمضي باتجاه أوروبا، لكن لا شيء يتبدّل بالنسبة إلينا. نحن أهل بحر، دائماً في الماء. هل تريد العودة إلى بيتك؟

ـ لا يا سيِّدي.

ـ هل لك أسرة في مكان ما؟

ـ لا يا سيّدي.

ـ إذن سيّان عندك ذهبنا شمالاً أو جنوباً، شرقاً أو غرباً، أليس كذلك؟

ـ صحيح، لكنّني أحبُّ أن أعرف أين أنا.

ـ لماذا؟

ـ ربّما سقطت في الماء أو غرقنا. يجب أن تعرف روحي أين هي كي تعودَ إلى الصين، وإلا لمضت تائهة بلا اتجاه. باب السماء في الصين.

ـ يا للأشياء التي تخطر لك! ـ ضحك القبطان ـ إذن للذهاب إلى الجنّة يجب أن تموت في الصين؟ انظر إلى الخريطة، يا رجل، بلدُك هو الأكبر، هذا صحيح، لكن هناك عالم كثير خارج الصين. فها هي

إنكلترا، لا تكاد تكون جزيرة صغيرة، لكن إذا جمعت مستعمراتنا سترى أنّنا أصحاب أكثر من نصف الكرة الأرضيّة.

ـ كيف ذلك؟

ـ كما فعلنا في هونغ كونغ: بالحرب والحيلة. لنقل إنّها مزيجٌ من القوّة البحرية والطمع والنظام. لسنا متفوّقين بل أكثر قسوة وحزماً. لست فخوراً بإنكليزيّتي بالتحديد، وحين ستكون قد سافرت مثلي ستصبح أيضاً غير فخورٍ بصينيتك.

وطِئ تاو شيين اليابسة خلال السنتين التاليتين ثلاث مرّاتٍ فقط، واحدة منها في إنكلترا. ضاع بين الحشود الفظّة في الميناء وسار في شوارع لندن يراقب الجديدَ بعيني طفلٍ مفتون. كان *الفان غوي* مليئين بالمفاجآت، فهم من جهة خالون من أي تهذيب ويتصرّفون كمتوحّشين، ومن جهة أخرى قادرون على قوّة الإبداع العجيبة. تبيّن أنّ الإنكليز يُعانون في بلدهم من العجرفة وسوء التربية ذاتها التي يُظهرونها في هونغ كونغ: كانوا يعاملونه دون احترام، ولا يعرفون شيئاً عن التهذيب أو آداب المعاشرة. أراد أن يشرب زجاجة بيرة، لكنّهم أخرجوه دفعاً من الحانة: هنا لا يدخل الكلابُ الصفرُ، قالوا له. لكن سرعان ما اجتمع مع بحارة آسيويين آخرين وعثروا على محلٍّ يُديره صينيٌّ عجوز حيث استطاعوا أن يأكلوا ويشربوا ويدخِّنوا بسلام. بينما كان يسمع حكايات رجال آخرين فهِمَ كم من الأشياء ينقصه تعلّمها فقرّر أنّ أول شيءٍ عليه تعلّمه هو استخدام القبضتين والسكين. قليلة هي فائدة المعرفة ما لم يكن الواحد قادراً على الدفاع عن نفسه؛ لقد نسي طبيب الوخز بالإبر العجوز تعليمه ذلك المبدأ الأساسي أيضاً.

رست *ليبرتي* في شباط من عام 1849 في بالبارايسو. في اليوم التالي ناداه القبطان جون سومّرز إلى غرفته الصغيرة وسلّمه رسالة.

ـ أعطوها إليّ في الميناء إنّها لك وهي من إنكلترا.

أخذ تاو شيين المغلّف، احمرّ وأضاءت وجهه ابتسامة هائلة.

ـ لا تقل لي إنّها رسالة حبٍّ! ـ سخِر القبطان ـ

ـ بل أفضل ـ ردّ مخبّئاً إياها بين صدره والقميص. فالرسالة لايمكن أن تكون إلا من صديقه إبانيزر هوبز، الأولى التي وصلته خلال سنتي الإبحار.

ـ لقد قمت بعملٍ جيّد، يا شيين.

ـ ظننت أنّ طبخي لا يعجبك، يا سيّدي ـ ابتسم تاو.

ـ كطبّاخ أنتَ مريع، لكنّك تعرف في الطبّ. سنتان لم يمت فيهما عندي رجل واحد ولا عانى أحدٌ من داء الحفر. هل تعرف ماذا يعني هذا؟

ـ حظّ سعيد.

ـ عقدُكَ ينتهي اليوم. أعتقد أنّني أستطيع أن أسكرَكَ وأجعلك توقّع تمديداً. ربّما فعلته مع آخر، لكنّني مدين لك بخدمات وأنا أدفع ديوني. هل تريد الاستمرار معي؟ سأزيد لك الراتب.

ـ إلى أين؟

ـ إلى كاليفورنيا. لكنّني سأترك هذه السفينة، فقد عرضوا عليّ سفينة بخاريّة توّاً. وهذه فرصة انتظرتها سنواتٍ. بودّي أن تأتي معي.

كان تاو شيين قد سمع عن البواخر ويخافها كثيراً. ففكرة القدور الهائلة المليئة بالماء الفوّار لإنتاج البخار وتحريك آلات جهنّمية، يمكن أن تكون قد خطرت لأناس مستعجلين فقط، لكن أليس من الأفضل السفر على إيقاع الريح والتيارات؟ لماذا تحدّي الطبيعة؟ جرت إشاعات تتحدّث عن مراجل تنفجر في عرض البحر تسلق البحارة أحياناً. وقطع اللحم البشري المسلوقة مثل جراد بحر تخرج متناثرة في كلِّ الاتجاهات لتغذّي الأسماك، بينما أرواح أولئك التعساء المتشظّين في الانفجار وزوابع البخار لا تستطيع أن تجتمع أبداً مع أسلافها. كان تاو شيين يتذكّر بوضوح مظهر أخته الصغرى

بعد سقوط قدر الماء الساخن عليها تماماً كما يتذكّر أنينَ ألمها الرهيب واختلاجات موتها. لم يكن مستعدّاً للمخاطرة. ذهبُ كاليفورنيا الذي وحسب ما يقولون ملقيٌّ على الأرض مثل الصخور أيضاً لم يكن يغويه كثيراً. لم يكن مديناً بشيء لجون سومّرز. والقبطان كان أكثر تسامحاً من معظم *الفان غوي* ويعامل البحارة ببعض المساومات، لكنّه لم يكن صديقه ولن يكون أبداً.

ـ لا، شكراً، يا سيّدي.

ـ ألا تريد أن تعرف كاليفورنيا؟ تستطيع أن تصبح ثرياً خلال وقتٍ قصير. وترجع إلى الصين وقد أصبحت قطباً.

ـ نعم، لكن في سفينة شراعيّة.

ـ لماذا؟ البخارية أحدث وأسرع.

لم يُحاول تاو شيين توضيح دوافعه. بقي صامتاً ينظر إلى الأرض وقبّعته في يده بينما ينتهي القبطان من شرب كأس الويسكي.

ـ لا أستطيع إكراهك ـ قال سومّرز ـ سأعطيك رسالة توصية إلى صديقي فنسنت كاتز من السفينة *إميليا* ذات الشراعين، المنطلقة خلال الأيام القادمة إلى كاليفورنيا أيضاً. إنّه هولندي خاصّ جدّاً، متديّن جدّاً وصارم لكنّه طيّب وبحار جيّد. ستكون رحلتُك أبطأ من رحلتي لكن ربّما التقينا في سان فرانسيسكو، وإذا كنت نادماً على قرارك تستطيع دائماً العودَة للعمل معي.

شدّ القبطان جون سومّرز وتاو شيين كلٌّ على يد الآخر لأوّل مرّة.

الرحلة

بدأت إليثا تموت منكمشةً في جحرها في عنبر السفينة. فبالإضافة للظلمة والإحساس بأنّها مدفونة حيّةً اجتمعت الرائحةُ، خليط من محتوى الطرود والصناديق والسمك المملّح في براميل وكشك البحر الملتصق بخشب المركب القديم. حاسّة الشمّ الجيّدة المفيدة لتنقّلها في العالم بعينين مُغمضَتين تحوّلت إلى أداة تعذيب. رفيقها الوحيد قطّ بألوانٍ ثلاثة، مقبور مثلها في عنبر السفينة لحمايتها من الفئران. أكّد لها تاو شيين أنّها ستعتاد على الرائحة والحبس لأنّ الجسم يعتادُ كلَّ شيء عندَ الحاجة؛ ثمّ أضاف أنّ الرحلة ستكون طويلة ولن تستطيع أن تطلّ على الهواء الطلق أبداً، لذلك فمن الأفضل لها ألاّ تُفكّر كيلا تُجَنّ. سيكون عندها ماء وطعام، وَعَدَهَا، فهو سيأخذ هذا على عاتقه حين يستطيعُ الهبوطَ إلى العنبر دون أن يثير شكوكاً. كانت السفينة صغيرةً لكنّها مزدحمة بالناس وسيكون من السهل أن يفلت بحججٍ مُختلِفة.

ـ شكراً. سأعطيك مشبك الفيروز حين نصل إلى كاليفورنيا...

ـ خبّئيه. فقد دفعت لي. ستحتاجين إليه. لماذا تذهبين إلى كاليفورنيا؟

ـ لأتزوّج. خطيبي يُدعى خواكين. أخذته حمّى الذهب فذهب. قال إنّه سيعود، لكنّني لا أستطيع انتظارَهُ.

ما أن غادرت السفينةُ خليج بالباريسو وخرجت إلى عباب البحر حتى بدأت إليثا بالهذيان. بقيتْ مرميّةً في الظلمة مثل حيوانٍ في قذارته ذاتها، مريضة إلى حدٍّ أنّها لا تتذكر أين هي ولا لماذا، إلى أن فُتِحَ بابُ العنبرِ أخيراً وظهر تاو شيين مناراً بعقب شمعةٍ وقد جاءها بصحن من الطعام. كفته رؤيتها لينتبِهَ إلى أنّ الفتاة لن تستطيع أن تضع شيئاً في فمها. أعطى العشاء للقطِّ وذهب بحثاً عن سطل ماء ثم عاد لتنظيفها. بدأ بإعطائها نقيعَ زنجبيرٍ قويّاً، ووخزِها ببضع عشرة إبرة من إبره الذهبيّة حتى هدأت معدتها. لم تنتبه إليثا تقريباً حين عرّاها تماماً، غسلها برقّةٍ بماء البحر، شطفها بطاسة من الماء العذب ثمَّ دلّكها بالبلسم الموصوف لارتعاشات الملاريا ذاته من قدميها وحتى رأسها. وما هي إلا دقائق حتى نامت ملفوفة ببطانيتها القشتالية والقط عند قدميها، بينما تاو شيين على السطح يشطف لها ثيابها بماء البحر، مُحاوِلاً ألا يلفت الانتباه، مع أنّ البحارة في تلك الساعة يرتاحون. كان المسافرون الجدد دائخين مثل إليثا مقابل عدم تأثّرِ مَنْ مضى عليهم ثلاثة أشهر في الرحلة من أوروبا ومرّوا بتلك التجربة.

في الأيام التالية، وبينما ركاب *إميليا* الجدد يعتادون على سوط الأمواج ويحدّدون الأعمال الروتينية الضروريّة لبقيّة العبور، كانت إليثا في قاع السفينة تزدادُ مرضاً في كلّ مرّة أكثر، وتاو شيين يهبط كلّما استطاع لإعطائها الماءَ ومحاولةِ التخفيف من الغثيان، مستغرباً أنّ المرض يزداد بدل أن يخفّ. حاول التخفيف عنها بكل الوسائل المعروفة لمثل تلك الحالات وأخرى ارتجلها بقنوط، لكنّ إليثا لم تتمكّن من الإبقاء على شيء في معدتها وراحت تجفّ. حضّر لها ماءً بالملح والسكّر، يعطيه لها بالملعقة بصبر مُطلَق، لكن مرَّ أسبوعانِ دون تحسّنٍ ظاهر وجاءت لحظة ارتخى فيها جِلدُ الفتاة كأنّه رقٌّ ولم يعد باستطاعتها النهوض للقيام بالتمارين التي فرضها عليها تاو شيين. كان يُردّدُ عليها: «إذا لم تتحرّكي سيتخدّرُ جسدك وترتبك أفكارُكِ». وفي وقت قصير لامست السفينة ذات الشراعين

موانئ كوكيمبو، كالدِرا، أنتوفاغاستا، إيكيكِ وأريكا، وفي كلّ مناسبة كان يُحاوِل إقناعها بالنزول والبحث عن طريقة للعودةِ إلى البيت لأنّه يراها تضعفُ أحياناً وهو خائف.

كانوا قد خلّفوا وراءهم ميناء كالياو حين دارت حالة إليثا دورة مشؤومة. كان تاو شيين قد حصل على احتياطيّ من ورق الكوكا التي يعرف شهرتها الطبيّة جيّداً، وثلاث دجاجاتٍ حيّةً فكَّرَ بالإبقاء عليها مخبّأةً ليضحّي بها واحدةً فواحدة لأنَّ المريضة تحتاج إلى شيء أكثر تغذيةً من وجبات السفينة الهزيلة. طها الأولى في مرقٍ مُشبَعٍ بالزنجبير الطازج وهبط عازماً على إعطاء الحساء لإليثا حتى ولو بالإكراه. أشعل فانوس دهن الحوت، شقَّ طريقه بين الطرود واقترب من زريبة الفتاة التي كانت مغمضة العينين ويبدو أنّها لا تحسُّ بحضوره، وتنتشرُ تحت جسدها بقعة دم. أطلق *الزهونغ يي* صرخةً وانحنى فوقها، ظانّاً أنّ البائسة قد تدبَّرت أمرَ انتحارها. لم يكن يستطيع إدانتها فهو نفسه، فكَّرَ، سيفعل الشيءَ ذاته في مثل تلك الظروف. رفع القميصَ، لم يكن هناك أي جرح ظاهر، لمسها فتَبيّنَ أنّها ما تزالُ حيّةً. هزّها حتى فتحت عينيها.

ـ أنا حُبلى ـ اعترفت أخيراً بخيطٍ من صوت.

أمسك تاو شيين رأسَه بكلتا يديه وضاع في سلسلة من التأسفات باللغة المحكيّة في مسقط رأسه، التي لم يلجأ إليها منذ خمس عشرة سنة: لو عرف ذلك لما ساعدها قط، كيف خطر لها أن تبحر إلى كاليفورنيا وهي حامل، إنّها مجنونة، هذا ما ينقصه، إجهاض، إذا ماتت ضاع، يا لهول الورطة التي زجّته فيها، نتيجة غبائه حدث له ذلك. كيف لم يتكهّن سبب استعجالها الهربَ من تشيلي. أضاف أَيْماناً ولعناتٍ بالإنكليزيّة، لكنّها عادت ليُغمى عليها وتبقى بعيدة عن أيّ توبيخ. راح يهدهدها بين ذراعيه مثل طفلة، بينما الغضب يتحوّل إلى شفقةٍ جارفة. خطر له لثانيةٍ اللجوء إلى القبطان كاتز والاعتراف بكاملِ المسألة، لكنّه لا يستطيع التكهّن بردّة فعله. هذا الهولنديّ اللوثريّ، الذي يُعامل النساء على متن السفينة وكأنّهنَّ

موبوءات. لا شكّ سيشتاط غيظاً إذا علم بوجود واحدة أخرى مختبئة وللطامّة الكبرى حبلى ومُحتَضَرة. ما العقوبة التي سيخبّئها له؟ لا، لا يستطيع الاعتراف بذلك لأحد. الخيار الوحيد هو انتظار أن تنفق إليثا، إذا كان هذا هو *كَرْمها*، ثم يلقي بجثمانها في البحر مع قمامة المطبخ. أكثر ما يمكنه أن يفعل لأجلها هو مساعدتها على الموت بكرامة.

كان في طريقه للخروج حين لمح على الجلد حضوراً غريباً. رفع الفانوس خائفاً فرأى بجلاءٍ كاملٍ لين في دائرة النور المرتعش تراقبُهُ عن مسافة قصيرةٍ بتعبير وجهها شبه الشفاف، الساخر، الذي شَكّل جُلّ سحرها. لقد ارتدت فستانها الحريريّ الأخضر المطرّز بخيوط ذهبية، الثوب الذي كانت ترتديه للمناسبات الكبرى، وجمعت شعرها في كعكتها البسيطة تسنده بدبابيس العاج وعود الصليب الطري فوق أذنيها. هكذا كان قد رآها آخر مرّة حين ألبستها الجارات قبل الحفل الجنائزي. كان ظهور زوجته في العنبر من الحقيقة بحيث شعر بالذعر. فالأرواح مهما كانت طيّبة في حياتها تتصرّف عادةً بوحشية مع الفانين. حاول الهرب باتجاه الباب، لكنّها قطعت عليه الطريق. سقط تاو شيين على ركبتيه مرتعِداً، دون أن يُفلت الفانوس، دليله الوحيد على الواقع. حاول صلاةً تُفزِعُ الشياطين في حالِ أنّها اتخذت شكلَ لين لإرباكه، لكنه لم يستطع تذكّر كلماتها ولم تخرج من شفتيه غير آهة حبٍّ طويلة وحنين للماضي. عندئذٍ انحنت لين فوقه بنعومتها التي لا تُنسى وهي من القرب بحيث أنّه لو تجرّأ لقبّلها، وهمست أنّها لم تأت من كلّ ذلك البعد لتخيفه بل لتذكّره بواجباته كطبيبٍ نزيه. هي أيضاً أوشكت أن تذهب في الدم مثل هذه الفتاة بعد أن ولَدت ابنتها، واستطاع في تلك المناسبة إنقاذها، فلماذا لا يفعل الشيء ذاته من أجل تلك الشابّة؟ ما به حبيبها تاو؟ تراه أضاع قلبه الطيّبَ وتحوّل إلى صرصور؟ الموت المبكّر ليس *كَرما* إليثا، أكّدت له، إنّ امرأة مستعدّة لاجتياز العالم مدفونة في ثقب كابوسٍ لِتَعْثرَ على زوجها عندها كِيّ كثير.

ـ عليك مساعدتها، يا تاو، لن تنعم بالسلام أبداً إذا ماتت دون أن ترى حبيبها، وسيلاحِقُك طيفُها للأبد ـ حذّرته لين قبل أن تتبخّر.

ـ انتظري ـ توسَّلَ الرجلُ مادّاً يداً للإمساك بها، لكنّ أصابعه انغلقت في الفراغ.

بقي تاو شيين مطروحاً على الأرض برهةً طويلةً، محاولاً استعادةَ وعيه، إلى أن توقّف قلبُهُ المخبولُ عن الطرقِ وتلاشى عبيرُ لين الخفيف في العنبر: لا تذهبي، لا تذهبي، كرَّرَ ألف مرّة وقد غلبه الحبّ. استطاع أخيراً أن ينهضَ على قدميه ويَفتَحَ الباب وخارجاً إلى الهواء الطلق.

كانت ليلةً فاترةً، المحيط الهادي يتلألأ كالفضّة تحت أشعّة القمر ونسمة خفيفة تنفخ شراعَي *إميليا* القديمين. انسحبَ كثيرٌ من الركاب أو راحوا يلعبون الورق في قمراتهم وآخرون علّقوا شباكَ نومهم ليقضوا ليلهم بين فوضى الآلات وعدد الخيول والصناديق التي تملأ السطحَ، وغيرهم يتسلّون في مؤخّرة السفينة يتأملون الدلافين اللعوبة في أثر المخور المزبد. رفع تاو شيين عينيه إلى قبّة السماء الشاسعة شاكراً. إنّها المرّة الأولى التي تزوره فيها لين دون خوف. لمحها قريبةً منه في عدّة مناسبات، قبل أن يبدأ حياته كبحارٍ، خاصّة حين كان يغرق في تأمّلٍ عميق، لكن كان من السهل آنذاك الخلط بين حضور روحها الهفهاف وبين حنينه كأرمل. فقد اعتادت أن تمرّ بجانبه تلمسه بأصابعها الرقيقة، لكنّه يبقى في حالة شكّ تراها هي فعلاً أم أنّها من خلق روحه المعذّبة. لكن في العنبر لم يَنْتَبْهُ الشك قبل دقائق: ظهر له وجه لين في غاية الإشعاع والدقة كهذا القمر فوق البحر. شعر بنفسه مُرافَقاً وسعيداً كما في الليالي البعيدة حين كانت تنامُ متقوقعة بين ذراعيه بعد ممارسة الحبّ.

توجّه تاو شيين إلى مهجع البحّارة، حيث يملك سريراً خشبياً، فردياً وضيقاً، بعيداً عن التهوية الوحيدة التي تتسرَّبُ من الباب. كان من المحال النوم في الجو المشبع بروائح الرجال الكريهة، لكنّه لم

يضطر لذلك منذ خرج من بالبارايسو لأنّ الصيف يسمحُ بالاستلقاء على أرض سطح السفينة. بحث عن صندوقه، الذي سمّره بالأرضية لحفظه من لطم الأمواج، نزع المفتاح من عنقه، فتح القفل وأخرج حقيبته ومرطباناً من صبغة الأفيون. ثم استخلص حصتين من الماء العذب وبحث عن بعض الخرق في المطبخ ستفيده في شيء أفضل.

كان في طريقه إلى العنبر حين اعترضته يدٌ فوق ذراعه. التفت مباغَتاً فرأى واحدةً من التشيليّات خرجت لإغواء الزبائن متحدّيةً أمر القبطان الجازم بالانحباس بعد غروب الشمس. عرفها على الفور. من بين جميع النساء اللواتي كنَّ على متن السفينة أثوثِنا بلاثِرِس هي الأكثر ملاحة وجرأةً، الوحيدة التي أبدت في الأيّام الأولى استعداداً لمساعدة الركّاب المصابين بالدوار، كما اعتنت باهتمام ببحارٍ شاب سقط عن السارية وكُسِر ساعِدُهُ؛ فنالت استحسان القبطان الصارم كاتز، الذي تغاضى منذ تلك اللحظة عن عدم تقيّدها بالنظام. قدّمت خدماتها كممرضة مجاناً، لكن من تجرّأ ووضع يده على لحمها المتماسك اضطرّ أن يدفع لها عداً ونقداً، لأنّه يجب ألا يُخلط بين القلب الطيّب والبلاهة كما كانت تقول. هذا هو رأسمالي الوحيد وإذا لم أعتنِ به ضعتُ، كانت توضِّح، وهي تربت بفرح على وركيها. توجّهت أثوثِنا بلاثِرِسْ إليه بأربع كلماتٍ مفهومة في أيةِ لغةٍ: شوكولا، قهوة، تبغ، براندي. ووضّحت له بإيماءاتها الجريئة رغبتها لمقايضة معروفها بأيٍّ من تلك الرفاهيات، لكنَّ *الزهونغ يي* تملّص منها بدفعةٍ منه وتابع طريقه.

قضى تاو شيين جزءاً مهمّاً من الليل بجانب إليثا المحمومة. واشتغل في ذلك الجسد المضنى بأدوات حقيبته المحدودة وتجربته الطويلة ورقّةٍ متردِّدة حتى لفظت مخاطاً دامياً. تفحّصه تاو شيين على ضوء الفانوس فاستطاع أن يُحدّد دون شك أنّ الأمر يتعلّقُ بجنين عمره عدّة أسابيع وكان مكتملاً. ولكي ينظِّفَ بطنَ الشابّةِ بعمق وضع إبره في ذراعيها وقدميها مسبّباً تشنجات قويّة. وحين

تأكّدَ من النتائج تنهَّد مرتاحاً: لم يبق عليه إلا أن يطلب من لين التدخل لتجنّب حدوث الالتهابات. مثّلت إليثا بالنسبة إليه حتى تلك اللحظة صفقة تجارية وطوق اللؤلؤ في عمق صندوقه برهان على ذلك، إنّها مجرّد فتاة مجهولة، ظنّ أنّه لا يشعر تجاهها بأي مصلحة شخصيّة، *فان غوي* كبيرة القدمين ولها طبيعة محنّكة كلّفها الحصول على زوج كثيراً، وهي لم تبدِ أيَّ استعداد لإسعاد أو خدمة الرجل، هذا ما كان يتبدّى واضحاً. الآن وقد أجهضت لن تستطيع الزواج أبداً، ولا حتى حبيبها، الذي هجرها مرّةً على كل حال، سيرغبُ بها زوجةً، في حال عثرت عليه ذات يوم. قَبلَ أن إليثا لم تكن قبيحة تماماً مع أنّها أجنبيّة، فهي على الأقل تُملك ملمحاً شرقيّاً خفيفاً في عينيها الطولانيتين وشعراً طويلاً، أسود وبرّاقاً مثل ذيل جواد إمبراطوريّ مزدهٍ. ربما ما كان ليقترب منها لو أنَّ لها شعراً شيطانيّاً أصفر أو أحمر مثل الكثيرات اللواتي رآهنّ منذ خروجه من الصين. لكن لا مظهرها الحسن ولا ثبات مزاجها سيساعدانها، قَدَرُها مرسوم ولا أمل لها: ستنتهي لتصبح عاهرةً في كاليفورنيا، إذ تردَّد على الكثيرات من هذه النسوة في كانتون وهونغ كونغ وهو مدين بقسم كبيرٍ من معرفته الطبيّة إلى سنوات الممارسة التي طبّقها على أجسادِ تلك الشقيات اللواتي دمّرهنّ الضرب والمرضُ والمخدِّراتُ. فكّر مرّاتٍ عدّةً في تلك الليلة الطويلة ما إذا لم يكن من الأنبل له أن يتركها تموت، على الرغم من تعليمات لين، وبذلك ينقذها من مصير مريع، لكنّها دفعت له مُقدَّماً، قال لنفسه، وعليه أن ينفّذَ العقدَ. لا، لم يكن هذا هو السببُ الوحيدُ، فهو منذ البداية طرح على نفسه دوافعه الخاصّة لحمل تلك الفتاة تهريباً في السفينة. كان الخطر كبيراً ولم يكن واثقاً من أنّه ارتكب تَهوّراً بهذا الحجم فقط مقابل قيمة اللؤلؤ. شيءٌ ما في عزم إليثا الشجاع حرّك مشاعره، شيء ما في هشاشة جسدها والحبّ المقدام الذي تمارسه من أجل حبيبها يُذكّرُه بلين...

أخيراً توقّف النزف عند إليثا مع الفجر. كانت تطير من الحمّى

وترتعد على الرغم من الحرّ الخانق في العنبر، لكنّ نبضها صار أفضل وتتنفّس مرتاحةً في نومها، ومع ذلك لم تكن خارج الخطر. ودَّ تاو شيين لو يبقى هناك لمراقبتها، لكنّه قدّر أنّه لم يبق للفجر إلا القليل وسرعان ما سيُقرَعُ الجرس مُعلناً نوبته في العمل. تجرجر منهكاً إلى السطح، ترك نفسه يسقط على وجهه فوق ألواح الأرض ونام مثل طفلٍ صغير إلى أن أيقظته رفسةٌ ودّيَة من بحّارٍ آخر تذكّرُه بواجباته. غطّس رأسه في سطلٍ من ماء البحر لينتعش، انطلق، وهو ما يزال دائخاً، ليطهو حساء الشوفان الذي شكّلَ وجبةَ الإفطار على متن السفينة، وأكله الجميع دون تعليق، بمن فيهم القبطان المتعجرف، إلاّ التشيليين الذي احتجوا بصوت واحد، على الرغم من أنّهم الأفضل حالاً لأنّهم آخر من ركب. البقيّة أتوا على مؤونتهم من الدخان والكحول وأطايبهم خلال أشهر الإبحار، التي تحمّلوها قبل وصولهم إلى بالبارايسو. كان قد دبّ الصوتُ بأنّ بعض التشيليين أرستقراطيون ولذلك لا يُتقِنون غسل سراويلهم الداخلية أو غلي الماء للشاي. أمّا الذين سافروا في الدرجة الأولى فحملوا معهم خدمهم إذ فكّروا باستخدامهم في مناجِم الذهب. لم يهضموا فكرة أن يوسّخوا أيديهم شخصياً. بينما فضّل آخرون أن يدفعوا للبحارة للعناية بهم، لأنّ النساء رفضن جَميعاً القيام بذلك، فهنّ يستطعن أن يكسبن عشرة أضعاف هذا باستقبالهن لهم لمدّة عشرة دقائق في حميميّة قمراتهنّ، لم يكن هناك من داعٍ كي يغسلن لهم ملابسهم. سخر البحارةُ وبقيّةُ الركاب من أبناء الذوات المُدلَّلين أولئك، إلاّ إنهّم لم يفعلوا هذا مواجهةً قط. كان التشيليون حسني الآداب، يبدون وجلين ويظهرون لطفاً وفروسيّةً كبيرين، ومع ذلك تكفي شرارة واحدة كي تُشعل كبرياءهم. حاول تاو شيين ألاّ يزجَّ نفسه بينهم. لم يُخفِ أولئك الرجالُ ازدراءهم له ولمسافرين زنجيَّيْنِ ركبا في البرازيل، ودفعا ثمنَ البطاقة كاملةً ومع ذلك فهما الوحيدان اللذان لم يُخَصّا بقمرة أو يخوّلا بالجلوس إلى مائدة الآخرين. كان يُفضِّلُ التشيليّات الخمس المتواضعات بجِسّهنَّ العملي المتين ونزعة الأمومة التي تتدفق منهن في لحظات الضرورة.

أنجز عمل يومه مثل مروبصٍ وعقله عند إليثا، دون أن يملك لحظة فراغ واحدة لرؤيتها إلا ليلاً. استطاع البحارةُ اصطياد سمكة قرشٍ هائلةً عند الضحى، احتُضِرت على السطح خابطةً بذيلها خبطاً رهيباً، دون أن يتجرّأ أحد على الاقتراب منها للإجهاز عليها ضرباً بالهراوة. وقع على عاتِق تاو شيين بصفته طبّاخاً أمرُ مراقبة سلخها وتقطيعها، طهي قسمٍ منها وتمليح الباقي، بينما غسل البحارةُ بالفراشي سطحَ السفينة من الدم واحتفلَ المسافرون بالمشهد المريع بآخر زجاجات الشمبانيا، مُستبِقين حفلَ العشاء. احتفظ تاو بالقلب لحساء إليثا وبالزعانفِ لتجفيفها، لأنّها تُساوي مبالغ طائلة في سوق الأفروديتيات. وكلّما مرّت ساعات انشغاله بسمكة القرش كلّما تصوّر إليثا ميتة في قاع السفينة. شعر بسعادة مرعِشة حين استطاع الهبوط والتأكّد من أنّها ما زالَتْ حيّةً وتبدو أحسنَ حالاً. انقطعَ النزيف، فرغَ إبريقُ الماءِ، كلُّ شيء دلَّ على أنّها مرّت بلحظات صفاء خلال ذلك اليوم الطويل. شكرَ لينٍ باقتضاب على مساعدَتِها. فتحت الفتاةُ عينيها بصعوبة، لقد جفّت شفتاها واحمرّ وجهها من الحمّى. ساعدَها على النهوض وأعطاها مغليّ تانكوي قويّاً كي تستعيد دمها. حين تأكّد من أنّها احتفظت به في معدتها أعطاها عدّة رشفاتٍ من الحليب الطازج، شربتها بنهم. أعلنت مشجّعةً أنّها تشعر بجوعٍ وطلبت مزيداً من الحليب. صارت البقرات المحمولة على متن السفينة والتي لم تعتَد على الإبحار مجرّدَ عظام، لا تعطي إلا القليل من الحليب. تشاوروا بذبحها. كانت فكرةُ شرب الحليب تبدو لتاو شيين مقرفة، لكنَّ صديقَه إبانيزر هوبّز نبّهه إلى خصائصه في تعويض الدم المفقود. قرَّرَ أنّه إذا كان هوبّز قد استخدمه كحميةٍ للجرحى الخطرين فلا بدّ أن يكون له التأثير ذاته في هذه الحالة.

ـ هل سأموت، يا تاو؟

ـ حتى الآن لا ـ ابتسم مُداعباً رأسها.

ـ كم بقي علينا للوصول إلى كاليفورنيا؟

ـ كثير. لا تفكّري في هذا. عليك الآن أن تبولي.

ـ لا، من فضلك ـ دافعت هي عن نفسها.

ـ كيف لا؟ عليك أن تفعلي!

ـ أمامك؟

ـ أنا زهونغ يي. لا يمكنك أن تخجلي منّي. لقد رأيت كلّ ما يجب أن يُرى في جسدك.

ـ لاأستطيع حراكاً، لا أستطيع تحمّل الرحلة. أفضّل موتي، ياتاو... ـ أجهشت إليثا وهي تستندُ إليه لتجلس إلى المبولة.

ـ تشجّعي، يا صغيرة. تقول لين إن عندك الكثير من *الكِيْ* ولم تقطعي كلّ هذه المسافة لتموتي في منتصف الطريق.

ـ من؟

ـ لا همّ.

أدرك تاو في تلك الليلة أنّه لا يستطيع العناية بها وحده ويحتاج إلى مساعدة. ما أن خرجت النسوة في اليوم التالي من حجرتهنّ وتوضّعن على السطح كما هي الحال دائماً ليغسلن الملابسَ ويجدلن الشعرَ ويخطن ريشَ وخرزَ ملابس مهنتهنَّ، حتى أشار إلى أثوثِنا بلاثِرِس كي يكلّمها. ما من واحدةٍ منهنَّ استخدمت خلال الرحلة زيّ المومس، بل لبسن تنّورات ثقيلةً داكنة اللون وقمصاناً دون زينة، وانتعلن الشبشبَ وتدثَّرن في المساءات بمعاطفهنَّ وسرّحن جديلتين على الظهر دون أن يستخدمن المكياجَ. بَدَوْنَ نساء ريفيّات بسيطاتٍ منهمكات في الأعمال المنزليّة. غمزت التشيلية رفيقاتها غمزةَ تواطؤٍ وتبعته إلى المطبخ. أعطاها تاو شيين قطعة شوكولا كبيرة، مسروقة من احتياطيّ مائدة القبطان وحاولَ أن يشرحَ لها مشكلته، لكنّها لم تكن تفهمُ شيئاً من الإنكليزيّةِ، فبدأ يفقدُ صبرَهُ. شمّت أثوثِنا بلاثِرِس قطعة الشوكولا فأضاءت ابتسامةٌ طفوليّة وجهَهَا الدائريّ، الذي لهنديّة حمراء. أخذت يدَ الطبّاخ ووضعتها على نهدِها مشيرةً إلى حجرة النساء الخالية في تلك الساعة، لكنّه سحب يدَه وأخذَ يدَها وقادها إلى الباب القلاّب المؤدي إلى العنبر. دافعت أثوثِنا بين المستغربة والفضولية عن نفسها بشكلٍ خفيف، لكنّه لم يمنحها

فرصةَ الرفض وفَتَحَ البابَ القلاّبَ ودفعها عبر السلّم وهو يبتسم دائماً لطمأنتها. بقيا للحظات في الظلمة حتى عثر على الفانوس المعلّق إلى إحدى العوارض واستطاع إشعاله بينما أثوثِنا تضحك، لقد فهم هذه الصينيُّ الغريب أخيراً مصطلحات التعامل. لم تُمارِس مع آسيويّ قط فتملّكها الفضول كي ترى إذا كانت عدّته مثل عدّة بقيّة الرجال، لكنّ الطبّاخ لم يقم بما يوحي باستغلال العزلة وقادها من ذراعها شاقّاً طريقه في تلك المتاهة من الطرود. خافت أن يكون الرجل قد فقد صوابه فراحت تشدّ يدها لتتخلّص منه، لكنّه لم يفلتها وأجبرها على التقدّم حتى أضاء الفانوس الجحر الذي تجثو فيه إليثا.

ـ يا يسوع ومريم ويوسف! ـ هتفت أثوثِنا راسمة إشارة الصليب، مذعورة لرؤيتها.

ـ قولي لها أن تساعدَنا ـ طلب تاو شيين من إليثا بالإنكليزيّة وهو يهزّها مشجِّعاً.

تأخرت إليثا ربع ساعة وأكثر في ترجمة تعليمات تاو شيين الذي أخرج مشبك الفيروز من كيس المجوهرات الصغير وحرّكه أمام عيني أثوثِنا المرتعِشة. الاتفاق ينطوي على نزولها مرّتين في النهار لغسل إليثا وإطعامِها، دون أن يعلم أحد. إذا وفّت صار المشبك لها في سان فرانسيسكو، لكنّها إذا قالت كلمةً واحدة لأحدٍ سيذبحها. وسحب السكين من خصره ومرّرها أمام أنفها بينما رفع المشبك في اليد الأخرى بطريقة وضّحت الرسالةَ تماماً.

ـ هل تفهمين؟

ـ قولي لهذا الصينيّ البائس فهمتُ وليخبِّئ هذه السكين، لأنّه بغفلة بسيطة سيقتلني دون أن يقصد.

تخبّطت إليثا خلال زمن بدا لا متناهياً في هذيان الحمّى، يرعاها تاو شيين ليلاً وأثوثِنا بلاثِرِس نهاراً. كانت المرأة تستغلّ

ساعةَ الصباح الأولى وساعة القيلولة حيث الغالبية تغفو كي تنسلّ بحذرٍ إلى المطبخ، لتستلم المفتاحَ من تاو. كانت في البداية تهبط ميتة خوفاً، لكن سرعان ما انتصرت جِبلّتها الطبيعية الطيِّبة والمشبك على الخوف. بدأت بفرك إليثا بخرقة عليها صابون لتزيل عرق الاحتضار، ثمّ أجبرتها على تناول عصيدة الحليب والشوفان ومرق الدجاج مع الأرزّ المدعم *بالتانكوي* الذي يعدّه تاو شيين، تُعطيها الأعشاب حسب تعليماته تماماً، بمبادرة منها أعطتها يوميّا فنجان مغلي *البورّاخا*. فهي تثق بهذا العلاج بشكلٍ أعمى لتنظيف البطن من الحمل. *فالبورّاخا* وصورة لعذراء الكارمن هما أوّل شيء وضعته مع زميلات المغامرة في صناديق سفرهما، إذ يمكن أن يكون التجوال في طرق كاليفورنيا دون تلك الحماية شاقّاً جدّاً. بقيت المريضة ضائعة في فضاءات الموت حتى رسوا ذات صباح في ميناء غواياكيل، الذي لم يكن تقريباً أكثر من بيت ريفي كبير ابتلعته النباتات الاستوائية، لاتتوقف فيه إلا بعض السفن القليلة للتجارة بالثمار الاستوائية أو القهوة، لكنّ القبطان كاتز وعد بتسليم بعض الرسائل لأسرة من المبشرين الهولنديين. كانت هذه المراسلة في حوزته منذ ستّة أشهر، ولم يكن رجلاً قادراً على التملّص من التزامه.
في الليلة السابقة تصّببت إليثا وسط حرٍّ جهنّمي عرقَ حمّاها حتى آخر قطرةٍ ونامت وهي ترى نفسها في حلمها تتسلّق حافية منحدراً متأجّجاً لبركان في حالة ثورة، استيقظت مخضّلةً، لكنّها مشرقةً طريّةَ الجبين. جميع الركاب بمن فيهم النساء وقسم كبير من البحّارة نزلوا ليحرّكوا سيقانهم ويستحموا في النهر ويشبعوا فاكهةً؛ لكنّ تاو شيين بقي على متن السفينة ليدرب إليثا على إشعال وتدخين الغليون الذي يحمله في صندوقه. كان متردِّداً في الطريقة التي يتعامل فيها مع الفتاة، وتلك واحدة من المناسبات التي يستطيع أن يضحّي فيها بأي شيء مقابل نصائح معلِّمه الحكيم. كان يدرك ضرورة الحفاظ عليها هادئة ليساعدها على قضاء زمن الحبس في العنبر، لكنّها فقدت الكثيرَ من دمها ويخاف أن يُفسِد المخدّرُ ما

تبقى عندها منه. اتخذَ قرارَه متردِّداً بعد أن توسَّلَ لين رعايةَ حلم إليثا عن قرب.

ـ أفيون. سيجعلُكِ تنامين. هكذا سيمضي الوقت سريعاً.

ـ أفيون؟ هذا يسبِّبُ الجنون!

ـ أنت مجنونة في كلِّ الأحوال، ليس عندك الكثير لتفقديه ـ ابتسم تاو.

ـ تريدُ قتلي أليس صحيحاً؟

ـ صحيح. لم أستطع ذلك وأنتِ تنزفين والآن أحاوله بالأفيون.

ـ آهٍ، يا تاو، يخيفني...

ـ الكثير من الأفيون ضارّ. القليل منه عزاء وسأعطيك منه قليلاً جدّاً.

لم تعرف الشّابة كثيره من قليله، يسقيها تاو شرابه الطبيّ ـ *عظام تنين وصدف المحار* ـ ويقدِّم لها معياراً من الأفيون ليمنحها ساعة قليلةً من رحمة الإغفاء، دون أن يسمح لها بالضياع تماماً في جنّةٍ لا عودة منها. قضت الأسابيع التالية محلّقة في مجرّاتٍ أخرى، بعيداً عن الجحر غير الصحيّ الذي يجثو فيه جسدُها مطروحاً، فلا تستيقظ إلا عندما يهبطان لإطعامها وغسلها وإجبارها على السير عدّة خطوات في العنبر. ما عادت تشعر بعذاب القمل والبراغيث ولا بالرائحة المسبِّبة للغثيان التي لم تستطِعْ تحمّلها سابقاً، لأن المخدِّر شوّشَ حاسّة شمِّها العجيبة. تدخل وتخرجُ من أحلامها دون أيِّ تحكّم، كما لم يكن باستطاعتها تذكّرها، لكنّ تاو شيين كان على حقّ فالوقتُ مضى سريعاً. لم تفهم أثوثِنا بلاثِرس لماذا تسافِر إليثا في مثل تلك الظروف. ما من واحدةٍ منهنَّ دفعت ثمن تذكرتها. ركبن بوساطة عقدٍ وقّعنه مع القبطان، الذي سيحصل على قيمته حين يصلون إلى سان فرانسيسكو.

ـ إذا كانت الشائعات صحيحة باستطاعتك أن تضعي خمسمئة

دولار في جيبك يوميّاً. فالمعدّنون يدفعون ذهباً خالِصاً. مضى عليهم أشهر لم يروا فيها امرأة، وهم متلهّفون. تكلّمي مع القبطان وادفعي له حين تصلين ـ كانت تُلح في اللحظات التي تنهض فيها إليثا.

ـ لستُ واحِدة منكنّ ـ ردّت إليثا مرتعدة وسط ضباب الأفيون العذب.

أخيراً استطاعت أثوثِنا بلاثِرِس في لحظة إشراقٍ أن تجعل إليثا تحكي لها جزءاً من قصّتها. وسرعان ما تمكّنت فكرة العاشقة الهاربة من خيال المرأة، وبدأت منذ تلك اللحظة تعتني بالمريضة باهتمام أكبر. لم تعد تفي بعقد تغذيتها وغسلها وحسب بل راحت تبقى بجانبِها حبّاً برؤيتها تنام. مستيقظةً تحكي لها قصّةَ حياتها وتعلّمها صلاة السبحةِ التي حسب قولها كانت أفضل طريقة لقضاء الساعات دون تفكير والفوز بالسماء في آنٍ معاً دون جهدٍ كبير. بالنسبة لواحدة لها مهنتها هذه وسيلة ولا أفضل منها. كانت توفّر بصرامةٍ جزءاً من دخلها لشراء رحمة الكنيسة، مقلّصة بذلك أيّام المطْهر التي عليها أن تقضيها في الحياة الأخرى، على الرغم من أنّها قياساً بحساباتها لن تصبح قط كافية لتغطية كلّ خطاياها. مرّت أسابيع لم تعرف فيها إليثا الليل من النهار، لديها إحساس غامض بوجود كائنٍ أنثوي بجانبها، لكنّها تنامُ وتستيقظ بعد ذلك مشوّشةً دون أن تدري ما إذا رأت في حلمها أثوثِنا بلاثِرِس، أم أنّه توجَدُ حقيقةً امرأة بضفيرتين سوداوين وأنفٍ أفطس ووجنتين بارزتين تبدو نسخةً شابّة عن ماما فرِسيا.

برد الطقس قليلاً حين خلّفوا وراءهم بنما، التي منع القبطان نزول أحدٍ إليها خوفاً من عدوى الهواء الأصفر، مكتفياً بإرسال بحارَيْن أو أكثر في زورق بحثاً عن ماء عذب، فقد فسد ما تبقّى عندهم منه. اجتازوا المكسيك وحين راحت *إميليا* تبحر في مياه

شمال كاليفورنيا دخل الشتاء. اختناق القسم الأول من الرحلة تحوّل إلى بردٍ ورطوبة. أخرجت من الحقائب قبّعات جلدية وقفّازات وأحزمة صوفية؛ ومن حين لآخر تمر سفينتهم ذات الشراعين بسفنٍ أخرى فيتبادلون التحية من بعيد. كان القبطانُ في كلّ قدّاس ديني يشكرُ السماءَ على الرياح المواتية لأنّه سمع عن سفن انحرفت حتى شواطئ هاواي أو أبعد بحثاً عن ريح تدفعها. انضمّت إلى الدلافين اللعوبة حيتانٌ وقورة رافقتهم مسافة جيّدة. في المساء حين تصطبغ المياه بحمرة أشعة الغروب المنعكسة تتحابب الحيتان في فوران من الزبد الذّهبي، يستدعي بعضُها بعضاً بجئير عميقٍ تحت الماء، وتقترب أحيانا في صمت الليل من السفينة إلى حدّ أنه بالإمكان سماع صخب حضورها الثقيل والغامِض. كانت المؤن الطازجة قد نفدت والجافّة ندرت وما من تسلية غير اللعب بالورق والصيد. الركّاب يقضون ساعات يناقشون تفاصيل الجمعيات التي شُكِّلت للمغامرة، بعضها ذات قواعد عسكرية صارمة بل ولباسٍ موحّدٍ أيضاً وأخرى أقلّ تشدّداً. جميعها قامت أساساً على الانضمام لتمويل الرحلة والعدّة وعَمَل المناجم ونقل الذهب ثم توزيع الأرباح بالتساوي، وهم لايعرفون عن الأرض والمسافات شيئاً. اشترطت إحدى الشركات على الأعضاء العودةَ كلَّ ليلةٍ إلى السفينة، التي يفكّرون بالنوم فيها لأشهر وإيداع الذهب في صندوقٍ حديديّ. فوضّح لهم القبطان كاتز أنّ *إميليا* لا تؤجّر كفندقٍ لأنّه يفكّر بالعودة إلى أوروبا بأسرع وقتٍ ممكن، ثمّ إنّ المناجم تبعد مئات الأميال عن الميناء، لكنّهم تجاهلوه. كان قد مضى على سفرهم اثنان وخمسون يوماً وروتين الماء اللامتناهي يوتّر أعصابهم والمشاجرات تنشب لأدنى الحجج. حين أوشك أحد الركاب التشيليين على تفريغ بندقيته في بحار يانكي كانت أثوثِنا بلاثِرِس تتدلل معه أكثر من اللازم، صادر القبطان كاتز الأسلحَةَ بما فيها موسى الحلاقة واعداً بإعادتها على مشارف سان فرانسيسكو. الوحيد المخوّل باستخدام السكاكين هو الطبّاخ الذي تقع على عاتقه المهمّة القاسية لذبح

الحيوانات المنزلية واحداً فواحداً. وحين ذهبت آخر بقرة لتستقرّ في القدر ارتجل تاو شيين احتفالاً مصطنعاً للحصول على عفوِ الحيوانات المذبوحة والتخلص من الدم المسفوك، ثم عقَّم السكين بتمريره عدّة مرات على نار مِشعَل.

ما أن ما دخلت السفينة في مياه كاليفورنيا حتى أوقفَ تاو الأعشاب المسكّنة والأفيون عن إليثا فجأة، وشرع بتغذيتها وأجبرها على ممارسة التمارين الرياضيةِ كي تستطيع الخروج من حبسها على قدميها. كانت أثوثِنا بلاثِرس تصبّنها بل وابتدعت طريقة لتغسل لها شعرها بطاسة صغيرة من الماء، وهي تحكي لها عن حياتها الحزينة كمومس، عن وهمها السعيد بالثراء في كاليفورنيا والعودة إلى تشيلي سيّدةً تحمل معها ستّة صناديق من ثياب الملكات وسنّاً ذهبياً. تردّد تاو شيين في الطريقة التي سيُنزِلُ بها إليثا، لكنّه إذا كان قد استطاع إدخالها في كيسٍ فإنّ باستطاعته استخدامِ الطريقة ذاتها، وما أن تصبح على اليابسة حتى لا يعود مسؤولاً عنها. شكلت له فكرةُ التخلّص منها نهائيّاً خليطاً من الراحة الرهيبة واللهفة غير المفهومة.

حين لم يبق إلا فراسخ قليلة للوصول إلى وجهتها، دارت *إميليا* حول شاطئ كاليفورنيا الشمالي التي كانت حسب أثوثِنا بلاثِرسْ شبيهة جدّاً بتشيلي، ورأت أنّهم ساروا دون شكّ مثل حبار البحر على شكل دوائر وعادوا مرّةً أخرى إلى بالباراييسو. آلاف من ذئاب البحر والفقمات راحت تنسلخ عن الصخور وتسقط ثقيلةً في الماء وسط زعيق النوارس الخانق والبجع. لم تُلمح روح واحدة على الجروف ولا أثرٌ لقرية أو ظلّ لهنودٍ حمرٍ يسكنون، حسب ما يقولون، تلك المناطق المسحورة منذ قرونٍ. أخيراً اقتربوا من الجروف التي تبشِرُ باقترابهم من لا بوِرْتا دِ أورو، غولدِنْ غات الشهير، عتبة خليج سان فرانسيسكو. ضباب كثيف لفّ السفينةَ مثل معطف فلا يرى شيء عن بعد متر. أمر القبطان بإيقاف المسير وإلقاء المرساة خشية التشظّي.

كانوا قريبين جدّاً وتحوّل نفاد صبر المسافرين إلى صخب. الجميع يتكلّمون في الوقت ذاته، جاهزين لوطء اليابسة والانطلاق مثل السهم إلى متعة البحث عن الكنز. معظم شركات استثمار المناجم انحلّت في الأيام الأخيرة، فسأم الإبحار خلق أعداءً بين من شركاء الأمس. كل رجلٍ صار يتصور نفسه غارقاً في هدف ثرائه الهائل. لم يخلُ الأمر من وجود من صرّح بالحب للمومسات وأبدى استعداده للطلب من القبطان تزويجَه قبل النزول لأنّه سمعَ بأنّ أندر شيء في تلك البلاد هنّ النساء. قبلت واحدة بيروية اقتراح فرنسيٍّ مضى عليه من الوقت في البحر بحيث أنّه لم يعد يذكر اسمه، لكنّ القبطان فنسِنت كاتز رفض القيام بتزويجهما حين سمع أن للرجل زوجة وأربعة أولاد في *أفينيون*. الأخريات رفضن تماماً طالبي ودّهنّ، فهنّ قطعن كلّ تلك الرحلة الشاقّة ليصبحن حرّات وثريات، قلن، وليس كي يتحولن إلى عبدات لأوّل فقير بائس يقترح عليهنّ الزواج.

راح حماس الرجال يهدأ مع مرور الساعات دون حراك، غارقين في لاواقع الضباب الحليبيّ . أخيراً انقشع الضباب في اليوم التالي فجأة واستطاعوا أن يرفعوا المرساة وينطلقوا بالأشرعة نحو المرحلة الأخيرة من الرحلة. خرجَ الركاب والبحارة إلى السطح ليتأملوا فتحة غولدن غات الضيقة على مسافة ستة أميال إبحاراً مدفوعين بريح نيسان، تحت سماء صافية. ارتفعت على كلا الجانبين هضابٌ ساحلية متوّجة بالغابات التي حزّتها الأمواج الدائمة مثل جرح. خلّفوا وراءهم المحيط الهادي وأمامهم انتشر الخليج الزاهي مثل بحيرة من ماء الفضّة. حيّت صيحةٌ نهايةَ العبور الشاق وبدايةَ مغامرة الذهب لهؤلاء الرجال والنساء وكذلك للبحارة العشرين الذين قرّروا في تلك اللحظة مغادرة السفينة، وتركها لمصيرها لينطلقوا بدورهم إلى المناجم. الوحيدان اللذان لم يتأثرا هما القبطان الهولندي فنسنت كاتز، الذي بقي في مكانه بجانب الدفّةِ دون أن يظهر أدنى حماس لأنّ الذهب لا يثيره، فهو فقط يرغب

بالعودة إلى أمستردام في الوقت المناسب ليقضي عيد رأس السنة مع أسرته، وإليثا سومّرز في بطن السفينة، التي لم تعرف بوصولها إلا بعد ساعات كثيرة.

أوّل شيء أدهش تاو شيين حين دخل في الخليج هي غابة السواري على اليمين. كان من المحال عدّها، لكنّه قدّرها بأكثر من مئة سفينة مهجورة في فوضى معركة، فأيّ عاملٍ عاديّ على اليابسة يكسب في يومٍ واحدٍ أكثر من بحارٍ في شهر، والرجال لم يكونوا يهربون من أجل الذهب فقط بل من أجل كسب المال في تحميل الأكياس وخبز الخبز أو صنع الأدوات الحديديّة أيضاً. بعض السفن كانت تُستأجر كعنابر أو كفنادق مرتجَلة وأخرى تتآكل تعلوها طحالِب البحر وأعشاش النوارس. نظرة ثانية كشفت لتاو شيين المدينة المنتشرة مثل مروحة على جوانب الهضاب. فوضى من الخيام وأكواخ الخشب والكرتون وبعض الأبنية البسيطة، لكن حسنة البناء، هي الأولى في تلك البلدة الناهضة. استقبلوا، بعد أن ألقوا المرساة، أولَ زورقٍ ولم يكن لقيادة الميناء كما افترضوا، بل لتشيليٍّ مستعجلٍ للترحيب ببنات بلده وأخذ البريد. إنّه فِليثيانو رودريغِثْ د سانتا كروث، الذي بدّل اسمه الرنان باسم فِليكس كروس، كي يستطيع اليانكيون لفظه. وعلى الرغم من أنّ عدداً من المسافرين كانوا أصدقاء شخصيين له فإنّ أحداً منهم لم يعرفه، إذ لم يبق شيء من الغندور ذي السترة الطويلة والشوارب المقساة الذي رأوه لآخر مرّةٍ في بالبارايسو، وظهر أمامهم ساكن كهفٍ أشعر بجلدٍ هنديٍّ أحمر مدبوغ، وثياب رجلٍ جبليٍّ وجزمة روسيّة تصل إلى نصف فخذه ومسدسين إلى خصره، يرافقه زنجيّ وحشيّ المظهر أيضاً ومسلّح مثل قاطع طريق. كان عبداً هارباً تحوّل حين وطأ كاليفورنيا إلى رجلٍ حرٍّ، لكن بما أنّه لم يقدر على تحمّل فقر المناجم فقد فضّل أن يكسب عيشه كقاتلٍ مأجور. حين عرّف فِليثيانو بنفسه استُقبِلَ بحماس وحُمل عملياً على محفّة إلى أوّل

حجرة حيث طلب منه الركاب جميعاً أخباراً. اهتمامهم الوحيد كان في معرفة ما إذا كان المعدن وفيراً كما يقولون، فردّ أنّه يوجد أكثر من ذلك بكثير وأخرج من جيبه شيئاً أصفر له شكل غائط مسحوق، وقال إنّ الكرة تزن نصف كيلو غرام، وأنّه مستعد لمبادلتها بكل ما في السفينة من مشروبات روحية: استلام وتسليم، لكن لم يحدث هذا لأنّه لم يكن قد بقي إلا ثلاث زجاجات والبقيّة استهلكت خلال الرحلة. الكرة عثر عليها المُعدِّنون الشجعان الذين جيء بهم من تشيلي ويعملون الآن لصالحه على ضفاف نهر ريّو أمريكانو. وحين شربوا النخبَ بآخر احتياطيّ من الكحول عندهم تلقّى الرجل الرسائل من زوجته، وراح يخبرهم كيف يبقون أحياء في تلك المنطقة.

ـ منذ أشهر كان هناك كلمة شرف وحتى أوغد الناس يتصرّف بحشمة ويمكن ترك الذهب في خيمة دون حراسةٍ، ولا أحد يلمسه، لكن كلّ شيء تغير الآن. ساد قانون الغاب والعقيدة الوحيدة هي الطمع. لا تنفصلوا عن أسلحتكم وسيروا أزواجاً أو مجموعات فهذه أرض قطّاع طرق ـ وضّح.

أحاط بالسفينة عددٌ من الزوارق يقودها رجالٌ يصيحون بأعلى أصواتهم مقترحين عقوداً، مستعدين لشراء كلّ شيء، إذ على اليابسة يبيعونها بخمسة أضعاف قيمتها. سرعان ما اكتشف الركاب غير الحذرين فنَّ المُضارَبة. في المساء ظهر قائد الميناء يرافقه رجل جمارك وخلفه زورقان فيهما عددٌ من المكسيكيين وصينيان أو أكثر يعرضون نقل الأمتعة إلى الرصيف. يتقاضون مبالغ طائلة، لكن ليس هناك من خيارٍ آخر. لم يُبد قائد الميناء أيّةَ نيّةٍ بتفحّص جوازات السفر أو التحقّق من هويّة الركّاب.

ـ وثائق؟ لا شيء من هذا! لقد وصلتم إلى ميناء الحريّة. لا وجود للورق المختوم هنا ـ أعلن.

بالمقابل شغلته النسوةُ كثيراً. تفاخر بأنه أوّل من تذوّقهنّ جميعاً وكلَّ واحدة ممن نزلن في سان فرانسيسكو، على الرغم من

أنّهنّ لم يكنّ كثيراتٍ كما رغب. حكى أنّ أوائل من ظهرن في المدينة منذ عدّة أشهر استُقْبِلنَ من قِبَلِ حشدٍ من الرجال المتحمّسين الذين وقفوا في صفّ لساعاتٍ ليأخذوا دورهم بسعر الذهب المسحوق والكرات والنقود بل وحتى بالسبائك، كان الأمر يتعلّق بامرأتين يانكيتين شجاعتين قطعتا الرحلة من بوسطن، عابرتين المحيط الهادي عبر برزخ بنما. أنهيتا خدماتهما بأفضل سعرٍ رابحتين في اليوم الواحد ما يُعادل دخل عامٍ عاديّ. وقد وصل منذ ذلك الوقت وحتى الآن أكثر من خمسمئة امرأة جميعهنّ تقريباً مكسيكيات وتشيليات وبيرويات، باستثناء بعض الأمريكيات الشماليات والفرنسيات وإن كان عددهنّ في الحقيقة لا قيمة له بالمقارنة مع الغزو المتنامي للرجال الشبان والوحيدين.

لم تسمع أثوثِنا بلاثِرس أخبار اليانكي لأن تاو ما أن سمع بحضور عنصر الجمارك حتى أخذها إلى العنبر. لم يكن باستطاعته إنزال الفتاة في كيسٍ على ظهر حمّال، كما صعد بها، لأنّ الطرود ستفتّش دون شك. بوغِتت إليثا حين رأتهما، كلاهما لا يُعرفان: فهو يزهو في درّاعة وبنطلون مغسولين توّاً وجديلة مشدودة ولامعة كأنّها دُهِنت بالزيت، وقد حلق بعناية حتى آخر شعرة مقدمة رأسه ووجهه، بينما بدّلت أثوثِنا ثيابها الريفيّة بزيٍّ حربيّ وترتدي رداءً أزرق مريَّش القبّة وتسريحة عالية تعلوها قبّعة وأحمر شفاه وخدود.

ـ انتهت الرحلة وما زلتِ حيّةً، يا صغيرة ـ بشّرتها بسعادة.

فكّرت بإعارة إليثا أحد ملابسها الفاضحة وإخراجِها من السفينة كما لو أنّها واحدةٌ أخرى من المجموعة، وهي فكرة ليست مرفوضة إذ بالتأكيد ستكون تلك مهنتها على اليابسة كما وضّحت.

ـ جئتُ لأتزوّج من خطيبي ـ ردّت إليثا للمرّة العاشرة.

ـ لا يوجد خطيب يفيد في هذه الحالة. إذا تطلّب الأمرُ بيع الفرج فإنّه سيُباع. لا تستطيعين أن تتوقّفي عند التفاصيل في مثل هذه الحالة، يا صغيرة.

قاطعهما تاو شيين. بيّن أنّه إذا كان هناك سبع نساء على المتن خلال شهرين فلا يمكن أن يهبطن ثمانٍ. كان قد أمعن النظر في مجموعة المكسيكيين والصينيين الذين صعدوا إلى سطح السفينة لتفريغها منتظرين أوامر القبطان ورجل الجمارك. أشار إلى أثوثِنا أن تسرِّح شعر إليثا في جديلة واحدةٍ مثله ريثما يمضي بحثاً عن بديل من ملابسه. ألبسا الفتاة بنطلوناً، ودراعةً ربطت إلى الخصر بحبل صغير وقبّعة قشّ بإطار. كانت إليثا قد فقدت كثيراً من وزنها في هذين الشهرين من التخبّط في مستنقعات الجحيم كما تبدو هزيلة وشاحبة مثل ورقة أرزّ. بدت في ملابس تاو شيين الواسعة عليها طفلاً حزيناً سيّئ التغذية. لفّتها أثوثِنا بلاثِرس بين ذراعيها المكتنزتين اللتين لغسّالةٍ وطبعت قبلةً عاطفية على جبينها. فقد أحبّتها وهي في أعماقها سعيدة أن يكون لها خطيب ينتظرها، لأنّها لم تستطع تخيُّلها خاضعة لوحشيّة الحياة التي تتحمّلها هي.

ـ تبدين مثل ضبّ صغير ـ ضحكت أثوثِنا بلاثِرس.

ـ وماذا لو اكتشفوني؟

ـ وماذا يمكن أن يحدث لك أسوأ من ذلك؟ يُجبرك كاتز على دفع ثمن التذكرة. تستطيعين دفع ثمنها بمجوهراتك، أليست هي معك لهذه الغاية؟ ـ اقترحت المرأة.

ـ يجب ألا يعرف أحد بوجودك هنا وإلا بحث القبطان سومّرز عنك في كاليفورنيا ـ قال تاو شيين.

ـ إذا عثر عليّ حملني معه عائداً بي إلى تشيلي.

ـ ولماذا؟ على كلّ الأحوال شرفك ملطّخ. الأغنياء لا يتحمّلون هذا. لا بدّ أن أسرتك سعيدة جدّاً لاختفائك، إذ لن يضطروا لرميك إلى الشارع.

ـ فقط هذا؟ في الصين يقتلونك على ما فعلت.

ـ حسناً، أيّها الصينيّ، لسنا في بلدك. لا تُخِفْ الصغيرة.

تستطيعين أن تخرجي مطمئنّةً، يا إليثا. لن تلفتي انتباه أحد. سيكونون شاردين وهم ينظرون إليّ ـ أكّدت أثوثِنا بلاثِرِس مودّعةً في إعصارٍ من الريش الأزرق ومشبك الفيروز على قبّتها.

وهكذا حصل. كانت التشيليات الخمس والبيروويتان بملابسهنّ الفاضحة الجذابة فرجةَ اليوم. هبطن إلى الزوارق على سلالم من حبال يتقدّمهنَ سبعة بحّارة محظوظين اقترعوا على وضع أرداف النساء على رؤوسهم وسط جوقة من صفير وتصفيق مئات الفضوليين المتكوّمين في الميناء لاستقبالهنّ. لم ينتبه أحدٌ للمكسيكيين والصينيين الذين ينقلون الطرودَ من يدٍ إلى يد مثل صفّ من النمل. شغلت إليثا واحداً من آخر الزوارق بجانب تاو شيين الذي أعلن إلى ابني وطنه أن الفتى أصمّ وأبكم وأبله قليلاً، لذلك فمن العبث محاولة التواصل معه.

المغامرون

وطِئت قدمُ تاو شيين وإليثا سومّرز سان فرانسيسكو لأوّل مرّةٍ في الساعة الثانية من مساء يومٍ ثلاثاء من العام 1849. آلاف المغامرين كانوا قد مرّوا آنذاك عبوراً من هناك في طريقهم إلى ضفاف شذرات الذهب الرملية. ريحٌ متواصلة صعّبت المسيرة، مع أنّ النهارَ صافٍ، واستطاعوا تقدير بانوراما الخليج في بهاء جماله. بدا تاو شيين غريبَ المظهر بحقيبته الطبيّة، التي لم ينفصل عنها قط، ورزمته على ظهره وقبّعة قشّه ومعطف صوفه متعدّد الألوان الذي اشتراه من أحد الحمّالين المكسيكيين. ومع ذلك فالمظهر في تلك المدينة كان الأقلّ شأناً. ساقا إليثا راحتا ترتعدان فهي لم تستخدمهما منذ شهرين. شعرت بالدوار على اليابسة تماماً كما شعرت به في البحر، لكنّ لباس الرجل منحها حرّيّةً غير معهودة، لم تشعر بنفسها خَفِيّة قط كما شعرت آنذاك. ما أن تحرّرت من الإحساس بأنّها عاريةٌ حتى استطاعت التمتّع بالنسيم يدخل في كمي قميصها وفتحتي بنطلونها. راحت هي المعتادة على ضغط الملابس الداخلية تتنفّس الآن ملءَ رئتيها. بشقّ النفس استطاعت حمل الحقيبة الصغيرة التي تحتوي على الملابس الأنيقة التي جهّزتها لها الآنسة روز بأحسن نيّة، وحين رآها تاو شيين تترنّحُ أخذها منها ووضعها على كتفه. كانت البطانية القشتالية الملفوفة تحت ذراعها بوزن الحقيبة، لكنّها أدركت أنّها لا تستطيع التخلّي عنها فهي

ستكون أفضل ممتلكاتها ليلاً. راحت تتقدّمُ برأسٍ خفيض مختبئ تحت قبّعة القشّ متعثّرة في فوضى الميناء المرعبة. بلغ عددُ سكّان بلدة يِرْبا بْوِنا البائسة التي أسّستها بعثة إسبانيةٌ عامَ 1769، أقلّ من خمسمئة نسمة، لكن ما أن دبّ صوتُ الذهبِ حتى بدأ وصول المغامرين. بعد أشهر قليلة استيقظت تلك البلدة الصغيرة البريئة على اسم ووصلت شهرتها حتى آخر تخوم العالم. لم تكن قد أصبحت بعدُ مدينة حقيقيّة، بل لم تكد تكون معسكرَ عبورٍ ضخمٍ للرجال.

لم تترك حمّى الذهب أحداً غير مبالٍ: حدّادون، نجّارون، مُعلّمون، جنود، فارّون من العدالة، واعظون، خبّازون، ثوريّون ومجانين وديعون من شتّى الألوان تركوا خلفهم أسرهم وممتلكاتهم ليقطعوا نصف العالم جرياً خلف المُغامرة. كثيراً ما ردّد القبطان كاتز في كلّ خطبة من خطبه الدينيّة، التي كان يفرضها أيّام الآحاد على الركّاب وطاقم بحّارة *إميليا* : «يبحثون عن الذهب ويخسرون أرواحهم في الطريقَ»، لكنّ أحداً لم يوله انتباهاً، فالجميع مبهورون بوهم ثراء مفاجئ قادرٍ على تبديل حياتهم. لأوّل مرّةٍ في التاريخ يوجد الذهبُ مُلقى على الأرض دون مالك، على نحو مجانيّ ووفير، وفي متناول كلّ عازم على التقاطه. من أقصى الضفاف يصلُ المغامرون: أوروبيون هاربون من حروبٍ وأوبئة وطغيان، أورِجونيون وروس يرتدون الجلود مثل الهنود الحمر؛ مكسيكيون، تشيليون وبيرويون؛ قطّاع طرق أستراليون فلاحون صينيون جياع يخاطِرون برؤوسهم لخرقهم الأمر الإمبراطوري الذي يمنع مغادرة الوطن. في شوارع سان فرانسيسكو، الوسخة تختلط كلّ الأعراق.

الشوارع الرئيسية، المشقوقة على شكل نصف دوائر تُلامِس نهاياتُها الشاطئ، تقطعها أخرى مستقيمة تهبط من الهضاب الوعرة وتنتهي في رصيف الميناء. بعضها مرتفع جدّاً ومليء بالوحل، لاتستطيع حتى البغالُ تسلّقه. فجأة تهبّ ريح عاصفة ترفع زوابع من غبار ورملٍ، لكن سرعان ما يعود الهواء ليهدأ والسماء لتصفو.

كانت هناك أبنية قويّة وعشرات منها في طور البناء، بل إنّ بعضها أعلن عن فنادِقَ مستقبليّة فاخرة، لكنّ البقيّة خليطٌ من مساكن مؤقّتة، وتخشيبات وأكواخ من صفائح الحديد والخشب والكرتون، خيام من الخيش وسقوف من القشّ. أمطار الشتاء الذي بدأ توّاً حوّلت رصيف الميناء إلى مستنقَعٍ، والعربات القليلة تعصى في الوحلِ وتحتاج إلى ألواح لعبور الحفرِ المغطاة بالقمامة، ومئات الزجاجات المكسَّرة وفضلاتٍ أخرى. لم تكن توجد سواق ولا مجارٍ، والآبار ملوَّثة، والكوليرا والزحارُ توقع الموتَ بين الجميع باستثناء الصينيين الذين يتناولون الشايَ بالعادة، والتشيليين الذين تربّوا على المياه الملوَّثة في بلدهم وبالتالي صاروا منيعين على البكتيريات الصغيرة. كانت الحشود غير المتجانسة تفور أسيرةَ نشاطات محمومة، يدفعون ويصطدمون بمواد البناء، البراميل، الصناديق، الحمير والعربات. الحمّالون الصينيون يؤرجحون حمولاتهم في نهاية قوائم خشبية، دون أن يتوقّفوا إزاء من يضربونهم عند مرورهم، والمكسيكيون الأقوياء والصبورون يلقون على ظهورهم ما يعادِلُ أوزانهم ويصعدون الهضاب خبباً، بينما يستغلُّ الماليزيون والهاوايون أيّة ذريعةٍ للشروع في الشجار؛ اليانكيون يدخلون على جيادهم في أيّة تجارة ويسحقون كلَّ من يقف في وجههم، أهالي كاليفورنيا المولودون هناك يتباهون متغطرسين بستراتهم المطرّزة، ومهاميزهم الفضّية وبنطلوناتهم المفتوحة على جوانبها بخطٍّ مزدوج من الأزرار الذهبيّة بدءاً من الخصر وصولاً إلى الجزمة. جلبةُ الشجار أو الحوادث تُساهِم في ضوضاء الطرْقِ والنشرِ والحفرِ، وتُسمَع أصوات الرصاص بتواترٍ مرعِبٍ، لا أحد يغضَب لميت تقريباً بينما سرقة علبة مسامير تستجلِب مجموعة من المواطنين المغتاظين المستعدّين لأخذ حقّهم بأيديهم. فالملكية أكبر قيمةً من الحياة، وأيّ سرقة تتجاوزُ المئة دولار عقوبتها المشنقة. كثرت بيوتُ القمار والباراتُ والصالوناتُ المزيّنةُ بصورِ النساءِ العاريات نظراً لنقصِ النساءِ الحقيقياتِ؛ والخيام يُباعُ كلّ ما هو

موجود منها، الكحول والأسلحة خاصّة تُباعُ كُلّها بأسعار باهِظة، إذ لم يكنْ هناك من يملك الوقت للمساوَمة؛ والزبائن يدفعون دائماً ذهباً تقريباً، دون التوقُّف لأخذ غباره الذي يبقى ملتصقاً بكفّة الميزان. قرّر تاو شيين أنّ غوم *سان*، الجبل الذهبي الذي طالما سمعهم يتحدّثون عنه كان جحيماً، وقدّر أنّ وفوراته لن تكفيه حسب هذه الأسعار إلا لزمن قصير جدّاً. وكيس مجوهرات إليثا الصغير لن يجدي نفعاً فالعملة الوحيدة المقبولة هي المعدن الخالص.

كانت إليثا تشقُّ طريقها بين الحشد بأفضل ما تستطيعُ ملتصِقةً بتاو شيين، ممتنة له على ملابسه حيث لا تُلمَحُ نساء في أيّ مكان، ومسافرات *إميليا* السبع تمّ سوقهنّ في مِحفّاتٍ إلى واحدة من الحانات الكثيرة، وهنَّ لا شكَّ بدأن بكسب المئتين والسبعين دولاراً، ثمن التذكرة ، المدينات بها إلى فنسنت كاتز. كان تاو شيين قد تحقّق من خلال الحمّالين من أنّ المدينة مقسّمة إلى قطّاعات وكلّ قوميّة تشغل حيّاً. حذّروه من الاقتراب من الأستراليين الأوغاد الذين يمكن أن يهاجموهما لمجرّد التسلية، ودلّوه على عنوان تجمّعِ الخيام والأكواخ التي يعيش فيها الصينيون؛ فتوجّه إلى هناك.

ـ كيف سأعثر على خواكين في هذه المعمعة؟ ـ سألت إليثا، وهي تشعر بنفسها ضائعة وعاجزة.

ـ إذا كان هناك حيّ صيني فسيكون هناك أيضا حيٌّ تشيليّ. ابحثي عنه.

ـ لا أفكّر بالانفصال عنك، يا تاو.

ـ أنا سأعود ليلاً إلى السفينة ـ نبّهها.

ـ لماذا؟ ألا يهمّك الذهب؟

سارع تاو شيين خطوه فضبطت خطوها على خطوه كيلا يضيع عن ناظرها. هكذا وصلا إلى الحيّ الصينيّ ـ *ليتِل كانتون* كما كانوا يُسمّونه ـ شارعان موبوءان سرعان ما شعر فيهما بأنّه في بيته لأنّه

لا يُرى فيهما وجهُ *فان غوي* واحدٍ، والجوُّ مشبعٌ بروائح مأكولات بلده اللذيذة، وتُسمع عدّة لهجات وخاصّة الخانية الكانتونية، بينما كان بالنسبة إلى إليثا سومّرز كمن ينتقلُ إلى كوكبٍ آخر، لا تفهمُ كلمةً واحدةً ويبدو لها الجميع محتدِمين لأنّهم يؤشّرون صارخين. لم ترَ هناك نساءً أيضاً، لكنّ تاو شيين أشار إلى بعض النوافذ الصغيرة البائسة التي تُطِلُّ منها وجوهٌ يائسة. كان قد مضى عليه شهران لم يمكث فيهما مع امرأة وهؤلاء ينادينه، لكنّه يعرفُ عن أضرارِ الأمراض التناسليّة ما يجعله لا يخاطِر مع واحدةٍ من الدرجة السفلى. كنّ فتيات ريفيّات تمّ شراؤهنَّ ببعض النقود وجيء بهنّ من أقصى مقاطعات الصين. فكّر بأخته، التي باعها أبوه فقصم غثيانٌ ظهره نصفين.

ـ ما بكَ، يا تاو؟

ـ ذكريات سيّئة... أولئك الفتيات عبدات.

ـ ألا يقولون إنّه لا يوجدُ عبيدٌ في كاليفورنيا؟

دخلا مطعماً، معلّماً بالشرائط الصفراء التقليديّة. كان هناك طاولة طويلة مزدحمة برجال يلتهمون طعامهم الكتف على الكتف بسرعة، وصوت الأعواد على القصعات والحديث بصوتٍ حيّ له وقع الموسيقى على سمع تاو شيين. انتظرا وقوفاً في صفٍّ مزدوجٍ حتى استطاعا الجلوس. لم يكن الموضوع موضوع اختيار بل استفادة مما يقع في متناول اليد. والتقاط الصحن في الهواء يتطلّبُ براعةً قبل أن يلتقطه آخر أكثر تفتّحاً، لكنّ تاو شيين حصل على واحدٍ له وآخر لإليثا. راقبت بعدم ثقةٍ سائلاً ضارباً للخضرةِ تطفو فيه نسالات شاحبة ورخويّات هلاميّة. كانت تتفاخر بمعرفة أيّ مكوّنٍ في الطعامِ من رائحته، لكن ذاك لم يبدو لها حتى ممكن التناول، فله مظهر ماءٍ مستنقَعٍ فيه شراغيف، إلاّ أنّه لا يحتاج للعيدان وتستطيع رشفه من الفنجانِ الكبير مباشرةً؛ انتصر الجوع على الريبة وتجرّأت على تذوّقه وخلفها صفٌّ من الزبائن فاقدي الصبر يحثّونها

صارخين. كان الصحنُ الصغير لذيذاً وباستطاعتها أن تتناول آخر بشهيّة، لكنَّ تاو شيين لم يمنحها الوقتَ فأخذها من يدها وخرج. بداية تبعته ليجوبا حوانيت الحيّ كي يرمّم مواد حقيبته الطبيّة والتحدّث إلى بائعي الأعشاب الصينيين في المدينة، ثمّ إلى مقمرة من المقامِر الكثيرة الموجودة في كلّ تجمع سكني. كانت بناء خشبياً يصبو للرفاهية مزيّناً برسوم لنساء نصف عاريات. مسحوق الذهب يوزن ليُبَدَّل بالنقود، ستة عشر دولاراً مقابل كلّ أونصة أو ببساطة يوضع الكيس الصغير على طاولة القمار. كان الأمريكيون، الفرنسيون والمكسيكيون يشكلون غالبية الزبائن، لكن هناك أيضاً رجال من هاواي وتشيلي وأستراليا وروسيا. أكثر الألعاب شعبية كانت *المونتِ* ذات الأصل المكسيكي *ولاسكنِت والواحد والعشرين*. وبما أن الصينيين كانوا يُفضِّلون *الفان تان* ولا يقامرون إلا بسنتيمات قليلة فإنّه لا يُرحّب بهم على طاولات الألعاب الغالية. ما من زنجيٍّ واحد يُرى مشارِكاً في اللعب وإن كان هناك البعض منهم يعزف الموسيقى أو يخدم الطاولات، علما أنّهم بعد ذلك إذا دخلوا البارات أو المقامر قدّموا لهم جرعة مجانية لكن عليهم أن يُغادِروا بعدها وإلاّ أخرجوهم بالرصاص. كان في الصالة ثلاث نساءٍ، شابتان مكسيكيتان لهما عيون كبيرة برّاقة ترتديان الأبيض وتُدخنان السيجارةَ تلو الأخرى، وفرنسيّة ترتدي مشدّاً وتضع مكياجاً كثيفاً، بالغة بعض الشيء وحلوة. يطفن على الطاولات ويحثثن على اللعب والشرب ويختفين عادة آخذات بذراع زبونٍ خلف ستارة سميكة من البروكار الأحمر. علم تاو شيين أنّهن يقبضن أونصة ذهب مقابل مرافقتهنّ للزبون لمدّة ساعة، ومئات الدولارات مقابل قضاء ليلة كاملة مع رجلٍ على انفرادٍ، لكنّ الفرنسية كانت الأعلى سعراً ولا تتعامل مع صينيين أو زنوج.

جلست إليثا في زاوية منهكة، ناسية دورها كفتى شرقيّ بينما راح تاو يتحدَّثُ مع هذا وذاك، يستفسر عن تفاصيل الذهب والحياة

في كاليفورنيا. تاو شيين الذي تحميه ذكرى لين بدا أكثر قدرة على تحمّل إغواء النساء من إغواء القمار. فصوت فيش *الفان تان* والنرد على أرض الطاولات يناديه بصوت حورياتِ بحرٍ، ورؤية الورق يختلط في أيدي اللاعبين تجعله يتصبّب عرقاً، لكنّه تمالك نفسه تشدُّ من عزيمته قناعتُهُ بأنّ حسنَ الحظّ سيهجره إلى الأبد إذا ما حنثٍ بوعده. سألته إليثا بعدَ سنواتٍ ومُغامراتٍ عديدة إلى أيّ حسن حظّ كان يشير فأجابها دون طول تفكير إلى البقاء حيّاً ومعرفته بها. عرف في ذلك المساء أن ضفاف شذرات الذهب متوافرة في أنهار ساكرامِنتو وريو أمريكانو وسان خواكين ومئات مصباتها، لكن الخرائط غير موثوقة والمسافات رهيبة. ذهب السطح السهل بدأ يندر. صحيحٌ أنّه كان هناك مُعدِّنون محظوظون يتعثرون بكرة بحجم حذاء، لكنّ الغالبية تكتفي بحفنة من المسحوق حُصِلَ عليها بجهد بالغ. يتحدّثون كثيراً عن الذهب، قالوا له، لكنّهم لا يتحدَّثون عن تضحيةِ الحصول عليه إلا قليلاً. فالمرء يحتاج إلى أن يحصل على أونصة من الذهب يوميّاً كي يُعدَّ رابحاً على أن يكون مستعدّاً للعيش دائماً مثل كلبٍ، لأنّ الأسعار فوق التصوّر والذهب يذهب بلمح البصر. بينما التجار والمقرضون يثرون، مثل أحد أبناء بلده الذي تفرّغ لغسل الملابس، واستطاع في أشهر قليلة أن يبني بيتاً من المواد القويّة ويفكّر بالعودة إلى الصين، ليشتري عدداً من الزوجات ويتفرّغ لإنجاب الأولاد الذكور، أو الآخر الذي كان يقرض المال بفائدة عشرة بالمئة في الساعة، أي أكثر من سبع وثمانين ألفاً في العام. أكّدوا له قصصاً خرافيّة عن كرات هائلة، عن مسحوق وفيرٍ مختلط بالرمل، عن عروق في صخر الكوارتز، عن البغال التي تفكّ بحوافرها الصخور فيظهر الكنز تحتها، لكنّ الثراء كان يتطلّب العملَ والحظّ. اليانكيون ينقصهم الصبرُ، فهم ما كانوا يتقنون العمل في فريق، تهزمهم الفوضى والطمع. المكسيكيون والتشيليون يتقنون عمل المناجم، لكنّهم كثيرو الإنفاق، الأورِجونيون والروس يضيعون الوقت في الشجار والشراب. بالمقابل كان الصينيون يخرجون بفائدة مهما كانت ممتلكاتهم ضئيلة لأنّهم قنوعون، لا يسكرون ويعملون مثل النمل ثماني عشرة ساعة بلا راحة ولا تأفّفٍ. *الفان*

غوي يغتاظون لنجاح الصينيين، نبّهوه، لا بدّ من التمويه والتظاهر بالبلاهة، وعدم إثارتهم وإلاّ لتعّرضا للشرّ مثل المكسيكيين. بلى أعلموه بأنّ هناك معسكراً تشيليّاً، يبعد قليلاً عن مركز المدينة في الناحية اليمنى، ويُسمّى تشيلِثيتو (تشيلي المصغرة)، لكنّ الوقت تأخّر جدّاً كي يسير في تلك المناطق دون رفقة أخرى غير أخيه المعتوه.

ـ أنا عائد إلى السفينة ـ أعلن تاو شيين لإليثا، حين خرجا أخيراً من المقمرة.

ـ أشعر بالدوار، كأنّني سأسقط.

ـ مررتِ بفترة مرضٍ شديد. تحتاجين للطعام الجيّد والراحة.

ـ لا أستطيع هذا وحدي. أرجوك لا تتركني بعد.

ـ أنا مرتبِط بعقد، والقبطان سيجعلهم يبحثون عنّي.

ـ ومن سينفّذ الأمر؟ جميع السفن مهجورة. لم يبقَ أحدٌ على متنها. يمكن لهذا القبطان أن يُبحّ صوته وهو يصيح دون أن يعودَ أيّ بحار.

ماذا سأفعل بها؟ تساءل تاو شيين بصوت عالٍ وبالخانيّة. عقده ينتهي في سان فرانسيسكو، لكنّه لم يكن قادراً على تركها لقدرها في تلك المنطقة. كان مُختَبِلاً، على الأقل حتى تقوى أكثر وتحتكّ بالتشيليين أو تقع على مكان عاشقها الفرور. لن يكون صعباً، هكذا افترض. مهما كانت سان فرانسيسكو مختلطة فإنّه لم لا يوجدُ أسرار في أيّ مكان بالنسبة للصينيين، يستطيع أن ينتظر إلى اليوم التالي ويرافقها إلى تشيلِثيتو. حلّ الظلامُ فأضفى على المكان مظهراً شبحياً. المساكن جميعها تقريباً من الخيش والمصابيح في الداخل تجعلها شفافة ومضيئة مثل الماس. بينما تُساهِم المشاعل والصلاءات في الخارج وموسيقى المَقَامِرِ في إضفاء انطباع باللاواقعية. بحثَ تاو شيين عن نزلٍ لقضاء الليلة فوقع على عنبرٍ بطول خمسة وعشرين متراً، وعرض ثمانية أمتار، مصنوعٍ من ألواح الخشب والصفائح المعدنيّة المنقذَة من المراكب الراسية كُتِبَ عليه: فندق. في الداخل طابقان من الأسرَّة المرتفعة، هي مجرّد رفوفٍ

يمكن لشخصٍ واحدٍ الاستلقاء عليها منكمشاً وفي العمق مشرب يُباع فيه الكحول. لا نوافذ، والهواء الوحيد الذي يمكن استنشاقه يدخل من شقوق بين صفائح الجدران، ويمكن الحصول على حقّ المبيت بدولارٍ واحد لكن على المرء أن يأتي بعدّة النوم معه. أوّل الواصلين يحصلون على الأسرّة الفرديّة بينما الآخرون يهبطون على الأرض، لكنّهم لم يعطوهما سريرين فرديّين على الرغم من وجود بعضها فارغة لأنّهما صينيان. استلقيا على الأرض جاعلين من صرّة الثياب وسادةً والمعطَف الجبليّ والبطانية القشتالية الغطاء الوحيد. سرعان ما امتلأ النزل برجالٍ من مختلف الأعراق والأشكال، راحوا يستلقون بعضهم بجانب بعضٍ في صفوف بملابسهم وأيديهم على أسلحتهم. نتن الأوساخ والتبغ والتبخرات البشرية إضافة إلى الشخير والأصوات الشاذّة لمن يضيعون في كوابيسهم كلها تجعل النومَ صعباً، لكنّ إليثا كانت من التعب بحيث لم تعرف كيف مرّت الساعات. استيقظت في الفجر ترتعد برداً متكوّرةً إلى ظهر تاو شيين فاكتشفت رائحة البحر فيه، الرائحة التي اختلطت في السفينة برائحة المياه الهائلة التي أحاطت بهم. عرفت في تلك الليلة أنّها رائحة ذلك الرجل. أغمضت عينيها ولاذت به أكثر فعادت ونامت على الفور.

انطلقا في اليوم التالي للبحث عن تشيلِثيتو، الذي عرفته على الفور لأنّها رأت علم تشيلي يرفرف منتفخاً فوق عصا، ومعظم الرجال يضعون القبّعات التقليديّة، المدبّبة على شكل مخروط، وجميعهم منهمكون في عمل أو تجارةٍ. كانت المساكن خياماً، أكواخاً وأخصاصاً من ألواح الخشب محاطة بأكداس من المعدات والقمامة، كذلك كان هناك مطاعِم وفنادق ومواخير مُرتَجَلَة. قدّروا عدد التشيليين المقيمين في الحي بألفي نسمة، لكن ما من أحدٍ أحصاهم، فهو في الحقيقة لم يكن إلاّ معبراً للواصلين توّاً. شعرت إليثا بالسعادة حين سمعت لغة بلدها ورأت إعلاناً على خيمةِ الخيش المهترئة يقول *بِكينِس وتشونشولِس* (نوعان من الطعام). اقتربت وتظاهرت بنبرة تشيليّة وطلبت صحناً من النوع الثاني. بقي تاو شيين يتأمّل ذلك الغذاء الغريب المُقدَّم في قطعة من ورق الصحافة،

لعدم وجود الصحوَن دون أن يدري أيّة شياطين هو. شرحت له أنّها أمعاء خنزير مقليّة بالشحم.

ـ البارحة أكلتُ حساءَكَ الصيني. واليوم ستأكلُ أنت *التشونشولِس* التشيليّ ـ أمرته.

ـ كيف تتكلّمان القشتاليّة، أيّها الصينيان؟ ـ استفسر البائع بلطف.

ـ صديقي لا يتكلّمها فقط أنا، لأنّني عشتُ في البيرو؟ ـ أجابت إليثا.

ـ وعمّ تبحثان هنا؟

ـ عن تشيليٍّ يُدعى خواكين أنذيِتا.

ـ ولماذا تبحثان عنه؟

ـ معنا رسالة له. هل تعرفه؟

ـ مرّ هنا كثيرُ من الناسِ في الأشهر الأخيرة. لا يمكثُون أكثر من أيّام، ثمّ ينطلقون خفافاً إلى ضفاف شذرات الذهب. بعضهم يعودُ وآخرون لا يعودون.

ـ وخواكين أنذيِتا؟

ـ لا أتذكّر، لكنّني سأسأل.

جلست إليثا وتاو شيين يأكلان في ظلٍّ شجرة صنوبر. عاد البائع بعد عشرين دقيقةً ومعه رجل له مظهر هنديّ أحمر شماليّ، قصير الساقين وعريض المنكبين؛ قال إنّ خواكين أنذيِتا انطلق باتجاه ضفاف شذرات الذهب في ساكرامِنتو منذ أسبوعين على الأقل. وإن لم يكن هناك من يتوقّف عند التقويم أو يحسب وقائع الآخرين.

ـ سنذهب إلى ساكرامِنتو، يا تاو ـ قرّرت إليثا ما أن ابتعدا عن تشيلِثيتو

ـ لا تستطيعين السفر بعد. عليك أن ترتاحي بعضَ الوقت.

ـ سأرتاح هناك، حين أعثر عليه.

ـ أُفضِّلُ العودة مع القبطان كاتز. فكاليفورنيا ليست مكاني المُفضَّل.

ـ ماذا يحدث لك؟ هل لك دم مشروب اللوز؟ لم يبقَ في السفينة أحد غير القبطان مع كتابه المُقدَّس. الجميع يمضي بحثاً عن الذهب وأنت تُفكِّر بالاستمرار بالعمل طبّاخاً بمرتّب بائس!

ـ لا أومن بالثروة السهلة. أريدُ حياةً هادئة.

ـ طيب، إذا لم يكن الذهب فلا بدّ من وجود شيء آخر يهمّك...

ـ التعلُّم.

ـ تعلُّمُ ماذا؟ أنت تعرف كثيراً.

ـ ينقصني الكثير لأتعلّمه.

ـ إذن وصلتَ إلى المكان المناسب جدّاً. أنت لا تعرف شيئاً عن هذا البلد. الناس هنا بحاجة إلى أطباء. كم من الرجال تعتقد يعملون في المناجم؟ آلاف! وجميعهم يحتاجون إلى دكتور. هذه هي أرض القرص، يا تاو. تعالَ معي إلى ساكرامِنتو. ثم إنّني لن أصل بعيداً ما لم تأتِ معي...

ونظراً للظروف السيِّئة جدّاً للإبحار، انطلقَ تاو شيين وإليثا باتجاه الشمال بسعر زهيدٍ يجوبان خليج سان فرانسيسكو الشاسِع. كان المركب مليئاً بالمسافرين ومعدّات مناجمهم المعقّدة، ولم يكن باستطاعة أحد أن يتحرّك في ذلك الفضاء المزدحم بالصناديق والمعدّات والسلال وأكياس المؤن والبارود والأسلحة. كان القبطان ومساعِده يانكيين سيِّئي المظهر، لكنّهما بحاران جيّدان وكريمان بالأغذية النادرة بل وزجاجات المشروب الروحي. فاوضهما تاو شيين على تذكرة إليثا فسمحا له بتغطية ثمن تذكرته بخدماته كبحّار. ما من أحدٍ من الركاب، الذين يحملون مسدساتهم إلى خصورهم إضافةً إلى المدى أو السكاكين وجّهَ الكلام إلى آخر طوال رحلة اليوم الأول إلا لكي يشتم نتيجة لكزةٍ بمرفقٍ أو رفسة

لامناص منها في ذلك الزحام. في فجر اليوم التالي وأمام استحالة الإبحار بعد ليلة طويلة باردة ورطبة، وقد رسوا بالقرب من الشاطئ نظراً لاستحالة الإبحار في الظلمة، شعرَ كلّ واحدٍ بنفسه مُحاطاً بالأعداء. بينما اللحى النامية والقذارة والطعام الكريه، الذباب والريح والتيار المعاكِس ساهمت كلّها في شحن النفوس بالغيظ. بدا تاو شيين، الوحيدُ الذي لا خطط لديه ولا أهدافاً، في رصانة تامّة وحين لا يصارع الشراع يتأمّلُ المنظر الرائع للخليج. بينما إليثا قانطة في دورها كفتى أصمّ وأبكم وأبله. قدّمها تاو شيين باقتضاب على أنّها أخوه الصغير، وتمكّن من إراحتها في زاوية محميّةٍ إلى هذا الحدّ أو ذاك من الريح حيث مكثت ساكنةً وصامتة، فلم تمضِ برهة قصيرة وبقي هناك من يتذكّر وجودَها، ترتعد برداً بينما بطانيتُها تقطرُ ماءً وقد نمّلت ساقاها، تشدّ من عزيمتها للحظاتٍ فكرةُ الاقترابِ من خواكين، وتتلمس صدرها الذي يضمّ رسائل الحبّ التي تتلوها بصمتٍ عن ظهر قلب. في اليوم الثالث فقد الركاب جزءاً كبيراً من عدوانيّتهم جاثين في ثيابهم المبللة، سكارى قليلاً وفاقدي الهمّة كفاية.

كان الخليج أكبر مما تصوّرا، والمسافات المحدَّدة في خرائطهم البائسة لا تشبه من قريبٍ أو بعيدٍ الأميال الحقيقيّة، وحين ظنّوا أنّهم وصلوا إلى وجهتِهم ظُهر لهم أنّه ما زال أمامهم عبور خليجٍ آخر، هو خليج سان بابلو. لمحوا على الشاطئ بعض المخيّمات والزوارق المزدحمة بالناس والبضائع ووراءها الغابات المطبِقة. لم تكن الرحلة لتنتهي هناك أيضاً، إذ اضطروا لأن يعبروا قنالاً مضطربة ويدخلوا خليجاً ثالِثاً هو خليج سويسون، حيث صارَ الإبحارُ أبطأ وأصعبَ، ثم نهراً ضيّقاً وعميقاً قادهم إلى ساكرامِنتو. صاروا أخيراً على مقربة من الأرض التي عُثِر فيها على أوّل حرشفة ذهب. تلك القطعة الصغيرة غير ذات الأهمية التي لم تتجاوز حجم ظفرِ امرأة سبقَ وأثارت غزواً عصيّاً على التحكّم، مبدّلة وجه كاليفورنيا وروحَ الأمّة الأمريكية الشمالية كما سيكتب بعد سنواتٍ قليلة جاكوب تود، الذي أصبح صحافيّاً. «أُسِّسَت الولايات المتحدة

من قبل مهاجرين وطلائعيين ونازحين متواضعين يتمتعون بأخلاق العمل القاسي والشجاعة في مواجهة المحن. لقد كشفَ الذهبُ عن أسوأ ما في الطبعِ الأمريكي: الجشع والعنف».

وضّح لهم القبطان أنّ مدينة ساكرامِنتو نشأت بين ليلةٍ وضحاها في العام الأخير. كان الميناء يعجُّ بمختلف المراكب وفيه شوارعُ خُطّت بشكلٍ جيّدٍ، وبيوت ومبانٍ خشبيّة، متاجر وكنيسة وعددٌ جيّدٌ من المقامرِ والبارات والمواخير، ومع ذلك تبدو في مشهد غرقٍ، لأنّ الأرضَ مزروعة بالأكياس والمطايا والمعدّات وكلّ أنواع القمامة التي خلّفها المعدّنون المستعجلون للشروع باتجاه ضفاف شذرات الذهب، بينما طيورٌ ضخمةٌ سوداء تُحلّق فوق المُخلّفات والذباب يتكاثر. قدّرت إليثا أنّ باستطاعتها أن تجوب القرية بيتاً بيتاً في يومين. لن يكون من الصعب العثور على خواكين أنذْيِتا. تقاسم ركاب الزورق الكبير، اللطيفون والمتحمسون الآن نظراً لقرب الميناء، جرعاتِ المشروبات الروحية وودّع بعضهم بعضاً ربتاً على الأكتاف، وغنّوا بصوت واحد لامرأة تُدعى سوزانا أمام دهشةِ تاو شيين الذي لم يفهم ذلك التحوّل الغريب. نزل مع إليثا قبل الآخرين لأنّه لا يحمل إلا القليل من الأمتعة وتوجّها دون تردُّدٍ إلى القطّاع الصيني، حيث حصلا على شيءٍ من الطعام والضيافة تحت ظلّة من الخيش المُشمّع. لم تستطع إليثا متابعة الأحاديث بالخانيّة، فالشيء الوحيد الذي كان يشغلها هو معرفة شيء عن حبيبها، لكنّ تاو شيين ذكّرها بأنّ عليها أن تصمت وطلب منها الهدوء والصبر. وجب على *الزهونغ يي* في تلك الليلة أن يُطبب كتفاً مخلوعاً لأحد أبناء بلده معيداً العظمَ إلى مكانه فحاز على الفور باحترام المعسكَر.

انطلقا في اليوم التالي معاً للبحث عن خواكين أنذْيِتا. تأكّدا أن رفاق رحلتهم صاروا مستعدين للانطلاقِ نحو ضفاف شذرات الذهب، حصل بعضهم على بغال لنقل المعدّات، لكنّ الغالبية مضوا سيراً على الأقدام، مخلّفين وراءهم قسماً كبيراً من ممتلكاتهم. جابا البلدةَ كلّها دون العثور على أثر لمن يبحثان عنه، لكنّ التشيليين اعتقدوا أنّهم تذكّروا شخصاً بهذا الاسم مرّ من هناك منذ شهرٍ أو

شهرين. نصحوهما بمتابعة السير باتجاه أعلى النهر، فقد يعثران عليه هناك، كلّ شيء يتعلّق بالحظّ. الشهر أبديّ. لا أحد عنده إحصاء بمن مرّوا هناك قبل يوم والأسماء ومصير الآخرين لم تكن تهمّ. الهوس الوحيد هو الذهب.

ـ ماذا سنفعلُ الآنَ، يا تاو؟

ـ نعمل. لا يمكن صنعُ شيءٍ دون مال ـ ردّ وقد ألقى على كتفه قطعَ خيشٍ عثر عليها بين البقايا المهجورة.

ـ لا أستطيع الانتظار! يجب أن أعثر على خواكين! معي بعض المال.

ـ ريالات تشيلية؟ لن تفيدنا كثيراً.

ـ والمجوهرات المتبقّية؟ لا بدّ أنّ لها بعض القيمة...

ـ خبّئيها، فهي غير ذات قيمة كبيرة هنا. علينا أن نعمل كي نشتري بغلاً، والدي كان يمضي من قرية إلى أخرى يُداوي الناسَ وكذلك جدّي أيضاً. أستطيع فعل الشيء ذاته، لكنّ المسافات هنا كبيرة وأحتاج إلى بغل.

ـ بغل؟ عندنا واحد، أنتَ. كم أنتَ عنيد!

ـ أقلّ منك عنداً.

جمعا أعواداً وبعض الألواح الخشبيّة واستعارا بعض المعدّات وعملا مسكناً سقفه من خيشٍ، برهنت التجربة أنّه واهنٌ وجاهزٌ للانهيار أمام أيّة هبّة ريح صغيرة، لكنّه حماهما على الأقل من ندى الليل وأمطار الربيع. وكان الصوتُ قد دبّ عن علوم تاو شيين فهُرِعَ مرضى صينيون أكّدوا مصداقيّة عبقرية ذلك *الزهونغ يي* الخارِقة ثم مكسيكيون وتشيليون، وأخيراً بعض الأمريكيين الشماليين والأوروبيين. تغلّب الكثيرون على ترفّعهم عن الدكاترة «السماويين» حين سمعوا أنّ تاو شيين مؤهّلٌ تماماً مثل كلٍّ من الأطباء البيض الثلاثة ويتقاضى أقلّ منهم، فقرّروا تجريب العلمَ الآسيويّ. انشغلَ تاو شيين في بعض الأيّام إلى حدّ أنّ إليثا اضطُرَت

لمساعدته. أذهلتها رؤيةُ يديه الرقيقتين والماهرتين تأخذان نبضَ الأذرع والسيقان، تتلمّسان أجساد المرضى وكأنهما تداعبانها، تُدخِلان الإبرَ في نقاطٍ غامِضةٍ، وحده من يبدو أنّه يعرفها. كم كان عمرُ هذا الرجل؟ سألته ذات مرّة فأجابها بين السبعة والثمانية آلاف عام هذا إذا ما حُسِبت جميعَ تقمّصاته. بالنظرِ اعتقدت إليثا أنّه في الثلاثين وإن بدا لها أكثرَ شباباً منها أحياناً حين يبتسم. إلا أنّه ما أن ينحني فوقَ مريضٍ بتركيزٍ مُطلَقٍ حتى يُدرِك عمر السلحفاة، ويسهل الظنُّ بأنّه يحملِ على كاهلِه قروناً كثيرةً. كانت تتأمّله بإعجابٍ وهو يفحصُ بولَ مرضاه في كأسٍ فيحدّدُ من خلال الرائحة واللون الأمراضَ الخفيّة، أو وهو يدرس البؤبؤ بعدسةٍ مكبِّرَة كي يستنتج ما ينقص أو يزيد في العضو، ويكتفي أحياناً بوضع يديه على بطن أو رأسِ المريض ويُغمِضُ عينيه فيوحي بأنّه ضاع في حلمٍ طويل.

ـ ماذا كنتَ تفعل؟ ـ تسأله إليثا بعد ذلك.

ـ كنتُ أشعر بوجعه فأنقل إليه طاقةً. الطاقة السلبية تسبّبُ المعاناة والأمراض والطاقة الإيجابيّة يمكن أن تشفي.

ـ وكيف هي هذه الطاقة السلبيّةُ، يا تاو؟

ـ مثل الحبّ: حارّة ومشعّة.

صار استخراجُ الرصاصات ومعالجة الجراح عملاً روتينياً. فقدت إليثا رعبها من الدم وتعلّمت خياطةَ اللحمِ البشريّ بالهدوء ذاته الذي طرّزت فيه ملاحف صَداقها. برهنتْ ممارسة تاو شيين للجراحةِ مع الإنكليزيّ إبانيزر هوبز عن فائدتها الكبيرة له. لم يخلُ الأمرُ في تلك البلاد المليئة بالأفاعي السامّة من وقوع لسعات في الكتف يأتي أصحابها منتفخين ومزرقّين على أكتاف رفاقهم. كانت المياهُ الملوّثةُ توزّ عُ ديمقراطيّاً الكوليرا التي لا يعرف لها أحد دواء، وأمراضاً أخرى ذات أعراضٍ فاضحة لكنّها ليست قاتلة دائماً. كان تاو شيين يتقاضى أجراً قليلاً، لكن دائماً مقدَّماً، فتجربته علّمته أن

الخائفَ يدفعُ دونَ أن ينبس بحرف بينما المرتاح يساوِمُ، وحين يفعل ذلك يأتيه معلّمه العجوزُ بملامح المؤنّب، لكنّه لا يقبلها ويتمتم «لاأستطيع أن أسمح لنفسي بترفِ أن أكون كريماً في هذه الظروف، يامُعلِّم». لم تكن أتعابه تتضمّن التخدير فمن يريد راحة المخدّر أو الإبر الذهبيّة عليه أن يدفع علاوةً. كان يستثني اللصوص الذين كانوا يعانون بعد محاكمة مقتضبة من سياطه أو قطعه لآذانهم: راح المُعدِّنون يتباهون بعدالته السريعة وليس بينهم من هو مستعدّ لتمويل أو مراقبة سجن.

ـ لماذا لا تتقاضى من المجرمين؟ ـ سألته إليثا.

ـ لأنّني أفضّل أن يصنعوا معي معروفاً ـ ردّ.

بدا تاو شيين مستعداً للاستقرار. لم يقل ذلك لصديقته، لكنّه لم يرغب بالتحرّك كي يمنح لين وقتاً للعثور عليه، فزوجته لم تتصل به منذُ أسابيع. بالمقابل تعدُّ إليثا الساعات، متلهّفةً لمتابعة السفر حتى سيطرت عليها مع مرور الأيّام مشاعرُ اكتشفها رفيقها في المُغامرات. شكرته على حمايته وطريقة رعايته لها، فهو مشغول بتغذّيتها جيّداً، بتغطيتها ليلاً ومدّها بأعشابه وإبره ليقوّي *الكِيْ* عندها كما كان يقول، لكنّ هدوءه يستفزّها لأنها لم تُميِّزه عن فقدان الإقدام. يسحرها تعبيره الرصين وابتسامته السهلة في لحظات ويزعجها في أخرى. لم تفهم لا مبالاته المطلقة بمحاولة الحصول على الثروة في المناجم بينما الجميع من حوله وخاصّة أبناء بلده الصينيون لا يفكّرون بشيءٍ آخر.

ـ أنتِ أيضاً لا يهمّك الذهب ـ ردّ عليها دون أن يتعكّر حين أنّبته.

ـ أنا جئتُ لهدفٍ آخر! فلماذا جئتَ أنت؟

ـ لأنّني بحار. لم أفكّر بالبقاء حتى طلبتِ مني ذلك.

ـ أنت لست بحّاراً، بل طبيباً.

ـ هنا أستطيع أن أعود طبيباً، على الأقل لبعضٍ الوقت. كنتِ على حق، توجد في هذا المكان أشياء كثيرة يمكن تعلُّمها.

هذه كانت حالته في تلك الأيّام. احتكّ بالسكان الأصليين لدراسةِ أدوية سَحَرَتِهم، وهم مجموعات هزيلة من الهنود المتشردين تُغطيهم جلودُ ثعالب أمريكية قذرة وأسمال أوروبيّة؛ فقدوا كلَّ شيء مع فورة الذهب؛ يمضون من هنا إلى هناك مع نسائهم المتعبات وأطفالهم المتضوّرين جوعاً، يحاولون غسل الذهب في الأنهار في سلال خيزرانهم الدقيقة، لكن ما أن يكتشفوا مكاناً مناسباً حتى يطردوهم منه بالرصاص. وحين يتركونهم بسلام يُشكّلون قراهم الصغيرة أكواخاً أو خياماً، يستقرون فيها حتى يُجبروهم على الرحيلِ من جديد. تآلفوا مع الصينيّ واستقبلوه بعلامات الاحترام لأنّهم اعتبروه *رجلَ طبٍّ* ـ حكيماً ـ وأعجبوا بمشاركته لهم في معارفهم. كان تاو شيين وإليثا يجلسان معهم في دائرة حول حفرةٍ يطبخون فيها على الحجارةِ الساخنة بعض ثمار البلوط أو يشوون بذوراً من الغابة وجنادِب بدت لإليثا لذيذةً. بعدها كانا يُدخّنان ويتحدّثان بخليط من الإنكليزيّة والإشارات والكلمات القليلة التي تعلّماها من اللغة المحليّة. اختفى في تلك الأيّام بعض المُعدِّنين اليانكيين، ومع أنّهم لم يعثروا على جثثهم إلاّ أنّ رفاقَهم اتهموا الهنودَ الحمرَ بقتلهم. احتلوا القرية انتقاماً وأسروا أربعين شخصاً بين امرأة وطفل وأعدموا سبعة رجال ليكونوا عبرة لغيرهم.

ـ إذا كانوا يعاملون الهنود الحمرَ بهذا الشكل فلا شكّ أنّهم سيعامِلون الصينيين بأسوأ منه ، يا تاو. عليك أن تصبح مستتراً، مثلي ـ قالت إليثا مذعورةً حين علمت بما حدث.

لكن تاو شيين لم يملك الوقت لتعلّم حيل الاختفاء فهو مشغول بدراسة النباتات، يقوم برحلات طويلة يجمعُ خلالها عيّناتٍ لمقارنتها بالتي كان يستخدمها في الصين. يستأجر زوجاً من البغال أو يسير أميالاً على قدميه تحت شمسٍ لا ترحم، حاملاً معه إليثا ترجماناً إلى أكواخ المكسيكيين، الذين عاشوا لعدّة أجيالٍ في تلك المنطقة ويعرفون الطبيعةَ. خسروا كاليفورنيا في حربهم مع الولايات

المتحدة قبل وقت قصير، وتلك المُخيّمات الكبيرة التي آوت في السابق مئات العمّال في نظام جماعي بدأت تنهار. المعاهدات بين البلدين صارت حبراً على ورق. في البداية علّم المكسيكيون، الذين يعرفون بالمناجم، القادمين الجددَ إجراءات الحصول على الذهب، لكن في كلّ يوم راح يصل المزيد من الأجانب ليغزوا البلدَ الذي يشعرون بأنّه لهم. عملياً كان الغرينغويون يحتقرونهم، كما يحتقرون أبناء أيّ عرقٍ آخر. بدأت حملة ملاحقة لا تكلّ ضد الهيسبانيين، أنكروا عليهم حقَّ استثمار المناجم، لأنّهم ليسوا أمريكيين وقبلوا مجرمين أستراليين ومُغامرين أوروبيين. آلاف العمال الذين لا عمل لديهم جرّبوا حظّهم في المناجِم، لكنهم حين صارت ضربات الغرينغويين لا تُحتَمَلُ هاجروا إلى الجنوبِ أو تحوّلوا إلى مُجرمين. كان باستطاعة إليثا أن تتسلى قليلاً برفقة نساء الأسرِ المتبقيّة في بعض المساكِن الخشنة، وهي رفاهية غريبة أعادت لها في لحظاتٍ نادِرة أيّام السعادةَ والهدوءِ في مطبخ ماما فرِسيا، كما شكّلت المناسبات الوحيدة التي خرجت فيها عن صمتها الإجباريّ وتكلّمت بلغتها. كُنّ أُمّهات قويّات وكريمات يعملن يداً بيد مع الرجال في أصعب المهام، وقد جفّفهنّ التعبُ والحاجةُ متأثّرات من ذلك الصيني ذي المظهر الهش، مُتعجّبات من أنّه يتكلّمُ الإسبانيّة مثل أيّة واحدة منهنّ؛ وهنّ يمنحنه بكلّ رحابة صدرٍ أسرارَ الطبيعة التي استُخدِمت لقرون للتخفيف من أمراض عدّة، كما يقدّمْنَ إليه عدداً من وصفات طعامهنّ اللذيذة التي تُسجّلها في دفاترها، واثقة من أنّها ستكون عاجلاً أو آجلاً مفيدة لها. أوصى *الزهونغ يي* خلال ذلك على أدوية غربية، علّمه استخدامَها صديقُهُ إبانيزر هوبز في هونغ كونغ، من سان فرانسيسكو. كما نظّف قطعة من الأرض بجانب الكوخ وسيّجها لحمايتها من الأيائل، وزرع فيها النباتات الأساسية لمهنته.

ـ بالله عليك يا تاو! هل تفكّر بالبقاء هنا حتى تبرعم هذه الشجيرات الهزيلة؟ ـ هتفت إليثا يائسة حين رأت السيقان الذابلة والأوراق المصفرّة، دون أن تتلقى جواباً غير إيماءة مبهمة.

شعرت بأنّ كلّ يوم يمرُ يبعدها أكثر عن قدرها، وأنّ خواكين أندْيتا يتغلغل أكثر وأكثرُ في تلك المنطقة المجهولة، ربّما في طريقه إلى الجبال، بينما تضيّع وقتها في ساكرامِنتو مموّهة نفسها على أنّها أخٌ لحكيم صينيّ أبله. عادة ما غطّت تاو شيين بأقذع النعوت، لكنّها من الحكمة بحيث فعلت ذلك بالقشتالية، تماماً كما كان ولا بدّ يفعل حين يتوجّه إليها بالكانتونيّة. كانا قد أتقنا تماماً إشارات التواصل أمام الآخرين دون كلام وبالتالي ومن كثرة ما مثّلا معاً صارا من التشابه بحيث لم يشك أحد ما بقرابتهما. كانا إذا لم يشغلهما مريض معيّن يخرجان ليطوفا في الميناء والحوانيت، يقيمان صداقاتٍ ويستقصيان عن خواكين أندْيتا. صارت إليثا تطبخُ فاعتاد تاو شيين سريعاً على صحونها وإن هرب من حين لآخر إلى المطاعم الصينية في المدينة، حيث استطاع التهامَ ما وسع كرشُهُ بدولارين، وهي صفقة رابحة إذا أخذنا بالحسبان أنّ بصلةً واحدةً تُكلّفُ دولاراً. تواصلا أمام الآخرين بالإيماء، وعلى انفرادٍ بالإنكليزيّة. ورغم الشتائم المتبادلة أحياناً إلا أنّهما عملا كتفاً إلى كتف كرفيقين جيّدين وفاضت عنهما فرصُ الضحك. فاجأه أن يستطيعَ مشاطرة إليثا الفكاهة على الرغم من العثرات اللغويّة والفوارق الثقافيّة، لكن هذه الاختلافات الثقافية هي بالضبط ما كان ينتزع قهقهته: لم يكن يستطيع تصديق أنّ امرأةً تفعل أو تقول تلك الفظائع؛ يراقبها بفضولٍ ورقّةٍ لا يمكن الاعتراف بها وعادة ما يخرسُ إعجاباً بها، يعزو لها شجاعة المحارِب، لكنّه يراها تضعف حتى تبدو له طفلةً فينتصرُ عليه إحساسُهُ بواجب حمايتها. على الرغم من أنّ وزنَها ازداد قليلاً ولونَها تحسّنَ فمن الواضح أنّها ماتزال ضعيفة. ما أن تغيب الشمس حتى يبدأ رأسُها بالنوسان وتلفّ نفسها في بطانيتها وتنام، فيستلقي بجانبها. وصل بهما الاعتياد على هذه الساعات الحميمة من التنفس بصوتٍ واحدٍ درجة ارتياح الجسدين من تلقاء ذاتهما في الحلم، فإذا استدار أحدُهُما استدار الآخرُ أيضاً بحيث أنّهما لا ينفصلان؛ يستيقظان أحياناً متشابكين في البطانيتين ومتداخلين. إذا فعل هذا هو أوّلاً تمتّع بتلك اللحظات التي تستحضر إلى ذاكرته ساعاته السعيدة مع لين، وهو

جامد كيلا تشعر هي برغبته؛ دون أن يعرف أنّها بدورها تفعل الشيءَ ذاته، ممتنّةً لوجود هذا الرجل الذي يسمح لها بتخيّلِ ما أمكن أن تصير إليه حياتها مع خواكين أنديّيتا لو حالفها الحظّ أكثر. ما من أحدٍ منهما ذكر ما يحدث له ليلاً قط، لكأنّها حياة موازية لا يعيانها. ما أن يرتديا ملابسهما حتى يختفي سرُّ سحرِ هذه العناقات تماماً ويعودا أخوين. قليلة هي المرّات التي كان تاو شين يذهب فيها وحده بخروجات غامضةٍ ليلاً ليعود منها سرّاً. امتنعت إليثا عن التحقق لأنّها استطاعت شمّه: كان مع امرأةٍ بل وتستطيع أن تميّز عطرَ المكسيكيات المحلْوَن، فتبقى مطمورةً تحت بطانيتها مرتعدةً في الظلمة، مشدودةً إلى أدنى صوتٍ حولها وسكين في يدها، تناديه بتفكيرها وهي خائفة. لم تستطع تبرير تلك الرغبة بالبكاء التي تنتابها وكأنّ خيانة قد ارتكبت بحقّها. كانت تعرف بشكلٍ مشوّش أنّه ربّما اختلف الرجالُ عن النساء دون أنْ تشعر من جهتها بأيّةِ حاجةٍ إلى الجنس، إذ كفتها العناقات الليليّة العفيفة لإشباع شوقها للرفقة والحنان، لكنها لم تشعر بالشوق لأيّام غرفة الخزائنِ حتى وهي تفكّر بحبيبها القديم. لم تدرِ ما إذا كان الحبّ والرغبةُ هما الشيء ذاته عندها، إذا غاب الأوّل يُصبح من الطبيعيّ ألاّ يظهر الثاني، أم أنّ المرض الطويل في السفينة دمّرَ شيئاً جوهرياً في جسدها. تجرّأت ذات مرّة وسألت تاو شيين عمّا إذا كانت ستستطيع الإنجاب لأنّ دورتها الطمثية قد انقطعت منذ شهورٍ عدّة، فأكّد لها أنّها ما أن تستعيد قواها وصحّتها حتى تعود إلى طبيعتها وهو لهذه الغاية يضع لها إبر العلاج. كانت تتظاهر بالنوم العميق حين ينزلق صديقها صامتاً بجانبها بعد هربه، حتى ولو بقيت مستيقظة ساعات، وهي تشعر بالإهانة من رائحة المرأة الأخرى بينهما. عادت منذ حطّا في سان فرانسيسكو إلى العفّة التي ربّتها عليها الآنسة روز. رآها تاو شيين عاريةً خلال أسابيع العبور بالسفينة وعرفها من داخلها ومن خارجها، تكهّن بدوافعها فلم يسألها بدوره إلا للاستفسار عن صحّتها. حتى أنّه حين كان يضع لها الإبر يحرصُ ألاّ يجرح حياءها. لم يخلع أحدهما ملابسه خلال حضور الآخر، وقد اتفقا ضمناً على احترام خصوصيّة الحفرة التي

يستخدمانها كمرحاض خلف الكوخ، وما عدا ذلك يتقاسمان كلّ شيء بَدْءاً من المال وحتى الملابس. بعد سنوات كثيرة وحين كانت إليثا تراجع ملاحظاتها في يوميات تلك المرحلة تساءلت مستغربةً لماذا لم يعترف أيّ منهما بالجاذبيّة التي شعر بها تجاه الآخر، ولماذا لاذا بالحلم ليلمس أحدهما الآخر متظاهرين خلال النهار بالبرودة. خلصت إلى أنّ حبَّ شخصٍ من عرقٍ آخر بدا لهما مُحالاً، واعتقدا أنه لا مكان لزوجين مثلهما في العالم.

- كنتِ لا تُفكّرين إلا بحبيبك - وضّح لها تاو شيين، الذي صار شعره رماديّاً.

- وأنتَ بلين.

- في الصين يمكن امتلاك عدّة زوجات ولين كانت دائماً متسامحة.

- ثمّ إنك كنت تشمئزّ من قدميّ الكبيرتين - تسخر هي.

- صحيح - ردّ عليها بكلّ جدّية.

هبط في حزيران صيفٌ لا يرحم، فتضاعف الذبابُ وخرجت الأفاعي من أوكارها لتتنزّهَ بلا عقاب، وانبثقت نباتات تاو شيين قويّة كما في الصين، وجماعات المغامرين تابعت وصولها وهي في كلّ مرّةٍ أكثر تتالياً وعدداً، وبما أن ساكرامِنتو كانت ميناءَ الوصول فإنّه لم يصبها ما أصاب عشرات القرى الأخرى التي راحت تظهرُ مثل الفطر قرب مكامِن الذهب، تزدهرُ بسرعة وتختفي فجأة ما أن ينفدَ المعدنُ السهلُ، إذ بدأت المدينة تكبر في كلّ دقيقةٍ، تُفْتَتَحُ مخازن جديدة، والأراضي ما عادت تُعطى مجّاناً كما في البداية، بل تُباع بسعرٍ مرتفعٍ كما في سان فرانسيسكو. كان هناك صورة حكومة أوّلية واجتماعات متكررة لتقرير تفاصيل الإدارة. ظهر مُضارِبون ومدّعو معرفة بالحقوق ومبشرون إنجيليون ومقامِرون مُحتَرِفون، قطّاع طرقٍ وقوّادات مع فتيات مرحات، ومبشرون آخرون بالتقدّم والحضارة. يمرّ آلاف الرجالِ في طريقهم إلى

ضفاف شذرات الذهب، وكذلك آخرون مُنهَكون ومرضى عادوا بعد أشهر من العمل الشاق مستعدين للتفريط بأرباحهم. راح عدد الصينيين يزدادُ يوماً بيوم وسرعان ما وُجدت ثُلّتان متنافستان. وسرعان ما تحوّلت هذه الجماعات إلى دوائر مغلقة يساعد أعضاؤها بعضهم بعضاً كالأخوة في لحظات الحياة اليومية والعمل الصعبة؛ لكنّهم أيضاً يسهلون الفساد والجرائم. كان بين الواصلين الجدد زهونغ بي آخر، يقضي معه تاو شيين ساعاتٍ من السعادة التامّة يُقارنان أدويةً ويذكران كونفوشيوس. ذكّره بإبانيزر هوبز، لأنّه لم يكتفِ بتوزيع العلاجات التقليديّة، وبحث عن خيارات جديدة أيضاً.

ـ علينا أن ندرس طبَّ *الفان غوي* أيضاً، فطبّنا ليس كافياً ـ كان يقولُ له فيتّفق معه تماماً لأنّه كلّما ازداد عِلْماً ازداد الانطباع بأنّه لا يعرفُ شيئاً أكبر والحياةَ لا تكفيه لدراسة كلٍّ ما ينقصه.

نظّمت إليثا تجارة الفطائر لتبيعها بسعر الذهب، في البداية للتشيليين، ثمّ لليانكيين، الذين اعتادوا عليها فوراً. بدأت بصنعها من لحم البقر حين تستطيع شراءه من مربي الماشية المكسيكيين الذين يسوقون القطعان من سونورا، لكن ونظراً لندرته جرّبت صنعها من الغزال والأرنب والإوزّ البرّي والسلحفاة والسلمون بل والدبّ أيضاً. يستنفدها زبائنها الأوفياء كلّها ممتنّين لأنّ الخيار الآخر هو الفاصولياء المحفوظة في مرطبانات والخنزير المملّح، وجبة المُعدِّنين التي لا تتبدّل. لا أحد يملك الوقت للصيد البرّي أو المائي أو الطبخ، كما لا يمكن الحصول على الخضار والفواكه، أمّا الحليبُ فرفاهيةٌ أكثر ندرة من الشمبانيا ومع ذلك لا يندر الطحين والدهن والسكّر، وكذلك الجوز والشوكولا وبعض التوابل والدراق والخوخ المجفّف. كانت تصنع الحلوى والبسكويت بالنجاح ذاته الذي تصنع به فطائرها، وكذلك خبر التنور الذي ارتجلته متذكّرة تنور ماما فرِسيا. وإذا حصلت على البيض وشحم الخنزير وضعت إعلاناً تعلن فيه عن وجباتِ إفطار؛ وعندئذ يشكّل الرجال صفّاً للجلوس تحت الشمس أمام بيتٍ غير مرتّب. كان هذا الطعام الذي يحضّره صينيّ

أصم وأبكم يُذكّرهم بأيّام الآحاد العائلية في بيوتهم البعيدة جدّاً. وجبة إفطار وفيرة من البيض المقلي مع شحم الخنزير، الخبز الطازج، حلوى الفواكه والقهوة بقدرٍ معيّنٍ تكلّف ثلاثة دولارات؛ حتى أنَّ بعض الزبائن المتأثرين والممتنين لأنّهم لم يجرّبوا منذ شهور كثيرة شيئاً مشابهاً كانوا يتركون دولاراً في مرطبان الإكرامية. وذات يوم من أواسط الصيف مثلت إليثا أمام تاو شيين تحمل في يديها وفوراتها.

ـ نستطيع بهذا شراءَ خيولٍ والانطلاق ـ أعلنت له.

ـ إلى أين؟

ـ للبحث عن خواكين.

ـ أنا باقٍ. ليس لي مصلحة في العثور عليه.

ـ ألا تريد معرفة هذا البلد؟ هنا يوجد أشياء كثيرة لتراها وتتعلّمها. بينما أبحثُ أنا عن خواكين تستطيع أنتَ أن تُدرِك معرفتك الشهيرة.

ـ نباتاتي تنمو ولا أحب الانتقال من مكان إلى آخر.

ـ حسناً، أنا ذاهبة.

ـ لن تصلي بعيداً وحدكِ.

ـ سنرى.

ناما في تلك الليلة كلٌّ في طرف من الكوخ دون أن يتوجّهَ أحدهما بالكلام إلى الآخر. خرجت إليثا في اليومِ التالي باكراً لشراء ما تحتاجه للسفر، المهمّة الصعبة وهي تتظاهر بالصمم، ومع ذلك عادت في الرابعة مساءً ومعها جواد مكسيكي قبيح ومعقّر جدّاً، إلاّ أنَّهُ قويّ، كما اشترت جزمة وبنطلوناً سميكاً وقفازاً جلديّاً وقبّعة عريضة الإطار وزوج من أكياس الأغذية الجافّة، صحناً وفنجاناً وملعقةَ تنك وسكيناً فولاذيّة جيّدة ومطرة ماء، مسدّساً وبندقيّة لاتعرف تلقيمها كما لا تعرف إطلاق النار بها. قضت بقيّة المساء تنظّم أمتعتها وتخيط مجوهراتها والنقود التي تبقّت معها في مئزر

من القطن، هو ذاته الذي استخدمته لفلطحة ثدييها وحملت تحته رزمة رسائل حبّها دائماً. أذعنت لترك الحقيبة وثيابها وملابسها الداخلية وجزمتها التي كانت ما تزال تحتفِظ بها. ارتجلت سرجاً من البطانيّة القشتالية، كما رأتهم يفعلون مرّاتٍ كثيرةً في تشيلي. خلعت ثيابَ تاو شيين التي استخدمتها شهوراً، وجرّبت الملابسَ التي حصلت عليها توّاً. شحذت بعدها السكين على سيرٍ من الجلد وجزّت شعرها على مستوى العنق. بقيت جديلتها الطويلةُ على الأرض مثل أفعى ميتة. نظرت إلى نفسها في كسرةِ مرآةٍ وبقيت راضية عن نفسها: بوجهها الوسخ وحاجبيها المضخّمين بخط من الفحم ستكونُ الخدعةُ تامّة. في هذه الأثناء وصل تاو شيين عائداً من إحدى مسامراته مع *الزهونغ يي* الآخر فلم يعرفْ للوهلة الأولى راعيَ البقر المسلّح الذي غزا مملكته.

ـ غداً سأذهب، يا تاو. شكراً على كلِّ شيء، أنت أكثر من صديق، أنت أخي. سأحتاج إليك كثيراً...

لم يُجِبْ تاو شيين بشيء. حين حلَّ الليلُ استلقت هي في زاوية وجلس هو يعدُّ النجوم في الخارج يلفحه نسيم الصيف.

السرّ

في المساء الذي خرجت فيه إليثا من بالبارايسو في كرش السفينة *إميليا* تناول الأخوةُ سومّرز الثلاثة عشاءهم في الفندق الإنكليزي بدعوةٍ من باولينا، زوجة فِليثيانو رودريغِثْ دِ سانتا كروث وعادوا متأخرين إلى بيتهم في ثِرّو ألِغرِ. لم يدروا باختفاء الفتاة إلا بعد أسبوع لأنّهم تخيلوها في مزرعة أغوستين دِلْ باليِه برفقة ماما فرِسيا.

في اليوم التالي وقّعَ جون سومّرز عقدَه كقبطان لـ *فورتونا* (الحظ) باخرة باولينا القشيبة. وثيقة بسيطة تحتوي على مفردات الاتفاق أغلقت العقد. كفت رؤيتهما بعضهما لبعض مرّةً واحدة حتى شعرا بالثقة. لم يكن لديهما وقت يضيعانه في التوافه القانونية، فلهفة الوصول إلى كاليفورنيا هي همّهما الوحيد. تشيلي بكاملها كانت متورّطة في الشيء ذاته على الرغم من نداءات الحكمة المنشورة في الصحف والمكرّرة في العظات التنبّؤية على منابر الكنائس. لم يستغرق القبطان إلا ساعاتٍ لإدارة الباخرة لأنّ صفوف طالبي الصعود الذين أهاجتهم حمّى وباء الذهب كانت تدور حول أرصفة الميناء. وهناك كثيرون يقضون الليل نائمين على الأرض كيلا يفقدوا أماكنهم. رفض جون سومّرز أمام دهشة رجال بحر آخرين ما استطاعوا تصور دوافعه، أن يحمل معه ركاباً، بحيث أنّ باخرته ذهبت فارغةً عملياً. لم يعطِ توضيحات. كانت لديه خطّة

قرصانٍ بحر شمال لتفادي هرب البحارة عند الوصول إلى سان فرانسيسكو، لكنّه صمت عليها، لأنّه لو أذاعها لما حصل على بحّارٍ واحد. كما أنّه لم يُعْلِمْ طاقمَ البحارة أنّهم سيدورون دورة غير معهودة في الجنوب قبل التوجّه إلى الشمال. انتظر حتى يصبح في عرض البحر ليفعل ذلك.

ـ إذن تشعر بنفسك قادراً على استخدام باخرتي والتحكّم بالبحارة، أليس كذلك، أيّها القبطان؟ ـ سألته باولينا مرّة أخرى حين مررت له العقد ليوقّعه.

ـ بلى، يا سيّدتي، لا خوف عندي من هذا. أستطيع الانطلاق خلال ثلاثة أيّام.

ـ حسناً جدّاً. هل تدري ما ينقص في كاليفورنيا، أيها القبطان؟ منتجات طازجة: فواكه، خضراوات، بيض، أجبان جيّدة، أنواع السجق. هذا ما سنبيعه هناك.

ـ كيف؟ سيصل كلّ شيءٍ متعفّناً...

ـ سنأخذه في الثلج ـ قالت بثقة.

ـ في ماذا؟

ـ في الثلج. ستذهب أولاً إلى الجنوب بحثاً عن الثلج. هل تعرف أين تقع بحيرة سان رافائيل؟

ـ بالقرب من ميناء آيسن.

ـ يسعدني أنّك تعرف تلك المناطق. قالوا لي إنّه يوجد هناك جبل جليدٍ في غاية الجمال. أُريدُك أن تملأ *فورتونا* بقطع الجليد. ما رأيك؟

ـ اعذريني، يا سيّدتي يبدو لي هذا جنوناً.

ـ تماماً. لذلك لم يخطر ببال أحد. خذْ معك براميل ملح خشن واحتياطيّاً جيّداً من الأكياس ولفّ لي قطعاً كبيرة. آه، يبدو لي أنّ عليك أن تُدثِّر رجالك جيّداً كيلا يتجمّدوا. بالمناسبة اعمل معروفاً، أيها القبطان ألا تتحدَّث بهذا مع أحد لئلا يسرقوا الفكرة منّا.

ودّعها جون سومّرز مرتبكاً. بداية فكّر أن المرأة مخبولة، لكنّه كلّما فكّر أكثر كلّما ازداد إعجاباً بالمغامرة. ثمَّ إنه ليس لديه مايخسره فهي تخاطر بإفلاسها بينما هو يتقاضى مرتبه حتى ولو صار الثلجُ ماءً في الطريق. وإذا ما نجحت تلك الحماقة سيتلقى حسب العقد سنداً لا يُستهان به. بعد أسبوع، حين انفجر خبر اختفاء إليثا كان في طريقه إلى جبل الجليد ومراجل الباخرة تشخر، ولم يدرِ بالأمر حتى عاد، حين رسا في بالباريسو كي يُحمّل المنتجات، التي حضّرتها باولينا، في عشٍّ من جليدٍ ما قبل التاريخ إلى كاليفورنيا، حيث سيبيعها زوجها وأخوه بسعر أكبر بكثير من قيمتها. إذا خرج كلّ شيءٍ كما خطّطت سيصبح لديها، بعد ثلاث أو أربع رحلات من رحلات *فورتونا*، من المال ما لم تحلم به قط؛ فهي قد قدّرت كم سيتأخّر أصحاب الشركات الأخرى في نسخ مبادرتها وإزعاجها بالمنافسة. أمّا بالنسبة إليه فقد فكّر أيضاً بحمل منتجٍ آخر يمكن أن يبيعه بأفضلِ سِعر: كتب.

حين لم تعد إليثا ومربيتها في اليوم الموعود أرسلت روز السائقَ مع ملاحظةٍ ليتحقّق مما إذا كانت عائلةُ دِلْ باليه ما تزالُ في المزرعة وما إذا كانت إليثا بخير. بعد ساعة ظهرت زوجة أغوستين دِلْ بالْيه مذعورة. قالت إنّها لا تعرف شيئاً عن إليثا. فالأسرة لم تتحرّك من بالباريسو، لأنّ زوجها مصاب بنوبة من داء النقطة وهي لم ترَ إليثا منذ شهور. ملكت الآنسة روز من برودةِ الدم ما كفاها كي تُمَوِّهَ: إنّه خطؤها، اعتذرت، فإليثا موجودة في بيت صديقةٍ أُخرى، لقد اختلط عليها الأمر وهي تشكرها جزيل الشكر لأنّها أزعجت نفسها وجاءت شخصيّاً. لم تُصدِّق السيّدة دِلْ باليه كلمةً واحدة، كما هو منتظر. انتشر خبرُ هرب إليثا سومّرز على كلّ فمٍ في بالباريسو قبل أن تستطيع الآنسة روز إعلام أخيها جِرمي فيٍّ مكتبه.

قضت الآنسة روز بقيّةَ يومها في البكاء وقضاهُ أخوها في التخمين. حين فتّشا غرفة إليثا عثرا على رسالة الوداع فأعادا قراءتها عدّة مرّاتٍ متتبّعين عبثاً أيّ أثر. أيضاً لم يستطيعا معرفة مكان ماما فرِسيا ليستنطقاها، فانتبها على الفور إلى أنّها عملت

عندهم ثمانية عشر عاماً ولا يعرفان كنيتها. لم يسألوها قطٍ من أين هي ولا ما إذا كانت لها أسرة. كانت ماما فرِسيا تنتمي ككلِّ الخدم إلى الليمبوس الهلامي للأشباح غير المجدية.

ـ بالبارايسو ليست لندن، يا جِرمي. لا يمكنهما أن تكونا قد ذهبتا بعيداً. يجب البحث عنهما.

ـ هل تلاحظين الفضيحة التي سنقع فيها حين نبدأ بالاستقصاء بين الأصدقاء.

ـ وماذا يهمّ ما يقوله الناس! الشيء الوحيد الذي يهمُّ هو العثور على إليثا بسرعة قبل أن تدخل في ورطة.

ـ بصراحة، يا روز، إذا كانت قد هجرتنا بهذه الطريقة، فهذا يعني أنّها متورّطة في مشاكل.

ـ ماذا تريد أن تقول؟ ما نوع المشاكل؟ ـ سألت الآنسة روز مذعورة.

ـ رجل، يا روز. إنّه السبب الوحيد الذي لأجلهِ ترتكبُ فتاةٌ حماقةً بهذا الحجم. أنت تعرفين هذا أكثر من أيّ شخصٍ آخر. مع من يمكن أن تكون إليثا؟

ـ لا أستطيع تصور ذلك.

كانت الآنسة روز تستطيع تصوّره تماماً؛ تعرف من هو المسؤول عن هذا الأذى المريع: ذلك الشخص ذو المظهر الجنائزي الذي حمل الصناديق قبل أشهر إلى البيت، مستخدم جِرمي. لم تعرف اسمه لكنّها ستستفسر عنه. ومع ذلك لم تقله لأخيها، لأنّها ظنّت أنّها ما زالت تملك الوقت لإنقاذ الفتاة من مكائد الحبّ المزعج. كانت تتذكّرُ بدقّةِ كاتبٍ عقودٍ كلَّ تفصيلٍ من تجربتها الخاصّة مع التينور الفيينيّ والقلق آنذاك طازَج. ما عادت تُحبّه، هذا صحيح، فقد انتزعته من روحها منذ قرون، لكن يكفي الهمس باسمه كي تشعر بناقوس مدوٍّ في صدرها، فكارل برِتزنِر مفتاح ماضيها وشخصيّتِها، لقاؤها الفرور به حدّدَ مصيرَها ونوعَ المرأةِ التي صارت إليه. لو عادت وعشقت ، فكّرت، كما فعلت آنذاك لفعلت الشيءَ

ذاته، حتى وهي تعرف جيّداً كيف بدّلت تلك العاطفةُ حياتها. ربّما كان حظّ إليثا أفضل، جاء حبُّها صحيحاً والحبيبُ حرّاً، ليس لديه أولاد وزوجة مخدوعة. عليها أن تعثر على الفتاة وتواجه الغاوي الرجيم، أن تجبرهما على الزواج وتقديم الأشياء جاهزة لجِرمي، الذي سينتهي مع الزمن إلى قبولهما. سيكون أمراً صعباً نظراً لعناد أخيها فيما يتعلّق بالشرف، لكنّه إذا كان قد غفر لها فإن باستطاعته أن يغفر لإليثا. إقناعُهُ مهمّة منوطة بها فهي، اعترفت، لم تقم بدور الأمّ طوال كلّ تلك السنوات لتبقى مكتوفة الأيدي حين ترتكب ابنتها الوحيدة خطأً.

بينما انغلق جِرمي سومّرز على صمتٍ داوٍ ووقورٍ لم يحمِه من القيْلِ والقال الجارف، شرعت الآنسة روز بالعمل. اكتشفت بعد أيّام هويّة خواكين أنذيِتا، عرفت مذعورةً أنّ الأمر متعلّق بهاربٍ من العدالة ليس أقل. متّهم بخلط حسابات *شركة الاستيراد والتصدير البريطانية* وسرقة بضاعة. أدركت كم هي القضيّة أخطر ممّا تصوّرت: لن يقبل جِرمي بمثل هذا الشخص في حضن أسرته أبداً. بل وأكثر من ذلك ما أن يمسك بمستخدمه القديم حتى يرسله إلى السجن بالتأكيد، حتى ولو أصبح زوجاً لإليثا؛ إلا إذا عثرت على طريقة تجبره على سحب التهمة عن هذا الشرير وتنظيف اسمه من أجلنا جميعاً، تمتمت غاضبةً. أولاً عليها العثور على الحبيبين وبعدها سترى كيف تصلح ما تبقى. حرصت جيّداً على عدم ذكر ما حصلت عليه من معلومات، وقضت بقيّة الأسبوع تستقصي هنا وهناك إلى أن ذكروا لها أمّ خواكين أنذيِتا في مكتبة سانتوس تورنِرو. حصلت على عنوانها ببساطة من خلال السؤال في الكنائس، فقد كان الرهبان الكاثوليكيون يملكون قوائم أبناء رعيتهم كما افترضت.

مثلت ظهيرةَ يوم الجمعة أمام المرأة. ذهبت مشحونةً بالكبرياء، مدفوعة باستقصاء عادِل ومستعدة لأن تقول لها عدداً من الحقائق، لكنّها راحت تتلاشى مع تقدّمها في أزقّة ذلك الحيّ الملتوِيَةِ التي لم تطأها قط. ندمت على لباسها الذي اختارته، وأسفت لقبّعتها المزيّنة أكثر من اللازم ولجزمتها البيضاء، وشعرت بنفسها

أضحوكةً. طرقت الباب يخالطها شعور بالعار تحوّلَ إلى تواضُع صريح حين رأت أمّ أنذيتا بعينين محمرّتين وتعبير حزين. بدت لها عجوزاً، لكن حين أمعنت النظر فيها أدركت أنّها ما زالت شابّةً وكانت في الماضي جميلةً، ولا شكّ أنّها مريضة. استقبلتها دون مفاجأة، فهي معتادة على السيدات الغنيّات اللواتي يأتين لتكليفها بأعمال الخياطة والتطريز، ويمررن المعلومة بعضهنّ إلى بعض، وليس من المستغرب أن تطرق سيّدة مجهولة بابها. الأمر يتعلّقُ هذه المرّة، كما يمكنها أن تتكهّن من لباسها الفراشي اللون، بامرأة أجنبيّة، إذ ما من تشيليّة تتجرّأ أن ترتدي بهذه الطريقة. حيَّتْها دون ابتسامٍ وأدخلتها.

ـ اجلسي من فضلك، يا سيّدتي. بماذا أستطيع أن أخدمك؟

جلست الآنسة روز على حافّة الكرسي الذي قدّمته إليها دون أن تستطيع النطقَ بكلمة واحدة. كلّ ما خطّطت له تبخّر من عقلها بلمحةِ إشفاقٍ على تلك المرأة، على إليثا وعليها، بينما راحت دموعُها تجري مثل نهرٍ، تغسلُ وجهَها وروحَها. ضمّت أمّ خواكين يدها بين يديها بارتباك.

ـ ما بكِ، يا سيّدتي؟ هل أستطيعُ مساعدتك؟

عندئذ حكت لها الآنسة روز دفقاً وبإسبانيّة غرينغويّة أنّ ابنتها الوحيدة التي اختفت منذ أسبوع، تحبّ خواكين أنذيتا، وأنّهما تعارفا منذ أشهرٍ مضت ومنذ ذلك الوقت تبدّلت الفتاة. كانت متأجّجة حبّاً، وباستطاعة أيّ إنسان ملاحظة ذلك، إلاّ هي نظراً لأنانيّتها الشديدة وسهوها فإنها لم تهتمّ في الوقت المناسب، والآن تأخر الوقتُ لأنّ الاثنين هربا. دمّرت إليثا حياتَها تماماً كما دمّرت هي حياتها. راحت تروي لها أمورها شيئاً بعد آخر دون أن تستطيع التوقّف إلى أن قالت لهذه الغريبة ما لم تقله لأحدٍ قط، كلّمتها عن كارل برِتْزنِر وغرامياتها اليتيمة والأعوام العشرين التي انقضت مذّاك في قلبها الغافي وبطنها المهجور. بكت بكاء مرّاً خساراتها التي صمتت عليها طوال حياتها، الغيظَ الخفيَّ نظراً للتربية الجيدة، الأسرار التي تثقل كاهلها مثل أصفاد سجين للحفاظ على المظاهرِ،

والشباب المتأجّج الذي أُهدر لمجرّد حظّها السيئ في أنّها وُلِدَت امرأة. وحين نفد هواءُ انتحابِها مكثت جالسةً هناك لا تفهم ما الذي أصابها ولا من أين جاءتها هذه الراحة الشفافة التي بدأت تستحوذ عليها.

ـ تناولي قليلاً من الشاي ـ قالت أمُّ خواكين أنذيِتا بعد صمتٍ طويل، واضعة فنجاناً مثلوماً في يدها.

ـ أرجوك، قولي لي ما إذا كانت إليثا وابنك يُحبّان بعضهما. لستُ مجنونةً، أليس كذلك؟ ـ همست الآنسة روز.

ـ يمكن ذلك، يا سيدتي. فخواكين مشوّش أيضاً، لكنّه لم يقل لي اسم الفتاة.

ـ ساعديني. يجب أن أعثر على إليثا...

ـ أؤكّد لك أنّها ليست مع خواكين.

ـ كيف تستطيعين معرفة ذلك؟

ـ ألا تقولين إنّ الفتاة اختفت منذ أسبوع؟ ابني ذهب في كانون الأوّل.

ـ تقولين ذهب؟ إلى أين؟

ـ لا أعرف.

ـ أتفهّمك، يا سيّدتي. فلو كنتُ مكانك لحاولت حمايته. أعرف أنّ ابنك لديه مشاكل مع العدالة. أعطيك كلمة شرف أنّني سأساعده، أخي هو مدير *الشركة البريطانيّة* وسيفعل ما أطلبه منه. لن أقول لأحد أين ابنك، فقط أريد أن أتكلّم مع إليثا.

ـ ابنتك وخواكين ليسا معاً، صدّقيني.

ـ أعرف أنّ إليثا تبعتْهُ.

ـ لا يمكن أن تكون تبعته، يا سيّدتي. فابني ذهب إلى كاليفورنيا.

في اليوم الذي عاد فيه جون سومّرز بـ*فورتونا* محملة بالثلج

الأزرق إلى بالبارايسو وجَدَ أخويه بانتظاره على الرصيف كما هي العادةُ، كفته رؤية وجهيهما ليدركَ أنّ شيئاً خطيراً قد حدث. كانت روز نحيلة وما كادت تُعانقه حتى انفجرت ببكاء جامح.

ـ لقد اختفت إليثا ـ أخبره جِرمي وهو من الغضب بحيث لم يكد يستطيع لفظ الكلمات.

ما أن التقيا على انفراد حتى حكت روز لجون ما تحقّقت منه من والدة خواكين أنديِتا. اقتنعت خلال تلك الأيام الأبديّة، وهي تنتظر أخاها المفضّل وتحاول أن تربط بين الأشياء المتفرّقة، بأنّ الفتاةَ قد تبعت حبيبها إلى كاليفورنيا، لأنّها لو كانت محلّها لفعلت الشيء ذاته. قضى جون اليوم التالي مستقصياً في الميناء، وهكذا عرف أنّ إليثا لم تحصل على تذكرة في أيّ سفينة وأنّ اسمَها لم يرد في لوائح المسافرين، بينما دوّنت السلطات إبحارَ المدعو خواكين أنديِتا في كانون الأوّل. افترض أنّ من الممكن للفتاة أن تكون قد بدّلت اسمها كي تضلّلهم فعاد ليقوم بالشيء ذاته بصفاتها المفصّلة، لكنّ أحداً لم يرها. أكّدوا له أنّ شابة أو طفلة تقريباً، تُسافر وحدها أو ترافقها هنديّةٌ حمراء فقط لا بدَّ ستلفت الانتباه على الفور، ثمّ إن النساء اللواتي يذهبن إلى سان فرانسيسكو قليلات جدّاً، ولا تذهب إلا صاحبات الحياة الداعرة، ومن حين لآخر زوجةُ قبطان أو تاجِر.

ـ لا يمكن أن تكون قد أبحرت دون أن تترك أثراً، يا روز ـ استنتج القبطان بعد سرد تحرّياته.

ـ وأنديِتا؟

ـ لم تكذب أمّه عليك. فاسمه ظهر في اللائحة.

ـ اختلس بعض منتجات *الشركة البريطانية*. أنا واثقة من أنّه فعل ذلك لأنّه لم يستطع أن يغطي رحلته بطريقة أخرى. جِرمي لايعرف أنَّ اللصّ الذي يبحث عنه هو عشيق إليثا وآمل ألا يعرف أبداً.

ـ ألست متعبة من كثرة الأسرار، يا روز؟

ـ وماذا تُريدني أن أفعل؟ حياتي قائمة على المظاهر وليس

على الحقائق. جِرمي مثل حجر، أنت تعرفه مثلي تماماً. ماذا سنفعل بالنسبة للطفلة؟

ـ سأنطلق غداً إلى كاليفورنيا، فالباخرة محمّلة. إذا كانت النساء هناك قليلات إلى هذا الحدّ، كما يقولون، سيكون من السهل العثور عليها.

ـ لا يكفي هذا، يا جون!

ـ هل يخطر لك شيءٌ أفضل؟

أصرّت الآنسة روز في ساعةِ عشاءِ تلك الليلةِ على ضرورةِ استنفار جميع الوسائل المتاحة للعثور على الفتاة. جِرمي، الذي بقي على هامِش نشاط أخته المحموم، دون أن يقدِّم نصيحة أو يعبّر عن شعورٍ ما، باستثناء انزعاجه لأنّها تشكّل جزءاً من فضيحة اجتماعية، رأى أنّ إليثا لا تستحقّ كلّ تلك الضجة.

ـ هذا الجوّ الهيستيري مزعج جدّاً. أقترح أن تهدأا. لماذا تبحثان عنها؟ حتى لو عثرتما عليها فلن تطأ هذا البيت أبداً ـ أعلن.

ـ ألا تعني إليثا شيئاً بالنسبة إليك؟ ـ أنّبته روز.

ـ ليست هذه هي المسألة. ارتكبت خطيئة لا رجعة فيها وعليها أن تدفع الثمن.

ـ كما دفعته أنا خلال عشرين عاماً تقريباً؟

على غرفة الطعام هبط صمتٌ ثلجي. لم يتكلّموا بشكل مفتوح عن الماضي قط، وجِرمي لم يكن يعرف ما إذا كان جون مطلعاً على ما حدث بين أخته والتينور الفيينيّ، لأنّه حذر جداً من إعلامه به.

ـ أيّة نتائج، يا روز؟ لقد تمّ العفو عنك واحتضانك. ليس عندك ما تعاتبيني عليه.

ـ لماذا كنت كريماً معي ولا تستطيع أن تكون كذلك مع إليثا؟

ـ لأنّكِ أختي ومن واجبي حمايتك.

ـ إليثا مثل ابنتي، يا جِرمي!

ـ لكنّها ليست ابنتك. ليس لها علينا أيّ واجب: لا تنتمي إلى هذه الأسرة.

ـ بلى تنتمي! ـ صرخت الآنسة روز.

ـ كفى! ـ قاطعهما القبطان ضارباً بقبضته على الطاولة فتراقصت الصحون والكؤوس.

ـ بلى تنتمي، يا جِرمي. إليثا من أسرتنا ـ كرَّرت الآنسة مجهشة ووجهها بين يديها ـ إنّها ابنة جون...

عندئذٍ سمع جِرمي من أخويه السرَّ الذي أخفياه عنه ستّة عشر عاماً. هذا الرجل القليل الكلام، المتحكّم بنفسه تماماً ويبدو منيعاً على التأثّر الإنسانيّ، انفجر للمرّة الأولى وخرج كلُّ الذي صَمَتَ عليه ويخنقه خلال ستةً وأربعين عاماً ببرودةٍ بريطانيّةٍ تامة، دافقاً في تيارٍ من العتاب والحنق والإهانة، يا إلهي كان عليَّ أن أرى كم كنتُ غبيّاً، أعيشُ في عشّ واحدٍ مع الكذب ولا أنتبهُ، معتقداً أنّ أخويَّ محترمين وتسودُ الثقة بيننا، بينما الموجودُ هو عادة الكذب، عادة الزيف، من يدري كم من الأشياء أخفيتما عنّي بانتظام، لكن هذه هي الطامّة، من أجل أيّة شياطين لم تقولاه لي، ما الذي فعلته كي تُعاملاني كمسخٍ ولأستحقُّ أن تلعبا بي بهذه الطريقة وتستغلا كرمي وتحتقراني في آنٍ معاً. لا يمكن أن يكون هناك اسمٌ آخر لهذا اللف والدوران من الأكاذيب والإقصاءِ غير الاحتقار، لا تحتاجانني إلاّ لدفع الحسابات، طوال حياتي كنتُ كذلك، منذ كنّا أطفالاً وأنتما تهزآن منّي خلف ظهري...

تحمّلت روز وجون بخرس انفعالَ جرمي، لا يجدان ما يبرِّران به فعلتهما، وحين نفد ما عنده من اضطرام ساد صمت طويل في غرفة الطعام. الثلاثة مستنفَدون، فهم لأوّل مرّة في حياتهم يتواجهون دون قناع الآداب الحسنة والمجاملة. شيء أساسي حافظ عليهم في توازن هشٍّ لطاولةٍ بثلاث قوائم، تبدو مكسرة لا يمكن إصلاحها، ومع ذلك وبينما راح جِرمي يستعيد أنفاَسَهُ عادت تقاسيم وجهه إلى تعبيرها الكتيم والمتكبِّر دائماً وهو يسوّي خصلةَ الشعر

التي هبطت على جبينه وربطةَ العنق الملتوية. عندئذٍ نهضت الآنسة روز على قدميها، اقتربت من خلف الكرسيّ ووضعت يداً على كتفه، الحركة الحميمة الوحيدة التي تجرّأت على القِيام بها بينما شعرت بصدرها يؤلمها رقّةً على هذا الأخ المستوحد، هذا الرجل الصموت والحزين الذي كان لها مثل أب والذي لم تُكلِّف نفسها عناء النظر إلى عينيه قطّ. استخلصت أنّها فعلاً لا تعرف عنه شيئاً وأنّها لم تلمسه في حياتِها أبداً.

قبل ستّة عشر عاماً وفي صباح الخامس عشر من آذار من عام 1832 خرجت ماما فرِسيا إلى الحديقة وتعثّرت بصندوق صابونٍ عاديّ من مرسيليا مُغطّى بورق صحافة، اقتربت لترى ما الأمر وحين رفعت الورق اكتشفت مخلوقة حديثة الولادة. جرت إلى البيت وهي تصرخ وبعد ثوانٍ انحنت الآنسة روز فوق الطفلة. كانت في العشرين من عمرها، طازجةً وجميلة مثل حبّة دراق، ترتدي ثوباً أصفر ياقوتياً والهواء يعبث بشعرها المسترسل، تماماً كما تتذكّرها إليثا أو تتخيّلها. رفعت المرأتان الصندوق وحملتاه إلى صالة الخياطة الصغيرة، حيث نزعتا الأوراق وأخرجتا الطفلة الملفوفة بشكل سيئ في صدّارة صوفية. لم يكن قد مضى عليها زمن طويل في العراء، كما استنتجتا، إذ على الرغم من ريح الصباح الباردة بقي جسدها فاتراً وهي نائمة بهدوء. أمرت الآنسة روز الهنديّة بالذهاب بحثاً عن بطانية نظيفة وملاحف ومقصّ لارتجال أقمطة. وحين عادت ماما فرِسيا كانت الصدارة قد اختفت والطفلة العارية تزعق بين ذراعي الآنسة روز.

ـ عرفتُ الصدّارة على الفور. فقد خِطتها بنفسي لجون في العام الفائت. خبّأتها، لأنّكَ أنتَ أيضاً كنت ستعرفها ـ وضّحت لجِرمي.

ـ من هي أمّ إليثا، يا جون؟

ـ لا أتذكّرُ اسمها...

ـ لا تعرف اسمها! كم من أبناء بالحرام زرعت في العالم؟ ـ صاح جِرمي.

ـ كانت فتاة من الميناء، فتاة تشيليّة، أتذكّرُها جميلةً جداً. لم أرها بعد ذلك ولم أعرف أنّها حملت. حين أرتني روز الصدارة بعد سنتين تقريباً تذكّرت أنّني دثرتُ بها تلك الفتاة على الشاطئ لأنّ الطقس كان بارداً ونسيتُ أن أطلبها منها بعد ذلك. عليك أن تفهم ياجرمي أنّ حياة البحارة هكذا. لستُ بهيمةً...

ـ كنتَ سكراناً.

ـ ربّما. حين أدركت أن إليثا ابنتي حاولت أن أعرف مكان الأم، لكنّها كانت قد اختفت. ربّما ماتت، لا أدري.

ـ لسببٍ ما قرّرت تلك المرأة أنّ علينا نحن أن نقومَ بتربية الطفلة، يا جِرمي، ولم أندم قط لأنّني فعلت ذلك. منحناها حناناً، حياة رغيدة وتربية. ربّما لم يكن باستطاعة الأمّ منحها شيئاً ولذلك جاءتنا بإليثا ملفوفة بالصدارة، لنعرف من هو الأب ـ أضافت الآنسة روز.

ـ هل هذا هو كلّ شيء؟ صدّارة وسخة؟ هذا لا يثبت شيئاً أبداً! يمكن لأيِّ شخص أن يكون الأب. فقد تخلّصت هذه المرأة من الطفلة بكثيرٍ من الدهاء.

ـ خفت أن تكون ردّة فعلك هكذا، يا جِرمي، لهذا تماماً لم أُعلمك آنذاك ـ ردّت أخته.

بعد ثلاثة أسابيع من وداعها لتاو شيين، كانت إليثا تغسلُ الذهبَ مع خمسة مُعدِّنين على ضفاف نهر ريّو أمريكانو. لم تسافر وحيدة. فقد انضمّت في اليوم الذي غادرت فيه ساكرامِنتو إلى مجموعة من التشيليين في طريقهم إلى ضفاف شذرات الذهب. اشتروا مطايا، لكن ما من أحدٍ منهم كان يفهم بالحيوانات، وتجار الدواب المكسيكيون موّهوا بمهارة أعمار وعيوب الخيول والبغال. كانت بهائم كئيبة موّهت عُقَرُها بالألوان وخُدّرت، وفقدت بعد عدّة ساعاتٍ زخمَها وراحت تجرجر قوائمها وتعرج. كلّ راكب يحمل معه معدّاتٍ وأسلحة وأصصاً من التنك، أي أن القافلة كانت تسير ببطءٍ

وسط ضوضاء معدنية. في الطريق راحوا يتخلّصون من الحمولة التي بقيت مبَعْثَرةً بجانب الصلبان المرشوشة في المشهد لتدلّ على الموتى. قدّمت نفسَها باسم إلياس أنذيتا، الواصل توّاً من تشيلي بتكليف من أمّه للبحث عن أخيه خواكين، وهو مستعدّ لقطع كاليفورنيا من أعلاها إلى أسفلها للقيام بواجبه.

ـ كم عمرك، أيّها المخّاط؟ سألوه.

ـ ثمانية عشر عاماً.

ـ تبدو ابن أربعة عشر. ألست شابّاً صغيراً للبحث عن الذهب؟

ـ عمري ثمانية عشرة ولا أبحث عن الذهب، بل عن أخي فقط ـ كرّرت.

كان التشيليون فتياناً وما يزالون يحتفظون بالحماس ذاته الذي دفعهم للخروجِ من بلدهم والمغامرةِ بعيداً، على الرغم من أنّهم بدؤوا ينتبهون إلى أن أرض الشوارع ليست مرصوفة بالكنوز، كما حكوا لهم. في البداية لم تُرهِمْ إليثا وجهها مدلّية القبّعة فوق عينيها، لكن سرعان ما لاحظت أنّ الرجال لا ينظرُ بعضهم إلى بعض. وثقوا بأنّ الأمر يتعلّق بفتى ولم يستغربوا شكل جسمها، صوتها أو عاداتها. وبانشغالهم كلّ بأموره لم ينتبهوا إلى أنّها لاتبول مثلهم، وحين يصادفون غمر ماء يتبرّدون فيه، يتعرّون وتبربط هي بملابسها بل وبالقبعة أيضاً، متذرّعة أنّها بهذا الشكل تستغل الفرصة لتنظيف ثيابها. ثمّ إن النظافة هي الأقل شأناً إذ أنّها بعد ثلاثة أيام تعود متسخة ومشبعة بالعرق مثلها مثل رفاقها. اكتشفت أنّ الوسخ يوحّدُ الجميعَ في الدناءة ذاتها؛ أنفها الذي كان لكلبٍ شمّام لم يعد يميّزُ تقريباً رائحة جسدها عن رائحة أجساد الآخرين. كان قماش البنطلون السميك يكشط ساقيها فهي لم تعتد الامتطاء لمسافةٍ طويلةٍ، وفي اليوم التالي ما كادت تستطيع أن تخطو خطوةً واحدة، بوركيها اللذين انكشطا فبلغا اللحم الحيّ، لكنّ الآخرين كانوا من المدينة ومتألمين مثلها. وسرعان ما أفقدها الجوُّ الجافّ والحار والعطش والتعب وهجوم الذباب المتواصِل الهمّةَ على

المزاح. كانوا يتقدّمون صامتين وسط خشخشة أمتعتهم، نادمين قبل أن يبدؤوا. استكشفوا خلال أسابيع المكانَ المناسب الذي يقيمون فيه بحثاً عن الذهب، وهو الوقت الذي استغلته إليثا للسؤال عن خواكين أنذيتا. لا القرائن التي جمعتها ولا الخرائط سيئة الرسم أفادتهم كثيراً، فما أن يصلوا مغسلاً جيّداً حتى يجدوا أنفسهم أمام مئات من المعدِّنين الذين وصلوا قبلهم. ولكلّ واحد الحق بالمطالبة بمئة قدم مربّع، يحدّدون أماكِنهم يوميّاً ويتركون مُعداتهم هناك حين يغيبُون، لكن إذا غاب أحدهم أكثر من عشرة أيّام استطاع آخرون أن يشغلوا مكانه ويسجلوه باسمهم. أسوأ الجُرائم هي اقتحام ملكية الآخرين قبل الموعد وسرقتها وهي ما يُعاقب عليها بالإعدام أو الجلد بعد محاكمة مستعجلة، يكون المعدِّنون فيها هم القضاة والمحلّفون والجلادون. في كلّ مكان يجدون مجموعات تشيليّة، يتعرّفون على أنفسهم من لباسهم ونبرتهم فيتعانقون بحماسة، يتشاطرون المتّةَ والماء الساخن *والتشاركي* (اللحم المقدّد)، يحكي بعضُهم لبعض المحن المعاشة بالألوان الحيّة، ويغنون أغانٍ حزينة تحت النجوم، لكنّهم يودّعون بعضهم بعضاً في اليوم التالي، دونما وقت لحسن ضيافة فائضة. خلصت إليثا من النبرة المغازلة والأحاديث إلى أن بعضهم شباب مُدلّلون من سانتياغو، متأنقون نصف أرستقراطيين استخدموا حتى أشهر قليلة مضت السترةَ الطويلة والجزمة الجلدية اللامعة وقفازات جلد الأجداء ومثبّت الشعر، واليوم من المحال التفريق بينهم وبين الريفيين الفظّين، الذين يعملون معهم ندّياً على ضفاف شذرات الذهب. التأنّق المفرط والمزاعم الطبقية الباطلة صارت دخاناً باحتكاكها بواقع المناجم القاسي، إلّا كراهية الأعراق، التي كانت تنفجر لأدنى ذريعة عراكاً. فالتشيليون، وهم الأكثر عدداً وإقداماً جذبوا كراهية الغرينغويين أكثر من بقيّة الهيسبانيين. علمت إليثا أنّ مجموعةً من الأستراليين السكارى في سان فرانسيسكو قد هاجموا تشيلِثيتو (تشيلي الصغرى) مشرعين الباب لمعركة حامية الوطيس. كانت عدّة شركات تشيليّةٍ تعمل على ضفاف شذرات الذهب، وقد جاءت بعمّال من الريف وأجراء عاشوا لأجيالٍ تحت نير النظام الإقطاعي

ويعملون بأجرٍ بائسٍ، دون أن يستغربوا أنّ الذهب ليس لمن يعثر عليه بل لربّ العمل. بدا هذا لليانكيين عبوديّةً. القوانين الأمريكيّة لصالح الأفراد: كلّ ملكية تقتصر على المكان الذي يستطيع أن يستثمره رجلٌ واحدٌ، لكن الشركات التشيلية اخترقت القانون بتسجيل الحقوق باسم كلّ واحدٍ من العمّال ليحتكروا مزيداً من الأرض.

كان هناك بِيْضٌ من عدّة قوميات بقمصان من الفانيلا وبنطلونات مُدككة في الجزمات وزوج من المسدّسات؛ صينيون بستراتهم المجدولة وسراويلهم الفضفاضة؛ هنود حمر بجاكيتات عسكرية بالية والقاعدة مكشوطة، مكسيكيون يرتدون قطناً أبيض وقبعات هائلة، أمريكيون جنوبيون بأدثرة قصيرة وأحزمة جلديّة عريضة يحملون فيها السكاكين والتبغ والبارود والمال؛ مسافرون من جزر الساندويش حفاة ويضعون أحزمة حريريّة برّاقة، وكلّ ذلك بخليط عجيب من الألوان والثقافات والديانات واللغات وهوس واحد مشترك. وإليثا تسأل كلّ واحدٍ منهم عن خواكين أنذيِتا وتطلب منهم أن يدبّوا الصوت بأنَّ أخاه إلياس أنذيِتا يبحث عنه. وحين تعمّقت أكثر وأكثر في هذه الأرض أدركت كم هي واسعة، وكم هو صعب العثور على حبيبها بين خمسين ألف أجنبي يخبّون من مكان إلى آخر.

قرّرت المجموعة التشيلية أن تستقرّ أخيراً. وصلوا إلى وادي نهر ريو أمريكانو تحت حرارة كورٍ حدّاد ومعهم بغلان وحصان إليثا فقط، فبقيّة الحيوانات نفقت في الطريق. كانت الأرض جافّة ومشقّقة دون أيّة نباتات أخرى غير الصنوبر والبلوط، لكنَّ نهراً صافياً جارفا ينحدر قفزاً عبر الصخور من الجبال، ويعبر الوادي مثل سكّين. على ضفتي النهر صفوف وصفوف من الرجال يحفرون ويملؤون دلاءً بالتراب الناعم ينخلونه فيما بعد في جهاز يشبه مهد الطفل. يعملون ورؤوسهم تحت الشمس وأرجلهم في المياه المثلّجة وثيابهم مبلّلة؛ ينامون مرمِيّين على الأرض دون أن يُفلتوا أسلحتهم؛ يأكلون الخبز القاسي واللحم المملّح ويشربون الماءَ الملوّث بمئات الحفريات في أعلى النهر، والمشروبات الروحية المغشوشة التي

تجعل الكثيرين يتقيّأون أكبادهم أو يُجنّون. رأت إليثا خلال أيام قليلة رجلين يموتان، وهما يتلوّيان من الألم ويتصبّبان عرقاً ويرغيان من الكوليرا، فشكرت حكمة تاو شيين الذي لم يسمح لها بشرب الماء قبل غليه؛ فهي مهما بلغ منها العطش تنتظر حتى المساء حين يُخيِّمون كي تُحضِّر متةً أو شاياً . يسمعون من حينٍ إلى آخر صيحات فرح: أحدٌ ما عثر على كرة ذهب، لكنّ الغالبية ترضى بفصل بعض الغرامات الرائعة من بين أطنان الأتربة غير المجدية. كان من الممكن قبل أشهرٍ فقط أن تُشاهد الحراشفُ البرّاقة تحت الماء القراح، لكنّ الطبيعة الآن اختلّت بفعل طمع البشر، والمنظر تبدّل بأكوام الترابِ والحجارةِ والحفرِ الهائلة، أنهار وجداول حُرِفَت عن مسارها ووزّعت المياه إلى أغمارٍ لا تُحصى. آلاف الجذوع بُتِرَت حيث كانت تقوم غابة. فالوصول إلى المعدن يتطلّب عزمَ عمالقة.

لم تتطلّع إليثا للبقاء لكنّها كانت منهكة وغير قادرة على متابعة السفر وحيدة على غير هدى. شغل رفاقها فسحة في نهاية صف عمال المناجم، وهم بعيدون كفاية عن القرية التي راحت تظهر هناك، بحانتها ومخزنها لإشباع الحاجات الأوّليّة. وجيرانها الأورجونيون الذين يعملون ويشربون الكحول بمقاومة لا مثيل لها، لم يضيعوا الوقت بالسلام على الواصلين الجدد، بل على العكس أعلموهم على الفور بأنّهم لا يعترفون للمتسخين بالتنقيب في الأرض الأمريكية. واجههم أحد التشيليين بحجّة أنّهم هم أيضاً ليسوا من هناك وأنَّ الأرض للهنود الحمر، وكادت تنشب معركة مسلّحة لولا تدخل البقية لتهدئة النفوس. الضجيج كان جلبة دائمة من الفؤوس والمعاول والمياه والصخور التي تُدحرج واللعنات، لكنّ السماء صافية وتعبقُ في الجوّ رائحة غار. سقط التشيليون على الأرض ميّتين تعباً؛ بينما إلياس أنذيتا المُزيّف حضّرت ناراً صغيرة للقهوة وسقت جوادها. أيضاً أشفقت على البغلين المسكينين فسقتهما، مع أنّهما ليسا لها وأنزلت عنهما الحمولة كي يستطيعا الراحة. أغشى التعب على عينيها، فلا تكادُ تطيق صبراً مع ركبتيها المرتعشتين، وأدركت أنّ تاو شيين كان على حقٍّ حين قال لها إنّ

عليها أن تستعيد قواها قبل الانطلاق في هذه المغامرة. فكّرت ببيت الألواح الخشبية والخيش في ساكرامِنتو حيث لا بدّ أنّه في هذه الساعة يتأمّلُ أو يكتب بمرقمٍ وحبرٍ صيني وبخطّه الجميل. ابتسمت، مستغربة أنّ حنينها لا يستحضِرُ صالةَ خياطة الآنسة روز الصغيرةَ والهادئة أو مطبخ ماما فرِسيا الدافئ. كم تغَيَّرْتْ، تنهّدت، وهي تنظر إلى يديها المليئتين بالكنب، وقد أحرقتهما الشمس القاسية.

قبل يومٍ أرسلها رفاقها إلى المخزن لشراء ما لا بدَّ منه للبقاء على قيد الحَياة وواحدٍ من تلك المهود لنخل التراب، لأنّهم رأوا كم كانت تلك الأداة أكثر فعالية من أطباقهم المتواضعة. الشارع الوحيد في القرية، هذا إذا كان بالإمكان تسمية هذا الكفر بهذا الاسم، عبارة عن موحلة مزروعة بالفضلات. شَكّلَ المخزنُ، وهو كوخٌ من الجذوع والألواح، مركز الحياة الاجتماعية في ذلك التجمّع من الرجال المتوحِّدين. يُباع هناك كلّ ما هو موجود وتُقدَّم فيه المشروبات الروحيّة بالكأس مع بعض الطعام. في الليل حين كان المُعدِّنون يأتون ليشربوا، يُنعِشُ عازفُ كمان الجوَّ بألحانه، ويُعلِّقُ بعض الرجال منديلاً إلى أحزمتهم، في إشارة إلى أنّهم يقومون بدور السيّدات، بينما الآخرون يتناوبون على إخراجهم للرقص. لم يكن هناك من امرأة واحدةٍ في محيط قطره عدّة أميال، لكن تمرّ أحياناً عربةٌ تجرّها بغال محمّلة بالمومسات. ينتظرونهنّ بفارغ الصبر ويعوّضونهنّ بسخاء. تبيَّن أنّ صاحب المحل مورموني ثرثار وطيّب وعنده ثلاث زوجات في أوتاه، يُقرِضُ من يتحوّل إلى مُعتَقَدِه، لا يشرب الخمر، ويعظ وهو يبيعه ضدّ رذيلة تناوله. عرفَ شخصاً يُدعى خواكين وكنيته كأنّها أنذيِتا، أخبرَ إليثا حين استفسرت منه، لكنَّه مرّ من هناك منذ زمن طويل ولا يستطيع أن يقول إلى أيّة جهة مضى. يتذكّره لأنّه كان متورِّطاً في شجارٍ بين أمريكيين وإسبان بسبب ملكيّة. تشيليون؟ ربّما، ما يتذكره هو أنّهم يتكلّمون القشتالية فقط، من الممكن أن يكونوا مكسيكيين، قال، وبالنسبة إليه كل *المزّيتين* يبدون متساوين.

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ أخذ الأمريكيون العقارَ واضطُرَّ الآخرون إلى الرحيل. ماذا يمكن أن يحدث غير ذلك؟ خواكين وآخران معه بقوا هنا يومين أو ثلاثة. وضعتُ لهم بطانياتٍ في زاوية هناك وتركتهم يرتاحون إلى أن استعادوا عافيتهم قليلاً، لأنّهم تلقوا ضرباً مبرحاً. لم يكونوا أناساً سيِّئين. أتذكّر أخاكَ، فتى شعره أسود وعيناه كبيرتان، ووسيم كفايةً.

ـ إنَّه نفسه ـ قالت إليثا وقد راحَ قلبها يخفق.

القسم الثالث

1853 ـ 1850

إلْدورادو

حملوا الدبَّ بين أربعة رجالٍ، يشدّ اثنان من كلّ جانبٍ الحبالَ الغليظةَ بين حشدٍ هائج، جرّوه حتى وسط الرمل وربطوه من إحدى سيقانه إلى عمود بسلسلة من عشرين قدماً، استغرقوا بعدها عشرين دقيقةً في فكّه، بينما هو يطلق خدشاً وعضّاً بغضب نهاية العالم. كان وزنه يتجاوز الستمئة كيلوغرام، لون جلده بنيّ داكن، أعور، وفي ظهره عدّة قشورٍ وندوبٍ ناتجة عن عراكاتٍ قديمةٍ، مع أنّه مايزال فتيّاً. لعاب مزبدٌ يُغطّي فمَه ذا الأسنان الهائلة الصفراء. جاب بعينه السليمة الحشد، منتصباً على ساقيه الخلفيتين وضارباً بالأماميتين وبراثنه ما قبل التاريخيّة، شادّاً السلسلة بقنوط.

كانت قرية صغيرة انبثقت خلال شهورٍ قليلةٍ من العدم، بناها الجنود الفارّون بلمح البصر دون طموحٍ للديمومة. ونظراً لعدم وجود ميدانٍ لمصارعة الثيران، كتلك الموجودة في جميع قرى كاليفورنيا المكسيكية ، استفادوا من دائرة مكشوفة تُفيدُ في ترويض الخيول وحبس البغال، معزّزة بالألواح ومجهّزة بأروقة خشبية لراحة الجمهور. بدت السماء في ذلك المساء من تشرين الثاني فولاذيّة اللون تُهدِّدُ بالمطر، لكن لا برد والأرض جافّة. خلف السياج مئات المتفرّجين يردّون على كلّ جئيرٍ للحيوان بصخبٍ من السخرية. النسوة الوحيدات كنّ نيّفاً وخمس شابّات مكسيكيّاتٍ بلباسٍ أبيضَ مطرّزٍ يُدخّن سيجاراتهنّ الأبديّة، ومشهورات مثل الدبّ، يحيّهنّ

الرجال بصيحات الإعجاب أيضاً، بينما زجاجات الخمر وأكياس ذهب المراهنة الصغيرة تدورُ من يدٍ إلى أخرى. يبرز المقامِرون المحترفون بلباس المدينة والصدارات العجيبة وربطات العنق العريضة والقبّعات العالية بين الحشد الفظّ والأشعث. عَزَف الموسيقيون الثلاثة على كماناتهم الأغاني المُحبَّبة، وما أن بدؤوا بهمّةٍ «آه، يا سوزانا»، نشيد المعدّنين، حتى قفز هزليّان ملتحيان، بلباس امرأة إلى الحلبةِ ودارا دورة أولمبيّة بين الكلام البذيء والتصفيق، رافعَيْن تنورتيهما ليُريا سيقانهما المُشْعِرة وسرواليهما الداخليين الواسعين. احتفل الجمهور بهما بوابل سخيٍّ من النقود وصخب من التصفيق والقهقهات. وما أن انسحبا حتى أعلن نفخُ بوقٍ وقورٌ وقرع طبلٍ بدايةَ المصارعة، وتبعه جئير حشد متكهرب.

تابعت إليثا المشهدَ مذهولةً، مذعورةً ضائعةً بين الجمهور. كانت قد راهنت بالقلة القليلة المتبقية معها آملة مضاعفتها في الدقائق التالية. ومع نفخ النفير الثالث رفعوا باباً خشبيّاً كبيراً ودخل ثورٌ فتيٌّ، أسود برّاق، ناخراً. ساد صمت ذاهل في الأروقة ثمَّ صيحة الله، الجريحة، التي استقبلت الحيوان. توقّف الثور مرتبكاً، برأسٍ مرفوع متوّجٍ بقرنين كبيرين لم يُبْرَدا، وعينين مُشتَنْفرَتين يقيس بهما المسافات، رافِساً الرملَ بساقيه الأماميتين، حتى لفتت قهقهةُ الدبِّ انتباهه. رآه منافسَه فراح يحفر حفرة على مسافة قصيرة من العمود حيث انكمشَ مفلطحاً على الأرض، حنى الثور عنقه وشدّ على عضلاته وانطلق يجري مطلقاً سحابةً من رملٍ، وقد أعماه الغضب، ناخراً، نافِخاً ماخطاً من منخرين. كان الدبُّ بانتظاره. تلقى النطحة الأولى منه في ظهره فأحدثت شقّاً دامياً في جلده السميك، لكنّه لم يتمكّن من إزاحته قيدَ أنملة. دار الثور خبباً حول الميدان، مشوّشاً والحشدُ يهيّجه بالسباب. عاد ليستجمع قواه محاولاً رفع الدبِّ بقرنيه، لكنّ هذا بقي قابعاً وتلقّى الهجومَ دون أيِّ صوتٍ إلى أن رأى فرصته حانت فهشّم أنف الثور بضربةٍ من براثنه. الحيوان الذي راح يقطر دماً جُنّ من الألم وفقد صوابه وبدأ يهاجم بنطحاتٍ

عمياء، جارحاً منافِسَه مرّةً وأخرى، دون أن يتمكن من إخراجه من الحفرة. فجأة وإذا بالدبّ يقفز، يمسكه من رقبته في عناق مريع ويعضّه في قفا عنقه. رقصا معاً دقائق طويلة في الدائرة التي سمحت بها السلسلةُ، بينما راح الرملُ يتشبّع بالدم وصياحُ الرجالِ يُدوي في الأروقة. أخيراً استطاع الثور الإفلات، ابتعد عدّة خطواتٍ، مترنّحاً، مرتخيَ السيقان، مصبوغَ الجلد السبجيّ بالأحمر، إلى أن طوى قائمتيه الأماميتين وسقط على وجهه، عندئذ تلقى الدبُّ المنتصِرُ هتافاً هائلاً. دخل فارسان إلى الحلبة أطلقا النار بين عيني المهزوم، أوثقاه من قائمتيه الخلفيّتين وحملاه جرّاً. شقّت إليثا طريقها نحو المخرج مشمئزّةً. لقد خسرت آخر أربعين دولاراً.

في أشهرِ صيفِ وخريفِ عام 1849 جابت إليثا ممتطيةً جوادها بِتا مادرِ بطولها من الجنوب إلى الشمال، بدءاً من ماريبّوسا وحتى دونييفل ثم العودة، متتبّعة خبر خواكين أنديِتا الذي صار في كلّ مرّةٍ أكثرَ غموضاً عبر هضاب شديدة الانحدار، بدءاً من سرير الأنهار وحتى سفوح سييرّا نيفادا. وعند سؤالها في البداية لم يتذكّر أحدٌ ذلك الاسمَ أو الوصف تقريباً. لكن صورته راحت تكتسب مع نهاية العامِ ملامحَ حقيقيّة، وهو ما منحَ الشابّةَ قوّة للاستمرار في البحث. أَطْلَقَتْ شائعةَ أنّ أخاه إلياس يتعقّبُه وأعاد الصدى في عدّة مناسبات صوتَها إليها خلال تلك الأشهر. أكثر من مرّة وعند الاستفسار عن خواكين، حدّدوا أنّها أخوه حتى قبل أن تُقدِّم نفسها إليهم. كان البريد في تلك المنطقة المتوحّشة يصل من سان فرانسيسكو متأخّراً أشهراً والصحف تتأخّر أسابيع، لكن الخبر المنقول من فم إلى فم لم يُخْطئ أبداً. كيف لم يسمع خواكين بأنّهم يبحثون عنه؟ وبما أنّه لا يملك أخوة لا بدّ أن يتساءل من هو هذا الـ إلياس، فكّرتْ، وإذا ملك ذرّةً من الحدس استطاع أن يربط هذا الاسمَ باسمها، وإذا لم يخطر له ذلك، فعلى الأقلّ سيشعر بالفضول للتحقّقِ مِنْ هذا الذي يدّعي قرابته. كانت لا تكاد تستطيع النومَ ليلاً، مشوّشة بالتخمينات والشكّ اللجوج بأنّ صمت حبيبها لا يمكن

تفسيره إلاّ بالموت أو أنّه لا يرغب بلقائها. وماذا لو أنّه هاربٌ منها فعلاً كما ألمح تاو شيين؟ كانت تقضي النهار على ظهر حصانها وتنام مستلقية في أيِّ مكان، متدثِّرة ببطانيتها القشتالية ومتوسّدة جزمتها دون أن تخلع ملابسها. ما عاد الوسخ والعرق يزعجانها، تأكل ما تستطيع، وحيطتها الوحيدة هي غلي الماء للشرب وعدم النظر إلى عيون الغرينغويين.

وصل عدد المغامرين الباحثين عن الذهب آنذاك إلى مئة ألف، استمرّ تدفّقهم متناثرين على طول بِتا مادرِ، يدورون حول العالم بالعكس، يحرِّكون جبالاً، يحوِّلون أنهاراً، يخرِّبون غاباتٍ، يُفَجِّرون صخوراً، ينقلون أطناناً من الرمل ويحفرون حفراً هائلة. في المناطق المحتوية على الذهب تحوّلت الأرضُ الرعوية التي بقيت على حالها دون تبدّل منذ بداية الأزمنة إلى كابوسٍ قمريّ. إليثا عاشت منهكة لكنَّها استعادت قواها وفقدت الخوف. عاد إليها الحيض في الوقت غير المناسب، لأنَّهُ سيصعب عليها التمويه بحضور رجلٍ، لكّنها شكرت الله لأنّ هذا دليل على أنّ جسدها تعافى أخيراً «لقد أفادني وخز إبرك جيّداً، يا تاو. آمل أن يصير لي أولاد في المستقبل». هكذا كتبت لصديقها، واثقة من أنّه سيفهمها دون توضيحات زائدة. لم تنفصل عن سلاحها قط، مع أنّها لم تُحسن استخدامه وتأمل ألا تجد نفسها أمام الحاجة لاستخدامه. مرّة واحدة فقط أطلقت النارَ في الهواء لإفزاعِ صبيةٍ هنود اقتربوا منها أكثر من اللازم وبدوا مهدِّدين لها، لكنّها لو اشتبكت معهم لخسرت، فهي لم تكن قادرة على إصابة حمارٍ على بعد خمس خطواتٍ منها. لم تُطوِّر تصويبها لكنّها طوّرت قدرتها على الاختفاء. فهي تستطيعُ دخول القرى دون أن تلفت الانتباه، مختلطة بالمجموعات اللاتينية، حيثُ لايلفتُ فتى له مظهرها الانتباهَ. تعلّمت تقليدَ النبرة البيروية والمكسيكيّة بدقّةٍ، وهكذا اعتقدوا أنّها واحد منهم حين كانت تبحث عن مكانٍ يستضيفها. كما بدّلت إنكليزيّتها البريطانية بالأمريكيّة وتبنّت كلماتٍ لا غنى عنها كي تُقبل بين الغرينغويين. انتبهت إلى

أنّها إذا تكلّمت مثلهم احترموها، المهم هو عدم تقديم توضيحات، عدم طلب أيّ شيء، العمل من أجل الطعام، مواجهة الاستفزازات والتمسّك بكتاب مقدّسٍ صغير اشترته في سونورا، لأنّ أكثرهم فظاظة كان يشعر باحترام خرافي تجاه هذا الكتاب. كانوا يستغربون أنْ يقرأ فتى أجردُ وله صوت امرأةٍ الكتابَ المقدّسَ في المساءات، لكنّهم لا يسخرون منها بشكلٍ مكشوف، بل على العكس تحوّل بعضهم إلى مُدافِعٍ عنها، مستعدٍ للعراك بالضرب مع أيّ شخص يفعل ذلك. توقٌ خفيٌّ للحنان والنظام كان يعتمِلُ في داخل هؤلاء الرجال المتوحّدين والأفظاظ، الذين خرجوا بحثاً عن الثروة مثل الأبطال الأسطوريين في اليونان القديمة، ليجدوا أنفسهم محصورين بالحدود الدنيا، وفي كثير من الحالات مرضى، مُنغَمِسين في العنف والكحول، فالأغاني الرومانسية تبلِّل عيونهم، تراهم مستعدين لدفع أيّ مبلغٍ مقابل قطعةٍ من حلوى تفاحٍ تمنحهم لحظة عزاء تُعوِّضهم عن حنينهم إلى بيوتهم، يحومون طويلاً للاقتراب من مسكن فيه طفل حيث يمكثون يتأمّلونه بصمتٍ كما لو أنّه أعجوبة.

«لا تخفْ، يا تاو، أنا لا أسافر وحيدةً ، فهذا جنون» كتبت إليثا لصديقها. «يجب الذهابُ في مجموعات كبيرة، جيّدة التسليح واليقظة، لأنّ عصابات قطّاع الطرق تضاعفت في الأشهر الأخيرة. الهنود الحمر أقرب إلى المسالمين، على الرغم من مظهرهم المرعِب، لكنّهم إذا رأوا فارساً معزولاً استطاعوا أن ينتزعوا منه ممتلكاته التي يُطمَعُ بها أكثر من غيرها: جياد، أسلحة وجزمات. أنضمُّ إلى مسافِرين آخرين: تجار يمضون من بلدة إلى أخرى مع منتجاتهم، عمّال مناجم يبحثون عن عروق ذهب جديدة، أسر مزارعين، صيّادين، أصحاب شركاتٍ، وكلاء ممتلكات بدؤوا يغزون كاليفورنيا، مقامرين، قتلة، محامين وأوغاد آخرين هم بشكل عام أكثر رفاق السفر تسلية وكرماً. أيضاً يمضي وعّاظ في هذه الطرق،

وهم دائماً شبانٌ ويبدون مجانين متنوّرين. تصوّر كم من الإيمان يحتاج المرء كي يسافر مسافة ثلاثة آلاف ميل عبر المروج العذراء بهدف مكافحة رذائلَ الآخرين. يخرجون من قراهم مفعمين بالقوّة والحماس، عازمين على حمل كلمة الربّ إلى هذه المجاهل، دون مبالاة بعوائق وبلايا الطرقات لأنّ الله معهم. يسمّون المعدّنين «عبدة العجل الذهبيّ». عليك أن تقرأ الكتاب المقدّس، يا تاو وإلا فلن تفهم المسيحيين أبداً. هؤلاء الرعاة لا تهزمهم تقلبات الدهر المادّية، لكنّ كثيرين منهم يستسلمون وقد هُدّت أرواحهم، عاجزين أمام قوّة الطمع القاهرة. منعِشة رؤيتهم يصلون للتوّ، وهم مايزالون بريئين، ومحزنة مصادفتهم حين يتخلّى الربُّ عنهم، يُسافرون بمشقّةٍ من معسكر إلى آخر، وشمس رهيبة فوق رؤوسهم، عطشى، يعِظون في الساحات والحانات أمام حشودٍ لا مبالية، تستمع إليهم دون أن ترفع قبّعاتها وما هي إلا خمس دقائق حتى تسكر مع مومس. عرفتُ مجموعةً من الفنانين الجوّالين، وهم، ياتاو، شياطين مساكين يتوقّفون في القرى لِيُبهِجوا الناس بالإيماء والأغاني الخبيثة والكوميديات الفظّة. رافقتُهم عدّة أسابيع فضمّوني إلى فرجتهم. إذا حصلنا على بيانو عزفتُ، وإلا أصبحتُ السيّدة الشابّة في الفرقة، والجميع يُدهشون لأدائي الممتاز لدور المرأة. اضطُرِرت لتركهم لأنّ التشوّش كان يُجنّني، إذ ما عدتُ أعرف هل أنا امرأة بلباس رجل، أم رجل بلباس امرأة أم شذوذ من شذوذات الطبيعة».

صادقتُ ساعي البريد، وحين استطاعت ركبت معه لأنّه يسافر سريعاً وله اتصالاته؛ وإذا كان هناك من يستطيع العثور على خواكين أنديّيتا فإنّه هو، فكّرتُ. يحمل الرجلُ البريد إلى المُعدّنين ويعود بجيوبه مليئة بالذهب ليودِعه في البنوك. كان واحداً من أصحاب الرؤى المثرين من حمّى الذهب دون أن يملك مجرفةً أو معوَلاً في يديه قط؛ يتقاضى دولارين ونصف مقابل نقلِ رسالةٍ من سان فرانسيسكو، وباستغلاله للهفة المُعدّنين لتلقّي أخبار من بيوتهم يطلب أونصة ذهب مقابل تسليم الرسائل التي تصلهم. كان

يكسب ثروةً من هذه التجارة ويفيض عنه الزبائن، ولا أحد يحتجّ على الأسعار لأنّه ما من بديل ولا يستطيعون مغادرة المنجم للذهاب بحثاً عن الرسالة أو لإيداع مكاسبهم على بعد مئة ميل. كما بحثت إليثا عن رفقة شارلي، الرجل الصغير الذي ملك الكثير من الحكايات ونافس البغّالين المكسيكيين، ونقل البضائع على البغال. وعلى الرغم من أنّه لم يكن يخاف حتى الشيطان إلا أنّه كان يفضّل أن يُرافَق، لأنّه يحتاج لآذانٍ تستمع لحكاياته. وكلّما تأمّلته إليثا أكثر زادت ثقتها بأنّه مثلها امرأة بلباس رجلٍ، كوته الشمس. كان يمضغ تبغاً ويُقْسِم مثل قاطع طريق ولا ينفصل عن مُسدَّسيه أو قفّازيه، استطاعت ذات مرّة رؤية يديه فوجدتهما بيضاوين وصغيرتين، مثل يدي عذراء.

عشقت الحرّية. فقد عاشت بين أربعةِ جدرانٍ في بيت آل سومّرز، في جوٍّ لا يتبدَّل، يدور الزمن فيه في حلقات، لا تكادُ ترى خطّ الأفق عبر نوافِذه المزعجة؛ ترعرعت في حصن الآداب والأحاديث الطيّبة المنيع، مدرّبة منذ البداية على المسايرة والخدمة، محدودة بالمشدّ، الرتابة، القواعد الاجتماعية والخوف. كان الخوف رفيقها: الخوف من الله وعدالته التي لا يمكن التكهّن بها، من السلطة ووالديها بالتبني، من المرض والنميمة، من المجهول والمختلِف، الخوف من الخروج من حماية البيت ومواجهة أخطار الشارع، الخوف من هشاشتها الأنثوية ذاتها، من العار والحقيقة. وحقيقتها كانت واقعاً معسولاً، قائماً على التخلي والصمت المجامل والأسرار المحفوظة جيّداً، على النظام والتربية، طموحها الفضيلة التي صارت تشكّ الآن بمعناها. باستسلامها لخواكين أنديِتا في غرفة الخزائن ارتكبت غلطة لا إصلاح لها أمام أعين العالم، لكنّ الحبّ أمام عينيها يُبرِّرُ كلَّ شيء. لم تكن تعرف ما خسرت وما كسبت بتلك العاطفة. خرجت من تشيلي بهدف العثور على حبيبها ولتصبح عبدته للأبد، لاعتقادها بأنّها بهذه الطريقة تطفئ ظمأ الإذعان والرغبة الخفية بالتملّك، لكنّها ما عادت تشعر

بنفسها قادرةً على التخلي عن هذه الأجنحة الجديدة التي بدأت تنمو على كتفيها. لم تندم على ما تقاسمته مع حبيبها كما لم تخجل من تلك النار التي أفقدتها وعيها، على العكس، شعرت بأنّها شدَّت من عزيمتها فجأة. منحتها كبرياءً في اتخاذ القرارات ودفع نتائجها. لم تكن مجبرة على تقديم توضيحاتٍ لأحد، وهي إذا كانت قد ارتكبت أخطاءً فقد دفعت الثمن غالياً بخسارتها لأسرتها، بعذابها مقبورة في عنبر السفينة، بابنها الميّت واضطراب مستقبلها المطلق. وحين حبلت ووجدت نفسها متورِّطة، كتبت في يومياتها أنَّها فقدت السعادة، ومع ذلك شعرت في الأشهر الأخيرة، وهي تمضي على جوادها عبر المشهد الذهبي لكاليفورنيا، بأنّها تطير مثل كوندور. استيقظت صباح أحد الأيام على صهيل جوادها ونور الفجر في وجهها فوجدت نفسها محاطة بأشجار سِكْوَا شامخة حرست حلمَها مثل حرّاس مئويين، وكثبانٍ ناعمة وقمم بنفسجيّة في البعيد، عندئذ انتابتها سعادة عميقة لم تعبرها أبداً. انتبهت إلى أنّها ما عادت تعاني من ذلك الإحساس بالرعب الرابض دوماً على بوّابة معدتها، مثل فأر جاهز لعضّها. خوفها ذاب في عظمةِ تلك الأرض الضاغِطة. وكلّما واجهت المخاطر أكثر اكتسبت مزيداً من الاندفاع: فقدت الخوفَ من الخوف. «إنّني أعثر على قوىً جديدة لديَّ، ربّما كانت موجودة دائماً لكنّني لم أعرفها لأنّني لم أحتج لاستخدامها حتى الآن. لا أدري عند أيّ منعطفٍ في الطريق ضاع مني الشخص الذي كنته، يا تاو. والآن أنا واحد من هؤلاء المُغامِرين المبعثَرين على ضفاف هذه الأنهار الشفافة تقريباً وعلى سفوح هذه الجبال الأبديّة. إنّهم رجالٌ شموخون لا تعلو قبّعاتهم إلاّ السماء، لا ينحنون أمام أحدٍ، لأنَّهم يبتدعون المساواة وأنا أريدُ أن أُصبِحَ واحدةً منهم. بعضهم يسيرُ منتصراً وكيس من الذهب على ظهره، وآخرون مهزومون لا يحملون غير خيباتهم وديونهم، لكنّ الجميع يشعرون بأنّهم سادةُ قدرِهم والأرضِ التي يطؤون، المستقبل، وكرامتهم التي لا رجعة عنها. لا أستطيع بعد أن تعرَّفتُ عليهم العودةَ لأصبح آنسة

كما طمحت الآنسة روز. أخيراً هاأنا أفهم خواكين، حين كان يسرق ساعاتٍ من حبّنا ليحدّثني عنٍ الحرّيّة. إذن كان هذا... هذا الانتعاش، هذه السعادة المركّزة مثل لحظات الحبّ المشتركة والنادرة التي أستطيعُ تذكّرها. أشتاقُ إليك يا تاو. لا يوجدُ من أكلّمه عمّا أرى وعمّا أشعر. لا صديق لدي في هذه الأقفار، وفي دور الرجل الذي أمثله أحذرُ كثيراً مما أقول. أمضي مقطّبة الجبين كي يصدّقوا أنّني فحل حقّاً. شيء مزعج أن يكون المرء رجلاً، لكنّ الأسوأ منه أن يكون امرأة».

تائهة من جانب إلى آخر عرفتْ البلد الوعر كما لو أنّها وُلِدَت هناك، تستطيع أن تحدّدَ موقعها وتقدِّر المسافات، تميّز الأفاعي السامّة من غير السامّة والمجموعات المعادية من الصديقة، تتكهّن بالطقس من شكل الغيوم والساعة من زاوية الظل، تعرف ماذا تفعل إذا عبر بها دبٌّ وكيف تقترب من كوخ منعزل كيلا تُستَقْبَلَ بالرصاص. تلتقي أحياناً بشبانٍ وصلوا توّاً، يجرّون آلات مناجم إلى أعلى الهضاب حيث تُهجر فيما بعد لعدم جدواها، أو تمرّ بمجموعات من الرجال المحمومين يهبطون من الجبال بعد أشهر من العمل غير المجدي. لم تستطع أن تنسى تلك الجثّة المتدلّية من شجرة سنديان وعليها لافتة تحذير وقد نقرتها الطيور... رأت في ارتحالها أمريكيين، أوروبيين، كاناكيين، مكسيكيين، تشيليين، بيرويين، وصفوفاً طويلة من الصينيين الصامتين تحت قيادة ناظِرٍ، يعاملهم كعبيدٍ لأنّه من العرق ذاته، ويدفع لهم فتاتاً. يحملون صرراً على ظهورهم وجزمات في أيديهم، فهم دائماً يستخدمون خفّاً ولا يتحمّلون ثقل أقدامهم. أناسٌ مقتصدون، يعيشون من اللاشيء وينفقون أقلّ ما يمكن، يشترون الأحذية كبيرةً لأنّهم يعتقدون أنّها أكثر قيمةً، ويُذهلون حين يتأكّدون أنّ سعرَها هو سعر الصغيرة ذاته. رهفت غريزةُ تفادي المخاطر عند إليثا. تعلّمت العيش نهاراً دون أن تضع خططاً، كما نصحها تاو شيين. كثيراً ما كانت تُفكّرُ به فتكتبُ إليه على الفور، لكنّها لم تستطع إرسال الرسائل إليه إلا حين

تصل إلى قرية فيها خدمة بريديةٌ باتجاه ساكرامِنتو. كان هذا كمن يرمي رسائل في زجاجات في البحر، فهي لا تعرف ما إذا كان مايزال يعيش في تلك المدينة، والعنوان الوحيد الأكيد هو المطعَم الصيني؛ فإذا وصلت إلى هناك لا شكّ سيسلّمونها إليه.

كانت تحكي له عن الطبيعة الرائعة، عن الحر والظمأ، عن الهضاب الشهوانيّة، السنديان الثخين والصنوبر السامِق، الأنهار المثلجة بمياهها الصافية التي يمكن رؤية الذهب يلمع في أسرَّتها، الإوزّ البرّي يزبط في السماء، الأيائل والدببة الضخمة، حياة المُعدِّنين القاسية، سراب الثروة السهلة؛ تقول له ما يعرفانه هي وهو: ليس هناك ما يستحقّ أن نستهلك حياتنا لأجله في تعقّب غبار أصفر. وتتكهّن بجواب تاو: ليس هناك ما يستحق استهلاكها في تعقّب حبٍّ وهميّ أيضاً، لكنّها تتابع مسيرتها لأنّها لا تستطيع التوقُّف. بدأ خواكين أنديِتا يتبخّرُ، ما عادت ذاكرتُها تُدرِك تحديدَ ملامح الحبيب بدقّة، فتضطرّ لإعادة قراءة رسائل الحبّ لتتأكّد فعلاً من أنَّه وُجِد، وأنّهما أحبا بعضهما بعضاً والليالي التي قضياها في غرفة الخزائن لم تكن كذبة من خيالها. وهكذا كانت تجدِّدُ العذاب العذبَ لحبٍّ موحِش. تصِف لتاو شيين الناس الذين تتعرَّف إليهم في طريقها، جماهير المهاجرين المكسيكيين المقيمين في سونورا، البلدة الوحيدة التي يجري أطفالٌ في شوارعِها، النساء المتواضعات اللواتي كنَّ يؤوينها في بيوتهنَّ المبنية من اللبن، دون أن يخطر لهنّ أنّها واحدة منهنَّ، آلاف الأمريكيين الوافدين هذا الخريف إلى ضفاف شذرات الذهب، بعد أن اجتازوا برّاً القارَّةَ من شواطئ الأطلسي وحتى شواطئ المحيط الهادي. قدّرت عددَ الواصلين الجدد بأربعين ألفاً وكلّ واحدٍ منهم مستعد للثراء بلمح البصر والعودة منتصراً إلى بلدته. سُمّوا بـ «أبناء الـ 49» الاسم الذي صار شعبياً وتبناه الواصلون السابقون واللاحقون؛ وبذلك بقيت قرى كاملة بلا رجال، تسكنها النساء والأطفال والسجناء فقط.

«قليلات النساء اللواتي أراهنَّ في المناجِم، لكن هناك عدداً

منهنَّ عندهنّ من الشجاعة ما يكفي لمرافقة أزواجهنّ في حياة الكلاب هذه. الأطفالُ يموتون بالأوبئة والحوادِث، فيقبرنهم، يبكينهم ويتابعن العملَ من بزوغ الشمس حتى مغيبها، منعاً للوحشية من جرف كلِّ أثرٍ للعفّة، يشمِّرن تنوراتهن ويدخلن في الماء بحثاً عن الذهب، لكنّ بعضهنَّ يكتشفن أنّ غسل ملابِس الغير وصنع البسكويت وبيعه أكثر مردوداً؛ هكذا يكسبن في أُسبوعٍ ما تقصم رفيقاتهنّ لأجله ظهورَهنّ في شهرٍ على ضفاف شذاراتِ الذهب. ورجل وحيد يدفع راضياً ثمن رغيفٍ عجنته يدا امرأة عشرة أضعاف ما يدفعه ثمناً لآخر، ولو حاولتُ بيعَ الشيء ذاته وأنا بلباس إلياس أنذيتا لكان من الصعب، يا تاو، أن يدفعوا لي عدّة سنتيمات، فالرجال مستعدون أن يقطعوا أميالاً كثيرة كي يروا امرأةً عن قرب. إنّ فتاة مقيمة تتشمّسُ أمامَ حانة تجمع على ركبتيها خلال دقائق قليلة مجموعة من أكياس الذهب، هديَّة من رجالٍ أذهلتهم رؤية تنورتها الموحية. الأسعار تستمرُّ في الارتفاع، المُعدّنون في كلِّ مرّة أكثر فقراً والتجار أكثر ثراءً. دفعتُ في لحظة يأسٍ دولاراً مقابِل بيضة أكلتُها نيئة مع دفقة براندي وملح وفلفل كما علّمتني ماما فرِسيا: علاج الحزن الذي لا يُخطئُ. تعرَّفتُ على شابٍّ من جورجيا، معتوه مسكين، لكنّهم يقولون لي إنّه لم يكن دائماً هكذا. وقع في بداية العام على عرق ذهب وكشط من الصخر تسعة آلاف دولار بملعقة، لكنّه خسرها في مساء واحد بلعبة *المونتِ*. آه، يا تاو، لا تستطيع أن تتخيّل كم أنا بشوقٍ للاستحمام، لتحضير الشاي والجلوس للحديث معك. أودُّ لو أرتدي لباساً نظيفاً وأضع الأقراط التي أهدتها إليّ الآنسة روز، كي تراني ذات مرّةٍ جميلةً ولا تعتقد أنّني مسترجلة. أُسجِّلُ في يوميّاتي ما يحدث لي، وبذلك سأستطيع أن أروي لك التفاصيلَ حين نلتقي، لأنّنا، هذا ما أنا واثقة منه على الأقل، سنعود ونلتقي ذات يوم. أفكِّر بالآنسة روز وكم هي مغتاظة منّي، لكنّني لا أستطيع الكتابةَ لها قبل العثور على خواكين، إذ يجب ألا يعرف أحدٌ أين أنا الآن. فلو عرفت الآنسة روز بما رأيت وسمعت لماتت. هذه

أرضُ الخطيئة، ستقول روز، فلا أخلاق ولا قوانين تكبح رذائل القمار، الكحول والمواخير، لكنّ هذا البلد بالنسبة إليّ صفحة بيضاء، هنا أستطيع أن أكتبَ حياتي الجديدة، أن أصبحَ ما أرغب به، لا أحد يعرفني إلاكَ، لا أحد يعرف ماضيّ، وأستطيع أن أعودَ لأولَدَ من جديد. لا سادة هنا ولا خدم، أناس يعملون فقط. رأيتُ عبيداً قدماء جمعوا ما يكفي لتمويل صحفٍ، مدارسٍ أو كنائس لأبناء جلدتهم، ويُحاربون العبوديّةَ من كاليفورنيا. عرفتُ واحداً اشترى حرِّيةَ أمِّه، وصلت المسكينة مريضةً شائخة، لكنّها الآن تكسب ما تريده من بيع الطعام، اشترت مزرعةً وتذهب إلى الكنيسة يوم الأحد مرتديةً الحريرَ في عربة تجرُّها أربعة خيول. هل تدري أنَّ كثيراً من البحّارة الزنوج فرّوا من سفنهم، ليس من أجل الذهب فقط بل لأنّهم يجدون هنا شكلاً فريداً للحرّية؟ أتذكُرُ العبدات الصينيات اللواتي أريتنيهنّ في سان فرانسيسكو يطللن من وراء قضبان؛ لا أستطيعُ نسيانهنَّ، يعذبنني مثل أرواح الموتى. حياةُ العاهرات هنا وحشيّة أيضاً، وبعضهنَّ ينتحرن. الرجالُ ينتظرون ساعاتٍ للتسليم باحترام على مُعلِّمة جديدة، لكنّهم يسيئون معاملةَ فتيات الحانات. هل تدري كيف ينادونهنّ؟ حمامات مُدنّسات. الهنود الحمر ينتحرون أيضاً، يا تاو. فهم يطردونهم من كلِّ مكان، ويمضون جياعاً يائسين. لا أحد يشغِّلهم، ثمّ إنّهم يتهمونهم بالأفّاقين ويكبِّلونهم في أعمال شاقّة. عمدة القرى يدفعون خمسة دولارات ثمن الهنديّ المقتول، يقتلونهم كنوعٍ من الرياضة ويسلخون أحياناً فروات رؤوسهم. ولا يخلو الأمرُ من غرينغويين يجمعون هذه التذكارات ويعرضونها مُعلّقة إلى أسرجتهم. ستحبّ معرفةَ أنّ هناك صينيين يذهبون ليعيشوا مع الهنود الحمر. ينطلقون بعيداً، إلى الغابات في الشمال، حيث ما يزال الصيد قائماً. يقولون إنّه ما زال هناك بعض الجواميس».

خرجت إليثا من معركتها مع الدبّ جائعةً ودون مال، لم تأكل

منذ اليوم السابق فقرَّرت ألا تُراهِن بعد الآن بوفوراتها ومعدتها خاوية. حين لم يبقَ عندها ما تبيعه، قضت يومين لا تعرف كيف تعيش، إلى أن خرجت بحثاً عن عملٍ واكتشفت أن كسبَ العيش أسهلُ ممّا توقّعت؛ وأفضل في جميع الأحوال من مهمّة الحصول على من يدفع الحساب. المرأة تضيع دون رجلٍ يحميها ويُعيلها، هذا ما دوّختها به الآنسة روز، لكنّها اكتشفت أنّ الأمر ليس كذلك دائماً. فهي في دورٍ إلياس أنديتا تحصل على أعمالٍ تستطيع القيام بها كامرأة أيضاً. العمل كعامِلة مياوِمة أو راعية بقر أمر محال، فهي لا تتقن استخدام الأدوات أو السوط، والقوّة لا تسعِفها لرفع رفش أو لقلبِ عجلٍ، لكن هناك أعمالاً أخرى في متناول يدها. استعانت في ذلك اليوم بالريشة، كما فعلت في كثير من الأحيان قبل ذلك. كتابة الرسائل كانت نصيحة جيِّدة من صديقها ساعي البريد. إذا لم تستطع القيامَ بها في حانةٍ، نشرتْ بطانيّتها القشتاليّةَ وسط ساحة، ووضعت فوقها الدواة والورقة ودلّت على عملها بأعلى صوتها. كثير من المُعدِّنين الذين نادراً ما يقدرون على القراءة السهلة أو توقيعِ اسمهم، لم يكتبوا رسالة في حياتهم، لكنّهم جميعاً ينتظرون البريد بفارغ الصبر، فهو احتكاكهم الوحيد بأسرهم البعيدة. كانت بواخر بريد *المحيط الهادي* تصلُ إلى سان فرانسيسكو كلَّ أسبوعين بأكياس الرسائل التي سرعان ما تنتشر في الأفق ويُهرع الناسُ ليقفوا في الصفّ أمام مكتب البريد، ويتأخر المستخدمون عشر أو اثنتي عشرة ساعة في فرز مُحتوى الأكياس، لكن لا أحد يهمّه أن ينتظر اليوم كلّه. من هناك إلى المناجم تستغرِقُ عدّة أسابيع أخرى. عرضَت إليثا خدماتها بالإنكليزيّة والإسبانيّة، أن تقرأ الرسائل وتردّ عليها. وإذا كان الزبون ممن لا يكاد يخطر له جملتان مقتضبتان يُعبّر بهما عن أنّه ما يزال حيّاً ويبلّغ تحياته لأهله، تستفسر منه بصبرٍ وتُضيف حكاية أكثر أناقة حتى تملأ صفحةً على الأقل. تتقاضى دولارين عن كلِّ رسالة، دون أنّ تتوقّف عند طولها، لكنّها إذا أضافت عباراتٍ عاطفيّةً، لم تخطر قط ببال الرجل، عادة ما تتلقّى

إكراميّةً. بعضهم كان يأتيها برسائل لتقرأها لهم فتنمّقها قليلاً أيضاً وبذلك تواسي المسكين ببعض كلمات الحنان. النساء اللواتي تعبن من الانتظار على الطرف الآخر من القارّة لا يكتبن عادة إلا الشكوى والعتاب أو سلسلة من النصائح المسيحيّة، دون أن يتذكّرن أنّ أزواجهنّ مرضى بالوحشة. جاءها في يوم اثنين شريفٌ طالباً منها أن تكتب له الكلمات الأخيرة لأحد السجناء المحكومين بالإعدام، شاب من ويسكونسين اتُهِم صباح اليوم ذاته بسرقة جواد؛ على الرغم من أعوامه التسعة عشر التي أكملها توّاً أملى على أليثا دون تأثّرٍ: «أمّيَ الحبيبة، آمل أن تكوني بخير حين تتلقين هذا الخبر وتقولي لبوب وجيمس إنّهم سيشنقونني اليومَ، تحياتي، تيودور». حاولت إليثا أن تُلطّف الرسالةَ قليلاً، كي توفّر على الأم البائسة إغماءً، لكنّ *الشريف* قال لها إنّه لا وقت للتملّق. بعد دقائق قاد عددٌ من المواطنين النزيهين المُتَّهَمَ إلى مركز البلدة. أجلسوه على حصانٍ وحبل في عنقه مرّروا طرفه الآخر إلى غصنٍ شجرة، ثمّ ضربوا ردف الحيوان ضربة تركت تيودور مُدلّى دون أيّة تشريفاتٍ أخرى. لم يكن هذا أوّل من رأته إليثا، على الأقل كانت تلك العقوبة سريعة، فعادةً ما يُجلَدُ المُتّهم قبل تنفيذ الحكم إذا كان من عرقٍ آخر حيث تلاحقُها صرخةُ المحكوم بالإعدام وصياحُ المتفرّجين لأسابيعَ حتى ولو ذهبت بعيداً.

استعدّت في ذلك اليوم لتسأل عمّا إذا كان باستطاعتها أن تُقيم تجارتها ككاتبة في الحانة، حين لفتت جلبةٌ انتباهها. مع خروج الجمهور من حفلة مصارعة الدبّ تماماً دخلت إلى الشارع الوحيد في البلدة بعض العربات تجرّها بغال ويتقدّمُها صبيٌّ هنديّ أحمر يقرعُ طبلاً. لم تكن عربات عامّة، فالخيش مُزيّن وتتدلّى من السقوف نُسالات، وكرات معدنية ومصابيح صينية، والبغال مزيّنة مثل حيوانات السيرك ترافقها خشخشة جلاجل نحاسية مريعة. على مقعد سائق العربة الأولى تجلس امرأة قبيحة بثديين هائلين ولباسِ رجلٍ

وتضع بين أسنانها غليون قرصان. العربة الثانية يقودها رجلٌ ضخم تغطيّه جلودُ ذئبٍ مقروضة، حليق الرأس وحلقتان في أذنيه، مُدجّج بالسلاح كما لو أنّه في طريقه إلى الحرب، وكلّ عربةٍ تجرُّ خلفها أخرى تُسافر فيها بقيّة الكومبارس، أربع شابّات مزيّنات بالقطيفة والبروكار البائس، يقذفن بالقبلات إلى الحشود المذهولة. استمرَّت الدهشةُ برهة فقط، فما أن ما تعرَّفوا على العربات حتى أنعشت الصيحات وإطلاق النار الجوّ. كانت الحمامات المدنّسات قد سيطرت حتى ذلك الوقت دون منافسة نسائيّة، لكنّ الحالة تبدّلت حين استقرّت الأسَرُ الأولى وهز الوعّاظُ الضمائرَ بالتهديد بالعذاب الأبدي. ونظراً لعدم وجود المعابد أقاموا الصلوات في الحانات ذاتها حيث تزدهِرُ الرذائل. كان بيعُ المشروبات الروحيّة يُوقف لساعةٍ، وأوراق اللعب تُخَبَّأ واللوحاتُ الماجنة تُقلَبُ بينما الرجال يتلقون تحذيرَ الراعي من إلحادهم وجنوحهم. وبإطلال المتسكّعات من شرفة الطابق الثاني كنّ يُقاوِمن المعمعة بتفلسفِ معزياتٍ أنفسهنّ بأنّ كلّ شيءٍ سيعود بعد ساعة إلى مجراه، فطالما أنّ التجارة لا تتراجع فقليلاً ما يهمّ إذا كان من سيدفع لهنّ مقابل الممارسة سيخطّئهنّ لتلقيهنَّ الأجر، وكأنّ الرذيلة ليست رذيلتهم بل رذيلة من يغوينهم. هكذا أُقيمت حدود بين النساء العفيفات ونساء الحياة اللاهية. بعضهنّ رحنَ يذهبن بصناديقهنَّ إلى مناطق أخرى، حيثُ عاجلاً أم آجلا ستتكرّر الحالة، بعد أن تعبن من رشوة السلطات وتحمّل الإهانات. كانت فكرةُ الخدمة الجوّالة تُقدِّم ميْزة التهرّب من حصار الزوجات ورجال الدين، ثمّ إنّ الأفق راح يمتدُّ إلى أبعد المناطِق، حيث يتقاضين الضعف. كانت التجارة تزدهر في جوٍّ جيِّد، لكنّهن أصبحن على أبواب الشتاء وسرعان ما سيسقط الثلج وستصبح الطرقات غير صالحة للمرور، وتلك كانت واحدة من آخر رحلات القافلة.

جابت العربات الشارع وتوقّفت عند مخرج البلدة، يتبعها موكب

من الرجال وقد شجّعهم الكحول ومصارعة الدبّ. إليثا توجّهت إلى هناك أيضاً كي ترى الجديد عن قرب. فهمت أنّه سينقصها زبائن لعملها في كتابة الرسائل، وستحتاج إلى طريقة أخرى لكسب عشائها. عَرَض عددٌ من المتطوّعين خدماتهم لفكّ البغال والمساعدة في تنزيل بيانو رهيب، وضعوه على العشب تحت إمرة القوّادة التي عرفها الجميع باسم جو رومبّوسوس (كسّارة العظام). وبلمح البصر نظّفوا قطعة من الأرض، وضعوا طاولات، وظهرت بالسحر زجاجات روم وصناديق بطاقات بريدية لنساء عاريات، وكذلك صندوقًا كتبٍ بطبعات دهمائيّة أُعلِن عنها على أنّها «أناشيد غرف النوم مع مشاهد مُثيرة من فرنسا» تُباعُ بعشرةِ دولارات، صفقة رابحة، لأنّهم يستطيعون أن يُثيروا بها أنفسهم ما أرادوا، كما يمكنهم إعارتها للأصدقاء وهي أكثر مردوداً من امرأة حقيقيّة، كانت رومبّوسوس توضّحُ، وللبرهان على ذلك قرأت مقطعاً استمع الجمهور إليه بصمت قبر، وكأنّ الأمر يتعلّق بكشفٍ نبوئيّ. موجة من الضحك والمزاح استقبلت نهايةَ القراءة وخلال دقائق لم يبقَ كتابٌ واحد في الصندوقين. حلّ الليلُ في هذه الأثناء فكان عليهم أن يضيئوا الحفلة بالمشاعِل. أعلنت القوّادة عن سعر زجاجات الجنِّ الباهظة، لكنّ الرقص مع الفتيات يكلّف ربع القيمة. وسألت: هل من أحد يعرف العزف على البيانو اللعين؟ تقدّمت إليثا التي كانت عصافيرُ بطنها تُزقزِق، دون أن تُفكّر بالأمر مرّتين، وجلست أمام الآلة الناشزة مستحضِرة الآنسة روز. لم تكن قد عزفت منذ عشرة أشهرٍ وما عادت أذنها جيّدة، لكنّ التدريب لسنواتٍ والقضيب المعدني في ظهرها وصفعات الأستاذ البلجيكي حضرت لنجدتها في الحال، وهجمت على أغنيةٍ خبيثة عادة ماكانت الآنسة روز وأخوها القبطان يغنيانها ثنائيّاً في أيّام المسامرات الموسيقية البريئة، قبل أن يصفعها القدر على قفاها وينقلب عالمها إلى الخلف. تبيّنت الاستحسان الذي استُقْبِل به أداؤها المتعثّر مذهولةً. وفي أقل من دقيقتين ظهر كمان لمرافقتها. حمي الرقصُ وتنازع الرجال على

النساء الأربع للجري والخبب المتعثّر في الحلبة المرتجلة. نزع غول الجلود القبّعةَ عن رأس إليثا ووضعها على البيانو بحركة طبيعية، لم يتجرّأ أحد على تجاهلها، فامتلأت القبّعة على الفور بالإكراميات.

استخدمت واحدة من العربات لكلّ أنواع الخدمات وغرفةً لنومها ومنوم ابنها بالتبنّي، طفل الطبل. في الأخرى تسافر بقيّةُ النساء متكدّسات، والعربتان المقطورتان تحوّلتا إلى غرفتي نوم، وكلّ واحدة مغطاة بمناديل متعدِّدة الألوان وفيها سرير إفراديّ بأربع دعامات ومظلّة وعلاقة ناموسيّة ومرآة بإطار مذهَّب وطقم مغاسل وطشت من الخزف، وسجاد فارسيٌّ فَقَدَ لونَه، لكنّه ما يزال حسن المنظر، وشمعدانات فيها شموع للإضاءة. شجّعَ هذا الديكور المسرحيُّ الزبائن وموّه على غبار الطرقات وأضرار الاستخدام، وبينما كانت اثنتان من النساء يرقصن على نغم الموسيقى راحت الأخريان تقودان التجارة بكلّ سرعة في العربات والقوّادة بأصابعها التي لجنّية في لعب الورق لا تغفل عن طاولات اللعب، ولا عن واجبها بقبض ثمن الخدمات من حماماتها مقدَّماً، وبيع الروم وتشجيع السكر، والغليون بين أسنانها دائماً. كانت إليثا تعزفُ الأغاني التي تعرفها عن ظهر قلب وحين تنتهي اللائحة تبدأ من جديد بالأولى، دون أن يلحظ أحد التكرار حتى غشيت عيناها من التعب. حين رأى العملاق أنّها تضعف أعلن عن استراحة، أخذ نقود القبّعة وأدخلها في جيوب عازفة البيانو، ثمّ أخذها من ذراعها وحملها وهو قلق فعلاً إلى أوّل عربة. حيث وضع في يدها كأس روم. رفضته بحركة دائخة، لأنَّ تناولَه دون طعام يعني ضربة على الرقبة. عندئذ بحث في فوضى الصناديق والأصص وحصل على قطعة خبز وقطعة بصل هجمت عليهما مرتجفةً استعجالاً، وحين التهمتهما رفعت رأسها ووجدت نفسها أمام ذلك الشخص ذي الجلود يراقبها من عليائه الرهيب؛ تضيئه ابتسامة بريئة بأكثر أسنانِ العالمِ بياضاً واستواءً.

ـ لك وجه امرأة ـ قال لها فانتفضت.

ـ اسمي إلياس أنذيِتا ـ أجابت، وهي تضع يدها على قبضة المسدّس كما لو أنّها مستعدّة للدفاع عن اسمها الذكري بالنار.

ـ أنا بابالو الشرير.

ـ وهل هناك بابالو الطيّب؟

ـ كان هناك.

ـ وماذا حلَّ به؟

ـ التقى بي. من أين أنت، يا صغير؟

ـ من تشيلي. أبحث عن أخي. هل سمعت بخواكين أنذيِتا؟

ـ لم أسمع بأحد. لكنَّ أخاكَ سيأتي عاجلاً أو آجلاً لزيارتنا، إذا كان له بيض. الجميع يعرفون فتيات جو رومبّوِسوس.

تجارة

أرسى القبطانُ جون سومُرز الباخرة *فورتونا* في خليج سان فرانسيسكو على مسافة كافية عن الشاطئ، كما لو أنّه لا يريدُ أن يُقْدِمَ أيّ شجاعٍ على قذف نفسه إلى الماء والسباحة حتى الشاطئ. كان قد حذّر طاقمَ البحارة من أنّ الماءَ باردٌ والتيار يقضي على المرء في أقلّ من عشرين دقيقة هذا إذا لم تتعهّد أسماكُ القرش بذلك. كانت تلك رحلته الثانية مع الثلج ويشعر بنفسه أكثر ثقة. أمَرَ، قبل أن يدخل في قنال غولدِن غات الضيّقة، بفتح عدّة براميل صغيرة من الروم وزّعها بسخاء على البحّارة، وحين سكروا أخرج مسدسين كبيرين وأجبرهم أن يستلقوا على بطونهم أرضاً. قيدّهم نائبُه من أقدامهم أمام المسافرين المرتبكين الذين صعدوا في بالبارايسو، وراقبوا المشهد عن السطح الأوّل دون أن يدروا أيّة شياطين تحدث. أرسل الأخوان رودريغث دِ سانتا كروث خلال ذلك أسطولاً صغيراً من الزوارق من الرصيف لتنقل الركاب وحمولة الباخرة الرائعة إلى البرّ. سيُحَرّر طاقم البحارة حين القيام بمناورة إقلاع الباخرة لحظة العودة، بعد أن يتلقوا مزيداً من المشروب وحصّةً من العملة الأصلية ذهباً وفضّةً تُعادِل ضعف مرتبهم. لم يكن هذا يُعوِّضهم أنّهم لايستطيعون الضياعَ داخل البر بحثاً عن المناجِم، كما خطّطوا جميعاً تقريباً، لكنّه على أقلّ تقدير يفيد في مواساتهم. الطريقة ذاتها استخدمها في الرحلة الأولى وأعطت نتائج رائعة، فكان يتباهى بأنّه يملك واحدة من السفن التجارية القليلة التي لم تُهجَر في جنون

الذهب. لم يكن باستطاعة أحدٍ تحدّي هذا القرصان الإنكليزيّ، ابن العاهرة وفرانسيس دريك، كما كانوا يُنادونه، لأنّهم لم يشكوا بقدرته على تفريغ بندقيته القصيرة في صدر أيّ واحد يقذف بنفسه إلى البحر.

كُوِّمت المنتجات المُرسَلَةُ من قبل باولينا من بالبارايسو على رصيف ميناء سان فرانسيسكو: بيض وجبن طازَج، خضراوات وثمار تشيلي الصيفيّة، زبدة، سيدرا، سمك وبحريات وأفضل أنواع سجق اللحم، لحم بقر وكلّ أنواع الطيور المحشوّة والمتبّلة الجاهزة للطبخ. كانت باولينا قد كلّفت الراهبات بتجهيز الكاتو الاستعمارية من حلوى الحليب وكعكة الألفِ رقيقة، وكذلك المأكولات الأكثر شعبيّة في المطبخ الكريولي التي تسافر مُجمّدة في غرف الثلج الأزرق. تخاطف الناسُ الإرسالية الأولى في أقلّ من ثلاثة أيام، وعادت بنفعٍ مُذهِل على الأخوين اللذين أهملا تجارتهم الأخرى ليركّزا على أعجوبة الثلج. راحت قطع الجليد تذوب ببطءٍ خلال الإبحار، لكنّ بقي منه الكثير ففكّر القبطان ببيعه بسعر المرابي عند العودة في بنما. واستحال السكوت على النجاحِ المُفجِم للرحلةِ الأولى، وسرى كالبارود خبر أنّ بعض التشيليين يُبحرون بقطع من الجليد على متن السفينة. وسرعان ما تشكّلت جمعيات لفعل الشيء ذاته بجليد آلاسكا، لكنه استحال عليهم العثور على بحّارة ومنتجات طازَجة قادرة على منافسة بحارة تشيلي، فاستطاعت باولينا أن تستمرّ بتجارتها المكثّفة دون منافسين، ريثما تؤمِّنُ باخرة ثانية لتوسّع شركتها.

كذلك بيعت صناديق كتب القبطان سومّرز الداعرة بلمح البصر، لكن تحت غطاء من الحشمة ودون أن تمرّ على أيدي الأخوين رودريغث بِ سانتا كروثْ. توجّب على القبطان تفادي ارتفاع الأصوات العفيفة بأيّ ثمنٍ، كما حدثَ في مدنٍ أخرى، حين صادرتها الرقابة لأنّها غير أخلاقيّة، وانتهت إلى أن أُضرِمت فيها النار العامةً. كانت تدور في أوروبا طبعاتٌ فاخرة منها بين السادة الكبار وجامعيها، لكنَّ الربح الأكبر صار يأتي من الطبعات الموجّهة

للاستهلاك الشعبي؛ تُطبَع في إنكلترا حيث تُعرَض سرّاً ببعض السنتيمات، لكنّ القبطان حصل في كاليفورنيا على خمسين ضعفاً من قيمتها. ونظراً للحماس لهذا النوع من الأدب خطر له أن يزوّدها بالصور التوضيحيّة، لأنّ غالبية عمّال المناجم لم تكن تقرأ غير عناوين الصحف. كانت الطبعاتُ الجديدة قد بدأت تُطبع في لندن مزوّدة برسوم دهمائية، لكنّها ظاهرة، وهي في النهاية الشيء الوحيد الذي يهمُّ.

في ذلك المساء ذاته، وفي صالون أفضل فنادق سان فرانسيسكو كان جون سومّرز يتناول العشاء مع الأخوين رودريغِث دِ سانتا كروث، اللذين استعادا خلال أشهرٍ قليلة مظهر الفارسين. لم يبق شيءٌ من مظهر ساكني الكهوف اللذين كانا يبحثان قبل أشهر عن الذهب. الثروة هناك في متناول اليد، كانوا يقولون، في الصفقات النظيفة، التي يستطيعان القيام بها وهما جالسان في كراسي الفندق الوثيرة وكأس ويسكي في اليد، كأناس متحضّرين وليس كعمّال. انضمّ إلي التشيليين الخمسة الذين جاءا بهم في نهاية 1848 ثمانون ريفياً، أناس متواضعون ووديعون لا يعرفون شيئاً عن المناجم، لكنّهم يتعلّمون بسرعة، يمتثلون ولا يتمرّدون. أبقى عليهم الأخوان يعملون على ضفاف نهر ريّو أمريكانو بقيادة ناظرِين أوفياء، بينما هما يتفرّغان للنقل والتجارة. اشتريا مركبين للقيام بالعبور من سان فرانسيسكو إلى ساكرامِنتو، ومئتي بغل لنقل البضائع إلى ضفاف شذرات الذهب، يبيعونها مباشرة دون المرور بالمخازِن. العبد الهارب، الذي عمل في السابقِ حارساً شخصيّاً، ظهر أنّه بطل في الأرقام، يقوم الآن بالمحاسبة ويرتدي أيضاً ثياب سيّدٍ عظيم وبيده سيجار وكأس على الرغم من دمدمات الغرينغويين الذين صَعُبَ عليهم التسامح مع لونه، لكن لم يكن أمامهم من حيلة إلا أن يتباحثوا معه.

ـ عقيلتك أرسلت تقول إنّها قادمة في رحلة *فورتونا* المقبلة مع الأطفال والخدم والكلب. وتقول لك فكِّرْ أين سيقيمون، لأنّها لا تُفكِّر بالعيش في فندق ـ أبلغَ القبطانُ فِليثيانو رودريغِث دِ سانتا كروث.

ـ يا لها من فكرة مجنونة! انفجار الذهب سينتهي بسرعة وستعودُ هذه المدينةُ القريةَ البائسة التي كانت عليها منذ سنتين. هناك علائم تدلّ أنّ المعدن تناقص وانتهت لقى الكريات التي تشبه الصخر. ومن ستهمّه كاليفورنيا بعد أن ينتهي؟

ـ حين جِئتُ لأوّل مرّة بدا هذا مثل مخيَّمٍ للاجئين، لكنّه تحوّل إلى مدينة بكلِّ معنى الكلمة. بصراحة لا أعتقدُ أنّها ستختفي بنفخة، إنّها بوَّابة الغرب من جهة المحيط الهادي؟

ـ هذا ما تقوله باولينا في رسالتها.

ـ اتبع نصيحة زوجتك، يا فِليثيانو، فكّر أنّ لها عين وشق ـ قاطعه أخوه.

ـ ثم إنّه ما من طريقة لكبحها. فهي قادمة معي في الرحلة التالية. لا ننسَ أنّها صاحبة *فورتونا* ـ ابتسم القبطان.

قدَّموا لهم محار المحيط الهادي الطازج، أحد الصحون القليلة الفاخرة في سان فرانسيسكو، وترغلات محشوّة باللوز ومربى الأجاص من شحنة باولينا التي اشتراها الفندق على الفور. كان النبيذ الأحمر تشيليّاً أيضاً والشمبانيا فرنسية. سرى خبرُ وصول التشيليين مع الثلج فامتلأت مطاعم المدينة وفنادِقها بالزبائن المُتلهّفين للتمتّع بالملذات الطازجة قبل أن تنفد. كانوا يُشعِلونٍ سيجارَهم مع القهوة والبراندي حين شعر جون سومّرز بربتة كفٍّ أوشكت أن ترمي الكأس من يدِهِ. التفت فوجد نفسه أمام جاكوب تود، الذي لم يره منذ أكثر من ثلاثة أعوام، حين أنزله في إنكلترا فقيراً مذلولاً. إنّه آخر شخص توقّع رؤيته واستغرق برهة حتى عرفه، لأنّ مبشّر الماضي المزيّف بدا صورة كاريكاتوريّة عن اليانكي. هبط وزنه وفقد شعره، وأطّر وجهَهُ سالفان طويلان، ارتدى بزّةً بمربعات كانت ضيّقة قليلاً عليه بالنسبة لحجمه، وانتعل جزمة جلد حنش ووضع قبّعة بيضاء من فيرجينيا غير مناسبة، ثمّ إنّ أقلام رصاصٍ ودفاتر وورق صحافة تُطِلُّ من جيوب سترته الأربعة. تعانقا كرِفيقين قديمين. كان قد مضى على جاكوب تود خمسة أشهر في سان فرانسيسكو وهو يكتب مقالات صحفية عن

حمّى الذهب، تُنشر عادةً في إنكلترا وفي بوسطن ونيويورك أيضاً، وقد وصل بفضل تدخّل فِليثيانو رودريغِث دِ سانتا كروث الكريم، الذي لم يَضَع في كيسٍ مثقوبٍ المعروفَ الذي يدين به للإنكليزي. فهو كتشيليٍّ جيّد لا ينسى أبداً المعروف - ولا الإهانة - وحين علم بأشجانه في إنكلترا، أرسل إليه نقوداً وتذكرةً، وملاحظة يوضّح له فيها أنّ كاليفورنيا هي أبعدُ ما يمكن الذهاب إليه قبل البدء بالعودة من الجانب الآخر. هبط جاكوب تود في عام 1845 من سفينة القبطان جون سومّرز بصحّة متجدّدة ونشاطٍ كامل، محاولاً نسيان حادِث بالبارايسو المخزي وعازماً جسداً وروحاً على إقامة الجالية الطوباوية التي طالما حلم بها. كان يحمل معه دفتره السميك المصفرّ من كثرةِ الاستخدام وهواءِ البحر، المليء بالمذكرات. فقد درس أدنى تفاصيل الجالية وخطّط لها واثقاً من أنّ شباناً كثيرين - الشيوخ لا يهمّون - سيغادرون حياتهم المتعبة لينضمّوا إلى أخوّة الرجال والنساء الأحرار المثالية في نظام مُطلقِ المساواة، بلا سلطات ولا شرطة ولا دين. حدث أنّ المرشحين المحتَمَلين للتجربة كانوا أعصى على الفهم ممّا افترض، لكن بعد أشهرٍ صار عنده اثنان أو ثلاثة مستعدون للمحاولة، ولم ينقصهم إلّا نصير لتمويل المشروع المُكْلِفِ، فهو يتطلّب أرضاً واسعة، لأنّ الجالية تطمح للعيش بعيدةً عن ترهات العالم ويجب أن تُشبِع جميعَ حاجاتها. كان تود قد بدأ محادثاتٍ مع لوردٍ مخبولٍ قليلاً يملك عقاراً شاسعاً في إيرلندا، حين أدركته في لندن شائعةٌ فضيحة بالبارايسو، وحاصرته مثل كلبٍ عنيد دون أن تترك له نفَسَاً. هناكَ أيضاً أُغلِقَت في وجهه الأبوابُ وخسِر الأصدقاء، أمّا التلاميذ والنبيل فتنكّروا له وذهب حلمه بالمدينة الفاضلة إلى الشيطان. مرّةً أخرى حاولَ جاكوب تود أن يجد عزاءه في الكحول وغرق في ورطة الذكريات السيّئة. وبينما هو يعيش مثل فأرٍ في فندق غاية في الرداءة وصلته رسالةُ صديقه المنقذة. لم يُفكّر بالأمرِ مرّتين. بدّل كنيته وأبحر باتجاه الولايات المتحدة الأمريكيّة، مستعدّاً للشروع بمصير جديدٍ وقشيب. هدفه الوحيد هو قبر العار والعيشِ في المجهول حتى تأتي الفرصة لتجديد مشروعه الرعويّ. أوّلاً عليه أن يعثر على عرض استخدام،

فمعيشته انكمشت وأزمنة اللهو المجيدة في نهايتها. في نيويورك تقدّم إلى صحيفتين عرض عليهما العملَ مراسلاً في كاليفورنيا، ثمّ قام برحلته إلى الغرب عبر برزخ بنما، لأنّه لم يجرؤ على ذلك عبر مضيقِ ماجلان ووطء بالبارايسو من جديد، حيث ينتظره العارُ طازَجاً والآنسة روز الجميلة ستعود وتسمع اسمه المُدَنَّس. ساعده صديقُهُ فِليثيانو رودريغِث دِ سانتا كروثْ في كاليفورنيا على الاستقرار والحصول على استخدامٍ في أقدَمِ صحيفة يوميّة في سانِ فرانسيسكو. بدأ جاكوب تود الذي أصبح جاكوب فريمونت العملَ لأوّل مرّة في حياته، مكتشفاً بذهول أنّه يحب ذلك، يجوب المنطقة وهو يكتب عن كلّ المسائل التي تلفت انتباهه، بما في ذلك مذابح الهنود الحمر، المهاجرينِ القادمين من كلّ أركان الكوكب، مضاربة التجار الجامحة، عدالة المُعدّنين السريعة واللهو المعمَّم. كاد أحدُ تحقيقاته أن يودي برأسه. وصف بلطفٍ لكن بوضوحٍ تامٍّ الطريقة التي تعمل بها بعض المقامِر بالنردِ المُعلّم، والورق المزيَّت والكحول المغشوش والمخدرات والعاهرات وتسميم النساء بالكحول حتى يفقدن الوعي، وذلك لبيع الحقّ باغتصابهن لكلّ من يرغب بالمشاركة في عملية اللهو بدولارٍ واحد. «كلّ ذلك بحماية السلطات التي عليها محاربة هذه المفاسِد»، كتب مُستنتِجاً. انقضّ عليه قُطّاع الطرق وقائد الشرطة مع شرطته فاضطرّ أن يتبخّرَ لشهرين ريثما تهدأ النفوس. وعلى الرُغم من الزلّة راحت مقالاته تظهر بانتظام ويصبح هو صوتاً محترماً، كما قال لصديقه جون سومّرز: بالبحث عن الإغفال راح يجد الشهرة.

عند الانتهاء من العشاء دعا جاكوب فريمونت أصدقاءه لعرض اليوم: امرأة صِينيّة يمكن مراقبتها لا لمسها؛ وتُدعى أه توي، أبحرت في سفينة شراعية سريعة مع زوجها وهو تاجر في عمر الوصيّ. من حسن ذوقه أنّه خطر له الموت في عرض البحر وتركها حرّة. لم تضع الوقتَ في تأسف الأرملة، ولكي تنشّط الرحلة تحوّلت إلى عشيقة للقبطان، الذي صادف أنّه سخيٌّ. حين هبطت في سان فرانسيسكو متباهيةً ومغتنية لاحظت النظرات الشهوانيّة التي تلاحقها، فخطرت لها الفكرة اللامعة بأن تقبض مُقابلها. استأجرت

غرفتين وحفرت ثقوباً في الجدار الفاصِل تبيع امتياز النظر إليها بأونصة ذهب. تبع الأصدقاء جاكوب فريمونت بمزاج رائق، واستطاعوا أن يتخطوا الدور بالرشوة ببعض الدولارات والدخول بين الأوائل. قادوهم إلى غرفةٍ ضيقةٍ مفعمة بدخان السجائر، يتزاحم فيها بضعة عشر رجلاً بأنوفهم الملتصقة بالجدار. أطلوا من الثقوب المزعجة فشعروا بأنفسهم مضحكين مثل تلامذة مدرسة، ورأوا في الغرفة الأخرى شابّة جميلة ترتدي عباءة يابانيّة حريرية مفتوحة على الجانبين من الخصر وحتى القدمين، عارية تحتها. كان المشاهِدون يتنهّدون أمام كلّ حركة واهنة تكشف عن جزء من جسدها الرقيق. بينما جون سومّرز والأخوان رودريغِث دِ سانتا كروث يتلوّون ضحكاً دون أن يُصدّقوا أن الحاجة للنساء خانقة إلى هذا الحدّ. هناك افترقوا وذهب القبطان والصحافي لتناول آخر كأس. قرّر القبطان الثقة بجاكوب بعد أن سمع منه سردَ أسفاره ومغامراته.

ـ هل تتذكّر إليثا، الطفلة التي كانت تعيش مع أخويَّ في بالبارايسو؟

ـ تماماً.

ـ هربت من البيت منذ عام تقريباً، وعندي من الأسباب المقنعة ما يجعلني أظنّ أنّها في كاليفورنيا. حاولت العثورَ عليها لكنّ أحداً لم يسمع بها أو بمن هي بمواصفاتها.

ـ النساء الوحيدات اللواتي وصلن إلى هنا عاهرات.

ـ لا أدري كيف جاءت، في حال أنّها فعلت ذلك. المعلومة الوحيدة هي أنّها انطلقت بحثاً عن عاشقها، وهو شاب تشيليّ اسمه خواكين أندْيِتا...

ـ خواكين أندْيِتا أعرفه، كان صديقي في تشيلي.

ـ إنّه هارب من العدالة. يتهمونه بالسرقة.

ـ لا أُصدِّقُ ذلك. فأندْيِتا كان شاباً في غاية النبل. في الحقيقة كان كثير الكبرياء والإحساس بالشرف، بحيث كان من الصعب الاقتراب منه. وتقول لي بأنّه وإليثا عاشقان؟

ـ لا أعرف غير أنّه أبحر إلى كاليفورنيا في كانون الأول من عام 1848. وبعد شهرين اختفت الطفلة. أختي تعتقد أنّها جاءت تتبع أنذيتا، مع أنّني لا أستطيع تصوّر كيف فعلت ذلك دون أن تتركَ أثراً. بما أنّك تتحرّك في المخيمات وقرى الشمال ربّما استطعت أن تتحقّق من شيء...

ـ سأعمل مابإستطاعتي عمله، أيّها القبطان.

ـ سنكون أنا وأخويَّ شاكرين لك إلى الأبد، يا جاكوب.

بقيت إليثا سومّرز مع قافلة جو رّومبوسوس، تعزف على البيانو وتتقاسم الإكرامياتِ مناصفةً مع القوّادة. اشترت كتاب أغاني أمريكيّة وآخر لاتيني لتنشيط السهرات وساعات اللهو الكثيرة، تُعلّم الطفل الهنديَّ الأحمر القراءةَ، وتُساعد في الأعمال اليوميّة المتعدّدة وتطبخ. كما كان يقول رجال الكُومبارس: لم يأكلوا طعاماً أفضل قط. فهي تحضِّر باللحم المجفّف والفاصولياء، وشحم الخنزير ذاته صحوناً لذيذة من ابتداع حماسة اللحظة، تشتري توابل مكسيكية وتضيفها إلى وصفات ماما فرِسيا التشيليّة فتأتي النتائج رائعة، تصنع كعكاً دون مكوّنات أخرى غير الدهن والطحين والفاكهة المجفّفة، لكن إذا ما حصلت على البيض والحليب بلغَ إلهامُها قممَ الطبخ السماوية. لم يكن بابالو الشرير من أنصار أن يطبخ الرجالُ، لكنّه كان أوّل من يلتهم ولائم الشاب عازف البيانو، واختار أن يسكت على الانتقادات الساخرة. راح العملاق المعتاد على القيام بالحراسة ليلاً ينام بعمقٍ نهاراً؛ لكن ما أن تُدرك روائح القدور أنفه الذي لتنين حتى يستيقظ بقفزةٍ واحدة ويتوضّع على مقربة من المطبخ يراقب، فهو يعاني من شهيّة لا تُشبَع ولم يكن هناك من ميزانيّة قادرة على ملء كرشه الهائل. قبل وصول التشيلي الصغير، كما كانوا ينادون إلياس أنذيتا المزيّف، كانت وجبته تقوم على الحيوانات التي يستطيع اصطيادها. يقطعها طولاً ويتبّلها بالملح الخشن ويضعها على الجمر حتى تتفحّم. وهكذا كان باستطاعته التهام أيلاً خلال يومين. مع احتكاكه بمطبخ عازف البيانو تحسن

ذوقه، صار يخرج يومياً إلى الصيد، ينتقي أنعم الطرائد ويسلّمها إليها منظَّفَةً ومسلوخة.

كانت إليثا تتقدّم القافلةَ في الطرقاتِ ممتطيةً فرسها القويّ، الذي أثبت، على الرغم من مظهره الحزين، أنّه نبيل مثل جِصان أصيل، وبندقيتها غير المجدية تعترض السرج، وطفل الطبل على الكفل. شعرت بالراحة في لباسِ الرجلِ حتى أنّها تساءلت ما إذا كان باستطاعتها العودة لارتداءِ ملابسِ النساء. شيءٌ واحد وثقت منه: لن ترتدي المشدّ ولا حتى ليوم زواجها من خواكين أنديْتا. إذا وصلوا نهراً استغلت النسوة الفرصة لجمع الماء في براميل وغسل الثياب والاستحمام، وتلك كانت أصعب اللحظات بالنسبة إليها، إذ عليها أن تبتدع حججاً هي في كلّ مرّة أكثر افتعالاً لتنظِّفَ نفسها دون شهود.

كانت جو رّومبّوسوس هولندية قويّة البنية من بنسِلفانيا، عثرت على قدرها في الغرب الفسيح، وتملك فطنة المشعوذ في ألعاب الورق والنرد، وهي مولّهة بالغش في اللعب. كسبت عيشها بالرهان، حتى خطر لها أن تقيم تجارة الفتيات والتطواف في بِتا مادرِ «بحثاً عن الذهب»، كما سمّت تلك الطريقة من ممارسة عمل المناجم. كانت واثقة من أنَّ عازف البيانو الشاب مثليُّ الجنس ولذلك أحبته مثل الطفل الهنديّ الصغير. لم تسمح لفتياتها بالسخرية منه، أو لبابالو بمناداته بألقاب: لم يكن ذنب الشاب المسكين أنَّهُ وُلِد دون شعر في وجهه وبهذا المظهر الذي لرجل ضعيف، تماماً كما لم يكن ذنبها أنّها وُلِدَتْ رجلاً في جسد امرأة. إنها مزاحات تخطر للرب ليزعجنا بها لا أكثر. اشترت الطفلَ بثلاثين دولاراً من مراقبين يانكيين قضوا على القبيلة وعمره أربعة أو خمسة أعوام، ولم يكن أكثر من هيكلٍ عظمي وكرشه مليء بالديدان، لكنّه وبعد تغذيته بالقوّة خلال أشهر قليلة وترويض غضبه كيلا يكسِّر كل ما يقع بين يديه أو ينطح رأسه بعجلات العربات، نما الصغير شبراً وتكشفت طبيعة المحارب الحقيقيّة لديه: كان رواقياً، كتوماً وصبوراً. سمّته: توم بلا قبيلة. «الاسم لا ينفصل عن الكائن» كان الهنود الحمر يقولون وجو آمنت به، لذلك ابتدعت كنيتها ذاتها.

كانت حمامات القافلة المدنسات أختين من ميسوري، قامتا بالرحلة الطويلة عبر البر وفقدتا أسرتيهما في الطريق، وإستر الشابة ابنة الثامنة عشرة من عمرها، هربت من أبيها، المتعصب الديني الذي كان يجلدها؛ والمكسيكية الجميلة، ابنة غرينغوي وأم هنديّة حمراء تموّه نفسها على أنّها بيضاء، وقد تعلّمت أربع جمل بالفرنسية لتغشّ الساهين لأنّ الفرنسيات، حسب الأسطورة الشعبية، أكثر خبرة. كان مجتمع المُغامرين والأوغاد يحتوي على أرستقراطية عنصرية أيضاً، فالبيض يقبلون الخلاسيات، اللواتي بلونَ القرفة، لكنّهم يحتقرون أي مزيج زنجي. شكرت النسوة الأربع حظّهن لعثورهن على رومبّوسوس. إستر هي الوحيدة التي لم تملك تجربة سابقة، بينما الأخريات عملن في سان فرانسيسكو وعرفن الحياة السيئة. لم يحظين بصالونات راقية، فهنّ يعرفن ضربَ وأمراضَ والتهاباتِ وسوءَ القوّادين، وقد أصبن بالتهابات لا تُعدُّ ولاتُحصى، متحمِلات علاجاتٍ وحشية وإجهاضات كثيرة حتى أصبن بالعقم، وبعيداً عن التأسف اعتبرنه رحمة. من عالم العار هذا أخرجتهنّ جو وحملتهنّ بعيداً. بعدها حافظت عليهن في الحرمان المضني الطويل لتخلّصهن من الإدمان على الأفيون والكحول. وقد كافأتها النسوة بوفاء البناتِ، فهي بالإضافة لذلك عاملتهنّ بعدلٍ ولم تسرقهنّ. الحضور المريع لبابالو باتَ يقطع نَفَسَ الزبائن العنيفين والسكارى الكريهين. كنّ يأكلن جيّداً وبدت لهنّ العربات الجوّالة نعمةً مُغرية للصحة والنفس، يشعرن بأنفسهنّ حرّات في هذا الامتداد الشاسع من الهضاب والغابات. لا شيء سهل أو رومانسي في حياتهنّ، لكنّهن وفّرن بعض المال ويستطعن الذهاب إذا رغبن؛ ومع ذلك لم يفعلن لأنّ هذه المجموعة البشرية الصغيرة بدت أقرب إلى الأُسَرِ التي كانت لهنّ.

كما أنّ فتيات جو رومبّوسوس كنّ مقتنعاتٍ بأنّ الشابّ إلياس أندْيتا الأعجف وذا الصوت النديّ مثليٌّ، وهذا ما منحهنّ الثقة ليتعرين ويغتسلن ويتكلّمن عن كلِّ موضوعٍ في حضوره، كما لو أنّه واحدة منهنّ. قبلوها بطبيعيّة جعلت إليثا تنسى عادةً دورها كرجل،

مع أنّ بابالو أخذ على عاتقه تذكيرها به. لقد عزم على تحويل هذا الجبان إلى ذكر، يراقبه عن كثب، مستعداً دائماً للفت انتباهه حين يجلس مجموع الساقين أو يهزّ شعره بحركة ليس فيها أيّ ذكورة. علّمها تنظيف وتشحيم الأسلحة، لكنّه فقد صبره وهو يُحاول تحسين تصويبها: في كلّ مرّة يضغط على الزناد يُغمِض تلميذه عينيه. لم يُدهَش لكتاب إلياس أندِيتا المقدَّس، على العكس فقد ظنَّ أنّه يستخدِمه لتبرير فرط تمسّكه بالمظاهر، ويرى أنّ الفتى إذا لم يكن يريد أن يتحوَّلَ إلى واعظٍ ملعون فمن أجلِ أيّة شياطين يقرأ حماقات، خير له أن يقرأ الكتب القذرة فربّما خطرت له أفكار فحل. نادراً ما استطاع توقيع اسمه، يقرأ بشقّ النفس، ولم يقبل القراءة ولا حتى على موته. يقول إنّ النظر يخونه ولا يسعفه برؤية الحروف جيّداً، مع أنّه يستطيع أن يُصيب أرنباً مذعوراً بين عينيه على مسافة مئة متر. عادة ما يطلب من التشيلي الصغير أن يقرأ له الصحف المتأخرة وكتبَ رومبِّوسوس الجنسية بصوتٍ عال، ليس لما فيها من الأشياء القذرة بقدر ما يهزه الرومانسي فيها، وعادة ما تعلَّق الأمر بغراميات متأجّجة بين عضو من النبالة الأوروبية وفتاة دهمائيّةٍ، أو على العكس أحياناً: فتاة أرستقراطيّة تُجنّ برجل ريفي خشن، لكنّه نزيه وصاحب كبرياء. كانت النساء في هذه الحكايات جميلات دائماً والمغازلون لا يكلّون في تأجّجهم. الخلفيّة سِغيديليا باخوسية، لكنّها تملك، على خلاف روايات أخرى قصيرة وداعرة تُباع هناك بعشرة سنتيمات، موضوعاً. تقرأ إليثا دون أن تُظهر دهشة، وكأنّها عائدةٌ توّاً من أسوأ الرذائل، بينما بابالو وثلاث حماماتٍ يستمعون إليها مذهولين. لم تُشارِك إستر في هذه الجلسات، لأنّ وصف تلك الأفعال بدا لها أكثر ذنباً من ارتكابها. كانت أذنا إليثا تلتهبان لكنّها لا تستطيع إلا الاعتراف بالرشاقة التي كُتِبت بها تلك القذارات: ذكّرتها بعض الجمل بأسلوب الآنسة روز الرائع. أمّا جو رومبِّوسوس التي لم يهمّها أيّ شكلٍ من أشكال الوله الجنسي في أدنى حدوده، وبالتالي كانت تملّها فقد حرصت شخصيّاً وللسبب ذاته ألا تجرح أيّةُ كلمة من ذلك أذني «توم بلا قبيلة» البريئتين. أربّيه كي يُصبح زعيماً هنديّاً لا ليصبح قوّاداً للعاهرات، كانت تقول، ومع

ذلك لم تسمح للصبيّ، عبر جهدها الكبير لتجعل منه فحلاً، أن يناديها بالجدّة.

- ويحك أنا لستُ جدَّة أحد! أنا رومبّوسوس، ألم تفهمني أيها المخّاط اللعين؟

- بلى، يا جدّتي.

بابالو الشرير، أحد مجرمي شيكاغو السابقين، عَبَرَ القارّةَ سيراً على قدميه قبْلَ حمّى الذهب بكثير. يتكلّم لغات الهنود. عمل كلّ شيء لكسب عيشه، بدءاً من مسخ في سيرك جوّال، حيث كان وبالسرعة التي يرفع بها جواداً فوقَ رأسه يجرُّ بأسنانه عربة مُحمّلة بالرمل، كما عمل عامل شحن وتفريغ في ميناء سان فرانسيسكو. هناك اكتشفته جو رومبّوسوس واستخدمته في القافلة. استطاع القيام بعملِ عدَّةِ رجالٍ، وبوجوده لم يكونوا بحاجة لحماية أخرى. معاً يستطيعون إفزاع أيَّ عددٍ من الخصوم، كما برهنوا على ذلك في أكثر من مناسبة.

- عليك أن تكون قويّاً وإلا التهموكَ، أيّها التشيليّ الصغير - كان ينصح إليثا - لا تظنّ أنّني كنتُ دائماً كما تراني؛ بل مثلك، هزيلاً، متثاقلاً، لكنّني رحت أرفع الأثقال، انظر عضلاتي الآن. الآن لا أحد يتجرّأ علَيّ.

- يا بابالو، أنت طولك متران وتزن مثل بقرة. لن أصبح مثلك أبداً.

- لا علاقة للحجم، يا رجل. البيضتان هما اللتان يُحسب حسابهما. دائماً كنتُ ضخماً لكنّهم كانوا يضحكون منّي.

- من يضحك منك؟

- الجميع، بمن فيهم أمّي، رحمها الله. سأقول لك ما لا يعرفه أحد...

- نعم؟

- هل تتذكّر بابالو الطيّب؟... إنّه أنا في السابق. لكنّني منذ عشرين عاماً صرت بابالو الشرير، وهذا أفضل لي بكثير.

حمامات مدنّسات

هبطِ الشتاء في كانون الأوّل فجأة على سفوح الجبال فاضطرّ آلاف المُعدّنين إلى هجر ممتلكاتهم والانتقال إلى القرى انتظاراً للربيع. غمر الثلجُ بغطائه الأبيض الورع الأرضَ الفسيحة التي خرقتها تلك النمال الطامعةُ، وعاد الذهبُ المتبقي ليرتاح في صمت الطبيعة. قادت جو رومبِّوسوس قافلتها إلى واحدة من تلك القرى التي انبثقت توّاً على امتداد بِتا مادرِ حيث استأجرت عنبراً لقضاء الشتاء. باعت البغالَ، اشترت حمل خشب للحمّام، مطبخاً، مدفأتين، وقطعتين من قماش عاديّ وجزمات روسيّة لأناسها، لأنّه لا غنى عنها للمطر والبرد. حملت الجميع على كشط وسخ العنبر وصنع ستائر لفصل الغرف التي وضعت فيها أسرّة بمظلات ومرايا مذهَّبة وبيانو. وانطلقت على الفور للقيام بزيارة مجاملة للحانات والمخزن وحوانيت الحدادة، مراكز النشاط الاجتماعي. وكان في البلدة ورقة أخبار تُصدرها على شكل صحيفة مطبعةٌ قديمةٌ عبرت القارّة جرّاً، استفادت منها جو للإعلان بحشمة عن تجارتها، إذ تُقدِّم إضافة إلى فتياتها زجاجاتٍ من أفضل روم كوبا وجامايكا، كما وصفته، على الرغم من أنّه مشروبُ أكلةِ لحوم بشرٍ قادرٍ على حرف اتجاه الروح، وكتباً مُثيرةً وطاولتي قمار. جاءَ الزبائن بسرعة. كان هناك ماخور آخر لكنّ الجديد يلقى الترحيبَ دائماً. أعلنت صاحبة المحل الآخر حربَ شائعاتٍ موارِبة ضدّ منافساتها، لكنّها امتنعت عن المواجهة المفتوحة مع الثنائي المريع: رومبِّوسوس وبابالو

الشرير. يعبثون خلف الستائر المرتَجَلة، يرقصون على أنغام البيانو ويُقامرون بمبالِغ مُعتَبَرَة برعاية القوّادة، التي لم تقبل شجاراً أو مكيدة ليست بإشرافها. رأت إليثا رجالاً يخسرون تعبَ شهور من الجهد الجبّار ثم يبكون على صدور الفتيات اللواتي ساعدن في إفقارِهم.

سرعان ما أحبَّ المُعدِّنون جو، على الرغم من مظهر القرصان عندها، فالمرأة تتمتّع بقلبِ أمٍّ وضعَهُ ذلك الشتاء على المِحك. انتشر وباء الزحار فرمى نصف السكان وقتل عدداً منهم. فهي لا تكادُ تسمع بأنّ هناك أحداً دخل غيبوبة الموت في خيمة بعيدةٍ، حتى تستعير بغلين من حانوت الحدّاد وتمضي مع بابالو لنجدة المنكوب. عادة ما رافقهما الحدّاد، وهو ضخمٌ من جماعة *المهتزّين*، يستنكِر عمل المرأة المسترجِلَة، لكنّه علي استعدادٍ دائم لمساعدة الغير. كانت جو تحضّر طعاماً للمريض، تُنَظِّفه، تغسل له ثيابَه وتُواسيه بقراءة رسائل أسرته البعيدة له للمرّة المئة، بينما يكشط بابالو والحدّادُ الثلج، يبحثان عن ماء، يقطعانِ الحطب ويُكدّسانه بجانب المدفأة. إذا كان الرجلُ في حالةٍ سيِّئةٍ جدّاً تلفّه بالبطانيات وتضعه بالعرضِ، مثل كيس، على دابّتها وتنقله إلى بيتها، فتعتني به النساء بإلهام ممرضاتٍ سعيداتٍ أمام فرصة الشعور بالورع. لم يكن باستطاعتهنّ عمل الكثير، كإجبار المرضى على شرب ليترات من الشاي المُحلّى، كيلا يجفوا كلّياً، والحفاظ عليهم نظيفين مُدثّرين، ومرتاحين بانتظار ألا يُفرِّغهم التغوّط من الروح أو تشوي الحمّى دماغهم. بعضهم مات وبعضهم استغرقَ أسابيع في العودة إلى العالم. كانت جو الوحيدة التي ترتكب نزوة تحدّي الشتاء والذهاب إلى أكثر الأكواخ عزلةً، وهكذا اكتشفت أجساداً صارت بلّوراً. لم يكن الجميع ضحايا مرضٍ، فهناك من أطلق النار في فمه أحياناً، لأنّه لم يعد يستطيع صبراً مع مغص الأمعاء والوحشة والهذيان. اضطُرّت جو لإغلاق عنبرها في مناسبتين لأنّه كان مزروعاً بالحصر على الأرض، والممرضات لا يكفين لرعاية المرضى. كان شريف البلدة يرتعد حين يراها تقترب بغليونها الهولنديّ وصوتها الخشن

المستعجل الذي لنبيٍّ لتطلب منه مساعدةً لم يكن باستطاعة أحدٍ إنكارها عليها. الرجال أنفسهم الذين باستعجالهم أعطوا البلدة اسماً سيّئاً وضعوا أنفسهم بوداعة تحت تصرُّفها. لم يكن عندهم أيّ شيءٍ يُشبِه المشفى، والطبيب الوحيد مخنوق بالعمل، وهي تقوم بكلّ طبيعية باستنفار الإمكانات حين يتعلّق الأمر بحالة مستعجلة. المحظوظون الذين كانت تُنقِذُ حياتهم يصبحون مدينين ورعين لها. هكذا نسجت شبكة علاقاتها التي ستنجدها خلال الحريق.

كان الحدّادُ يُدعى جيمس مورتون، وهو واحِد من تلك النماذج النادرة للرجل الطيّب؛ يشعر بحبٍّ متينٍ للبشرية جمعاء، بمن فيهم أعداؤه في العقيدة، الذين كان يعتبرهم مخطئين جَهْلاً وليس لشرٍّ داخليّ، ولم يكن قادراً على ارتكاب خساسة، كما لم يستطع تصوّرها في الآخر، ويُفضِّل الاعتقاد بأنّ فساد الغير انحراف في المزاج يمكن تفاديه بالتقوى والمحبّة. يعود أصله إلى سلالة من *المهتزّين* في أوهايو، حيث تعاون مع أخوته في سلسلة سرِّيَةٍ للتضامن مع العبيد الفارين لإخفائهم ونقلهم إلى الولايات الحرّة وكندا. جرَّت عليه نشاطاته غضبَ أنصارِ الاسترقاق، فهبطت على المزرعة ذات ليلة ثُلّةٌ أضرمت النارَ فيها، بينما راحت الأسرةُ تراقب جامِدةً لأنّها وفاءً لإيمانها لا تستطيع حمل السلاح ضدّ أبناء جلدتها. اضطُرَّ آل مورتون إلى هجر أرضهم والتشتّتِ، لكنّهم حافظوا على علاقة وثيقة لأنّهم ينتمون إلى شبكةٍ إنسانيّة من أنصار إلغاء الرقّ. لم يرَ جيمس في البحث عن الذهب وسيلةً شريفة لكسب العيش لأنّه لا ينتج شيئاً ولا يُقدِّمُ خدمة. الغنى يحطّ من قدر الروح، كان يؤكّدُ، يعقّدُ الحياة ويولِّدُ الشقاء. ثمَّ إنّ الذهب معدنٌ لينٌ وغير مفيد في صناعة الأدوات. لم يكن يستطيع أن يفهم الدهشة التي يحدثها عند البقيّة. كان طويلاً، قويَّ البُنيَة، كثّ اللحية البنّية. عيناه سماويتان، ساعداه المُعلّمان بحروق لا تُحصى، مفتولان، يتجسد فيه الإله فولكان المضاء ببهاء كوره. لم يكن في القرية غير ثلاثة *مُهتزِّين*، وهم أهل عمل وأسرٍ، سعيدون دائماً بحظّهم، والوحيدون الذين لا يحلفون الأيمان، لا يشربون المسكرات ويتحاشون المواخير. يجتمعون عادة

لممارسة إيمانهم دونما استعراض؛ يعظون بالمثل الحسن بينما ينتظرون بصبرٍ وصول مجموعة من الأصدقاء القادمين من الشرق لزيادة جماعتهم. كان مورتون يتردَّدُ على عنبر رومبُّوسوس لمساعدتهم بالعناية بضحايا الوباء فتعرّف هناك على إستر. صار يذهب لزيارتها ويدفع لها كامل خدمتها، لكنَّه يقتصِر على الجلوسِ بجانبها للتحدّث معها. لم يستطع أن يفهم كيف اختارت هذا النوعَ من الحياة.

- بين هذا وسياط والدي ، أفضِّلُ ألف مرّة حياتي الحالية.

- لماذا كان يضربك؟

- اتهمني بإثارة الفحشاء والحثّ على الخطيئة. كان يعتقدُ أنّه لولا إغواء حواء لآدم لبقي حتى الآن في الجنّة. ربّما هو على حقّ، هاأنت ترى كيف أكسب عيشي...

- هناك أعمال أخرى، يا إستِر.

- هذا ليس سيّئاً جدّاً، يا جيمس. أُغمِض عينيَّ ولا أُفكِّر في شيء. إنّها دقائق قليلة وتمضي سريعةً.

على الرغم من خطوب المهنة حافظت الشابّةُ على نضارة سنواتها العشرين، وعلى بعض السحر في سلوكها المحتشم والصامت، المختلِف جدّاً عن سلوك زميلاتها. ليس فيها أيّ غنجٍ، ممتلئة، لها وجه عِجلة سعيدة ويدا فلاّحة راسختان. كانت بالمقارنة مع الحمامات الأخريات تبدو أقلّ وسامةً، لكنّ بشرتها برّاقة ونظرتها ناعمة. لم يدرِ الحدّاد متى بدأ يحلم بها، فما أن رآها أمام طقطقة الكور، في نور المعدن الحامي والسماء الصافية حتى لم يعد باستطاعته تجاهل تلك المادّة القطنية التي لفَّت قلبه وهدَّدته بالاختناق. لم يكن ممكناً أن تحدث معه مأساة أسوأ من عشق امرأة قحبة، سيكون من المُحال عليه تبرير ذلك أمامَ الله وجماعته. وبعزيمة الانتصار علي ذلك الإغواء بالعرق، راح يغلق على نفسه حانوت الحدادة، ويعملُ مثلَ معتوه، فتُسمع طرقات مطرقته في بعض الليالي حتى الفجر.

ما أن أصبح عند إليثا عنوانٌ ثابت حتى كتبت إلى تاو شيين في مطعم ساكرامِنتو الصيني، مقدّمةً إليه اسمها الجديد إلياس أنذْيتا، طالبةً منه نصيحته لمقاومة الزحار، لأنّ الوسيلة الوحيدة التي تعرفها لمحاربة العدوى هي قطعة لحم نيّء يُشدُّ على السرَّةِ بحزام من الصوفِ الأحمر، مثلما تفعل ماما فرِسيا في تشيلي، لكنّها لم تُعطِ النتائج المرجوّة. كانت تشتاق إليه بألم أقل، تُصبح أحياناً معانقةً توم بلا قبيلة، متصوِّرة في اختلاط غفوتها أنّه تاو شيين، لكن رائحة الدخان عند الطفل تُعيدها إلى الواقع. ما من أحد له عبق بحر صديقها الطازَج. صحيح أنّ المسافة التي تفصلهما قصيرة بالأميال، إلاّ أنَّ قسوة الطقس تجعل الطريقَ ملتهباً وخطيراً. خطر لها مرافقة ساعي البريد للاستمرار بالبحث عن خواكين أنذْيتا، كما فعلت في مناسباتٍ أخرى، وخلال انتظارها فرصةً أكثرَ مناسبة مرَّت أسابيع. لم يكن الشتاء هو الشيء الوحيد الذي عرقل خططها؛ فقد انفجرَ في تلك الأيّامُ التوتُّر بين اليانكيين والتشيليين في جنوب بِتا مادرِ. فالغرينغويون الذين سئموا من وجود الأجانب اجتمعوا لطردهم، لكنَّ الآخرين قاوموا، في البدء بالأسلحة ثمَّ أمام قاضٍ اعترف بحقوقِهِم. وبدل أن يخيف حكمُ القاضي المعتدين زادَهم شراسةً، وانتهى عددٌ من التشيليين إلى المشنقة أو إلى الرمي من حافة جرف، واضطُرَّ الأحياء إلى الهرب. وردّاً على ذلك تشكّلت عصابات مكرَّسة للسطو، كما فعل الكثير من المكسيكيين. فأدركت إليثا أنّها لا تستطيع المخاطرة، إذ يكفيها قناع الفتى اللاتيني كي تُتَّهَم بأيّة جريمة مُبْتَدَعة.

في نهاية كانون الأوّل من عام 1850 هبطت أسوأ موجات الجليد التي شوهِدت في تلك المناطق. لا أحدَ تجرَّأ على الخروج من بيته، بدت البلدة ميتة ولم يأتِ أيُّ زبونٍ إلى العنبر. بلغ البردُ حدَّ أنَّ الماء صار يجمدُ صباحاً في الطشوت على الرغم من المدافئ المشتعلة دائماً، واضطُرّوا في بعض الليالي إلى إدخال جواد إليثا إلى البيت لإنقاذه من مصير الحيوانات الأخرى، التي تُصبِحُ أسيرة كتل الجليد. الفتيات نِمْن كلّ اثنتين في سريرٍ، ونامت هي مع الطفل الذي طوّرت

معه مودّةً حذرة وضارية، يردّها هو بمثابرة ماكرة. الشخص الوحيد في الفرقة الذي كان يستطيع منافسة إليثا على ودّ الصبيّ هي رومبوِسوس. «سيكونٍ لي ذات يوم ولد قويّ وشجاع مثل توم بلا قبيلة، لكنّه أكثر فرحاً. هذا المخلوق لا يضحكُ أبداً» هكذا حكت لتاو شيين في رسائلها. بابالو الشرير لا يعرف النوم ليلاً، يقضي ساعات العتمة الطويلة وهو يسير من طرف العنبر إلى طرفه الآخر بجزمته الروسيّة، وجلوده الضيقة والبطانية على كتفيه. لم يعد يحلق شعر رأسه ويتباهى بجزة ذئب تشبه السترة. نسجت له إستر قبّعةً من الصوف صفراء اللون تُغطّيه حتى أُذنيه وتُضفي عليه هيئة طفل مسخ. وهو من شَعَرَ في ذلك الصباح بطرقات خفيفة وامتلك الرأي السليم بتمييزها عن ضوضاء الطقس. شقَّ البابَ وبيده المسدّس فوجد كتلة مرميّة على الثلج. نادى جو مذعوراً وتمكّنا فيما بينهما معاركين الريح، كيلا تخلع باب الكوخ، من جرِّه إلى الداخل. كان رجلاً نصف متجمّد.

لم يكن من السهل إنعاش الزائر. وبينما بابالو يفركه ويُحاول إنعاشه، بصبِّ البراندي في فمه، أيقظت جو النساء فأشعلن النار في المدافئ ووضعن ماء لتسخينه وملء الحوض به حيث غطّسوه وراح شيئاً فشيئاً ينتعش، ذهب عنه اللون الأزرق واستطاع أن يلفظ بعض الكلمات. فقد كان أنفه وقدماه ويداه محروقة من الجليد. كان فلاّحاً من ولاية سونورا المكسيكيّة، كما قال، جاء مثل الآلاف من أبناء بلده إلى ضفاف شذرات الذهب في كاليفورنيا. اسمه جاك وهو اسم غرينغوي لا شكّ أنه ليس اسمه الحقيقي، لكن ما من أحدٍ في ذلك البيت كان يستخدم اسمه الحقيقيّ أيضاً. وصل في الساعات اللاحقة عدّة مرّات إلى أعتاب الموت، لكن حين بدا أنّه لا يمكن فعل شيء لأجله يعودُ من العالم الآخر ويبلع دفقة أخرى من المشروب الروحي. فيما يقارب الثامنة عندما هدأ الطقسُ أخيراً أمرت جو بابالو بالذهاب لطلب الطبيب. حين سمعها المكسيكيّ الذي بقي بلا حراك ويتنفّس غرغرةً مثل السمك فتح عينيه وأطلق كلمة لا! مدوِّية، مُخيفاً الجميع. لا أحد يجب أن يعرف بوجوده هناك، طلب بحنق فلم

يستطع أحد معارضته. لم يحتج الأمر لكثير من التوضيحات، فمن الواضح أنّ له مشاكل مع العدالة، وهذه البلدة بمشنقتها وسط الساحة هي آخر مكان في العالم يرغب هاربٌ باللجوء إليه. وحدها قسوة الطقس استطاعت أن تجبره على الاقتراب من هناك. لم تقل إليثا شيئاً، لكنّ ردّة فعل الرجل لم تكن غريبة عنها: تصدر عنه رائحة تنذر بالشرّ.

بعد ثلاثة أيّام استردَّ جاك بعضاً من قواه، لكنَّ زهرة أنفه سقطت، وبدأت الغرغرينا تأكل إصبعين من إحدى يديه. حتى وهو في هذه الحالة ما استطاعوا إقناعه بالحاجة للذهاب إلى الطبيب، قال إنّه يُفضِّل أن يتعفَّن شيئاً فشيئاً على أن ينتهي إلى المشنقة. جمعت جو رومبُوِسوس أناسها على الطرف الآخر من العنبر وتناقشوا همساً: يجب أن يبتروا أصبعيه والتفتت كلُّ العيون إلى بابالو الشرير.

ـ أنا؟ ولا بشكلٍ من الأشكال؟

ـ بابالو ابن العاهرة، دعك من هذا العهر! ـ صرخت جو غاضبة.

ـ قومي به أنت، يا جو، أنا لا أُفيد في هذا.

ـ إذا كنتَ تستطيع أن تُقطِّع أيلاً، فإنّك تستطيع فعل هذا. ماذا يعني زوجٌ بائس من الأصابع؟

ـ الحيوان شيء والمسيحي شيء آخر مختلف جدّاً.

ـ لا أستطيع تصديق ذلك. ابن العاهرة الكبيرة هذا، بالإذن منكنَّ، أيتها الفتيات، ليس قادراً على صنع معروف تافِه مثل هذا! بعد كلِّ الذي فعلته لأجلك، أيّها البائس!

ـ اعذريني، يا جو، فأنا لم أؤذِ إنساناً يوماً...

ـ لكن عمّ تتكلّم؟ تُرى ألست قاتلاً؟ ألم تكن في السجن؟

ـ ذلك بسبب سرقة قطيع ـ اعترف العملاق وهو على وشك البكاء من الإهانة.

ـ أنا سأفعل هذا. قاطعت إليثا، شاحِبةً، لكنّها بدت ثابتة الجنان.

مكثوا يتبادلون النظرات غير مصدقين. فحتى توم بلا قبيلة بدا لهم أهلاً لإجراء العملية أكثر من التشيليّ الرقيق.

ـ أحتاج لسكّينٍ مشحوذة جيّداً ومطرقة وإبرة وخيطاً وبعض الخرق النظيفة.

جلس بابالو على الأرض مرعوباً ورأسه الضخمة بين يديه، بينما راحت النسوة يحضرن ما هو ضروري بصمت ووقور. راجعت إليثا ما تعلّمتهُ مع تاو شيين حين كان يُخرجُ رصاصاً ويخيطُ جراحاً، وإذا استطاعت فعل ذلك دون أن يرفّ لها جفن آنذاك، قرَّرت، فهي تستطيع الآن فعله أيضاً. الأهم حسب صديقها هو تفادي النزيف والالتهابات. لم تَرَه يبترُ أعضاءً، لكن حين كان عاثرو الحظّ الذين يصلون دون آذانٍ يتعافون، يحكون أنّهم في مناطق أخرى يبترون أيادٍ وأقداماً لذات الجريمة «فأس الجلاّد سريعة، لكّنها لا تترك نسيجاً لتغطية جدعة العظم» قال تاو شيين، وشرح لها دروس الدكتور إبانيزر هوبّز، الذي تمرَّس على جرحى الحرب وعلّمه كيف يفعل ذلك. خلصت إليثا إلى أنّه من حسن الحظ أنَّ الأمر يتعلّق في هذه الحالة بالأصابع فقط.

أشبعت رومبّوسوس المريضَ بالكحول حتى أفقدته الوعي، بينما راحت إليثا تعقِّمُ السكّين على النار. أجلست جاك على كرسيٍّ، بللّت يدَه بالويسكي في طشت ثمَّ وضعتها على حافّة الطاولة وفصلت الأصابع المريضة. تمتمت ببعض أدعيةِ ماما فرِسيا السحرية، وحين أصبحت جاهِزة أشارت إلى النساء بصمت أن يمسكن المريض. وضعت السكينَ فوق الأصابع ووجّهت إليها ضربة من مطرقتها غارزة النصلَ التي قطعت العظم بشكلٍ نظيف في الطاولة. أطلق جاك صرخة من أعماق بطنه، لكنّه كان من التسمّم بحيث أنّه لم ينتبه حين خاطتها هي له وضمَّدتها إستر. انتهى العذاب خلال دقائق قليلة. بقيت إليثا تتأمّل الإصبعين المبتورتين محاولة مقاوَمَة الهُواع بينما النساء يحاولن تنويم جاك على إحدى الحصائر. اقترب بابالو

الشرير الذي بقي أبعدَ ما يستطيع عن المشهد خائفاً وقبّعة الطفل الرضيع في يده.

ـ أنت رجلٌ بكلّ معنى الرجولة، أيّها التشيليّ الصغير ـ همس مُعجَباً.

في آذار أتمّت إليثا الثامنة عشرة من عمرها بصمتٍ، وكلّها أمل بأن يظهر خواكين أنديِتا في الباب عاجِلاً أم آجلاً، كما يفعل أيُّ رجل في دائرة قطرها مئة ميل، أكّد بابالو. تعافى جاك المكسيكي خلال أيام قليلة وهرب ليلاً دون أن يُودِّع أحداً، قبل أن يلتئم جرح إصبعيه. سَعِدوا لذهابه لإنّه شخصٌ مشؤوم. كان قليل الكلام ودائماً على أحر من الجمر، متحدياً، جاهزاً للهجوم عند أوّل ظلّ إثارة متصَوّرة. لم يُظهر امتناناً على أعمال المعروف التي تلقاها. على العكس حين استيقظ من سكرته وعرف أنّهم بتروا له إصبعيه أرسل سيلاً من اللعنات والتهديدات، مُقسِماً أنّ ابن الكلب الذي شوّه يدَه سوف يدفع حياته ثمناً لذلك. عندئذٍ أخذه بابالو، الذي نفد صبره، مثل دمية ورفعه على مستواه وحدّق في عينيه. قال له بصوت ناعم يستخدمه عادة حين يوشِك على الانفجار.

ـ هذا أنا: بابالو الشرير. هل من مشكلة؟

ماكادت الحمّى تذهبُ عنه حتى أراد جاك استغلال الحمامات لإرضاء شهوته، لكنّهن رفضنه بصوتٍ واحد: لسن مستعدات لمنحه أيَّ شيءٍ مجاناً وهو فارغ الجيوب، كما تأكدن حين نزعن ملابسه لإدخاله حوضَ الحمّام في الليلة التي ظهر فيها متجمِّداً. جهدت جو رومبِّوسوس في توضيح أنّهم لو لم يبتروا إصبعيه لفقد ذراعه أو حياتَه، لذلك خير له أن يشكر السماء لأنّها أوقعته تحت سقفها. لم تسمح إليثا لتوم بلا قبيلة بالاقتراب من الرجل، وهي لم تفعل ذلك إلا لتقدِّم له الطعامَ وتبدِّلَ الضمادات. لأنَّ رائحة الشرُّ تُزعِجُها كأنّها حضورٌ ملموس. بابالو كذلك لم يستطع تحمّلَهُ، وامتنع خلال وجوده في البيت عن الكلام معه، فهو يعتبر تلك النسوة أخواتٍ له، وكان يُجنُّ حين يُلمّح جاك بتعليقاته البذيئة. لم يخطر له حتى في أقصى حاجته أن يستغِلَّ الخدمات المهنيّة لرفيقاته، فهذا بالنسبة إليه

يوازي انتهاك الحرمات. إذا حاصرته طبيعته ذهب إلى المحلات المنافِسة، وقد نبَّه التشيليَّ الصغيرَ بأنّ عليه أن يفعل مثله، في حال شُفِيَ من عادات الآنسات السيِّئة.

تجرَّأت إليثا على سؤال جاك، وهي تقدِّم له صحن حساء، عن خواكين أنذيِتا.

ـ مورْيِتا؟ ـ سأل غير واثق.

ـ أنذيِتا.

ـ لا أعرفه.

ـ ربّما كان هو نفسه ـ اقترحت إليثا.

ـ ماذا تريد منه؟

ـ إنّه أخي. جئتُ من تشيلي للعثور عليه.

ـ كيف هو أخوكَ.

ـ ليس طويلاً جدّاً، أسود الشعر والعينين، أبيض البشرة مثلي، لكن لا يُشبِه أحدنا الآخر. نحيل مفتول العضلات، شجاع ومتحمّس. وحين يتكلّم يصمتُ الجميع.

ـ هكذا هو خواكين مورْيِتا، لكنّه ليس تشيليّاً، بل مكسيكي.

ـ هل أنت متأكِّد؟

ـ لستُ متأكداً من شيء، لكنّني إذا رأيتُ مورْيِتا سأخبره بأنّكَ تبحثُ عنه.

في الليلة التالية ذهب ولم يعرفوا عنه شيئاً، لكنّهم بعد أسبوعين عثروا في باب العنبر على كيس فيه رطلا قهوة. بعد قليل فتحته إليثا لتحضِّرَ الإفطار فوجدت أنها ليست قهوة، بل مسحوق ذهب. يمكن أن تكون حسب قولِ جو رومبِّوِسوس من أحدِ المُعدِّنين المرضى الذين عالجتْهم خلال تلك الفترة، لكنّ إليثا واثقة من أنّ جاك تركه كنوع من الدفع فهذا الرجل ليس مستعداً لأن يكون مديناً بمعروفٍ لأحد. الأحد عرفوا أنّ *الشريف* نظّم حملة مراقبة للبحث عن

قاتلِ مُعدِّنٍ: وجدوه في كوخه، الذي كان يقضي فيه الشتاء وحيداً وتسع طعناتٍ في صدره وعيناه متقزّرتان. لم يكن هناك أيّ أثر لذَهَبِه، ونظراً لوحشيّة الجريمة عزوها للهنود الحمر. لم تبغِ جو رومبُوسوس أن تجد نفسها متورِّطة في مشاكل، فطمرت رطلي الذهب تحت شجرة سنديان، وأعطت تعليمات حازمة لأناسها بإغلاق أفواههم وعدم ذكر مكسيكي الأصابع المقطوعة أو كيس القهوة ولا حتى مزاحاً. قتل الحرّاسُ خلال الشهرين اللاحقين نصف دزينة من الهنود الحمر، ونسوا القضيّةَ لأنّ لديهم مشاكل أخرى أكثر استعجالاً، وحين ظهر زعيم القبيلة بكرامة ليطلب توضيحات، صرفوه أيضاً. لم يكن باستطاعة الهنود الحمر أو الصينيين، الزنوج أو الخلاسيين أن يُدلوا بشهاداتهم في محاكمة أبيض. جيمس مورتون و*المهتزّون* الثلاثة في البلدة هم الوحيدون الذين تجرّؤوا على مواجهة الحشد المستعد لتنفيذ الإعدام. انغرزوا دون أسلحة مشكلين دائرة حول المحكوم، قارئين عن ظهر قلبٍ مقاطع من الكتاب المقدّس تمنع قتل الإنسان، ولكنّ الخليط أبعدهم دفعاً.

لم يَدرِ أحدٌ بعيدِ ميلاد إليثا وبالتالي لم يحتفلوا به، وفي جميع الأحوال كانت ليلة الخامس عشر من آذار تلك ليلةً خالدة بالنسبة إليها وللبقيّة. فقد عاد الزبائن متدافعين، والحمامات انشغلن دائماً، والتشيلي الصغير دوزن البيانو بحماسة صادقة، وجو تستخلص حساباتٍ متفائلة. لم يكن الشتاء سيّئاً تماماً فبعد كلّ حساب أسوأ ما في الوباء انقضى، ولم يبق مرضى على الحصر. في تلك الليلة كان هناك بضعة عشر مُعدِّناً يشربون بوعي بينما الريح في الخارج تقتلعُ أغصانَ الصنوبر من أصلها. في قرابةِ الساعة الحادية عشرة أفلِتَ الجحيم. ما من أحد استطاع أن يُوضِّحَ كيف بدأ الحريق. جو شكّت دائماً بالقوّادة الأخرى. اشتعل الخشبُ كالمفرقعات وبدأت الستائر وشالات الحرير وناموسيات الأسرّة تشتعل على الفور. فرّ الجميع سالمين، بل وتمكّنوا من وضع بعض البطانيات عليهم. وانتشلت إليثا مثل الطير علبةَ رسائلها الرائعة. سرعان ما لفّ اللهب والدخان المحلَّ فاحترق خلال دقائق مثل مشعلٍ، بينما النساء نصف عاريات

بجانب زبائنهنّ الدائخين يراقبون المشهد في حالة عجز كامل. عندئذ ألقت إليثا نظرة وأحصت الحضور فانتبهت مذعورة إلى غياب توم بلا قبيلة، لقد بقي الطفل نائماً في السرير الذي يتقاسمانه. لم تدرِ كيف انتزعت طرحة إستر عن كتفيها، غطّت رأسها وجرت باندفاعةٍ واحدةٍ مخترقةً جدارَ الخشب المضطرم، تبعها بابالو، الذي حاول إيقافها صارخاً دون أن يعرف لماذا تندفع إلى النار. وجدت الصبيّ واقفاً وسط النار بعينين مذعورتين، وهو في كامل وعيه. ألقت عليه البطانية وحاولت رفعه بين ذراعيها فشعرت أنّه ثقيل الوزن جدّاً، طوتها نوبة سعال طيّتين، سقطت على ركبتيها دافعة توم كي يجري باتجاه الخارج، لكنّه لم يتحرّك من جانبها، ولولا ظهور بابالو في تلك اللحظة ليحمل واحداً في كلّ ذراع كما لو أنّهما صرّتان، ويخرج بهما راكِضاً وسط هتاف من ينتظرون في الخارج، لتحوّلا إلى رماد.

- أيّها الصبيّ اللعين! ماذا كنتَ تفعل هناك في الداخل! - أنّبتْ جو الهنديّ الأحمرَ الصغير وهي تضمّه وتقبّله وتضربه كي يتنفّس.

لم يشتعل نصف القرية لأنّ العنبر كان معزولاً كما أشار، فيما بعد، *الشريفُ* الخبيرُ في الحرائق، لأنّ حدوثها يتكرّرُ أكثر من اللازم في تلك الأنحاء. هُرع على وهج النار بضعة عشر متطوّعاً وعلى رأسهم الحدّادُ ليخمدوا النار، لكن الوقت تأخّر ولم يستطيعوا إنقاذ شيءٍ غير حصان إليثا، الذي لم يتذكّره أحدٌ وبقي مربوطاً في كوخه مجنوناً من الرعب. في تلك الليلة فقدت جو رومبِوسوس كلّ ما كانت تملكه في هذا العالم ورأوها تضعف للمرّة الأولى. حضرت الدمار والطفل بين ذراعيها دون أن تستطيع كبح دموعها، وحين لم يعد هناك غير الفحم المدخّن خبّأت وجهها في صدر بابالو الهائل الذي احترقت حواجبه وأهدابه. أمام ضعف الأمّ المدلّلة، التي ظنّوها لا تلين انفجرت النساء الأربع بالبكاء بصوتٍ واحد، متعنقداتٍ بملابسهنّ الداخلية وشعرهنّ المنكوش ولحمهنّ المرتعش. لكنّ شبكة التضامن بدأت حتى قبل أن تُخمَد النيران فصار هناك في أقل من ساعة مأوى جاهز للجميع في عددٍ من بيوت القرية، وبدأ مُعدِّنٌ

أنقذته جو من الزحار بجمع التبرعات. التشيليّ الصغير وبابالو والصبيّ ـ ذكور الفرقة الثلاثة ـ قضوا الليلة في حانوت الحدادة. وضع جيمس مورتون الفرشَ مع ملاحف سميكة بجانب الكور الدافئ دائماً وقدّم إفطاراً رائعاً للضيوف، أعدّته بشكل ممتاز زوجة الواعِظ، الذي أدان بأعلى صوته في أيّامِ الأحدِ ممارسة الرذائل الوقحة، كما سمّى نشاطات الماخورين.

ـ ليس هذا وقت تأنّق، فهؤلاء المساكين يرتعدون برداً ـ قالت زوجةُ المحترم حين مثلت في حانوت الحِدادة ومعها طبيخ أرنب، وإبريق شوكولا وبسكويت بالقرفة.

جابت السيّدة نفسها البلدةَ طالبةً ملابسَ للحمامات، اللواتي بقين في ثيابهنّ الداخلية، وجاء جواب السيّدات كلّهنّ كريماً. تجنّبن المرورَ أمام محلّ القوّادة الأخرى، لكنّهن اضطررن للتعامل مع جو رومبِوسوس إبّان الوباء وكنّ يحترمنها. هكذا حدث أن بقيت المتسكّعات الأربع زمناً بثياب سيّدات متواضعات، مغطّيَاتٍ من العنق وحتى القدمين إلى أن استطعن استعادة ملابسهن الفاخرة المبهرجة. أرادت زوجة الراعي أن تحمل توم بلا قبيلة إلى بيتها، لكنَّ الطفل تعلّق برقبة بابالو ولم يكن هناك من قوّة إنسانية تستطيع اقتلاعه منها. قضى العملاق ساعات من الأرق يضع التشيلي الصغير متقوقعاً على ذراع والطفل على آخر، منزعجاً كفاية من نظرة الحدَّاد.

ـ أبعد هذه الفكرة عن رأسِكَ، يا رجل، لستُ مثلياً ـ دمدم مهاناً، لكن دون أن يفلت أحداً من النائمين.

ساعدت تبرعات المُعدِّنين وكيس القهوة على إقامة المنكوبين في بيتٍ كان مريحاً ومحتشماً إلى حدٍّ أنّ جو رومبِوسوس فكّرت في التخلي عن شركتها المتنقّلة والاستقرار هناك. وبينما راحت قرى تختفي مع تحرُّك المُعدِّنين نحو مغاسِل ذهبٍ أخرى بدأت هذه البلدة تنمو وتترسّخ، بل إنَّهم فكّروا بتغيير اسمها بآخر أكثر جدارة. حين ينتهي الشتاءُ ستعود موجات المُغامرين الجدد لتصعد إلى سفوح الجبال، وستبدأ القوادة الأخرى استعداداتها. لم يكن عندٍ جو رومبِوسوس إلا ثلاث فتيات، فقد بدا واضحاً أنّ الحداد يفكّر في

انتزاع إستر منها، لكنّها سترى كيف تتدبّر الأمر. كانت قد كسبت بعض الاعتبار بأعمال الشفقة ولا تفكّر بإضاعته: فهي تشعرُ لأوّل مرّة في حياتها بأنّها مقبولة في مجتمع؛ وهو أهمّ مما ملكته بين الملاحف الهولندية في بِنسلفانيا، ثمَّ إنَّ فكرة أن تستقرَّ هناك ليست سيّئة تماماً. حين علمت إليثا بخططها قرَّرت أنّه إذا لم يظهر خواكين أنذيِتا - أو موريِتا - في الربيع سيكون عليها أن تودِّعَ أصدقاءها وتتابع البحثَ عنه.

خيبات

في نهاية الخريف تلقى تاو شيين آخر رسالة من إليثا، انتقلت من يدٍ إلى يدٍ خلال عدّة أشهرٍ متتبّعةً أثره حتى سان فرانسيسكو. كان قد غادر ساكرامِنتو في نيسان. شعر بالشتاء في تلك المدينة أبديّاً، ولم تبقِ فيها غير رسائل إليثا التي باتت تصل متفرّقة، وأمله بأن تهتدي روح لين إلى مكانه، وصداقته مع *الزهونغ يي*. كان قد حصل على كتبٍ في الطب الغربي وأخذ على عاتقه المهمّة المتأنية لترجمتها سطراً فسطراً لصديقه، وهكذا راح يتمثّلُ كل منهما تلك المعارف المختلفة عن معارفه. علماً أنّهم في الغرب لا يعرفون إلا القليل عن النباتات الأساسية، عن الوقاية من الأمراض أو عن *الكِي*. طاقة الجسد لا تُذكَرُ في تلك النصوص، لكنّهم متقدّمون جدّاً في جوانب أخرى. صار يقضي مع صديقه أيّاماً يقارِن ويناقِش، لكنّ الدراسة لم تصبح عزاءً كافياً. أثقلت عليه الوحشةُ والعزلة كثيراً فهجر كوخ ألواح الخشب ونباتاته الطبيّة وانتقل ليعيش في فندق صينيين، حيث يسمعُ على الأقلّ لغتَهُ ويأكل على ذوقه. على الرغم من أنّ زبائنه من الفقراء، وكثيراً ما يُعالجهم مجّاناً، فقد وفّر بعض المال. لو عادت إليثا لأقاما في بيتٍ جيّد، كان يفكّر، لكنّه ما دام وحيداً فالفندق يكفيه. خطّط *الزهونغ يي* ليوصي على زوجة شابّة من الصين والإقامة نهائياً في الولايات المتحدة، فهو على الرغم من شرطه كأجنبيٍّ يستطيع أن يملك هناك حياةً أفضل مما في بلده.

حذّره تاو شيين من غرور *الليك الذهبي*، وخاصّة في أمريكا، حيث السير كثير و*الفان غوي* يسخرون من المرأة التي بقدمي دمية. نصحه وهو يُفكّر بالعبور القصير لزوجته لين التي لا تُنسى في هذا العالم، وكم كان أكثر سعادة لو أنَّ لها قدما إليثا ورئتاها: «اطلب من العميل أن يأتيك بزوجة باسمة وسليمة، ما عدا ذلك لا يهمّ.» زوجته ضائعة ولا تعرف الاهتداء إليه في هذه البلاد الغريبة. كان يستحضرها في ساعات تأمُّلِه، وقصائدِهِ، لكنّها ما عادت لتظهر حتى في أحلامه. فآخر مرَّة التقى بها حدثت في عنبر السفينة، حين زارته بثيابها الحريريّة الخضراء وعود الصليب في تسريحتها لتطلبَ منه مساعدة إليثا، لكنّ هذا حدث على مقربة من البيرو وقد اجتاز مذاك مياهاً ويابسةً وزمناً كثيراً لا شكَّ ما زالت لين فيه تائهة. راح يتصوّر الروحَ العذبَةَ تبحثُ في تلك البلاد الشاسعة المجهولة دون أن تتمكّن من تحديد مكانه. كلَّفَ أحد الرسامين الواصلين توّاً من شنغهاي، وهو فنّان حقيقيّ في الوشم والرسم، بناءً على اقتراحٍ من *الزهونغ يي* برسم صورتها فاتبع تعليماته الدقيقة، لكنّ النتيجة لم تأتِ عادلةً مع شفافيّة جمال لين. صنع تاو شيين مذبحاً صغيراً وضع فيه الصورة، وراح يجلس أمامها ليناديها. لم يفهم لماذا صارت الوحدة التي اعتبرها في السابق بركة ورفاهية، لا تُحتَمَل. أسوأ عوائق سنواته البحريّة كان غياب فضاءِ الصمت والسكينةِ الخاص، لكن الآن وهو يمتلكه صار يرغب بالرفقة. ومع ذلك بدت له فكرة التوصية على خطيبة حماقةً. حَصَلَت له أرواحُ أسلافه ذات مرّة على زوجة تامّة، لكنَّ لعنة خفيّة كانت تختبئ خلف ذلك الحظ السعيد. عرف الحبَّ المُتبادَلَ ولن تعود أزمنةُ البراءة أبداً، آنَ بدت له كلّ امرأة صغيرة القدمين وحسنة المزاج كافيةً. اعتقد أنّه محكوم بالعيش على ذكرى لين، لأنّه ما من أخرى تستطيع أن تشغلَ مكانَها بكرامة؛ وهو لا يرغبُ بخادِمة أو محظيّة. حتى الحاجة لامتلاك الأولاد لتشريف اسمه والعناية بقبره لم تشكّل حافزاً له. حاول توضيح ذلك لصديقه، لكنّ اللغة اشتبكت عليه فلم

يملك في قاموسه كلماتٍ للتعبير عن هذا العذاب. المرأة كائن مفيد في العمل، الأمومة والمتعة، لكن ما من رجل مثقّف وذكي يصبو ليجعل منها رفيقة، قال له صديقه في المرّة الوحيدة التي اعترف له بمشاعره. يكفي المرء في الصين إلقاء نظرة حوله حتى يُدرِك السبب، لكنّ العلاقات بين الأزواج في الولايات المتحدة تبدو مختلفة. بداية لايظهرُ أنّ أحداً يملك محظيّة، على الأقل بشكل مكشوف. أسرُ *الفان غوي* القليلة التي تعرف عليها تاو في أرض الرجال الوحيدين بدت له كتيمةً. لم يستطع تصوّر عملها في العلاقة الحميمة، نظراً لأنّ الرجال يعتبرون النساء مساويات لهم ظاهريّاً. إنّه لغز يهمّه أن يسبره، مثل الكثير من الألغاز في هذا البلد الرائع.

وصلت الرسائل الأولى إلى المطعم الصيني وبما أنّ الجاليةَ تعرفه فقد سلّمتها إليه. شكّلت تلك الرسائل الطويلة المليئة بالتفاصيل أفضلَ رفيق له. كان يتذكّرُ إليثا مستغرباً شوقه إليها، فهو لم يعتقد بإمكانية الصداقة مع امرأة قط، وخاصة مع امرأة من ثقافة أخرى. رآها دائماً بلباس رجلٍ، ومع ذلك بدت له أنثى تامّة، واستغرب كيف قَبِلَ الآخرون مظهرها دون أنْ يتساءلوا. « الرجالُ لا ينظرون إلى الرجال، والنساء اعتقدن أنّني رجل مُخنّث» هكذا كتبت إليه في إحدى رسائلها. كانت بالنسبة إليه الفتاة التي ترتدي زيّ الرجل، والتي نزع عنها مشدّها في كوخ الصيادين في بالبارايسو، المريضة التي استسلمت لعنايته بلا تحفّظ في عنبر السفينة، الجسد الدافئ الملتصق به في الليالي القارسة تحت سقف الخيش، الصوت الفرِح الذي دندن وهي تحضر الطعام، والوجه المكفهرّ حين ساعدته في علاج الجرحى. ما عاد يراها طفلةً، بل امرأة على الرغم من عظامها الهزيلة ووجهها الطفولي. فكّر كيف تغيّرت حين قصّت شعرَها وندم لأنّه لم يحتفظ بالجديلة، الفكرة التي خطرت له آنذاك واستبعدها كنوع من العاطفية الرخيصة. على الأقل صار باستطاعته الآن أن يملكها في يديه، ويستدعي من خلالها حضور صديقته الفريدة. لم ينقطع في ممارسته للتأمل عن إرسال طاقة واقية لمساعدتها في الانتصار على الميتات والفجائع الألف المحتَمَلة التي

يحاول ألا يصوغها، لأنّه يعرف أنّ من يسعده التفكيرُ بالشرّ ينتهي باستحضاره. كان يحلم بها أحياناً فيُصبِح متصبّباً عرقاً، ويقرأ الحظّ بعيدان *واحد شين* لكي يرى ما لا يُرى؛ تظهر له إليثا في الرسائل الغامضة عبر طريقها إلى الجبل دائماً فيرتاح قليلاً.

في أيلول 1850 صادف أن شارك في احتفال وطني صاخب، حين تحوّلت كاليفورنيا إلى ولاية أخرى من الولايات المتحدة. صارت الأمّة الأمريكية تضمُّ الآن القارّة كلّها من الأطلسي وحتى المحيط الهادي. لكنّ حمّى الذهب بدأت تتحوّل إلى خيبة جماعية كبيرة، وتاو يرى حشوداً من المُعدّنين الواهنين والفقراء، ينتظرون دورهم للعودة إلى قراهم. قدّرت الصحافةُ عددَ العائدين بأكثر من تسعين ألفاً. ما عاد البحارةُ يهربون، بل على العكس فالسفن لا تتسع لنقل كلّ الراغبين بالرحيل. واحدٌ من كلّ خمسة معدّنين مات غرقاً في نهرٍ أو مرضاً أو برداً؛ وكثيرونٍ ظهروا مقتولين أو أطلقوا النار على صدوغهم؛ وما يزال يصلُ أجانبٌ أبحروا قبل أشهر، لكنّ الذهب ما عاد في متناول كلّ فطنٍ يحمل طبقاً أو مجرفة وزوجاً من الجزمات، وزمن الأبطال المتفردين صار في نهايته. باتت تحل محلّه شركات هائلة مجهّزة بالآلات القادرة على شقّ جبال بدفق الماء. صار المعدِّنون يعملون بأجرٍ والذين يثرون هم أصحاب الشركات، النهمون للثراء السريع نهمَ مغامري الـ 49 ، إلاّ أنّهم أكثر خبثاً، مثل ذلك الخيّاط اليهودي المُكنّى بليفي، الذي كان يصنع بنطلوناتٍ من القماش السميك بدرزات مضاعفة وبرشامات معدنيّة، كلباس موحّد للعمال. وبينما راح الكثيرون يرحلون، استمرّ الصينيون بالتدفق مثل نمالٍ صامتة. كثيراً ما ترجم تاو شيين الصحف الإنكليزية لصديقه *الزهونغ يي* الذي أُعجب أكثر من أيّ شيءٍ آخر بمقالات شخص يدعى جاكوب فريمونت، لأنّها تلتقي مع آرائه ذاتها:

كتب فريمونت: «آلاف المُغامرين يعودون إلى بيوتهم مهزومين، فهم لم يحصلوا على جزّة الذهب وانقلبت أوديساهم مأساةً، لكنّ كثيرين، وإن كانوا فقراء بقوا لأنّهم ما عادوا

يستطيعون العيشَ في مكانٍ آخر. إنّ سنتين في هذه الأرض الوحشيّة والجميلة تُبدّل الرجال. الأخطار، المغامرَة، الصحة والقوة الحيوية التي يتمتّعون بها في كاليفورنيا لا توجدُ في أيِّ مكانٍ آخر. لقد أتمّ الذهبُ وظيفتَه: جذب الرجالَ الذين يحتلون هذه البلاد ليجعلوا منها الأرض الموعودة. هذا ما لا عودة عنه...» .

ومع ذلك كانوا يعيشون، بالنسبة إلى تاو شيين، في جنّة الجشع، أناس ماديون ونافدو الصبر، هوسهم الثراء بكلّ سرعةٍ. ما من غذاء للروح، بينما يزدهر العنف والجهل. وهو واثق من أنّ كلّ الشرور الأخرى تُشْتَقُّ من هذه الشرور. رأى الكثير في سنواته السبع والعشرين ولا يعتبِرُ نفسه مرائياً، لكنّ كارثة العادات وحصانة الجريمة صدمته. إنّ مكاناً بهذا الشكل محكومٌ بالسقوط في مستنقع مفاسده ذاته، كان يؤكّد. فقد الأمل بالعثور على السلام الذي طالما تلهف إليه في أمريكا، فهي ليست مكاناً للمتطلع إلى أن يُصبِح عالِماً على الإطلاق. لماذا كان يشدُّه بهذا الشكل إذن؟ عليه أن يمنع هذه الأرضَ من أن تسحرَه، كما حدث لكلّ من وطئها، بات يطمح في العودة إلى هونغ كونغ أو زيارة صديقه إبانيزر هوبّز في إنكلترا ليدرس ويمارس الطب معه. فهو قد كتب خلال السنوات التي مضت منذ اختطافه على متن *ليبرتي*، عدَّةَ رسائل إلى الطبيب الإنكليزي، لكن وبما أنّه كان يبحر لم يتلق أيّ جوابٍ خلال زمن طويل، إلى أن تلقى أخيراً القبطان جون سومّرز في البارايسو رسالة في شباط من العام 1849 سلّمها إليه. حكى له صديقه أنّه يمارِسُ الجراحةَ في لندن، على الرغم من أنّ نزعته الحقيقية هي الأمراض العقلية، المجال الجديد الذي لم يكد الفضولُ العلميُّ يسبره بعد.

في داي فاو، «المدينة الكبيرة» كما كان الصينيون يسمّون سان فرانسيسكو خطّط للعمل زمناً ليبحر بعدها إلى الصين، في حال أنّ إبانيزر لم يجبه بسرعةٍ على رسالته الأخيرة. أذهله كيف تغيّرت سان فرانسيسكو في أقلّ من سنة. فبدل المخيّم الصاخِب المكوّن من أكواخٍ وخيامٍ عرفها، استقبلته مدينة بشوارع شُقّت جيّداً وأبنية من عدّة طوابق، مُنظّمة ومزدهِرة حيث ترتفع في كلّ مكان أبنية جديدة.

شبّ حريق منذ ثلاثة أشهر أتى على ثلاث قصبات، وما زالت تُشاهد بقايا الأبنية المتفحّمة، لكن ما كاد يبردُ الجمر حين ارتفعت المطارق في الأيدي وراحت تبني. قامت فنادق فاخرة بشرفات ودرابزينات، كازينوهات وبارات ومطاعم، عربات أنيقة وحشد كونيّ بثياب رثّة ووجوه عبوسة تبرز بينهم قبّعاتٍ مرتفعة لقلّة من الأنيقين. أما البقيّة فملتحون ومتسخون تعلوهم سيماء الأوغاد، لكن لا أحد يبدو كما هو، فحمّال الميناء يمكن أن يكون أرستقراطيّاً أمريكياً لاتينياً والحوذيّ محامياً من نيويورك. بعد دقيقة من الحوار مع أيّ من هذه العناصر المخيفة يمكن الكشف عن رجل مؤدّبٍ ومهذّب، يُخرِجُ أمام أدنى مبرّر رسالةً مجعّدة من جيبه أرسلتها زوجته ليريها له والدموع في عينيه. وكان يحدثُ العكسُ أيضاً: الغندور الأنيق يخفي تحت بزّته حسنة التفصيل قوّاداً. لم يصادف مدارساً خلال سيره في المركز، بينما رأى أطفالاً يحفرون كالبالغين حفراً، ينقلون لبناً، يسوقون بغالاً ويُلمِّعون أحذيةً، لكن ما أن تهبّ ريح البحر حتى يُهرعوا إلى إطلاق طيّاراتهم الورقيّة. عرف فيما بعد أنَّ كثيرين منهم كانوا أيتاماً ويتوهون في الشوارع جماعاتٍ، يسرقون الطعام كي يقيموا أودَهم. ما زالت النسوة نادرات وحين تطأ واحدة منهنّ الشارع متغندرةً يتوقّف السير ليسمح لها بالمرور. عند حافّة هضبة تلِغراف، حيث توجد إشارة مرور عليها أعلامٌ تدلّ على مصدر السفن التي تدخل في الخليج، ينتشر حيّ يبلغ عدّة فراسخ لا يخلو من النساء: كان يتحكّمُ بتلك المنطقة الحمراء قوّادون من أستراليا وتاشمانيا ونيوزيلندا. كان تاو شيين قد سمع بهم بل ويعرف أنّه ليس مكاناً يستطيع صيني المغامرة بالدخول إليه وحيداً بعد غياب الشمس. وبإلقاء نظرة على الدكاكين وجد أنّها تحتوي على المنتجات ذاتها التي رآها في لندن. كلُّ شيء يصل عبر البحر، بما فيها حمولة من القطط لمكافحة الجرذان التي كانت تُباع واحداً واحداً وبسعر المواد الفاخرة. غابة سواري السفن المهجورة في الخليج تقلّصت إلى العِشْرِ لأنّ كثيراً منها أُغرقت لردم الأرض والبناء فوقها، أو حوِّلت إلى فنادِق ومخامر وسجونٍ، بل وحتى إلى مأوى للمجانين يذهب إليه سيّئو الحظ الذين يضيعون في هذياناتهم

الكحولية التي لا شفاء منها، ليموتوا فيه. وقد باتت الحاجةُ إليه كبيرة لأنّهم كانوا في السابق يربطون المجانين إلى الأشجار.

توجّه تاو شيين إلى الحيِّ الصينيِّ وتأكّد من أن الإشاعات صحيحة: لقد بنى أبناءُ بلده مدينةً كاملة في قلب سان فرانسيسكو، حيث يتكلّمون الخانيّة والكانتونيّة، الإعلانات مكتوبة بالصينيّة وليس هناك غير الصينيين في كلّ مكان: الأمل بوجوده في إمبراطورية السماء كان تامّاً. نزل في فندق محتشم واستعدّ لممارسة مهنته المدّةَ الضروريّة كي يجمع شيئاً أكثر من المال، لأنّ رحلةً طويلة في انتظاره. ومع ذلك حدث ما يمكن أن يطيح بكلّ خططه ويحجزه في تلك المدينة «*كرماي* ليست في العثور على السلام في دير في الجبال، كما حلمتُ أحياناً، بل بخوض حرب بلا هوادة ولا نهاية». خلص بعد سنوات كثيرة. حين استطاع أن ينظر إلى ماضيه ويرى بوضوح الطرق التي جابها. بعد أشهر تلقّى آخر رسالة من إليثا، وقد عبثت بها أيادٍ كثيرة.

هبطت باولينا رودريغِث دِ سانتا كروث من *فورتونا* مثل إمبراطورة محاطةٍ بموكبها وبمتاعها المؤلّف من ثلاثة وتسعين صندوقاً. كانت الرحلة الثالثة مع الجليد بالنسبة لجون سومّرز وبقيّة الركاب والبحارة عذاباً حقيقيّاً. أعلمت باولينا الجميع بأنّ الباخرة لها، وللبرهان على ذلك راحت تشاكِس القبطان وتعطي أوامر اعتباطية للبحارة. لم يحظوا حتى بنعمة أن يروها دائخة، لأنّ معدتها التي لفيل قاومت الإبحار دون أيّة نتيجة أخرى غير زيادة الشهيّة. وبينما أولادها يضيعون عادة في متاهات الباخرة، على الرغم من وجود المربيات اللواتي لا يرفعن أعينهنّ عنهم، يحدث أن تدوّي صفارات الإنذار على السطح ويكون عليهم إيقاف الباخرة، لأنّ الأم اليائسة تصرخ بأنّهم سقطوا في الماء. والقبطان يحاول أن يشرح لها أنّه لو حدث ذلك لكان عليها الإذعان لأن المحيط الهادي سيكون قد ابتلعهم، لكنّها تأمر بإلقاء زوارق الإنقاذ إلى البحر. ولا يلبث الأطفال أن يظهروا عاجلاً أم آجلاً وبذلك يستطيعون متابعة

الرحلة بعد عدّة ساعاتٍ من المأساة. بالمقابل سقط كلب الحضن الكريه يوماً في المحيط أمامٍ أعين عددٍ من الشهود فلزموا الصمت. كان زوجها وأخوه مع صفٍّ من العرباتِ والحناتير بانتظارها في رصيف الميناء لنقل الأسرة والصناديقَ. المسكن الذي بُني لها، بيت فيكتوري أنيق، وصل قطعاً مُرقّمة مع مخطّطه في صناديق من إنكلترا ليُعاد بناؤه. كما استوردوا ورق الجدران، والأثاث، والقيثار (الهارب) والبيانو والثريات، بل وحتى صوراً خزفية ولوحات ريفيّة لتزيينه. لم ينل إعجاب باولينا. بالمقارنة مع بيتها الرخامي الكبير في تشيلي بدا بيتَ دمى مُهدّد بالانهيار حين يستند أحدٌ إلى جدرانه، لكن ما كان أمامها خيار آخر في تلك اللحظة. كفاها إلقاء نظرة على المدينة الجيّاشة كي تنتبه إلى إمكاناتها.

ـ لن نستقرَّ هنا، يا فِليثيانو. فأوّل من يصلون إليها سيتحوّلون مع مرور السنين إلى أرستقراطيين.

ـ هذا متوافر لك في تشيلي، يا امرأة.

ـ أنا نعم، لكن أنت لا. صدِّقني ستصبح هذه أهمّ مدينة على المحيط الهادي.

ـ مؤلّفة من أوغاد وعاهرات.

ـ تماماً. أكثر المتلهفين للاحترام. لن تكون هناك أسرة أكثر احتراماً من أسرة كروس. من المؤسف أنّ الغرينغويين لا يستطيعون لفظ كنيتك الحقيقيّة. كروس اسم صانع أجبان. على كلّ الأحوال لا أعتقد أنّ من الممكن امتلاك كلّ شيء...

توجّه القبطان جون سومّرز إلى أفضل مطعم في المدينة، مستعدّاً ليأكل ويشرب جيّداً كي ينسى الأسابيع الخمسة التي قضاها برفقة تلك المرأة. جاء معه بعدّة صناديق من الطبعات الجديدة للكتب الخلاعية المزودة بالصور التوضيحية، فنجاح الكتب السابقة كان رائعاً، ويأمل أن تستعيد أخته روز همّتها للكتابة؛ لأنّها غرقت منذ اختفاء إليثا في الحزن ولم تمسك بالريشة بعدها. هو أيضاً تبدّلَ مزاجُه. ويحي إنّني أشيخُ، يقول لنفسه حين يفاجئ نفسه غارقاً في

الحزن غير المجدي. لم يملك الوقت للتمتع بابنته تلك، لأخذها إلى إنكلترا كما سبق وخطّط، كما لم يُتَح له أن يقول لها إنّه والدها. لقد سئم من الخداع والألغاز. كانت تجارة الكتب أحد الأسرار العائلية الأخرى. قبل خمسة عشر عاماً عندما اعترفت له أنّها تكتبُ، من وراء ظهر جِرمي، قصصاً صفيقةً كيلا تموت سأماً، خطر له أن ينشرها في لندن، حيث ازدهر سوق الأدب الخلاعي والعهر ونوادي التوبة مع تزايد تشدّد الأخلاق الفيكتورية. وفي مقاطعة بعيدة من تشيلي، جالسة أمام مكتب خشبي أشقر أنيقٍ، دون أيّ إلهامٍ آخر غير ذكرياتها، المضخّمة والبالغة تمامها ألف مرّة، عن حبّها الوحيد، راحت أخته تكتب الرواية بعد الأخرى وتوقّعها باسم «سيّدة مُغْفَلة» لا أحد كان يُصدّقُ أنّ هذه القصص المثيرة، التي تعلو بعضها صبغة توحي بالماركيز دُ ساد، وصارت من النوع الكلاسيكي، كتبتها امرأة. هو كان عليه أن يحمل المخطوطات إلى الناشِر، ومراقبة الحسابات، قبض الأرباح وإيداعها لأخته في أحدِ مصارف لندن. كانت تلك إحدى الوسائل لردّ الجميل الهائل الذي قامت به بتبنيها لابنته والصمت على الأمر. إليثا... لم يكن باستطاعتها تذكّر أمّها، وهي إنْ ورثت عنها ملامحها الجسديّة فقد ورثت عنه اندفاعه نحو المغامرة. أين تُراها تكون؟ مع من؟ كانت روز تصرّ على أنّها انطلقت إلى كاليفورنيا خلف حبيبها. لكن كلمّا مرّ مزيد من الوقت كلّما قل اعتقاده بذلك. صديقه جاكوب تود - فريمونت الآن - الذي جعل من البحث عن إليثا مهمّة شخصيّة له يؤكّد أنّها لم تطأ سان فرانسيسكو قط.

التقى فريمونت بالقبطان لتناول العشاء، دعاه بعدها لحضور عرض مثير في واحدة من مقامر الرقص في المنطقة الحمراء. حكى له أن أهْ توي، الصينية التي لمحها عبر بعض ثقوب الجدران، صارت تملك الآن سلسلة من المواخير وصالوناً أنيقاً تقدّم فيه أفضل الفتيات الشرقيات، بعضهن لا يكدن يبلغن الحادية عشرة من عمرهنّ مدرّبات على إرضاء كلّ أنواع النزوات، لكنّهما لم يذهبا إلى

هناك، كما قال، إلاّ لمشاهدة رقصة حريم تركيّة. بعد قليل كانا يُدخّنان ويشربان في بناءٍ من طابقين زيِّن بنضُد مشارب من الرخام والبرونز المصقول، ولوحات حوريات أسطورية تلاحقها آلهة الحقول. نساء من أعراق مختلفة يعتنين بالزبائن، يقدمن المشروبات الروحية ويستخدمن طاولات القمار تحت نظر قوّادين مسلحين يرتدون الملابس بتكلّفٍ صارخ. كانوا يراهنون على جانبي الصالون الرئيسي بمبالغ كبيرة في حِظارات معزولة، يجتمع فيها نمور اللعب للمجازفة بآلاف الدولارات في ليلة واحدة: سياسيون، قضاة، تجّار، محامون، ومجرمون، جميعهم متساوون في الهوس. جاء الاستعراض فاشلاً بالنسبة للقبطان، الذي رأى رقصة البطن الحقيقيّة في استنبول، وتكهّن بأنَّ تلك الفتيات المتعثرات ينتمين دون شك إلى آخر رحلة للمتسكعات من شيكاغو، وقد وصلن توّاً إلى المدينة. التجمّع، المؤلف في غالبيته من معدِّنين فظّين غير قادرين على تحديد موقع تركيا على الخريطة، التهبَ حماساً أمام تلك الراعيات اللواتي تغطيهن تنورات قصيرة من الخرز بصعوبة. القبطان الذي أُصيب بالضجر توجّه إلى طاولة قمار تُوَزِّع عليها امرأةٌ أوراقَ لعبة *المونتِ* بمهارة لا تُصدّق. اقتربت منه أخرى وهمست بدعوةٍ في أذنه. التفت لينظر إليها. كانت أمريكية جنوبية ربِعَةٌ ودهمائيّة، لكنها ذات ملمح فرح ساذَج. كادَ يُبعِدُها، لأنّه خطّط للذهاب لقضاء بقيّة الليلة في أحد المحلات المرتفعة السعر، التي ذهب إليها في كلّ مرّة جاء فيها إلى سان فرانسيسكو، حين وقعت عيناه على نحرها: كانت تحمل بين ثدييها مشبكاً ذهبياً مرصّعاً بالفيروز.

ـ من أين جئت بهذا؟ ـ صرخَ وقد أمسكها من كتفيها.

ـ إنّه لي! اشتريته ـ تلعثمت مذعورةً.

ـ من أين؟ ـ وتابع هزّها حتى اقترب واحد من القتلة.

ـ هل حدث لك شيء، يا مِستر؟ ـ هدَّده الرجل.

قام القبطان بإشارة من يريد المرأة، وحملها عملياً باضطراب إلى إحدى غرف نوم الطابق الثاني. أسدل الستارة وبصفعة واحدة رماها على ظهرها فوق السرير.

ـ ستقولين لي من أين جئتِ بهذا المشبك أو أنّني سأطير أسنانك جميعها، واضح؟

ـ لم أسرقه، يا سيّدي، أُقسِم لك. لقد أعطوه لي.

ـ من أعطاه لك؟

ـ لن تُصدِّقني لو قلته لك...

ـ من؟

ـ فتاة في سفينة منذ زمن...

لم يكن أمام أثوثِنا بلاثِرِس غير أن تحكي لذلك المجنون أنّ المشبك أعطاه لها طبّاخٌ صينيٌّ مقابل عنايتها بفتاة مسكينة كانت تموت وهي تُجهِضُ في عنبر سفينة وسط المحيط الهادي. وكلّما تكلّمت تحوّلَ غيظ القبطان إلى ذعر أكبر.

ـ ماذا حلَّ بها؟ ـ سأل جون سومّرز ورأسه بين يديه منهاراً.

ـ لا أدري، يا سيّدي.

ـ بحقّ أعزّ ما تملكين، يا امرأة، قولي لي ماذا حلَّ بها؟ ـ توسّل إليها واضعاً في حضنها رزمة من الأوراق النقدية.

ـ من أنت؟

ـ والدها.

ـ ماتت بالنزيف وألقينا بجسدها في البحر. أُقسم لك، إنّها الحقيقة ـ ردّت أثوثِنا بلاثِرِس دون تردّدٍ، لأنّها فكّرت أنّ تلك البائسة إذا كانت قد قطعت نصفَ عالمٍ مختبئة في جحرٍ مثل فأرٍ فلن يُغْفَرَ لها أن تُطلق والدها في أثرها.

قضت إليثا الصيف في البلدة لأنّ الأيام انقضت بين شيء وآخر.

أوّلاً أصابت بابالو الشرير نوبة زحار حادّة أحدثت ذعراً لاعتقاده أنّ السيطرة قد تمّت على الوباء . فقد مضت أشهر لم تحدث فيها حالات مخيفة باستثناء وفاة طفلٍ عمره عامان، المخلوق الأوّل الذي وُلِد ومات في ذلك المكان العابر لحديثي النعمة والمغامرين. لقد منح هذا الطفلُ القريةَ طابعَ المصداقيّة، فهو ما عاد مُخيّماً مهووساً يملك مشنقةٍ كحقٍّ وحيدٍ له للتواجد على الخريطة، صار فيه الآن مقبرة مسيحية وقبر صغير لشخص ولد ومات هناك. تحوّل العنبر إلى مشفى وسلِموا بمعجزة من الوباء، لأنّ جو لم تكن تؤمِنُ بالعدوى وتقول إنّ كلّ شيء يتعلّق بالحظّ: العالم مليء بالأوبئة، بعضهم يمسك بها وآخرون لا. لذلك لم تحتط وسمحت لنفسها بترفِ عدم الاكتراثِ بتحذيرات الطبيب ذات الحسّ العام، ولم تغلِ مياهَ الشربِ إلاّ بالإكراه أحياناً. حين انتقلت إلى بيت حقيقيٍّ شعر الجميع بالأمان، وإذا لم يصابوا بالمرض من قبل فقد صاروا أقل عرضة له الآن. بعد أيّام قليلة من وقوع بابالو، وقعت رومبِوسوس وفتيات ميسوري والمكسيكية الجميلة، وقعوا في إسهال مقرف وحمّى حارقة وارتعاشات خارج السيطرة، هزّت في حالة بابالو البيت. عندئذ حضر جيمس مورتون بلباس الأحد ليطلب يدَ إستر رسمياً.

ـ آه يا ولدي ألم يكن باستطاعتك اختيار لحظة أسوأ من هذه ـ تنهّدت رومبِوسوس، لكنّها كانت من المرض بحيث لم تعترض وأعطت موافقتها متأسفة.

وزّعت إستر أشياءها على رفيقاتها، لأنّها لم تبغِ حملَ شيءٍ معها إلى حياتها الجديدة، وتزوّجت في ذات اليوم دون كثيرِ مُجاملاتٍ يُرافقها توم بلا قبيلة وإليثا، المُعافيان الوحيدان في الفرقة. صفان من زبائنها القدماء تشكلا على جانبي الشارع عند مرور الزوجين وهم يطلقون النار في الهواء ويهتفون لهما. استقرّت في حانوت الحدادة وقد عزمت على تحويله إلى مسكنٍ لها ونسيان الماضي، إلاّ أنّها أُصيبت بهوس زيارة بيت جو يومياً لتحمل معها طعاماً ساخناً وملابس نظيفة للمرضى. وقع على عاتق إليثا وتوم بلا قبيلة أمر العناية ببقية سكّان البيت. أمّا طبيبُ البلدة، الشاب

الفيلادِلفي، الذي قضى أشهراً في التحذير من تلوث مياه النهر من أعلاه بسببِ فضلات المعدّنين ولم يعره أحد انتباهاً، فقد أعلنَ الحجرَ أربعين يوماً على بيت جو. الأموال ذهبت إلى الشيطان وهم لم يَنفقوا جوعاً بفضل إستر والهدايا المجهولة التي راحت تظهر سرّاً في الباب: كيس فاصولياء، بعض أرطال السكر، التبغ، أكياس ذهب وبعضِ الدولارات الفضّية. لجأت إليثا في مساعدة صديقاتها إلى ما تعلّمته من ماما فرِسيا في طفولتها، ومن تاو شيين في ساكرامِنتو حتى استعادوا أخيراً عافيتهم الواحد بعد الآخر، وإن بقوا فترة جيدة مترنحين ومشوّشين. أكثر من عانى هو بابالو الشرير. جسده الضخم الذي لِسِكلوب لم يكن معتاداً على سوء الصحة فهزل وتهدّل لحمه حتى فَقَدَ وشمُه شكله.

في تلك الأيّام ظهر في الصحيفة المحلية خبر قصير حول قاطع طريق تشيليٍ أو مكسيكي، لم يكن مؤكّداً ، يُدعى خواكين مورِيتا راحِ يحرز بعضَ الشهرة في طول وعرض بِتا مادرِ. فقد ساد العنفُ وقتها منطقةَ الذهب، بعد أن خابت آمالهم وأدركوا أن الثروة المفاجئة مثل معجزة السخرية لم تُصِب إلا قلّة قليلة جدّاً، وراح الأمريكيون يتّهِمونَ الأجانبَ بالطمع والثراء دون المساهمة في ملكية البلد. كانت المشروباتُ الروحية تُلهبهم وحصانتُهم التي تحميهم من العقاب على جرائمهم تمنحهم شعوراً غير عقلاني بالقوّة. لم يُدَن يانكيّ لجرائم ارتكبها بحقّ أعراقٍ أخرى قط، بل وأسوأ من ذلك كثيراً ما استطاع متهمٌ أبيض أن يختار هيئة تحكيمه. تحوّل العداء العرقي إلى كراهية عمياء. لم يقبل المكسيكيون بضياع أرضهم في حربٍ أو بطردهم من بيوتهم ومناجمهم، والصينيون تحمّلوا التمادياتِ بصمتٍ، فهم لم يُغادِروا واستمرّوا باستثمار الذهب بأدنى حدود الربح، لكن بإصرارٍ لا متناهٍ راحوا يجمعون ثروتهم غراماً بعد آخر. آلافُ التشيليين والبيرويين الذين كانوا أوّل الواصلين حين انفجرت حمّى الذهب قرّروا العودةَ إلى بلادهم، إذ ليس هناك ما يستحق العذاب لملاحقة أحلامهم في تلك الشروط. أقرّ التشريعُ في كاليفورنيا في ذلك العام 1850 ضريبةً على أعمال

المناجم مصمَّمة لحماية البيض. بقي الزنوج والهنود الحمر خارجاً إلا إذا عملوا كعبيدٍ، أمّا الأجانب فعليهم أن يدفعوا عشرين دولاراً ويُجدِّدوا سجلّ ممتلكاتهم شهرياً وهو ما كان مُحالاً عملياً، إذ لا يستطيعون أن يُغادروا ضفاف شذرات الذهب والسفر لمدّة أسابيع إلى المدن لتنفيذ القانون، لكنهم إذا لم يفعلوا احتلَّ *الشريفُ* المنجمَ وسلّمه إلى أمريكيّ. المكلّفون بتنفيذ الإجراءات يعينهم الحاكم ويتقاضون مرتباتهم من الضرائب والمخالفات، وهي الطريقة التامة للحثّ على الفساد. والقانون لم يكن يُطبّق إلا على الأجانب ذوي اللون الداكن، على الرغم من أنّ للمكسيكيين الحقّ بالمواطنة الأمريكية حسب الاتفاقية التي وضعت حدّاً للحرب في العام 1848. جاء مرسوم انتهى إلى القضاء عليهم: إنّ ملكية المزارع، التي عاشوا فيها على امتداد أجيال يجب أن تقرّها محكمة في سان فرانسيسكو. الإجراء الذي كان يستغرق أعواماً ويُكلّفُ ثروة، ثمَّ إنَّ القضاة والمحضرون عادة ما يكونون هم أنفسهم الذين استولوا على العقارات. ونظراً لأنَّ العدالة لا تحميهم فإنَّ بعضهم قد وضع نفسه خارجها، واتخذَ بعمقٍ دور المجرمين. ومن اكتفى في السابق بسرقة الماشية راح الآن يُهاجمُ المُعدِّنين والمسافرين المنفردين. اشتهرت بعض العصابات بقسوتها، فهي لم تكتفِ بسرقة ضحاياها بل تسلّت أيضاً بتعذيبهم قبل قتلهم. كانوا يتحدّثون على وجه الخصوص عن قاطع طريقٍ دمويّ، عُزِيَ إليه، بين جرائم أخرى، مقتلُ شابّين أمريكيين، عثروا على جثّتيهما مربوطتين إلى شجرة وعليهما علائم تدل على أنّهما استُخدِما كدريئةٍ لرمي السكاكين؛ قطعوا لسانيهما واقتلعوا عيونهما وسلخوا جلدهما قبل تركهما حيّين ليموتا ببطءٍ. أطلقوا على المجرم «جاك ذا الأصابع الثلاث» وقيل إنّه يدُ خواكين موريِتا اليمنى.

ومع ذلك لم يكن كلُّ شيءٍ وحشيّة، فقد تطوَّرت المدنُ وانبثقت قرى جديدة واستقرّت أسرٌ، ونشأت صحفُ وفرق مسرحيّة وأوركسترات، وبنيت مصارفُ ومدارس ومعابِد، خطّت طرق وحُسِّنَت اتصالات. صار هناك خدمات نقل والبريد يُوزّع بانتظام.

راحت تصل نساءٌ ويزدهر مجتمعٌ يتطلع للنظام والأخلاق، لم يعد المجتمع المأساوي لرجالِ البداية المنفردين والعاهرات. فقد تمّت محاولة إحلال القانون والعودة إلى الحضارة المنسية في معمعة الذهب السهل. وضعوا للبلدة اسماً محترماً في احتفال مهيبٍ حضرته فرقة موسيقية، وأُقيم عرض حضرته جو رومبُّوسوس مرتدية لباس امرأة لأوّلِ مرّة، ومدعومة من كامل فرقتها. جفلت النساء اللواتي وصلن توّاً من تلك «الوجوه المدهونة»، لكن وبما أنّ جو وفتياتها أنقذن حياة الكثيرين أثناء الوباء، فقد غضّوا الطرف عن نشاطاتهنّ. بينما أفلتوا العنان لحرب غير مُجدية ضدّ الماخور الآخر، لأنّه مازال هناك امرأة مقابل كلّ تسعة رجالٍ. في نهاية العام رحَّبَ جيمس مورتون بخمس أسرٍ من طائفة المُهتزّين التي عبرت القارّة في عربات تجرّها ثيران، ولم تأتِ من أجل الذهب، بل جاءت يشدّها اتساع تلك الأرض العذراء الهائل.

لم تعرف إليثا أيَّ أثرٍ تتبع، فقد ضاع خواكين أنديْتا في معمعة تلك الأزمنة، وراح يظهر مكانه لصّ له المواصفات ذاتها واسم مشابِه، من المحال عليها أن تربط بينه وبين الشاب النبيل الذي تُحِبُّ. لا يمكن لكاتب الرسائل الحارّة، التي تخبِّئها وتشكّلُ كنزها الوحيد أن يكون هو نفسه الذي يعزون إليه جرائم بهذه الفظاعة، لا يمكن لرجلٍ غرامياتها أن يرتبط بمتوحِّشٍ مثل جاك ذي الأصابع الثلاث، كما اعتقدت، لكن اليقين راحَ يتحوّلُ إلى ماء في الليالي حين يظهر عليها خواكين بألفِ قناع مُختلِفٍ، ويأتيها برسائل متناقِضة. تستيقظ مرتعدةً، تُحاصرها أطياف كوابيسها الهاذية. ما عاد باستطاعتها أن تدخل وتخرج من الأحلام بإرادتها كما علّمتها ماما فرِسيا، ولا أن تفكّ رؤى ورموزاً تبقى تدور في رأسها مثل صخب حجارة يجرجرها النهرُ. فراحت تكتب بلا كللٍ في يومياتها بأمل أن تحرز الصور معنى ما. كانت تقرأ رسائل الحب حرفاً فحرفاً باحثةً عن دلائل توضيحية، لكنَّ النتيجة مزيد من الحيرة. شكّلت هذه الرسائل البرهانَ الوحيدَ على وجودِ حبيبها وهي تتمسّك بها كيلا تتشوّش بالكامل. أصبح إغواءُ الغرق في البلادة كوسيلة للهرب من

عذاب الاستمرار في البحث لا يُقاوَم عادةً. صارت تشكُّ في كلِّ شيء: بعناقاتها في غرفة الخزائن، بشهورها مقبورةً في عنبر السفينة، وبالطفل الذي ذهب مع الدم.

المشاكلُ المالية التي أثارها زواجُ إستر من الحدَّاد كثيرة، فقد حرمت الفرقة من ربع ريعها بضربة واحدة والأسابيعُ التي مرَّ فيها المنكوبون بالزحار أكملت ذلك، وأوشكت جو أن تخسر بيتها الصغير، لكنَّ فكرة أن ترى حماماتها يعملن للمنافسة كانت تمنحها كبرياء للاستمرار بالكفاح ضدّ خصمها. فقد مررن بالجحيم وهي لا تستطيع دفعهنّ للعودة إلى هذه الحياة، لأنّها ورغم أنفها أحبَّتْهنَّ. إنّ حشر رجل بالقوّة في جسد امرأة اعتُبِرَ خطأ خطيراً من الربِّ دائماً، وللسبب ذاته لم تكن تفهم هذا النوع من غريزة الأمومة الذي برز عندها في أحرجِ الأوقات. اعتنت ب توم بلا قبيلة بغيرة، لكنّها أحبّت الإشارة دائماً إلى أنّها تفعل ذلك «مثل رقيب». لا شيء من الدلال، فهو ليس في طبيعتها، ثمّ إنّ على الطفل أن يقوى مثلَ أسلافِه، والدلال لا يفيد إلا في تخريب الرجولة، هكذا كانت تُنبِّه إليثا حين ترى الطفل بين ذراعيها، وهي تحكي له حكايات تشيليّة. تلك الرقّة الجديدة تجاه الحمامات بدت عائقاً جدّيّاً، وللطامّة الكبرى أنَّهُنَّ انتبهن وبدأن ينادينها «يا أمنا». كان اللقب يضايقها ومنعتهن عنه، لكنّهن لم يكترثن بها. أخذت تدمدم «العلاقة بيننا تجارية، ويحكنّ. لا يمكنني أن أكون أكثر وضوحاً: ما دُمْتُنّ تعملن، سيكون هناك دخل، سقفٌ، طعام وحِماية، لكن في اليوم الذي تمرضن فيه، تضعفن ويرتخي لحمكنّ أو تظهر التجاعيد والشعر الأبيض سيكون الوداع! ليس هناك ما هو أسهل من تبديلكنَّ، فالعالم مليء بالنساء البائسات». وعندئذٍ ينتابُها ذلك الشعور الحلو، الذي لا يمكن لأيّة قوّادة أن تسمح لنفسها به، فيلفّ وجودها، ويسخر منها بابالو الشرير «تحدثُ لك هذه المتاعب لأنّك امرأة طيبة». وقد باتت كذلك لأنّها بينما استهلكت وقتها الثمين في العناية بمرضى لا تعرف حتى أسماءهم، لم تقبل قوّادةُ البلدة الأخرى أيّ إنسان يحمل الوباء

بالاقتراب من محلّها. راحت جو تزدادُ فقراً بينما سمنت الأخرى، التي صبغت شعرها بالأشقر، والتي كان عشيقها الروسي يصغرُها بعشرة أعوام، وله عضلات رياضيّ وماسة معشّقة في سنّه. وقد وسّعت تجارتها وراح البحارةُ يصطفون في نهاية الأسابيع أمام بابها، النقودُ في يد والقبّعة في أخرى، إذ ما من امرأة مهما انحطّت تسمح بالقبّعة على الرأس. لا مستقبل لهذه المهنة إطلاقاً، كانت جو تؤكّد: القانون لا يحميهنّ، والربّ نسيهنّ، وأمامهنّ لا تُلمح إلاّ الشيخوخة والفقر والوحدة. خطرت لها فكرة التفرغ لغسل الثياب وصناعة الحلوى لبيعها، مع المحافظة على تجارة طاولات لعب القمار والكتب القذرة دائماً، لكنّ فتياتها لم يكنّ مُستعدّات لكسب عيشهنّ من أعمال بمثل تلك الفظاظة والدفع السيئ.

ـ هذا عمل خراء، يا صغيرات. تزوّجن، ادرسن لتصبحن معلّمات. اعملن شيئاً بحياتكنّ ولا تزعجنني أكثر ـ كانت تتنهّدُ حزينة.

كذلك تعِبَ بابالو الشرير من القيام بدور القوّاد والحارس. فحياة الاستقرار تُضجره وروميّوسوس تبدّلت إلى حدٍّ ما عاد للعمل معها أيّ طعم. ما الذي بقي له، إذا كانت قد فقدت حماسها ؟ صار في بعض لحظات القنوط يثق بالتشيلي الصغير وكلاهما يتفاهمان في وضع خطط خيالية للانعتاق: فهما سينشئان استعراضاً جوّالاً، ويتحدّثان عن شراء دبٍّ وتدريبه على الملاكمة للذهاب من قرية إلى أخرى متحدّين الشجعان للعراك بالأيدي مع الحيوان. مضى بابالو خلف المغامَرة وفكّرت إليثا أنّ مرافقَتَهُ ذريعة جيّدة للسفر بحثاً عن خواكين أنديتا. باستثناء الطبخ والعزف على البيانو لم يكن هناك الكثير من النشاط لدى روميّوسوس، فهي أيضاً يعكّرُ الكسلُ مزاجها. كانت ترغب باستعادة حرّية الطرقات الهائلة، لكنّها أحبّت هؤلاء الناس وفكرة الانفصال عن توم بلا قبيلة تمزّق قلبها. فالطفل صار يقرأ بانسيابية ويكتبُ باجتهادٍ، لأنّ إليثا أقنعته بأنّه عندما يكبر يجب أن يدرس ليصبح مُحامياً ويدافع عن حقوق الهنود الحمر، بدل أن ينتقم للقتلى بالرصاص كما تزمع جو. كانت تقول

له: «هكذا ستُصبح محارباً أقوى وسيرهبُكَ الغرينغويون». لم يعتد بعد على الضحك، لكنّ ظلّ ابتسامة ارتسمَ على وجهه الذي لهنديٍّ أحمر غاضِب في مناسبتين حين جلست بجانبه لتحكّ له رأسَه.

حضر تاو شيين إلى بيت جو رومبُوسوس ذات أربعاء من كانون الأوّل في الثالثة مساءً. فتح له البابَ توم بلا قبيلة، أدخله إلى الصالة الفارغة في تلك الساعة وذهب ليستدعي الحمامات. وبعد برهة حضرت المكسيكية الجميلةُ إلى المطبخ حيث يعجن التشيليّ الصغير العجين لتعلن أنّ هناك صينياً يسأل عن إلياس أنديتا، لكنّها كانت من الانشغال بالعمل وذكرى أحلام الليلة السابقة التي اختلطت فيها طاولات اليانصيب والعيون المتقزّرة بحيث لم تولها اهتماماً.

ـ أقول لك إنّ صينياً بانتظارك ـ كرّرت المكسيكية، عندئذٍ رفس قلبُ إليثا في صدرها رفسة بغل.

ـ تاو! ـ صرخت وخرجت راكضةً.

لكنّها حين دخلت إلى الصالة وجدت أمامها رجلاً مختلفاً تماماً، بحيث تأخّرت عدّة ثوانٍ للتعرف على صديقها. ما عاد هناك ضفيرة، فشعره قصير، مثبت ومسرح إلى الخلف، يستخدم نظارة دائرية بإطارٍ معدني، ويرتدي بزّةً داكنة ذات سترة وصدارة بثلاثة أزرار وبنطلون نديّ. يحملُ معطفاً ومظلّة بيد وقبّعة عالية باليد الأخرى.

ـ يا إلهي، يا تاو! ماذا جرى لك؟

ـ في أمريكا يجب أن يلبس المرء مثل الأمريكيين ـ ابتسم.

في سان فرانسيسكو هاجمه ثلاثة عربيدين وأفقدوه الوعيَ بضربة عصا قبل أن يتمكّن من إخراج مديته من خصره، وذلك لمجرّد التسلية بـ «*بليد*»، وحين استيقظ وجدَ نفسه مُلقى في زقاقٍ، مدهوناً بالقذارات وجديلته مقطوعة وملفوفة حول عنقه. عندئذٍ قرّر الإبقاء على شعره قصيراً والارتداء على طريقة *الفان غوي*. هيئته الجديدة برزت بين جمهور الحي الصينيّ، لكنّه لاحظ أنّهم يقبلونه خارجه أكثر بكثير، ويفتحون له أبواب البيوت التي كانت مغلقة في

وجهه من قبل. ربّما كان الصيني الوحيد بتلك الهيئة في المدينة. فالجديلة تعتبر مقدّسة وقرار جزّها يدلّ على النيّة بعدم العودة إلى الصين والاستقرار الأكيد في أمريكا، وهي الخيانة التي لا تغتفر للإمبراطور والوطن والأسلاف. ومع ذلك فبزّته وتسريحته سبّبت بعض الإعجاب، فهي تدلّ على أنّه يملك مدخلاً إلى عالم الأمريكيين. لم تستطع إليثا رفع عينيها عنه: فهو مجهول، وعليها أن تعود لتألفه من البداية. انحنى تاو شيين عدّة مرّاتٍ في تحيته المعتادة، ولم تستطع أن تطيع نيرانها التي تحرق جلدها لهفةً لعناقه، فهي قد نامت إلى جانبه مرّاتٍ كثيرةً، لكنّهما لم يتلامسا قط إلاّ بذريعة النوم.

ـ أظنّ أنّك كنتَ تُعجبني أكثر حين كنتَ صينيّاً من أعلاك إلى أسفلك، يا تاو. لا أعرفُكَ الآن. دعني أشمُّكَ ـ طلبت منه.

لم يتحرّك، بقي مشوّشاً بينما راحت تشمّه كما يشمُّ كلبٌ فريسَتَهُ. تسريحته والثياب المتقشّفة جعلته يبدو أكبر عمراً، ماعادت لديه مسحة طلاقة الفتوّة السابقة. نحل ويبدو أطول ووجنتاه تبرزانِ في وجهه الممسوح. راقبت إليثا فمَهُ بمتعةٍ، فهي تتذكّرُ تماماً ابتسامته المعدية وأسنانه التامّة، لكن ليس شكل فمه الشهوانيّ. لاحظت تعبير اكفهرارٍ في عينيه، لكنّها فكّرت أنّه من تأثير العدستين.

ـ ما أروع أن أراك، يا تاو ـ وامتلأت عيناها بالدموع.

ـ لم أستطع المجيء قبل ذلك، لم يكن لديّ عنوانك.

ـ تعجبني الآن أيضاً. تبدو حفّار قبور، لكنك حفار وسيم.

ـ هذا هو عملي الآن ـ ابتسم ـ حين علمت بأنّك تعيشين في هذا المكان فكّرت أنّ تنبّؤات أثوثِنا بلاثِرس قد تمّت. قالت إنّك عاجلاً أم آجلاً ستصبحين مثلهنّ.

ـ وضّحتُ لكَ في الرسالة أنّني أكسب عيشي بالعزف على البيانو.

ـ شيء لا يُصدَّق!

ـ لماذا؟ أنت لم تسمعني قط، عزفي ليس سيئاً. وإذا كنت قد استطعت تمريرَ نفسي كصينيّ أصم وأبكم فكذلك أستطيع أن أمرِّرها كعازفة بيانو تشيليّة.

راح تاو شيين يضحك مدهوشاً، لأنّها المرّة الأولى منذ أشهرٍ التي يشعر فيها بنفسه سعيداً.

ـ هل عثرتِ على حبيبك؟

ـ لا. ما عدتُ أعرف أين أبحثُ عنه.

ـ ربّما لا يستحقّ أن تعثري عليه. تعالي معي إلى سان فرانسيسكو.

ـ ليس عندي ما أفعله في سان فرانسيسكو...

ـ وهنا؟ الشتاء يبدأ والطرق لن تعود قابلة للسير وهذه القرية ستنعزل.

ـ شيء ممل أن أكون أخاك الأبله، يا تاو.

ـ هناك الكثير مما يُعملُ في سان فرانسيسكو، سترين، ولنٍ يكون عليك أن ترتدي ملابس الرجال صارت النساء تُشاهَدْنَ في كل مكان.

ـ ماذا حلّ بمشاريع عودتك إلى الصين؟

ـ مؤجّلة. لا أستطيع الذهابَ بعدُ.

فتيات سينغ سونغ

في صيف 1851 قرّر جاكوب فريمونت مقابلة خواكين موريِتا. كانت موضوعات قطّاع الطرق والحرائق دارجةً في كاليفورنيا، وقد لفّت الناس بالذعر وشغلت الصحافة. فالجريمة أفلتت من عقالها واشتهرت الشرطة، المكوّنة في غالبيتها من المجرمين والمهتمّين بحماية رفاقهم السيّئين، بالفساد، أكثر مما بحماية السكّان. بعد حريقٍ آخر التهم قسماً جيّداً من سان فرانسيسكو أُنشئت لجنة من المراقبين، مكوّنة من مواطنين هائجين وعلى رأسهم المعصوم سام برانّان، المورموني الذي أشاع خبر اكتشاف الذهب في عام 1848. كانت شركات الإطفائيين تجري جارّة عربات الماء بالحبال نحو أعلى الهضبة وأسفلها، لكنّهم قبل الوصول إلى بناء معيّن تكون الريح قد دفعت بالنيران إلى البناء المجاوِر. بدأت النيران حين صبّت الكلاب السلوقية الأسترالية الكيروسين على حانوت تاجر، رفض أن يدفع لهم أتاوة الحماية ثم رموه بمشعلٍ. ونظراً للامبالاة السلطات فقد قرّرَت اللجنة أن تعمل لحسابها: «كم جريمة ارتُكِبَت في هذه المدينة خلال عام واحد؟ من شُنِقَ ومن عوقِب من قبلهم؟ لا أحد. كم من الرجال رمي بالرصاص وطُعِن وعُذِّب وضُرِبَ ومن هو الذي أدين بهذا؟ لا نوافِق على العقوبات غير القانونية، لكن من يستطيع معرفة ما سيفعله الجمهور المهان لحماية نفسه؟» العقوبة غير القانونية هي الحلّ الذي تبناه الجمهور تماماً. انطلق المراقبون على الفور إلى المهمّة وأعدموا أوّل من شكّوا به. راح أعضاء اللجنة

يزدادون عدداً يوماً بعد يوم، ويعملون بحماس مسعور إلى حدّ أنّ قطّاع الطرق حذروا لأوّل مرّة من العمل في وضح النهار. في هذا الجوّ من العنف والانتقام راحت شخصيّة خواكين مورْيِتا تتحوّل إلى رمزٍ. وأخذ جاكوب فرِيمونت على عاتقه أمر تأجيج نار شهرته. فمقالاته المؤثرة خلقت بطلاً للهيسبانيين وشيطاناً لليانكيين. عزا له عصابة كبيرة العدد وفطنة عبقريٍّ عسكريّ، كان يقول عنه إنّه يخوض حربَ مناوشةٍ وقفت السلطات أمامها عاجزةً. يُهاجِم بدهاء وسرعة، يهبط على ضحاياهُ كاللعنةِ ويختفي على الفور دون أن يتركَ أثراً، ليظهر بعد قليل على بعد مئة ميل في ضربة أخرى بجرأة غير معهودةٍ لا يمكن تفسيرها إلا بفنّ السحر. كان فريمونت يعتقدُ أنّهم عدّة أشخاص وليسوا واحداً فقط، لكنّه يحذر قول ذلك، فهذا سيضرُّ بالأسطورة. إلاّ أنّه ملك فطنة تسميته «روبن هود كاليفورنيا»، وبذلك أشعل نيرانِ العداء العرقي. فمورْيِتا بالنسبة إلى اليانكيين يجسّد أكره *المزيّتين*، ويفترض أن المكسيكيين يخبئونه، يُعطونه أسلحةً ويمدّونه بالموؤن لأنّه يسرق اليانكيين ليساعد أبناء عرقه. خسروا في الحرب أراضي تكساس وأريزونا ونيومكسيكو ونيفادا وأوتاه ونصف كولورادو وكاليفورنيا؛ واعتبروا أيّة محاوَلَة ضدَّ الغرينغويين عملاً بطوليّاً. نبّهَ الحاكمُ الصحيفةَ من التهور في تحويل المجرم إلى بطل، لكنّ الاسم قد نَفَخَ خيالَ الجمهور، وراحت تصل إلى فريمونت عشرات الرسائل بما فيها رسالةُ شابّةٍ من واشنطن، مستعدّة أن تقطع نصف العالم إبحاراً للزواج من قاطِع الطريق هذا، وراح الناسُ يوقفونه في الشارع ليسألوه عن خواكين مورْيِتا، فيصفه الصحافيُّ، دون أن يكون قد رآه قط، كشاب رجولي الطلعة له ملامح نبيل إسبانيٍّ وجرأة مصارِع ثيران. وقَعَ، دون قصد منه، على منجم أكثر إنتاجاً من غالبيةِ المناجم المنتشرة على طولِ بِتا مادرِ. خطرَ له مقابلة هذا الـخواكين مورْيِتا. إذا كان موجوداً فعلاً ليكتب سيرته وإذا كان خرافة، فالموضوع يكفي لرواية. سيقوم عمله فقط على كتابتها بنبرة بطولية حسب ذوق الجمهور الدهمائي. فكاليفورنيا تحتاج إلى أساطيرها وملاحمها الخاصّة بها، كان يؤكّدُ، فهي وِلاية انبثقت توّاً

بالنسبة للأمريكيين الذين يريدون أن يمحوا بضربة ريشةٍ التاريخَ السابق للهنود الحمر والمكسيكيين والكاليفورنيين. ومن يمكن أن يكون أفضل من قاطِع طريقٍ كبطلٍ لبلادٍ مطلقة الفضاءات وموحشة الرجال، الأرض المفتوحة على الاحتلال والعنف؟ وضع ما لا غنى عنه في حقيبته، وتزوّد بما يكفي من الدفاتر وأقلام الرصاص، وانطلق يبحث عن شخصيَّتِه. لم تَرِد المخاطر إلى ذهنه، وظنّ أنّ عنجهيّته الإنكليزيّة وكونه صحافياً يحميانه من أيّ شرٍّ، فيما عدا ذلك سافر مرتاحاً إلى حدٍّ ما، فهناك طرق وخدمات نقلٍ تصل بين القرى التي فكّر بالتحقيق فيها، الحال لم تعد كما من قبل حين بدأ عمله ككاتب تحقيقات، حيث يمضي على ظهر بغلٍ يشقّ طريقه في ريبةِ الهضاب والغابات، دون أيّ دليل آخر غير خرائط جنونيّة يمكن الدوران حسبها للأبد. استطاع خلال الطريق أن يرى بعض التغيرات في المنطقة. قليلون هم من أثروا من الذهب، لكن وبفضل المُغامِرين الذين وصلوا بالآلاف راحت كاليفورنيا تتحضّرُ. لولا حمّى الذهب لتأخر احتلال الغربِ قرنين، هذا ما سجّله الصحافيُّ في دفتره.

لم تنقصه المواضيع، مثل قصّة ذلك المُعدِّن الشابّ، الفتى ابنِ الثامنة عشرة، الذي وبعد أن عاش القفر المدقِع عاماً طويلاً، استطاع جمع عشرة آلاف دولار احتاجها للعودة إلى أُوكلاهوما وشراء مزرعة لوالديه. وبينما هو يهبط باتجاه ساكرامِنتو عبر سفوح سييرّا نيفادا ذات يوم ساطع، يحمل معه كنزه المتدلي على ظهره باغتته مجموعة من المكسيكيين أو التشيليين القساة، لم يكن واثقاً من هويّتهم. ما يعرفه بيقين هو أنّهم كانوا يتكلّمون الإسبانيّة، لأنّهم تواقحوا وتركوا لافتة مكتوبة بهذه اللغة، مخربشة بالمدية فوق قطعة من الخشب: «الموت لليانكيين». لم يكتفوا بتوجيه ضربة إليه وسرقته، بل ربطوه عارياً إلى شجرة ودهنوه بالعسل. بعد يومين حين عثرت عليه دوريّةٌ ووجدته مهووساً، فالبعوض التهم جلده.

وضع فريمونت نبوغه في الصحافة المرضيَّة موضع الاختبار مع نهاية خوسِفا المأساوية، تلك المكسيكية الجميلة المستخدمة في

إحدى صالات الرقص. دخل الصحافيُّ بلدةَ دونيفل في يوم الاستقلال، فوجد نفسه وسط احتفال يترأسه مرشح لمنصب سيناتور ويسقي الناس نهراً من الكحول. دخلَ مُعدّن ثمل بالقوّة إلى غرفة خوسِفا فردّته وغرزت مديتها الجبلية في منتصف القلب. حين وصل جاكوب فريمونت كانت الجثّة ممدّدة على طاولة، مغطاة بعلم أمريكي وحشد من ألفي متعصّب يلهبهم حماسُ الكراهية العرقية يطالبون بشنق خوسِفا. كانت المرأة تدخّن سيجارةً غير متأثّرة، كأن الصخب لا يعنيها، وحقيبتها البيضاء مُلطّخة بالدم تجوب وجوه الرجال باحتقار جهنّميّ، واعية لخليط العدوان والرغبة الجنسية المضرمة التي تثيرها فيهم. تجرّأ طبيبٌ بالكلام لصالحها، موضّحاً أنّها فعلت ذلك دفاعاً عن نفسها وأنّهم بإعدامها سيقتلون الطفلَ الذي في بطنها أيضاً، لكنَّ الحشدَ أخرسه مهدِّداً بتعليقه هو أيضاً. جُمِل ثلاثة أطبّاء مذعورون بالعنف لفحص خوسِفا فأكدوا جميعاً أنّها ليست حاملاً، ونظراً لذلك أدانتها المحكمةُ المُرتَجَلَةُ بالموت خلال دقائق قليلة. رأى أحدُ القضاة أنَّ «قتل هؤلاء *المزيّتين*، رمياً بالرصاص ليس عملاً جيّداً، يجب منحهم محاكمة عادلة وشنقهم بكلّ جلالة القانون». لم يُصادف أن رأى فريمونت إعداماً عن قرب، واستطاع أن يصف بجمل مؤثّرة كيف أرادوا في الرابعة أن يجرّوا خوسِفا نحو الجسر حيث حضّروا مراسم الإعدام، لكنّها انتفضت بكبرياء وتقدّمت وحدها من المنصّة، وضعت الحبل حول عنقها، سوّت جديلتيها السوداوين وودّعتهم قائلة «وداعاً أيّها السادة» فتركت الصحافيَّ مرتبكاً والآخرين ملفوفين بالعار. « خوسِفا لم تمت لأنّها مخطئة بل لأنّها مكسيكية. كانت المرّة الأولى التي يُعدمون فيها امرأة في كاليفورنيا. يا للتبذير! حين لا يوجد منهنَّ إلا القليل!» كتب فريمونت في مقاله.

بتتبّعه لآثار خواكين موريِتا اكتشف قرى مستقرّة فيها مدارس ومكتبات ومعابد ومقابر، وأخرى لا تملك أيّ دليل ثقافي غير الماخور والسجن. هناك حانة في كلّ واحدة منها، شكّلت مراكزَ الحياة الاجتماعيّة. هناك أقام جاكوب فريمونت يتقصّى وهكذا راح

يبني على بعض الحقائق وكومة من الأكاذيب مسيرة - أو أسطورة - خواكين موريتا. صوّره أصحابُ الحانات كإسبانيٍّ ملعون، يرتدي الجلدَ والقطيفةَ السوداء ومهمازين ضخمين من الفضّةِ وخنجره إلى خصرِه، يمتطي أجمل وأنشط حصانٍ أصهب رأوه في حياتهم. قالوا إنّه كان يدخل على هواه بجلبة مهامِيز حاشيته من قطّاع الطرق، يضع دولاراته على المنصّة ويأمر بدورة من الجرعات لكلِّ واحدٍ من الموجودين. لا أحد كان يجرؤ على رفض الكأس، حتى أشجع الرجال يشربون صامتين تحت نظرة الوغد البرّاقة. بالمقابل لم يكن في هذا الشخص شيء كريم بالنسبة للمُحضِرين، فالأمر يتعلّق بدهمائيٍّ، قاتلٍ قادِر على ارتكاب أسوأ الفظائع، استطاع أن ينجو من العدالة لأنّ *المُزيّتين* يحمونه. اعتقد التشيليون أنّه واحدٌ منهم، مولود في مكان يُدعى كيليوتا، يقولون إنّه كان وفيّاً لأصدقائه ولم ينس ردّ جميل تلقاه قط، من هنا تعتبَرُ مساعدته سياسة جيّدة؛ لكنَّ المكسيكيين كانوا يُقسمون أنّه من ولاية سونورا وشاب مُهذّب من أسرة عريقة ونبيلة، وقد تحوّل إلى قاتل للانتقام. اعتبره قطاع الطرق خبيراً بالجبل، وقد تحاشوه لأنّ لديه حظّاً مجنوناً في لعب الورق وخنجر بهيج يظهر في يده أمام أيّة إثارة. العاهرات البيض كنّ يمتن فضولاً، إذ أشيع أنّ لذلك الفتى الجميل والكريم قضيب مهرٍ لا يكلّ، لكنّ الهيسبانيات لا ينتظرنه، وكنّ يؤكّدن أنّ خواكين موريتا يوزّع عليهنّ إكراميات لا يستحققنها، فهو لم يتمتّع بخدماتهنّ، لأنّه وفيٌّ لخطيبته. يصفنه بأنّه ربع القامةِ، أسود الشعر، برّاق العينين مثل جذوتين، معبود من عصابته، لا يتراجع أمام خصم، شرس مع أعدائه ولطيف مع النساء. آخرون كانوا يؤكّدون بأنّ له مظهر مجرم محض، فظ، وندبة مريعة تقطع وجهَهُ؛ ليس فيه من الشاب الوسيم والنبيل والأنيق شيء. راح جاكوب فريمونت يختار أفضل الآراء التي تنطبق على صورة اللص عنده ويعكسها في كتاباته، دائما بما يكفي من الغموض، كما لو ليحفظ طريق العودة في حال التقى ببطله وجهاً لوجه ذاته مرّة. طاف من أعلى المنطقة إلى أسفلها خلال شهور الصيف الأربعة دون أن يلتقي به في أيّ مكان، لكنّه بنى من الروايات المختلفة سيرة بطولية وخيالية. وبما أنّه ما كان ليسلّم

بهزيمته، فقد ابتدع في مقالاته لقاءات قصيرة في أوقاتٍ غير مناسبة، في كهوف الجبال وفسحات الغابات. بالنتيجة مَنْ سيناقِضه. رجال مقنّعون يقودونه معصوبَ العينين على جوادٍ، كان يقول، لا يستطيع أن يحدّد هوياتهم، لكنّهم يتكلّمون الإسبانية. الفصاحة الملتهبة ذاتها التي استخدمها قبل سنواتٍ في تشيلي لوصفِ الهنود الحمر الباتاغونيين في تيِيرّا دِلْ فوِغو، حيث لم يضع قدمه قط، أفادته الآن كي يُخرِجَ من كمٍّ الساحر قاطعَ طريق وهميّ. عَشِقَ الشخصية حتى انتهى إلى الاقتناع بأنّه يعرفها، وأن اللقاءات السرّية في الكهوف حقيقيّة، وأنّ الفارّ كلّفه شخصياً بمهمّة كتابة بطولاته، لأنّه يعتبر نفسه المنتقم للإسبان المقموعين، لذا يجب أن يقوم أحدٌ بمهمّة منحه وقضيّته المكانةَ التي يستحقان في تاريخ كاليفورنيا الناشئ. لم يكن عند جاكوب فريمونت من فنٍّ الصحافة إلا القليل، لكن عنده الكثير من الأدب للرواية التي خطّط لكتابتها في ذلك الشتاء.

كرّس تاو شيين نفسه حين وصل إلى سان فرانسيسكو قبل عامٍ للقيام بالاتصالات الضرورية لممارسة مهنة *الزهونغ يي* لعدّة أشهُر. كان معه بعض النقود ويفكّر بمضاعفتها بسرعة. الجالية الصينية في ساكرامِنتو بلغت قرابة السبعمئة رجل وتسع أو عشر عاهرات، بينما في سان فرانسيسكو يوجد آلاف الزبائن المحتملين. ثمّ إنّ هناك بواخر تمخر المحيطَ باستمرار حتى أنّ بعض الفرسان يرسلون قمصانهم لغسلها في هاواي أو الصين، لأنّ المدينة خالية من الماء الجاري وهذا ما سمح له بالتوصية على أعشابه وأدويته من كانتون دون أيّة صعوبةٍ. لن يكون في تلك المدينة معزولاً كما في ساكرامِنتو، وهناك يوجدُ عدّة أطباء صينيين يستطيع أن يتبادل معهم المرضى والمعرفة. لم يفكّر بفتح عيادة خاصّة به، لأنّ المسألة تتعلّقُ بالتوفير، لكنّه يستطيع أن يشارك زهونغ يي آخر مقيماً. وما أن استقرَّ في فندقٍ حتى راح يجوب الحيَّ الذي نما في كلّ الاتجاهات كالأخطبوط. صار الحي قلعة فيها أبنيتها الراسخة،

فنادقها، مطاعمها، مغاسلها، صالات تدخين أفيونها، مواخيرها، أسواقها ومصانعها. وحيث لم يكن يُعرَض سابقاً غير البضائع التافهة ارتفعت حوانيت الشرقيات القديمة والفخاريات، والمينا والمجوهرات والحرير والعاج. كان يأتي إلى هناك التجار الأثرياء، ليس الصينيون وحسب بل الأمريكيون أيضاً حيث يشترون ليبيعوا في مدنٍ أخرى. تُعرَض البضائع في فوضى مرعبة، لكنَّ أفضل القطع، تلك الجديرة بالعارفين والجامعين لا تُعرض، بل تُخرَج للزبائن الجدّيين في خلفية الحانوت. بعضُ المحلات كانت تملك غرفاً خفيّة، تضمُّ مقامر يتواعد فيها اللاعبون الفطنون. على تلك الطاولات المحصورة بعيداً عن أعين الفضوليين والسلطات يُقامَر بمبالغِ هائلة، وتتم صفقات قذرة وتُمارس القوّة. لم تكن الحكومة الأمريكية تتحكم بشيءٍ بين الصينيين، الذين يعيشون في عالمهم الخاص، بلغتهم وعاداتهم وقوانينهم المغرقة في القدم. لم يكن يُرحّب بـ «*البليدين*» في أيٍّ مكان، والغرينغويون يعتبرونهم الأخسَّ بين الأجانب غير المرغوب فيهم الذين يغزون كاليفورنيا ولا يغفرون لهم أنّهم يزدهرون؛ لذلك يستغلونهم قدر استطاعتهم، يعتدون عليهم في الشارع، يسرقونهم، يحرقون حوانيتهم وبيوتهم، يقتلونهم دون عقاب، لكنِ ما من شيء أفزع الصينيين. كانت خمس تونغات «*أخويات*» تعملُ موزّعةً بين السكان؛ وكلّ صيني يصلُ ينضمُّ إلى واحدة من هذه الأخويات، لأنها الطريقة الوحيدة للحماية والحصول على عمل وضمان عودة الجثّة إلى الصين. تاو شيين الذي تفادى سابقاً الانضمامَ إلى واحدة من هذه *التونغات* عليه أن ينضمَّ الآن، فاختار أكثرها عدداً التي انضمَّ إليها معظم الكانتونيين. سرعان ما وضعوه على احتكاك بـ *زهونغ يي* آخر وكشفوا له عن قواعد اللعبة. الصمتُ والوفاء قبل كلّ شيء، ما يحدثُ في الحيِّ يبقى في شوارعه. لا لجوء إلى الشرطة حتى في حالات الحياة أو الموت، فالصراعات تُحلُّ داخل الجالية، لذلك وُجِدت *التونغات*. العدو المشترك هو دائماً *الفان غوي*. ومن جديد وجدَ تاو شيين نفسه أسيرَ العادات، المراتِب وتقييدات أيّامه في كانتون. يومان ولم يبق هناك من يجهل اسمَه، وبدأ يصله من الزبائن ما لا يستطيع أن

يُغطيّه. لم يحتج للبحث عن شريك، عندئذٍ فكّر أنّ باستطاعته أن يفتتح عيادته الخاصّة ويجمع المال بزمنٍ أقلّ مما تصوّر. استأجر غرفتين فوق مطعم، يعيش في واحدة وفي الأخرى يستقبل الزبائن. استخدم لأوّلِ مرّة نُظامَ الدكتور إبانيزر هوبز لتتبع حالة المرضى. ووثِقَ حتى تلك اللحظة بذاكرته وحدْسِه، لكن نظراً لعدد الزبائن المتزايد فتح أرشيفاً يسجّل فيه علاج كلّ واحد.

ذات مساء من بداية الخريف حضر مساعده وفي يده عنوانٌ مسجل وأمرٌ بالحضور بأسرع ما أمكن. أنهى معاينة زبائن اليوم وانطلق. كان البناء الخشبي المزين بالتنينات والمصابيح الورقية المكوّن من طابقين يقع في وسط الحي. ودون أن ينظر مرّتين عرف أنّه ماخور. على جانبي الباب نوافذ مسيجة بالقضبان تُطلّ منها وجوه صبيانية تقول بالكانتونية: «أدخل إلى هنا وافعل ما تشاء بطفلة صينية في غاية الجمال». يكرّرن الشيء ذاته بإنكليزية مُحالة لخدمة زوّارٍ بيض وبحّارةٍ من كلّ الأعراق: «اثنان للنظر، أربعة للمس، وستةٌ للممارسة»، في الوقت الذي يعرضن فيه أثداءهن الصغيرة المحزِنة ويغرين الداخلين بإيماءات فاحشة، والتي بصدورها عن تلك المخلوقات الصغيرة شكّلت إيماءات مأساوية. كان تاو شيين قد رآهنَّ مرّاتٍ كثيرةً، فهو يمرّ يومياً في ذلك الشارع ومواءات *فتيات سينغ سونغ* تلاحقه وتُذكّره بأخته. ماذا تراه حلّ بها؟ فكّر، عمرها ثلاثة وعشرون عاماً، في حال أنّها ما زالت حيّة وهو أمرٌ غير محتمل. أكثر العاهرات فقراً بين الفقيرات يبدأن باكراً جدّاً، ونادراً ما يُدركن الثامنة عشرة، وفي العشرين إذا حالفهن الحظُّ السيئ وبقين على قيد الحياة يُصبحن عجائز. ذكرى أخته الضائعة منعته من اللجوء إلى المحلات الصينية، فإذا لم تتركه الرغبة بسلام بحثَ عن نساء من أعراق أخرى. فتحت له الباب عجوز شمطاء، داكنة الشعر، مرسومة الحاجبين بخطين من الفحم، وحيَّته بالكانتونية. وما أن توضّح أنّه ينتمي إلى *التونغ* ذاتها حتى قادته إلى الداخل. رأى على امتداد الممر سيئ الرائحة مخادعَ الفتيات، وقد رُبِط بعضهنّ إلى الأسرَّةِ بسلاسل في أكعابهنَّ. عبر في ظلمة الممر برجلين خرجا يسويان بنطلونيهما. حملته المرأة عبر متاهةٍ

من الممرات والأدراج، عبرا البناء كلّه وهبطا درجاتٍ متآكلة باتجاه الظلمة. أشارت إليه بالانتظار فانتظر برهة بدت له أبدية في سواد ذلك الثقب، كان يسمع بمخفاتٍ ضجيج الشارع. سمع زعيقاً واهناً ولامس شيء كعبه. أطلق رفسة فاعتقد أنّه أصاب الحيوان، الذي ربّما كان جرذاً. عادت العجوز تحمل شمعةً، قادته عبر ممرٍّ آخر متعرّج إلى باب مغلق بقفل. أخرجت مفتاحاً من جيبها وصارعت القفل حتى فتحته. رفعت الشمعة التي أضاءت غرفةً بلا نوافِذ، الأثاث الوحيد فيها سرير فردي من الخشب على ارتفاع عدّة بوصات عن الأرض. موجةٌ من رائحةٍ مريعةٍ صدمتهما في وجهيهما فاضطرا لإغلاق أنفيهما وفميهما كي يدخلا. على السرير جسد صغير منكمش، فنجان فارغ وقنديل زيت مُطفَأ.

ـ افحصها ـ أمرته المرأة.

قلب تاو شيين الجسدَ وتبين أنّه متخشِّب. كانت طفلة في الثالثة عشر من عمرها، دائرتان حمراوان على خديها، وذراعاها وساقاها معلّمة بالندبِ. لباسها كلّه عبارة عن قميص رقيق. واضح أنّها كانت عظماً، لكنّها لم تمت جوعاً أو مرضاً.

ـ سمّ ـ حدّد دون تردُّد.

ـ لا تَقُلْ هذا! ـ ضحكت المرأة، كما لو أنّها سمعت أظرف شيء في حياتها.

اضطر تاو شيين أن يُوقّع على ورقةٍ تُفيدُ أنَّ الموت يعود لأسباب طبيعية. أطلّت المرأة على الممر وطرقت طرقتين بجرس صغير فظهر على الفور رجلٌ، أدخل الجثّة في كيس وألقى بها على ظهره وحملها دون أن يقول كلمة واحدة، بينما القوّادةُ تضع عشرين دولاراً في يد *الزهونغ يي*. قادته بعدها عبر متاهات أخرى ووضعته أخيراً أمام باب. وجد تاو شيين نفسه في شارع آخر وتعذّب برهة لتحديد مكانه للعودة إلى مسكنه.

عاد في اليوم التالي إلى العنوان ذاته. ومرّةً أخرى وجد الطفلات بوجوههنّ المطلية وعيونهنّ المجنونة ينادين بلغتين. قبل عشر سنوات بدأ ممارسة الطب مع العاهرات، استخدمهن كلحم

للإيجار وتجريب الوخز بإبر معلّمه الذهبيّة، لكنّه لم يتوقّف أبداً ليفكّر بأرواحِهِنّ. كان يعتبرهن مأساةً من مآسي الكون الحتمية، واحدة من أخطاء الخلق الأخرى، كائنات مخزية تُعاني لتدفع ثمن أخطاء حيوات سابقة وتنظيم *كرماتهم*. شعر بالحزن عليهن، ولم يخطر له أنّ من الممكن تعديل مصائرهنّ. ينتظرن سوءَ طالعهنّ في غرفهنَّ بلا خيار، قدرهنَّ مثل قدر الدجاج في أقفاص السوق. هكذا هي فوضى العالم. مرّ ألفَ مرّة في ذلك الشارع ولم يمعِن النظرَ في النوافذ الصغيرة والوجوه وراء القضبان أو الأيدي المُطلّة. الفكرة التي كان يملكها عن شرط عبوديتهنّ مبهمة، لكنّ هذه هي حال النساء جميعاً في الصين، أكثرهنّ حظّاً عبدات لآبائهنّ وأزواجهنّ أو عشاقهنّ، وأخريات لقوّادين، يعملن لهم من مطلع الشمس حتى مغيبها وكثيرات منهنَّ مثل هذه الطفلات. ومع ذلك لم يَرَهُنّ في ذلك الصباح باللامبالاة ذاتها، لأنّ شيئاً فيه كان قد تبدّل.

لم يُحاوِل النومَ في الليلة السابقة. توجّه عند خروجه من الماخور إلى أحد الحمّامات العامّة، حيث تبلّل طويلاً ليتخلّص من طاقة مرضاه المظلمة ومن القلق المريع الذي كان يخنقه. حين وصل إلى بيته صرف مساعدَه وحضّرَ شاياً بالياسمين ليتطهّر. لم يكن قد أكل منذ ساعاتٍ طويلة، لكن ليست هذه هي لحظته. تعرّى، أشعل بخوراً وشمعةً، ركع وجبينه على الأرض ثمّ صلّى على روح الفتاة الميتة. جلس على الفور يتأمّل، لساعاتٍ في ثبات تام، إلى أن استطاع عزل نفسه عن صخب الشارع وروائح المطعم، وغرق في فراغِ وصمت روحِهِ ذاتها. لم يعرف كم بقي ساهياً ينادي ويُنادي لين، إلى أن سمعه الطيف الهفهاف أخيراً في الاتساع اللانهائي الغامض الذي تسكنه وراحت ببطء تعثر على الطريق وتقترب بخفّةٍ تنهيدةٍ، في البداية غير محسوسة، ثمّ وشيئاً فشيئاً أكثر تجسّداً حتى شعر بحضورها واضحاً. لم يشعر بلين بين جدران الغرفة، بل في صدره ذاته، وسط قلبه الساكِن. فتح تاو عينيه ولم تتحرك. بقي لساعاتٍ في الوضعيّة ذاتها، معزولاً عن جسده، يطفو في فضاءٍ وضّاءٍ بتواصل تام معها. عند الفجر وحين تأكّدا أنّهما لن يضيعا عن نظر بعضهما، ودّعته لين بنعومة. عندئذٍ وصل معلّم الوخز

بالإبر مبتسماً وساخراً، كما في أفضل أيّامه قبل أن تصفعه هذيانات الشيخوخة وبقي معه. رافقه وأجاب على أسئلته، حتى أشرقت الشمس واستيقظ الحيُّ وسُمِعت طرقات مُساعِده الخفيفة على الباب. نهض تاو شيين، منتعِشاً متجدّداً كما بعد حلم وديع، ارتدى ملابسه وذهب ليفتح الباب.

ـ أغْلِق العيادة. لن أستقبل مرضى اليوم. هناك أشياء أخرى عليَّ القيام بها ـ أعلن لمساعِده.

استقصاءات تاو شيين في ذلك اليوم بدّلت مسار قدره. الفتيات خلف القضبان يأتين من الصين ملتقطات من الشارع أو مباعات من قبل آبائهنّ بوعد أنّهن سيذهبن للزواج في الجبل الذهبي. يختارهنّ الوكلاء من بين الأقوى والأرخص وليس من بين الأجمل، إلا إذا تعلّق الأمر بتوصية خاصّة من زبائن أثرياء، فيشترونهنّ كمحظياتٍ. أه توي المرأة الماكرة التي ابتدعت فرجة الثقوب في الجدران ليختلس الرجالُ النظرَ إليهن، أضحت من أكبر مستوردات اللحم الشاب في المدينة. تشتري الفتيات في لحظة البلوغ لسلسلة محلاتها، لأنّهن أطوع للترويض وفي جميع الأحوال لا يَدُمْنَ إلا قليلاً. راحت تشتهر وتصبح غنيّة جدّاً، صناديقها تطفح بالمال. اشترت قصراً صغيراً في الصين كي تتقاعد فيه أيامَ شيخوختها. كانت تتباهى بأنّها السيّدة الشرقية الأولى التي لها أفضل علاقة ليس مع الصينيين وحسب، بل مع الأمريكيين أصحاب النفوذ أيضاً. درّبت فتياتها على استخراج المعلومات وهكذا عرفت الأسرار الشخصيّة، المناورات السياسيّة ونقاط ضعف رجالات السلطة. إذا فشلت الرشاوى استخدمت الابتزاز الفضائحي. لا أحد تجرّأ على تحدّيها لأنّ سقفَ الجميع بدءاً من الحاكم وصولاً إلى ما تحته مصنوع من زجاج. كانت التوصيات على العبدات تمرّ بميناء سان فرانسيسكو دون عوائق قانونية وفي وضح النهار. ومع ذلك لم تكن التاجرة الوحيدة، فالفساد باتَ في التجارات الأكثر ربحاً وضماناً في كاليفورنيا تماماً كما في مناجم الذهب. النفقات تُقلّص إلى حدودها الدنيا، فالطفلات رخيصات ويسافرن في عنابر السفن ضمن

صناديق مجدولة كبيرة. هكذا كنّ ينتصرن على الموت طوال أسابيع، دون أن يعلمن إلى أين يذهبن ولا لماذا، ولا يرين نور الشمس إلا حين يأتي دورهن في دروس المهنة. يأخذ البحارة على عاتقهم أمر تدريبهنّ خلال فترة العبور، وما أن يهبطن في سان فرانسيسكو حتى يفقدن آخر خيوط البراءة. بعضهنّ كنّ يمتن بالزحار، أو الكوليرا، أو التجفاف، وبعضهنّ استطاع القفز إلى الماء في اللحظات التي كانوا يصعدون بهنّ إلى المتن لغسلهنّ بماء البحر، أمّا البقيّة فيبقين محاصرات، لا يتكلّمن الإنكليزيّة، لا يعرفن تلك الأرض الجديدة، وليس لديهن من يلجأن إليه. وكلاء الهجرة يتلقون رشاوى، يغضون النظر عن مظهر الفتيات، ويختمون دون أن يقرؤوا أوراق التبني أو الزواج المزوّرة. تستقبلهنّ في الميناء عاهرة قديمة، تركت المهنة عندها حجراً أسود بدل القلب. تسوقهنّ كالبهائم بالقضيب وسط المدينة أمام أعين من يشاء النظر. وما أن يعبرن عتبة الحي الصيني حتى يختفين للأبد في المتاهة السفلية للغرف الخفيّة والممرات المزيّفة والأدراج الملتوية والأبواب السرّية والجدران المضاعفة، حيث لا تُفتّش الشرطة أبداً لأنّ كلّ ما كان يجري هناك من «عمل صُفر»، عرق الفاسدين الذين لا حاجة للدخول معهم في مشاكل، هكذا كانوا يفكرون.

في حظارٍ هائلٍ تحت الأرض يدعى للسخرية « قاعة الملكة» تلاقي الفتيات قدرهنّ. يتركونهنّ يرتحن ليلةً، يُحمّمونهنّ، يُطعِمونَهنَّ ويجبرونهنّ أحياناً على اجتراع كأس من المشروب الروحيّ لتدويخهنّ قليلاً. وفي الساعة المحدّدة يقودونهنّ عارياتٍ إلى غرفة مزدحمة بالمشترين من كل الأنواع التي يمكن تصوّرها. يجسّونهنّ، يتفحصون أسنانهنّ، يُدخِلون أصابعهم حيث يخطر لهم وبعدها يقدمون عروضهم. بعضهنّ يُرسلن إلى مواخير أعلى درجة أو إلى حريم الأثرياء، والأكثر قوّة ينتهين عادة إلى أيدي الصناعِيين، المعدّنين، أو الفلاحين الصينيين، الذين سيعملن لحسابهم بقيّة حياتهنّ القصيرة. الغالبية يبقينَ في غرف الحي الصيني. تُعلّمهنّ العجائز المهنة: عليهنّ أن يتعلّمن تمييزَ الذهب عن البرونز كيلا يغشونهنّ عند الدفع، وجذبَ الزبائن وإمتاعِهم دون تذمّر مهما كانت

طلباتهم مهينة أو مؤلمة، ولإضفاء الشرعية على الصفقات كنّ يوقّعن عقوداً لا يعرفن قراءتها، بائعاتٍ أنفسهنّ لخمس سنواتٍ، لكنّها محسوبة جيّداً بحيث أنّهنّ لا يستطعن التحرّر أبداً. مقابل كلّ يوم مرضٍ يُضاف أسبوعان لمدّة خدمتهنّ، وإذا ما حاولن الهرب تحوّلن إلى عبدات للأبد. يعشن مكدّسات في غرفٍ بلا تهوية، يفصل بينها ستائر سميكة، ويعملن مثل الزوارق حتى يمتن. إلى هناك توجّه تاو شيين في ذلك الصباح ترافقه روح لين ومعلّمه بالوخز بالإبر. مراهِقة لا تكاد ترتدي قميصاً قادته من يده إلى ماوراء الستارة حيث توجد خرقة بالية، مطّت يدها وقالت له أن يدفع أوّلاً. تلقّت الدولارات الست ثمّ استلقت على ظهرها وفتحت ساقيها وعيناها عالقتان بالسقف. كان بؤبؤاها ميتين وتتنفّس بصعوبة: فهم أنّها مخدّرة. جلس بجانبها، انزل القميص وحاول أن يُداعب رأسها، لكنّها أطلقت صرخة وانكمشت وكشّرت عن أسنانها مستعدّة للعضّ. ابتعد تاو شيين، كلّمها مطوّلا بالكانتونية، دون أن يلمسَها، إلى أن سكنت ابتهالات صوتها، بينما راح يراقب رضوضها الحديثة. أخيراً بدأت تردّ على أسئلته بإيماءات أكثر مما بكلمات، كما لو أنّها فقدت استخدام اللغة وهكذا علم ببعض تفاصيل اختطافها. لم تستطع أن تقول له كم مضى عليها هناك، لأنّ قياس الزمن غير مجدٍ، لكن يجب ألا يكون طويلاً، لأنّها ما تزال تتذكر أسرتها في الصين بدقّةٍ مؤسفة.

عندما قدّر تاو شيين أنّ دوره خلف الستارة قد انتهى، انسحب. في الباب كانت تنتظره العجوز ذاتها التي استقبلته الليلة السابقة، لكنها لم تظهر علائم تدل على معرفته. من هناك ذهب ليسأل في الحانات، وصالات القمار وتدخين الأفيون، ثم انطلق أخيراً لزيارة أطباء آخرين في الحي إلى أن استطاع تركيب قطع ذلك اللغز شيئاً فشيئاً. حين تبلغ *فتيات سينغ سونغ* من المرض أشدّه ولا يستطعن ممارسة مهنتهنّ، يقودونهنّ إلى «المشفى» كما يسمون الغرف السرية حيث حضر الليلة الفائتة، فيتركونهنّ هناك مع فنجان من الماء وقليل من الأرز وقنديل من الزيت لعدّة ساعاتٍ. يعودُ البابُ ليُفتح بعد أيّامٍ، ليتأكّدوا من تحقّق الموت. فإذا وجدن على قيد

الحياة، أخذوا على عاتقهم تصفيتهنّ: ما من واحدة منهنّ تعودُ لترى نورَ الشمس. وقد طلبوا تاو شيين لأنّ *الزهونغ* يي المُعتاد كان غائباً.

لم تكن فكرة مساعدة الفتيات فكرته، كما قال بعد تسعة أشهر لإليثا، بل فكرة لين ومُعلّمه في وخز الإبر.

- كاليفورنيا ولاية حرّة، يا تاو، لا يوجد عبيد، اعتمدْ على السلطات الأمريكية.

- الحرّية لا تكفي الجميع. الأمريكيون صمّ بكم، يا إليثا. أولئك الطفلات خفيّات، كالمجانين، والمتسوّلين والكلاب.

- ألا يهمّ الأمر الصينيين أيضاً؟

- يهمّ بعضهم، مثلي، لكن ما من أحد مستعدّ للمُجازفة بحياته بتحدّي المنظمات الإجرامية. الغالبية تعتبر أنّ هذا إذا كان قد مُورِسَ لقرون في الصين فلا داعي لنقد ما يجري هنا.

- يا لهم من أناس قساة!

- ليست قسوة، المسألة أنّ الحياة لا قيمة لها في بلدي. إذ يوجد أناس كثيرون ودائماً يولَد أطفال أكثر مما يمكن تغذيتهم.

- لكنّ تلك الطفلات لسن سقط متاع، يا تاو...

- لا. أنتِ ولين علّمتماني الكثير حول النساء.

- وماذا ستفعل؟

- كان عليّ أن أصغي إليكِ حين أَشَرْتَ عليَّ أن أبحث عن الذهب. هل تذكرين؟ لو كنتُ غنيّاً لاشتريتهنَّ.

- لكنّك لست كذلك. ثمّ إنّ ذهب كاليفورنيا كلّه لا يكفي لشراء واحدة منهنّ. يجبُ منع التجارة.

- هذا مُحال. لكنّك إذا ساعدتني استطعتُ إنقاذ بعضهنّ...

حكى لها أنّه استطاع في الأشهر الأخيرة إنقاذ إحدى عشرة فتاة. اثنتان منهنّ فقط بقيتا على قيد الحياة. صيغته كانت تنطوي على المجازفة وقليلة الفاعلية، لكنّه لا يستطيع تصوّر أخرى. عرض نفسه لمعالجتهنّ مجّاناً حين يكنّ مريضاتٍ أو حوامِل، مُقابِل تسليمه

المُحتَضَرات. رشا النساء القبيحات كي ينادينه حين تحين لحظة نقل إحدى *فتيات سينغ سونغ* إلى «المشفى» ليحضر عندئذٍ مع مساعده ويضعا المريضة على محفّة ويحملاها. «للاختبار»، كان تاو شيين يُوضِّح، على الرغم من أنّهم نادراً ما يسألونه. فالفتاة ما عاد لها أيّة قيمة، وانحراف هذا الطبيب الشاذ يوفّر عليهم مشكلة التخلّص منهنّ. فالصفقة مفيدة لكلا الجانبين. يسلّم تاو شيين قبل نقل المريضة شهادةَ وفاة، ويطالب بإعادة عقد الخدمة الموقّع من الفتاة، كي يتفادى المُطالَبة بهنّ. في تسع حالات كانت الفتيات بعيدات عن أيّ شكل من أشكال الفَرَج، واقتصر دوره على إقامة أودهنّ في ساعاتهنّ الأخيرة، لكن اثنتَين تجاوزتا الموت.

ـ وماذا فعلت بهما؟ ـ سألت إليثا.

ـ إنهما في غرفتي. ما زالتا ضعيفتين، واحدة منهما نصف مجنونة، لكنّهما ستتجاوبان. بقي مساعدي لرعايتهما بينما جئت أنا للبحث عنك.

ـ أرى ذلك.

ـ لا أستطيع الإبقاء عليهما محبوسات لزمن أطول.

ـ ربّما استطعنا إعادتهما إلى أسرتيهما في الصين...

ـ لا، ستعودان للعبوديّة. في هذا البلد يمكن أن تُنقَذا، لكنّني لاأدري كيف.

ـ إذا لم تساعدنا السلطات فالناس الطيبون سيفعلون. هيا بنا نلجأ إلى الكنائس ورجال البعثات التبشيرية.

ـ لا أظنّ أن أمر هؤلاء الفتيات الصينيات يهمّ المسيحيين.

ـ ما أقلّ ثقتك بالقلب البشري، يا تاو!

تركت إليثا صديقها يتناول الشاي مع رومبُوسوس، ولفّت واحداً من أرغفة خبزها الطازجة ثمّ مضت لزيارة الحدّاد. وجدت جيمس مورتون نصف عارٍ بمئزر وخرقة مشدودة إلى رأسه، يتصبّبُ عرقاً أمام الكور. في الداخل حرٌّ لا يُطاقُ. وهناك رائحة دخان ومعدن حامٍ. إنّه عنبر خشبي أرضه من تراب وباب مزدوج

يبقى مفتوحاً صيفاً وشتاءً خلال ساعات العمل. ترتفع أمامه طاولة عرضٍ لتلبية حاجات الزبائن وخلفها الكور. وتتدلّى أدوات المهنة على الجدران ومن دعائم السقف، معدّات، وحدوات من صنع مورتون. في القسم الخلفي سلّم محمول يؤدّي إلى العلية التي تستخدم كغرفة للنوم محميّة من عيون الزبائن بستارة أوسنابورغية مشمّعة. الأثاث في الأسفل يتكوّن من طشت للاستحمام وطاولة وكرسيين، والديكور الوحيد علمٌ أمريكيّ على الجدار وثلاث زهرات بريّة في كأس على الطاولة. كانت إستر تكوي جبلاً من الغسيل، هازّة كرشاً هائلاً ومستحمّة بالعرق، لكنّها ترفع مكاوي الفحم الثقيلة مُدندنةً. لقد جمّلها الحب والحملُ وأضاءت وجهها مسحة من سلام مثل هالة. كانت تغسل ملابس الغير، وهو عمل لايقل قسوة عن عمل زوجها بالمطرقة والسندان. تُحمِّل عربة بالثياب المتسخة ثلاث مرّاتٍ، تذهب بها إلى النهر وتقضي قسماً جيّداً من النهار على ركبتيها تصوبن وتفرشي. إذا توافرت الشمس جفّفت الغسيل على الحجارة، لكنّها غالباً ما تعود بها مبلّلة وسرعان ما تأتي مهمّة التنشية والكي. لم يتمكّن جيمس مورتون من إزاحتها عن إصرارها، فهي لم تكن تبغي لولدها أن يولَد في ذلك المكان، لذلك يوفّر كلّ سنتيم كي ينقل أسرته إلى بيت في القرية.

ـ التشيليّ الصغير! هتفت ومضت لعناق إليثا ضامّةً وشادّةً ـ مضى زمن طويل لم تأتِ فيه لزيارتي.

ـ ما أجملك، يا إستر! في الحقيقة جئتُ لمقابلة جيمس ـ قالت وأعطتها الخبز.

ترك الرجلُ عدّته، جفَّفَ عرقَهُ بقطعة قماش وحمل إليثا إلى الفناء، حيث انضمّت إليهما إستر حاملة معها ثلاث كؤوس عصير ليمون. كان المساء رطباً والسماء غائمة، لكنّ الشتاء لم يُعلن عن قدومه بعد. وفي الهواء رائحة قشّ حصِد توّاً وترابٍ رطب.

خواكين

في شتاء عام 1852 أكل سكّان شمال كاليفورنيا درّاقاً، مشمشاً، عنباً، ذرة طريّة، جبساً وبطيخاً بينما استسلم الناس في نيويورك وواشنطن وبوسطن لندرة الموسم. كانت بواخر باولينا تنقل من تشيلي أطايب صيف نصف الكرة الجنوبي، التي تصل سليمة في أسرّة من الجليد الأزرق. أظهرت هذه التجارة بالنتيجة أنّها أفضل من ذهب زوجها وأخيه بكثير، على الرغم من أنّه ما عاد هناك من يدفع ثلاثة دولارات مقابل حبّة درّاق ولا عشرة مقابل اثني عشرة بيضة. العمّال التشيليون الذي أسكنهم الأخوان رودريغث دِ سانتا كروث على ضفاف شذرات الذهب أبادهم الغرينغويون. سلبوهم عمل أشهر وأعدموا ناظريهم، جلدوا وقطعوا آذان بعضهم وطردوا بقيّة الغاسلين. ظهرت الواقعة في الصحف، لكنّ التفاصيل المرعبة رواها طفل في الثامنة من عمره، هو ابن أحد الناظرين، كان من نصيبه أن يشهد توسّلَ وموتَ والدِهِ. كذلك راحت بواخر باولينا تأتي بفرق المسرح من لندن، والأوبرا من ميلانو والثرثويلا من مدريد، يحضرون لفترة قصيرة إلى بالبارايسو ثمّ يتابعون طريقهم باتجاه الشمال، حيث تُباع التذاكر قبل أشهر؛ وفي أيّام العروض يتواعدُ عليّة المجتمع وقد ارتدوا أحسن ثيابهم في المسارح، لكن عليهم أن يجلسوا كتفاً إلى كتف مع المعدّنين الأفظاظ وهم في ثياب عملهم. لم تكن البواخر تعودُ فارغةً: بل تحمل معها طحيناً أمريكياً إلى تشيلي ومسافرين شُفوا من وهم الذهب، يعودون فقراء كما جاؤوا.

في سان فرانسيسكو يمكن رؤية كلّ شيء إلا العجائز، إذ أنّ السكان شبّان أقوياء، صاخبون ومعافون. فالذهب شدَّ فيلقاً من المغامرين العشرينيين، لكنّ الحمّى ولّت والمدينة كما تنبّأت باولينا لم تعد إلى حالتها كقرية، بل على العكس راحت تنمو بتطلعات إلى الرقيّ والثقافة. وكانت باولينا في محيطها الطبيعي في ذلك الجوّ، تحبّ المرح، الحريّةَ والتباهي بالمجتمع الناشئ، المتناقض تماماً مع نفاق تشيلي. تفكّر بالغيظ الذي سيُعاني منه والدها لو اضطرّ للجلوس إلى طاولة واحدة مع متنبّئ فاسدٍ صار قاضياً، وفرنسية مشكوك بمحتِدها مزيّنة مثل إمبراطورة. كانت قد ترعرعت بين جدران الطوب السميكة والنوافذ المحدّدة بالقضبان لبيت أبيها، تنظر إلى الماضي حيث انساقت لرأي الآخرين والعقوبات الإلهية؛ في كاليفورنيا لا الماضي ولا الوساوس يُحسب حسابها، الغرابة يُرحّب بها والخطيئة لا وجود لها إذا ما سترت الغلطة. تكتب رسائل إلى أخواتها دون أملٍ كبيرٍ في أن تمرّ على رقابة والدها لتحكي لهنّ عن ذلك البلد الرائع، حيث يمكن ابتداءُ حياةٍ جديدة والعودة مليونيريين أو شحاذين بلمح البصر. إنّها أرض الفرص المتاحة المفتوحة والسخيّة. عبر بوابة غولْدِن غات حشود من البشر يصلون هاربين من الفاقة والعنف، مستعدّين لمحو الماضي والعمل. لم يكن ذلك سهلاً، لكنّ الأسلاف سيكونون أمريكيين. روعة هذا البلد هي إيمان الجميع بأنّ أبناءهم سيحظون بحياة أفضل. «الزراعة هي الذهبُ الحقيقيُّ في كاليفورنيا، والنظر يضيعُ في السهوبِ الفسيحة المزروعة، كلّ شيء ينمو باندفاع في هذه الأرض المباركَة. لقد أصبحت سان فرانسيسكو مدينةً رائعةً، لكنّها لم تفقد ميزتها كموقع حدودي، وهو الشيء الذي يسحرني. ما زالت مهد المفكرين الأحرار، وأصحاب الرؤى والأبطال والقوّادين. يأتيها أناس من أقصى ضفاف العالم، وتُسمع في الشارع مئاتُ اللغاتِ وتُشمُّ رائحةُ مأكولات خمس قارّاتٍ، وتُشاهَدُ جميعُ الأعراق» هكذا كتبت. ما عادت مُخيَّمَ رجالٍ منفردين، لقد وصلت نساء فتبدَّل المجتمعُ. وكنّ عصيّات على الترويض مثلهنّ مثل المغامرين الذين وفدوا بحثاً عن الذهب، فاجتياز القارّة في عرباتٍ تجرّها ثيران يتطلّب روحاً خشنة

وأولئك الطليعيات ملكنها. لا شيء فيهنَّ من السيدات المغناجات كأمّها وأخواتها، فهناك تسود الأمازونيات من أمثالِها. ويوماً بعد يومٍ رحن يكشفن عن عريكتهنّ، ينافسن بلا كللٍ وبعنادٍ أشجعَ الشّجعان، لا أحد وصفهنّ بالجنس الضعيف، والرجالُ يحترمونهنّ كمساويات لهم. يعملن في مهن محرّمة عليهنّ في أماكن أخرى: يبحثن عن الذهب، يُستَخدمن كراعيات بقرٍ، يسقن بغالاً، يصطدن قطّاعَ طرقٍ للحصول على الجوائز، يُدرن مقامرَ ومطاعم ومواخير وفنادِق. «وتستطيع النساءِ هنا امتلاك أراضٍ وشراء وبيع ممتلكات، والطلاق إذا خطر لهنّ فعلاً. على فِليثيانو أن يكون في غاية الحذر، لأنّه عند أوّل خديعة يرتكبها معي سأتركه وحيداً وفقيراً» هكذا كانت تسخر باولينا في رسائلها. وتضيف أنّ كاليفورنيا تملك الأفضل بين الأسوأ: جرذان، براغيث، أسلحة ورذائل.

ويكتب جاكوب فريمونت في الصحيفة: «يأتي الواحدُ من الغرب ليهربَ من الماضي ويبدأ من جديد، لكنّ هوسنا يُلاحِقُنا، مثل الريح». وكان هو مثلاً جيّداً على ذلك، إذ لم يفِده كثيراً تغيير اسمه، والتحول إلى كاتب تحقيقاتٍ وارتداء ملابس اليانكي، فهو لم يتبدّل. أكذوبة إرساليات التبشير في بالبارايسو بقيت في الخلف، لكنّه يرتّب الآن أخرى ويشعر كما في السابق بأنّ بدعته تسيطر عليه وراح يغرق بلا عودة في نقاط ضعفه ذاتها. صارت مقالاته عن خواكين مورِيِتا هوس الصحافة. ففي كلِّ يومٍ تنبثق شهادات جديدة غريبة تؤكّد صحّة كلامه: عشرات الأشخاصِ يؤكّدون أنّهم رأوه ويصفونه تماماً كما ابتدعه. لم يعد فريمونت واثقاً من شيء. تمنّى لو أنّه لم يكتب تلك القصص أبداً، وخطر له في بعض اللحظات التراجع والاعتراف بتزويراته والاختفاء، قبل أن تخرج الأمورُ من يده وتسقط فوقه مثل ريح شديدة، كما حدث في تشيلي، لكنه لم يكن يملك الشجاعة لفعل ذلك. فقد صعد الصيتُ إلى رأسه وأصيب بدوار الشهرة.

كان للقصّة التي راح جاكوب فريمونت يبنيها خصائص قصّة طويلة عديمة الذوق. روى أنّ خواكين موريِتا فتى مستقيم ونبيل،

يعمل بشرف في قصور ستانيسلاو برفقة خطيبته. وحين سمعوا بازدهاره، هاجمه بعض الأمريكيين، سلبوه الذهب، ضربوه ثمّ اغتصبوا خطيبته. لم يبق أمام الزوجين البائسين من طريق غير الهرب فانطلقا نحو الشمال، بعيداً عن مغاسل الذهب. استقرّا كمزارعين يزرعان قطعة من الأرض محاطة بالغابات يشقّها جدول رقراق، يقول فريمونت، لكنهما لم يحظيا بالسلام هناك، لأنّ اليانكيين وصلوا من جديد ليسلبوهما ما عندهما واضطرا للبحث من جديد عن طريقة للعيش. بعد قليل ظهر خواكين مورْيِتا في كالابيراس وقد تحوّل إلى لاعب مونتِ بينما زوجته تُعدّ لحفلةِ الزواج في بيت والديها في سونورا. إنما مكتوبٌ على الشاب ألا يرتاح في أيِّ مكان. اتهموه بسرقة حصان، ودون أيّة إجراءات أخرى ربطه غرينغويون إلى شجرة وجلدوه بوحشيةٍ وسطَ الساحة. كانت الإهانة العامّة أكثر مما يستطيع أن يتحمّله شابٌ ذو كبرياء، فدار قلبه دورة. بعد فترة عثروا على يانكيّ مُقطّعاً مثل فرّوجٍ للطبخ، وحين جمّعوا القطع عرفوا فيه واحداً من الرجال الذين أذلّوا مورْيِتا بالسياط. في الأسابيع التالية راح يسقط المشاركون واحداً تلو الآخر، وكلّ واحد مُعذّب ومقتول بطريقة جديدة. لم تُرَ قط، كما كان يقول جاكوب فريمونت في مقالاته، وحشيّة كهذه في أرض الناس المتوحشين تلك. ظهر اسم اللص خلال السنوات التالية في كلّ مكان. راحت عصابته تسرقُ القطعان والخيول وتهاجم عربات النقل، تُداهمُ مُعدِّني ضفاف شذرات الذهب والمسافرين على الطرقات، تتحدّى المُحضرين، تقتل كلَّ أمريكيّ تقع عليه غافلاً وتسخر من العدالة بلا عقاب. عزوا إلى مورْيِتا كلّ أعمال التعسّف والجرائم غير المعاقَبِ عليها في كاليفورنيا، والأرض صالحة للاختفاء، إذ يكثر فيها صيد الماء والبرّ بين الغابات والمزيد من الغابات، الهضاب والأغوار، والمراعي المرتفعة، حيث يستطيعُ فارسٌ أن يخب لساعاتٍ دون أن يترك أثراً. كهوف عميقة للاحتماء، وممرّات سرّية في الجبال لتضليل الملاحِقين. حملات الرجال التي تخرج بحثاً عن

المجرمين تعود بخفّي حنين أو يموت أفرادها في المحاولة. كلّ ذلك كان يرويه جاكوب فريمونت مشوّشاً في بلاغته، ولم يخطر لأحد أن يُطالِبه بالأسماء والتواريخ والأماكن.

كان قد مضى على إليثا سومّرز عامان وهي تعمل في سان فرانسيسكو مع تاو شيين. خرجت خلال هذا الزمن مرَّتين في الصيفين بحثاً عن خواكين أنديِتا، متبعة الأسلوب السابق ذاته: الانضمام إلى مسافرين آخرين. في المرّة الأولى خرجت بفكرة السفر كي تعثر عليه أو حتى يبدأ الشتاء، لكنّها عادت بعد أربعة أشهر منهكة مريضة. رحلت في صيف 1852 من جديد، لكن بعد أن كرَّرت رحلتها الأولى وزيارة جو رومبُوسوس، التي استقرّت نهائياً على دورها كجدّة لتوم بلا قبيلة وزيارة جيمس وإستِر اللذين كانا ينتظران الولد الثاني، عادت بعد خمسة أسابيع لأنّها لم تتحمّل ضيق الابتعاد عن تاو شيين. فهما مرتاحان في رتابتهما متآخيان في العمل وقريبان في الروح مثل زوجين قديمين. هي تجمع كلّ ما يُنشَرُ عن خواكين مورْيِتا وتحفظه عن ظهر قلبٍ تماماً كما فعلت بأشعار الآنسة روز في طفولتها، لكنّها فضّلت تجاهل الإشارات إلى خطيبة قاطِع الطريق. «ابتدعوا هذه الفتاة كي يبيعوا الصحفَ، فأنت تعرف كيف يُسحَرُ الجمهور بالرومانسيات» هكذا وضّحت لتاو شيين. كانت ترسم على خريطة مهشّمة خطوات مورْيِتا بدقّة بحار، لكن المعلومات المتوافرة مبهمة ومتناقِضة، فالدروب تتقاطع مثل نسيج عنكبوت مشوّش، لا تقود إلى مكان. ومع أنّها رفضت في البداية القبول بأنّ خواكين الذي ينتمي إليها هو نفسه صاحب الاعتداءات المرعبة، سرعان ما اقتنعت بأنّ الشخصيّة تنطبق تماماً على فتى ذكرياتها. فهو أيضاً كان يتمرّد على التمادي ومهووساً بمساعدة المعوزين. ربّما لم يكن خواكين مورْيِتا من يُعذّب ضحاياه، بل أتباعه، مثل جاك ذي الأصابع الثلاث، الذي يمكن أن يُصدَّق عنه أيّ عملٍ وحشيّ.

بقيت بلباس الرجل، لأنّه يُفيدها للتخفي، الضروري في مهمّة *فتيات سينغ سونغ* الفظيعة التي زجّها فيها تاو شيين. مضى عليها ثلاثة أعوام لم تلبس ثوب امرأة ولم تعرف شيئاً عن الآنسة روز وماما فرِسيا أو عن عمّها جون، بدت هذه الأعوام كأنها ألف سنة تتبع فيها وهماً هو في كلّ مرّة أقلّ احتمالاً. زمن عناقاتها المختلسة مع حبيبها ابتعد إلى الوراء كثيراً، ما عادت واثقة من مشاعرها، لا تدري ما إذا كانت تستمرّ بانتظاره حبّاً أو كبرياءً؛ إذ تمضي أسابيعٌ أحياناً دون أن تتذكّره، ساهية في العمل، لكن سرعان ما تغرزُ الذاكرةُ مخالبَها فيها وتتركها ترتعد. فتنظر حولها مرتبكة، دون أن تستطيع تحديد الموقع الذي انتهت إليه في هذا العالم. ماذا تفعل مرتديةً بنطلوناً ومحاطة بصينيين. كانت تحتاج لجهد كي تنفض عنها هذا الاختلاط وتتذكّر أنّها هناك لعدم تسامح الحب. لم تكن مهمّتها مساعدة تاو شيين إطلاقاً، كما فكّرت، بل البحث عن خواكين، لهذا جاءت من كلّ ذاك البعد، وستبقى تفعل حتى ولو لمجرّد أن تقول له وجهاً لوجهٍ إنّه مرتدّ ملعون وقد دمّر حياتها. لذلك خرجت في المرات الثلاث السابقة، ومع ذلك تخونها الإرادة لتحاول ذلك من جديد. تنتصب أمام تاو شيين لتعلن له عن عزمها بالاستمرار في أسفارها، لكنّ الكلمات تتشابك في فمها مثل الرمل؛ ولا يعود باستطاعتها هجر ذلك الرفيق الغريب الذي خرج لها باليانصيب.

ـ ماذا ستفعلين إذا عثرت عليه؟ سألها تاو شيين ذات مرّة.

ـ حين أراه سأعرف إن كنتُ ما أزالُ أُحبّه.

ـ وماذا لو لم تعثري عليه أبداً؟

ـ سأعيش في الشكّ كما أفترض.

لاحظت عدداً من الشعرات الشائبة المبكرة في صدغي صديقها. إغواء الغوص بأصابعها في ذلك الشعر الأسود الكثيف، أو دسّ أنفها في عنقه لتشمّ رائحة المحيط الخفيفة عن قربٍ أصبحت غير

محتملة، لكن ماعاد هناك من ذريعة كي يناما على الأرض ملفوفين في البطانية، وفرصة التلامس ستنعدم. تاو يعمل ويدرس أكثر من اللازم، وتستطيع أن تتكهّن كم هو تعِب مع أنّه دائماً يحضر تامّاً ويحافِظ على هدوئه حتى في أكثر اللحظات حرجاً. فلا يتعثّر إلا حين يعود من مزايدة ممسِكاً بفتاة مذعورةٍ من ذراعها. يتفحّصها ليعرف الوضع الذي هي فيه ويسلمها إليها مع التعليمات الضروريّة، ينغلق بعدها على نفسه لساعات. «إنّه مع لين» تستخلِص إليثا وألمٌ لا تفسير له ينغرز في مكانٍ مجهول من روحها. وبالفعل يكون معها. كان تاو شيين يُحاوِلُ في تأمله الصامت استعادةَ الاستقرار الضائع والتخلّص من إغواء الكراهية والغضب. يمضي متخلّصاً شيئاً فشيئاً من ذكرياته، رغباته وتفكيره، إلى أن يشعر بجسده يذوب في العدم. لا يعود له وجود خلال زمن حتى يظهر وقد صار نسراً، يُحلّقُ عالياً دون أيِّ جهدٍ، يحمله هواء بارد نقيّ، ويرفعه فوق أعلى الجبال. من هناك يستطيع أن يرى مروجاً فسيحةً، غابات مترامية الأطراف وأنهاراً من فضّةٍ خالِصة. حيث يُدرِكُ الانسجام التامَّ ويعزف على السماء والأرض كآلة ناعمة. يطفو بين غيوم حليبيّة بأجنحته الشامخة المنشورة وفجأة يشعر بها معه. تتجسّد لين بجانبه، نسراً آخر زاهياً عالقاً في السماء اللامتناهية.

ـ أين سعادتك، يا تاو؟ تسأله.

ـ العالم مليء بالمعاناة، يا لين.

ـ للعذاب غاية روحية.

ـ هذا محض ألم غير مجدٍ.

ـ تذكّرْ أنّ العالِمَ سعيد دائماً، لأنّه يقبل الواقع.

ـ والشرّ، هل يجب قبوله أيضاً؟

ـ الترياقُ الوحيد هو الحبّ. بالمناسبة: متى ستعود لتتزوّج؟

ـ أنا متزوِّجٌ منك.

ـ أنا طيفٌ ولا أستطيع أن أزورك طوال حياتك، يا تاو. إنّه لجهد هائل المجيء إليك كلّما ناديتني، ما عدت أنتمي إلى عالمك. تزوّج أو أنّك ستشيخ قبل الأوان. ثم إنك إذا لم تُمارِس وضعيات الحب المئتين واثنتين وعشرين ستنساها ـ كانت تسخر منه بضحكتها البلوريّة التي لا تُنسى.

كان رسو المزادات أسوأ من زياراته إلى «المشفى» بكثير. فالأمل بإنقاذ الفتيات المُحتَضَرات نادر إلى حدٍّ أنّه إذا حدث اعتُبِرَ هديّة عجائبية. وهو يعرف أنّه مقابل كلّ واحدة يشتريها في مزادٍ تبقى هناك عشرات محسوباتٍ على العار. يتعذّب وهو يتخيّل كم يستطيع أن يحرِّر لو كان غنياً، حتى تذكِّره إليثا باللواتي يُنقِذهنَّ. كانا متحدين بنسيج رقيق من الهوايات والأسرار المشتركة، لكنّهما مفصولان أيضاً بوساوِسَ متبادَلة. طيف خواكين أنديتا راح يبتعد بينما طيف لين محسوس مثل نسمةٍ أو صوتِ الأمواج على الشطّ. يكفي تاو شيين استحضارها حتى تأتي باسمةً دائماً، كما كانت في حياتِها. ومع ذلك وبدل أن تتحوّل إلى خصم لإليثا صارت حليفتها، وإن لم تعرف الفتاة بعد. لين أوّل من فهم أنّ تلك الصداقة تشبه الحبَّ أكثر من اللازم، وحين فنّدها زوجها بحجّة أنّه لا وجود في الصين أو تشيلي أو في أيّ مكان لمثل هذين الزوجين، تعودُ وتضحك.

ـ لا تقلْ حماقات، العالم كبير والحياة طويلة. كلّ شيء يتعلّق بالإقدام.

ـ لا يمكنك أن تتصوّري ما هي العنصريّة، يا لين، فأنتِ عشتِ دائماً بين قومك. هنا لا أحد يهمّه ما أفعل أو ما أعرف. فأنا بالنسبة إلى الأمريكيين مجرّد صيني كافر مقرف وإليثا مزيّتة. وفي تشيناتاون أنا مرتدّ دون جديلة وأرتدي لباس اليانكي. لا أنتمي إلى أيّ من الجانبين.

ـ العنصرية ليست شيئاً جديداً، في الصين أنا وأنت كنّا نُفكِّرُ أن *الفان غوي* جميعهم وحوش.

ـ هنا لا يحترمون إلا المال وأنا كما يبدو لن أملك منه ما يكفي.

ـ أنت مخطئ. إنّهم يحترمون من يجعلهم يحترمونه. انظر إلى عيونهم.

ـ إذا اتبعتُ هذه النصيحة سيطلقون عليّ رصاصة عند أيّة زاوية.

ـ الأمر يستحق التجريب. أنت تشكو أكثر من اللازم، يا تاو، لا أعرفك. أين الرجل الشجاع الذي أُحِبّ؟

على تاو شيين الاعتراف بأنّه مشدود إلى إليثا بخيوط رقيقة لا متناهية، من السهل قصّها واحداً واحداً، لكن وبما أنّها متشابكة فقد شكّلت حبلاً لا يُقطع. يعرفان الواحدُ الآخر منذ سنواتٍ قليلة، لكن صار باستطاعتهما النظر إلى الخلف ورؤية الطريق الطويل المليء بالعوائق الذي قطعاه معاً. التشابهات راحت تمحو الاختلافات العرقية. «لكِ وجه صينية جميل» قال لها في لحظة سهو. «لك وجه فتى تشيلي وسيم» ردّت عليه في الحال. شكّلا زوجاً غريباً في الحي: صيني طويل أنيق مع فتى إسباني تافه. ومع ذلك كانا يمرّان خارج تشيناتاون لا يكادان يُلحَظان بين حشود سان فرانسيسكو متعدّدة الأجناس.

ـ لا تستطيعين انتظار هذا الرجل إلى الأبد، يا إليثا. إنّه نوع من الجنون، مثل حمّى الذهب. يجب أن تضعي لنفسك مدّة محدّدة ـ قال لها تاو ذات يوم.

ـ وماذا أفعل بحياتي بعد انتهاء المدّة المحدّدة؟

ـ تستطيعين العودة إلى بلدكِ.

ـ إن امرأة مثلي في تشيلي أسوأ من واحدة من *فتيات سينغ سونغ* هنا. هل تستطيع أنت العودة إلى الصين؟

ـ كانت تلك غايتي الوحيدة، لكن بدأت أُعجَبُ بأمريكا. هناك سأعود الابن الرابعَ، أنا هنا أفضل.

ـ وأنا أيضاً. إذا لم أعثر على خواكين سأبقى وأفتح مطعماً. عندي ما يحتاجه: ذاكرةٌ جيّدةٌ لوصفات الطعام، ودٌّ للمكوِّنات، حسٌّ للذوق والملمس، وغريزةٌ للتتبيل...

ـ وتواضع ـ ضحك تاو شيين.

ـ ولماذا سأكون متواضعة مع فطنتي؟ ثمَّ إنَّ عندي حاسّة شمِّ كلب. لشيء ما يجب أن يُفيدني هذا الأنف الجيّد: يكفي أن أشمَّ صحناً لأعرف ماذا يضمّ وأصنع أفضل منه.

ـ لن يجديك مع الطعام الصيني...

ـ أنتم تأكلون أشياء غريبة، يا تاو! مطعمي سيكون فرنسياً، والأفضل في المدينة.

ـ أقترح عليك عقداً، يا إليثا. إذا أنت لم تعثري على هذا الخواكين خلال عام تتزوّجين منّي ـ قال تاو شيين وضحكا معاً.

بدءاً من هذا الحوار شيء ما تبدّل بين الاثنين. شعرا بعدم الراحة إذا وُجِدا وحيدين، ومع أنّهما يرغبان بذلك بدأا يتفاديانه. كثيراً ما عذّبت تاو شيين الرغبةُ باللحاق بها حين تنسحب إلى غرفتها، لكنّ خليطاً من الخوف والاحترام كان يوقفه؛ يُقدِّر أنها ما دامت متعلقة بذكرى حبيبها القديم عليه ألا يقترب منها، لكنّه أيضاً لا يستطيع الاستمرار بالتوازن على حبل رخوٍ لزمنٍ لا نهائي. كان يتصوّرها في سريرها، تعدُّ الساعات في صمت الليل المترقب، أرِقةً حبّاً بدورها، لكن ليس لأجله، بل لأجلِ آخر. إنّه يعرفُ جسدها جيّداً بحيث يستطيع رسمه بالتفصيل حتى بشامته السرّية، مع أنّه لم يرها عارية منذ اعتنى بها في السفينة. يخطر له أنّها لو مرضَتْ سيكون لديه ذريعة ليلمسها، لكنّه بعد ذلك يخجل من هذا التفكير. الضحكة التلقائية والرقّة العفيفة اللتان كانتا تنبثقان بينهما في الماضي في كلِّ لحظة، حلّ محلّها توتّرٌ مزعج. إذا ما تلامسا مصادفة ابتعدا منزعجين، فهما واعيان لوجود أو غياب الآخر، والهواء يبدو محمّلاً

بالتكهنات والاستباقات. وبدل أن يجلسا ليقرأا أو يكتبا بتواطؤٍ لطيف يودّع أحدهما الآخر ما أن ينتهي العمل في العيادة. ينطلقُ تاو شيين لزيارة مرضى مؤجّلين، يجتمع مع *زهونغ يي* آخرين لمناقشة أعراضٍ وعلاجاتٍ، أو ينغلق على نفسه ليدرس نصوصاً طبّيةً غربيّةً. فهو يمارس طموحه للحصول على ترخيصٍ بممارسة الطب بشكلٍ شرعي في كاليفورنيا، المشروع الذي لم يُشاطر به أحداً غير إليثا وروحي لين ومعلّمه في وخز الإبر. في الصين يبدأ *الـ زهونغ يي* كتلميذٍ ثم يتابع بمفرده، لذلك بقي هذا الطب قروناً لا يتبدّلُ، يستخدِم دائماً الطرائقَ والعلاجات ذاتها. والفارق بين ممارس جيّد وآخر متواضع هو أنّ الأوّل يملك حدساً لتشخيص المرض وموهبة أنّه يُريح بيديه. بينما الأطباء الغربيون يقومون بدراسة مشدّدة جدّاً، ويبقون على تواصل فيما بينهم ويطلعون على ما يستجدّ من معارف، لديهم مخابر ومستودعات للتجريب ويخضعون لتحدّي المنافسة. العلم يذهله، لكن لا صدى لحماسه بين جاليته الملتصقة بالتقاليد. كان يعيش مشدوداً إلى أحدث تقدّم ويشتري كل ما يقعِ بين يديه من كتب ومجلات في هذا المجال. بلغ فضوله بالحداثة حدّاً جعله يكتب على الجدار مبدأ معلّمه المُبجّل: «قليلاً ما تفيد المعرفة دون حكمة ولا حكمة دون روحانيّة». ليس كل شيءٍ علماً، كان يردّدُ، كيلا ينساه. في جميع الأحوال هو بحاجة للمواطنة الأمريكية ومن الصعب جدّاً الحصول عليها بالنسبة لمن هو من عرقه، كان يفكّرُ، لكنه بهذه الطريقة فقط يستطيع البقاء في هذا البلد، دون أن يبقى دائماً هامشياً، وهو يحتاج إلى شهادة، فهكذا يستطيع أن يقوم بأعمال خيّرة كثيرة. *الفان غوي* لا يعرفون شيئاً عن الوخز بالإبر أو الأعشاب المستخدمة في آسيا منذ قرون، ويعتبرونه طبيباً دجالاً. كان احتقار الأعراق الأخرى قد بلغ حدّ أنّ ملاّكَ العبيد في الجنوب يستدعون الطبيب البيطري حين يمرض زنجيٌّ؛ ولم يكن رأيهم مختلفاً بالنسبة للصينيين. لكن هناك أطباء لديهم رؤى وسافروا أو قرؤوا عن ثقافات أخرى، ويهتمون بتقنيات ومخدرات الصيدلية

الشرقية الألف. تابع اتصاله بإبانيزر هوبّز في إنكلترا، وكلاهما كان يشكو المسافة التي تفصل بينهما. «تعالَ إلى لندن، يا دكتور شيين. وقم بعرض ما عندك في *الرويال ميديكال سوسيتي* «الجمعية الطبية الملكية»، ستتركهم فاغري الفم، أؤكّد لك» كتب له هوبّز. وإذا ما جمعوا بين المعرفتين، كما كان يقول سيستطيعون بعث الأموات.

رفيقان فريدان

قضى صقيعُ الشتاء على عددٍ من *فتيات سينغ سونغ* في الحيّ الصينيّ بالتهابِ الرئةِ، دون أن يتمكّن تاو شيين من إنقاذهنّ. استدعوه مرّتين وهنّ ما يزلن على قيدِ الحياة واستطاع حملهنّ، لكنّهنّ متْنَ بعد ساعاتٍ بين ذراعيه هاذياتٍ من الحمّى. مجسّات رحمته المتفرّدة انتشرت على طول وعرض الولايات المتحدة الأمريكية، من سان فرانسيسكو وحتى نيويورك، من ريو غراندِ وحتى كندا، لكنّ مثل ذلك الجهد الخارق لم يكن أكثر من حبّة ملحٍ في ذلك المحيط من الشقاء. حالفه الحظ في ممارسة الطب، وما كان يستطيع توفيره أو الحصول عليه من إحسان بعض زبائنه الأثرياء يُخصّصه لشراء أفتى الفتيات في المزايدات. باتوا يعرفونه في هذا العالم التحتي: اشتهر بأنّه فاسد. لم يروا واحدة من الفتيات اللواتي يشتريهن «لتجاربه» تخرج، كما كان يقول، لكن لا أحد كان يهمُّهُ ما يجري خلف الباب، فهو أفضل *زهونغ يي*، ويتركونه بسلام، طالما أنّه لا يقوم بفضائح ويقتصر على هذه الصغيرات، اللواتي كنّ في جميع الأحوال أعلى مرتبةً من الحيوانات بقليل. ومساعده الوفيّ هو الوحيد الذي يستطيع أن يُقدّم بعض المعلومات ويردُّ على الأسئلة الفضوليّة، مقتصراً على توضيح أنّ معارفَ معلّمه الاستثنائية، الضروريّة جدّاً لمرضاه، مصدرها تجاربه الغامِضة. في ذلك الحين كان تاو شيين قد انتقل إلى بيتٍ جيّد بين بنائين على الحدّ مع تشيناتاون، ويبعد عدّة قصبات عن ساحة *أونيون* (الوحدة) حيث

أقام عيادته ويبيع أدويته ويُخبِّئ الفتيات حتى يستطعن السفر. تعلّمت إليثا ثم المبادئ الضروريّة من الصينية للتواصل على مستوى أوّلي؛ كانت ترتجلُ ما تبقى بالإيماء والرسم وبعض الكلمات بالإنكليزية، فالجهد يستحقّ المُعاناة، وهو أفضل من أن تجعلَ نفسها الأخ الأصمّ والأبكم للدكتور. لم يكن باستطاعتها الكتابة والقراءة بالصينية، لكنّها تعرف الأدوية من رائحتها ولمزيدٍ من اليقين تُعلِّم المرطبانات بنظام إشارات ابتدعته بنفسها. دائماً كان هناك عددٌ جيّدٌ من المرضى ينتظر دوره للمعالجة بالوخز بالإبر الذهبية، والأعشاب العجائبية، وعزاء صوت تاو شيين. أكثر من مرّة تساءلوا كيف يمكن لرجل بهذا العلم وهذه العصمة أن يكون هو نفسه من يجمع جثثاً ومحظياتٍ طفلات، لكن وبما أنّ الجالية لم تعرف ماهية شذوذه فقد احترمته. صحيح أنّه لم يكن له أصدقاء، لكن لم يكن له أعداء أيضاً. تجاوز اسمه الطبيب حدود تشيناتاون وعادة ما صار يستشيره بعض الأطباء الأمريكيين حين تعييهم معرفتهم، لكن دائماً بكثير من الحذر، وإلاّ لأحدث القبول بأن «*بليداً*» يُعلّمهم إهانة عامّة. هكذا وجد نفسَهُ يُعالج شخصياتٍ مهمّة في المدينة ويتعرّف على أه توي الشهيرة.

طلبت المرأة استدعاءه حين علمت بأنّه خفّف من مرض زوجة قاضٍ. كانت تُعاني من صفير صنجاتٍ في رئتيها تهدّدها في بعض اللحظات بالاختناق. ردّة فعل تاو شيين الأولى كانت الرفض، لكنّ الفضول برؤيتها عن قرب والتأكّد من الأسطورة التي تحيط بها غلبه فيما بعد. فهي في عينيه أفعى وعدوّه الشخصي. وبمعرفة إليثا ما تعني له أه توي وضعت في حقيبته ما يكفي من الزرنيخ للقضاء على ثورين.

ـ للاحتمال... ـ وضّحت.

ـ احتمال ماذا؟

ـ تصوَّر أنّها مريضة جدّاً. لن تريد عذابها، أليس كذلك؟ أحياناً يجب المساعدة على الموت.

ضحك تاو شيين برغبة كبيرة، لكنّه لم يسحب المرطبان من الحقيبة. استقبلته أه توي في أحد أكثر محلاتها ترفاً، حيث يدفع الزبون ألف دولار عن الجلسة الواحدة، لكنّه يخرج راضياً دائماً. وكما أكّدت هي دائماً: « إذا احتجت للسؤال عن السعر فهذا المكان ليس لك.» فتح له الباب خادِم زنجيٌّ يرتدي بزّة منشاةً وقاده عبر عدّة صالات، تتسكّع فيها فتياتٌ جميلات يرتدين الحرير. كنَّ بالمقارنة مع أخواتهنّ الأقل حظّاً يعشن كأميرات، يأكلن ثلاث مرّاتٍ في اليوم ويأخذن حمّامات يومية. البيت متحف حقيقي للأثريات الشرقية والمقتنيات الأمريكية الرخيصة، تفوح منها رائحة تبغ، وعطور زنخة ومساحيق. كانت الساعة الثالثة مساءً، لكنّ الستائر بقيت مُسْدَلة ولا تدخل إلى تلك الغرفة نسمة طبيعية واحدة أبداً. استقبلته أه توي في مكتب صغير، مزدحم بالأثاث وأقفاص الطيور. جاءت أصغر وأفتى وأجمل من المُتَصَوَّر. تزيّنت بعناية، لكنّ لباسها بسيط ولا تحمل مجوهرات، أو تستخدم الأظافر الطويلة، دليلَ الثروة واللهو. تمعّن في قدميها الصغيرتين، المغمّدتين في نعلينِ أبيضين. لها نظرة نافِذة وقاسية، لكنّها تتكلّم بصوتٍ مُدَغْدِغ ذكّره بلين. عليها اللعنة، تنهّد تاو شيين، مهزوماً أمام أوّل كلمة. تفحّصها دون تأثّر، ودون أن يكشف عن اشمئزازه أو عن اضطرابه، لا يدري ما يقول لها، لأنّ توبيخها على تجارتها لم يكن غير مجدٍ وحسب بل خطير أيضاً، ويمكن أن يلفت الانتباه إلى نشاطاته ذاتها. وصف لها *ماهوانغ* للربو وأشياء أخرى لتبريد الكبد منبّهاً إياها بجفافٍ إلى أنّها مادامت تعيش محبوسة خلف تلك الستائر تُدخّن التبغ والأفيون ستبقى رئتاها تئنان. إغواء أن يترك لها السمَّ مع تعليماتٍ بتناول ملعقة يوميّاً، لامسه مثل فراشة ليليّة، فارتعش أمام تلك اللحظة من التردّد، لاعتقاده بأنّ غضبه لا يكفيه بعد لقتل أحد. خرج بسرعة واثقاً من أنّ المرأة ونظراً لفظاظة سلوكه لن تطلبه ثانيةً.

ـ ماذا؟ ـ سألته إليثا حين رأته يعود.

ـ لا شيء.

ـ كيف لا شيء! ألم يكن عندها ولو قليل من التدرُّن الرئوي؟ ألن تموت؟

ـ جميعنا سنموت. هذه ستموت من الشيخوخة. فهي قويّة مثل جاموس.

ـ هكذا هم الناس السيئون.

كانت إليثا من جهتها تعرف أنّها على مفترق طرق نهائي والاتجاه المختار سيحدِّدُ بقيّة حياتها. تاو شيين على حقّ: عليها أن تمنح نفسها مهلة. ما عاد باستطاعتها تجاهل ظنّها بأنّها مفتونة بالحب ومتورّطة في اختلال عاطفة أسطوريّة، دون أي أساس في الواقع. حاولت أن تتذكّر المشاعر التي دفعتها للإبحار في هذه المغامَرة الرهيبة، لكنّها لم تتمكّن. والمرأة التي صارت إليها لا تملك إلا القليل من شيءٍ مشترك مع الطفلة المجنونة السابقة. بالبارايسو وغرفة الخزائن ينتميان إلى زمنٍ آخر، إلى عالم راح يختفي في الضباب. تساءلت ألف مرّة أي لهفة هذه التي جعلتها تنتمي جسداً وروحاً إلى خواكين أنديّيتا، هي التي لم تشعر قط بأنّها سعيدة تماماً بين ذراعيه، ولا يمكنها تفسير ذلك إلا أنّه حبّها الأوّل. كانت جاهزة حين ظهر ليُنزل بعض الصناديق في بيتها، وما تبقى كان شيئاً من الغريزة. ببساطة استجابت إلى أقوى وأقدم نداء، لكنّ هذا حدث منذ دهر على مسافة سبعة آلاف ميلٍ. لا تستطيع أن تقول من كانت آنذاك، وماذا رأت فيه، لكنّها تعرف الآن أنّ قلبها ما عاد يجوب تلك الطرق. لم تتعب من البحث عنه وحسب، بل صارت في أعماقها تُفضّل ألا تعثر عليه، لكنّها أيضاً لا تستطيع أن تستمر بترك الشكوك تُدوّخها. إنّها تحتاج إلى نهاية لهذه المرحلة كي تبدأ بنظافةٍ حبّاً جديداً.

لم تتحمّل في نهاية تشرين الثاني القلق وذهبت، دون أن تقول كلمةً واحدة لتاو شيين، إلى الصحيفة لتتكلّم مع جاكوب فريمونت الشهير. ثم أدخلوها إلى قاعة التحرير، التي يعمل فيها عددٌ من الصحافيين وراء مكاتبهم، مُحاطين بفوضى مُخزية. أشاروا إلى مكتب صغير خلف باب من بلور، فسارت باتجاهه. مكثت واقفة أمام طاولة، منتظرة أن يرفعَ هذه الغرينغوي ذو السالفين الأحمرين نظره عن الورق. كان شخصاً متوسط العمر، أنمش البشرة له رائحة

شمع حلوة؛ يكتب باليد اليسرى ويسند جبينه إلى اليمنى فلا يظهر وجهه، أحسّت تحت رائحة شمع النحل برائحة معروفة جاءت إلى ذاكرتها بشيء بعيد غير محدّد من الطفولة. انحنت فوقه قليلاً لتشمّه بحذر في الوقت الذي رفع فيه الصحافي رأسه. بوغتا فبقيا ينظر أحدهما إلى الآخر من مسافة مزعجة حتى تراجع كلّ منهما إلى الخلف. عرفته من رائحته، على الرغم من السنوات والنظارة والسالفين ولباس اليانكي. إنّه خاطب ودّ الآنسة روز الأبديّ، الإنكليزي نفسه الذي كان يأتي في الوقت المحدّد إلى مسامرات الأربعاء في بالبارايسو. ومشلولة لم تستطع الهرب.

ـ ماذا أستطيع أن أفعل لأجلك، أيّها الفتى؟ ـ سأل جاكوب تود وقد رفع النظارة كي ينظفها بمنديله.

الكلام الكثير الذي أعدّته إليثا امّحى من رأسها. مكثت فاغرة الفم وقبّعتها في يدها واثقة من أنّها إذا هي عرفته فهو عرفها أيضاً، لكنّ الرجل وضع نظارته جيّداً وكرّر السؤال دون أن ينظر إليها.

ـ من أجل خواكين موريِتا... ـ تمتمت فخرج صوتها نديّاً كما لم يخرج قط.

ـ هل عندكَ معلومات عن اللص؟ ـ اهتمّ الصحافيّ على الفور.

ـ لا. لا... على العكس، جئتُ أسألك عنه. أحتاج لرؤيته.

ـ عليكَ مسحة مألوفة، أيها الفتى... ترانا نعرف بعضنا؟

ـ لا أعتقد، يا سيّدي.

ـ هل أنت تشيلي؟

ـ بلى.

ـ أنا عشتُ في تشيلي عدّة سنوات. بلد جميل. لماذا تريد رؤية مورْيِتا؟

ـ لأمرٍ مهمٍّ جدّاً.

ـ أخشى ألا أستطيع مساعدتك. لا أحد يعرف مكانه.

ـ لكنَّكَ تكلَّمت معه!

ـ فقط حين يناديني. يتصل بي حين يريد أن تظهر إحدى مآثره في الصحيفة اليومية. ليس لديه شيء من التواضع، يُحبّ الشهرة.

ـ بأيّة لغة تتفاهم معه؟

ـ إسبانيتي أفضل من إنكليزيّته.

ـ قل لي، يا سيّدي هل نبرته تشيلية أم مكسيكية؟

ـ لا أعرف. أكرّر عليك، أيها الفتى، لا أستطيع مساعدتك ـ ردَّ الصحافيُّ ناهضاً على قدميه لإنهاء هذا الاستفسار، الذي بدأ يزعجه.

ودّعته إليثا باقتضاب فبقي يفكّر بشيء من الارتباك وهو يراها تبتعد في لجب قاعة التحرير. بدا له هذا الشاب معروفاً، لكنَّه لم يتمكّن من تحديده، ثم تذكّر تكليف القبطان جون سومّرز له، فمرّت صورة الطفلة إليثا في ذاكرته مثل البرق. عندئذٍ ربط بين اسم اللص وخواكين أنديِتا وفهم لماذا تبحث عنه. خنق صرخة وخرج إلى الشارع يجري، لكنَّ الشابّةَ كانت قد اختفت.

أهمّ أعمال تاو شيين وإليثا كانت تبدأ ليلاً، ففي الظلمة يملكون بين أيديهم أجساد البائسات اللواتي لا يستطيعان إنقاذهنّ ويحملانهنّ إلى الطرف الآخر من المدينة، حيث أصدقاؤهما *المهتزون*، وواحدة فواحدة تخرج الصغيرات من الجحيم لينطلقن في مغامرة لا عودة منها. وقد فقدن الأمل بالعودة إلى الصين أو اللقاء بأسرهنّ، بعضهنّ لا يعدن يتكلّمن بلغتهنّ أو يرين وجهاً من عرقهنّ، عليهنّ أن يتعلّمن مهنة، ويعملن بقسوة بقيّة حياتهنّ، ومع ذلك فأيُّ شيء يبدو لهنّ جنّةً مقارنة بالحياة السابقة. تتكيّفُ اللواتي استطاع تاو شراءهنّ بشكلٍ أفضل. كنّ قد سافرن في صناديق وأُخضِعن

لشبق ووحشية المُعذّبين، لكنّهنّ لم يتهشّمن بعدُ كليّاً ويحتفظن ببعض القدرة على الانعتاق. الأخريات المحرّرات في اللحظة الأخيرة من الموت في «المشفى» لا يتخلّصن أبداً من الخوف الذي سيحرقهنّ في داخلهنّ كمرض في الدم إلى آخر يومٍ في حياتهنّ. كان تاو شيين يأمل أن يتعلّمن الابتسامَ على الأقل منْ حينٍ إلى آخر. ولكن ما أن يستعدن قواهنّ ويعلمن أنّه لن يكون عليهنّ أن يخضعن بعد الآن لرجلٍ بإكراه، مع أنّهن سيبقين دائما فارّاتٍ، حتى يقودانهنّ إلى بيوت أصدقائهما من أنصار تحرير العبيد، وهم جزء من *underground railroad* كما سموا تنظيمهم السرّي، المكرّس لنجدة العبيد الفارّين، الذي ينتمي إليه الحدّاد جيمس مورتون وأخوته؛ الذين يستقبلون اللاجئين القادمين من ولايات الرقّ ويساعدونهم على الاستقرار في كاليفورنيا، لكن عليهم في هذه الحالة أن يعملوا بالاتجاه المعاكِس أي بإخراج الطفلات الصينيات من كاليفورنيا لحملهنّ بعيداً عن التجّار والعصابات الإجراميّة، والبحث لهنّ عن مسكن وطريقة لكسب العيش. كان *المهتزّون* يتحمّلون المجازفة بحماس دينيّ: فالأمر يتعلّق بالنسبة إليهم ببريئات مدنّسات بِشَرِّ الإنسان، وضعهنّ الله في طريقهم اختباراً. كانوا يتلقفونهنّ برغبة طيّبة، كثيراً ما يتلقينها بردّة فعل عنيفة أو ذعر. لم يكنّ يعرفن تلقّي العاطفة، لكنّ صبر هؤلاء الناس الطيبين يتغلّبُ شيئاً فشيئاً على استعصائهنّ. يعلمونهنّ بعض الجمل الضرورية بالإنكليزية، يعطونهنّ فكرة عن العادات الأمريكية، يُطلعونهنّ على الخريطة ليعرفن على الأقل أين هنّ، ويحاولون أن يعلمونهنّ مهنة ما، بينما ينتظرن أن يصل بابالو الشرير في طلبهنّ.

عثر العملاقُ أخيراً على أفضل طريقة لاستخدام عبقرياته: كان رحالة لا يكلُّ، يحب السهر والمغامرة كثيراً. تراه *فتيات السينغ سونغ* فيجرين متبخرات ليختبئن، ويحتجن كثيراً من الإقناع من جهة حُماتهنّ ليهدأن. كان بابالو قد تعلّم أغنية بالصينية وثلاث حيل بهلوانية، يستخدمها لإبهارهنّ والتخفيف من رعب اللقاء الأوّل، لكنّه

لم يتنازل تحت أيّ دافع عن جلود الذئب، ورأسه الحليق وأطواق القرصان وسلاحه الفظيع. يمكث يومين لإقناع محمياته بأنّه ليس شيطاناً ولا يحاول التهامهنّ، ثم ينطلق معهنّ على الفور ليلاً. المسافات مقدّرة بشكل جيّد للوصول عند الفجر إلى ملجإٍ آخر، يرتحن فيه نهاراً. كانوا يمتطون الجياد؛ فالعربة لم تكن مُجدية، لأنّهم يقطعون قسماً جيّداً من الرحلة في الحقول المفتوحة، متجنّبين الطرق. فقد اكتشف أنّ السفر في الظلمة أكثر أماناً بكثير، ما دام المرء يعرف أين هو، لأنّ الدببة والأفاعي واللصوص والهنود ينامون، مثل كلّ العالم. يتركهنّ بابالو بأمان في أيدي آخرين من شبكة الحريّة الواسعة، حيث ينتهين إلى مزارع أورِجون، المغاسِل في كندا، مشاغل الصناعات اليدوية في المكسيك، وأخريات يعملن خادمات لدى الأسر ولم يخلُ الأمر مِنْ وجود مَنْ تزوّجت. كان تاو شيين وإليثا يتلقّيان الأخبار عبر جيمس مورتون، الذي يتتبّع خبر كلّ فارّة أنقذها تنظيمه. يصلهم من حين لآخر مغلّف من مكان قصيّ، وحين يفتحونه يجدون فيه ورقة عليها اسمٌ خُرْبِشَ بشكل سيئ، وبعض الأزهار الجافة أو الرسم، وعندئذٍ يهنئون بعضهم بعضاً لأنّ واحدة أخرى من *فتيات سينغ سونغ* أُنقِذت.

صادف أحياناً أن اضطُرّت إليثا إلى تقاسم غرفتها مع بعض الفتيات المنقذات توّاً، ومع ذلك لم تكشف أمامهنّ عن طبيعتها التي لا يعرفها غير تاو. كانت تملك تحت تصرّفها أفضل غرفة في عمق عيادة صديقها. غرفة واسعة بنافذتين تطلاّن على فناء داخليّ، حيث يزرعون نباتات طبيّة للعيادة والأعشاب العطرية للطبخ. وكثيراً ما حلمت إليثا بالانتقال إلى بيتٍ أكبر وامتلاكِ حديقةٍ حقيقيّةٍ، ليس لأهدافٍ عملية وحسب بل لتُسَرِّحَ بَصَرَها وتُسعِدَ ذاكرتها، تُريده مكاناً تنمو فيه أجمل النباتات الصينية والتشيليّة، وتوجد فيه ظلّة للجلوسِ وتناولِ الشاي في المساءات وتأمّلِ بزوغِ الشمسِ فوق الخليج في الفجر. لاحظ تاو شيين انشغال إليثا في تحويل البيت إلى مسكن، والعناية التي تنظّف وتنظم بها وحرصُها على باقات من

الزهر النديّ الجميل في كلّ غرفة. لم يملك الوقت من قبل لتقدير هذا التفنّن، فقد ترعرع في فقر تام، وبيت معلّم وخز الإبر خلا من يدِ امرأة تحوّله إلى منزل، ولين كانت من الهشاشة بحيث لم تسعفها القوّة للاهتمام بالأعمال المنزلية. بالمقابل تملكُ إليثا غريزة الطائر في صنع العشّ. توظّف في تحسين البيت قسماً مما تكسبه من العزف في حانةٍ لليلتين في الأسبوع ومن بيع الفطائر والحلوى في حي التشيليين. هكذا حصلت على ستائر، غطاء طاولة من الدمقس، أصصٍ للمطبخ، صحون وأكواب خزفية. الآداب التي تربّت عليها كانت جوهريّة وتحوّلُ الصحنَ الوحيد الذي يتقاسمانه إلى احتفال، فهي تقدّم الصحون بإتقان وتحمرّ رضىً حين يُعَبِّرُ عن سعادته بعملها. تبدو المسائل اليومية وكأنّها تُحَلُّ من تلقاء ذاتها، كما لو أنّ أرواحاً سمحةً تنظّفُ العيادةَ ليلاً، تجدّدُ الأرشيفَ يوميّاً تَدخلُ بحشمة إلى غرفة تاو، تغسل ملابسه، تخيط أزراره، تفرشي بزاته وتبدل مياه الورود على الطاولة.

ـ لا تحاصريني باهتماماتك، يا إليثا.

ـ أنت قلت بأنّ الصينيين ينتظرون من النساء أن يخدمنهم.

ـ هذا في الصين، لكنّني لم أملك هذا الحظ أبداً... أنت تخرّبين تربيتي.

ـ تلك هي المسألة. كانت الآنسة روز تقول: للسيطرة على الرجلِ يجب أن يعوَّدَ على العيش الرغيد، وحين يُسيءُ التصرف يُعاقَب بإلغاء الدلال.

ـ ألم تبقَ الآنسة روز عازبة؟

ـ بقرار ذاتي وليس لنقص في الفرص.

ـ لا أفكّر بإساءة التصرف، لكن كيف سأعيش وحيداً بعد ذلك؟

ـ لن تعيش وحيداً أبداً. فأنت لست قبيحاً تماماً وسيبقى هناك امرأة كبيرة القدمين وسيئة المزاج مستعدة للزواج منك ـ ردّت بينما راح هو يضحك مسروراً.

كان تاو قد اشترى أثاثا ناعماً لغرفة إليثا، الوحيدة المزينة في البيت بشيء من الأبّهة. كثيراً ما أُعجبت بأسلوب صناعة الأثاث التقليدي الصيني وهما يتنزهان معاً في تشيناتاون فتقول: «إنّه جميل جدّاً، لكنّه ثقيل. الخطأ هو في الإكثار منه». أهداها سريراً وخزانة خشبيّةً داكنة محفورة، واختارت هي فيما بعد طاولة وكراسٍ وحاجزاً من الخيزران. لم تبغِ مفرشَ سرير من الحرير كما في الصين، بل واحداً أوروبيّ المظهر، من الكتان الأبيض المطرّز مع وسائد كبيرة من المادّة ذاتها.

ـ هل أنت واثق ، يا تاو من أنّك ستقوم بهذا الإنفاق؟

ـ أنت تُفكّرين بفتيات *سينغ سونغ*...

ـ بلى.

ـ أنتِ نفسكِ قُلتِ إنّ ذهب كاليفورنيا كلّه لا يمكن أن يكفي لشرائهنّ جميعاً.

ردّت إليثا الجميلَ بألف طريقة: حصافة في احترام صمته وساعات دراسته، اجتهاد في مساعدته في العيادة، وشجاعة في مهمّة إنقاذ الطفلات. ومع ذلك فأفضل هديّة قدّمتها صديقته بالنسبة إليه هو تفاؤلها الذي لا يُهزَم، والذي كان يجبره على المقاومة حين تهدّد الأشباح بالعصف به تماماً. «إذا أنت بقيتَ حزيناً فقدتَ قوّةً ولن تستطيع أن تُساعِد أحداً. هيّا بنا نقُمْ بمشوار. أنا بحاجة لشمّ رائحة الغابة. فتشيناتاون لها رائحة صلصة الصويا». تأخذه في عربة خارج المدينة. يقضيان النهار في الهواء الطلق، يجريان مثل صبيين، فينام ليلاً مثل مُبارَكٍ، ويستيقظ سعيداً ونشيطاً من جديد.

رسا القبطان سومّرز في ميناء بالبارايسو يوم الخامس عشر من آذار من عام 1853 منهكاً من الرحلة ومن متطلبات ربّة عمله، التي تركّزت أجدُّ نزواتها على جرِّ قطعة جليد بحجم سفن صيد الحيتان

من جنوب تشيلي. خطر لها أن تصنع شراباً مثلجاً وبوظة للبيع، نظراً لأنَّ أسعار الخضار والفواكه هبطت كثيراً منذ بدأت الزراعةُ في كاليفورنيا؛ فقد جذبَ الذهبُ ربعَ مليون مهاجر خلال أربعة أعوام، لكنّ الرخاء راح يزول. ومع ذلك لم تفكّر باولينا رودريغث دِ سانتا كروث بالتحرّك من سان فرانسيسكو. لقد تأقلمت بقلبها الضاري مع مدينة الدخلاء الأبطال، حيث لا توجدُ بعدُ الطبقاتُ الاجتماعية. هي بنفسها تشرف على بناء منزلها المستقبلي، بيت في أعلى هضبة، له أفضل إطلالة على الخليج، لكنّها تنتظر ابنها الرابع وتريد أن تنجبه في بالبارايسو حيث تُدلّلها أمها وأخواتها حتى الإفساد. تعرّضَ أبوها لسكتةٍ دماغيّةٍ سريعة تركت جسده نصف مشلول ودماغه رخواً. لم يُبدّل العجز من مزاج أغوستين دِلْ باليّه، لكنّ رعبَ الموت والجحيم داخَلَهُ بالطبع. وقد كرّر عليه قريبه المطرانُ بلا كللٍ أنّ ذهابَهُ إلى العالم الآخر وعلى كاهله سلسلة الخطايا القاتلة ليسَ فكرة جيّدة. لم يبقَ من زير النساء والعربيد شيءٌ، ليس لأنّه تاب، بل لأنّ جسده المنهك لم يعد قادراً على هذا الخبب؛ يسمع يومياً صلاة في مصلى بيته ويتحمّل بصبر قراءات الأناجيل وصلوات السبحة اللامتناهية التي تصليها زوجته. ومع ذلك لا شيء من هذا جعله أكثر طيبةً مع مستأجريه ومستخدميه، فقد استمرَّ يُعامل أسرتَه وبقيّةَ العالم كطاغية، لكنّ جزءاً من تحوّله صار حبّاً مباغتاً وعصياً على التفسير تجاه باولينا، الابنة الغائبة. نسي أنّه أنكرها لهربها من الدير لتتزوّج من ابن اليهود ذاك، الذي لا يستطيع تذكّر اسمه لأنّه لا يحمل كنية من مقامه. كتب إليها مسمياً إياها مفضّلته، الوريثة الوحيدة لمزاجه ورؤياه التجارية، متوسّلاً إليها أن تعودَ إلى المنزل، لأنّ أباها المسكين يرغب بعناقها قبل أن يموت. هل صحيح أنّ العجوز مريض جدّاً؟ سألت باولينا، مؤملة خيراً في رسالة إلى أخواتها، لكنّه لم يكن كذلك، ومن المؤكّد انه سيعيش سنواتٍ كثيرةً يُنغّص فيها عيشَ الآخرين من كرسيّ عجزه. في جميع الأحوال ترتّبَ على القبطان جون سومّرز أن يقلّ ربّةَ عملِهِ وصبيتَها سيّئي التربية،

والخادمات الدائخات حتماً، وحمولةَ الصناديق والبقرتين لحليب الأطفال وكلابَ الحضن الثلاثة بشرائطها في آذانها، الشبيهة بكلاب المومسات الفرنسيات، التي حلّت محلَّ الكلب الذي غرق في عرض البحر خلال الرحلة الأولى. بدا العبور بالنسبة للقبطان سرمديّاً، وأرعبته فكرة أن عليه بعد وقت قصير قيادة باولينا وسيركها في طريق العودة إلى سان فرانسيسكو. فكّرَ لأوّل مرّة خلال حياته الطويلة كبحّار بالتقاعد ليقضي على اليابسة ما تبقى له في هذا العالم. كان أخوه جِرمي بانتظاره على الرصيف وقاده إلى البيت معتذراً عن روز التي تعاني من الشقيقة.

ـ أنت تعرف، دائماً تمرضُ عند حلول عيد ميلاد إليثا. لم تستطع التغلّبَ على موت الفتاة ـ وضّح.

ـ عن هذا أريد أن أحدِّثكما ـ ردَّ القبطان.

لم تعرف الآنسة روز كم أحبّت إليثا حتى فقدتها، عندئذٍ شعرت بيقين أن حبَّ الأمومة جاءها متأخراً أكثر من اللازم. أنَّبت نفسها على السنوات التي أحبّتها فيها حباً وسطاً وبحنان اعتباطيّ وفوضوي؛ وعلى المرّات التي نسيت فيها وجودَها، مشغولةً أكثر من اللازم بترّهاتها، وحين تتذكّرها يكون قد مضى أسبوعٌ على الصغيرة وهي في الفناء مع الدجاجات. كانت إليثا أشبه ما تكون بابنة لها لن تنجبها أبداً، فقد بقيت صديقة لها، رفيقة ألعابها، والشخص الوحيد الذي كان من نصيبها في هذا العالم خلالَ سبعة عشر عاماً تقريباً. جسدُ الآنسة روز يؤلمها من الوحشة المحضة. تشتاق لحمّاماتها مع الطفلة، حين كانتا تبربطان سعيدتين في الماء المعطّر بأوراق النعناع وإكليل الجبل. تفكّر بيدي إليثا الصغيرتين والماهرتين وهي تغسل لها شعرها، تدلك لها عنقها، تصقل لها أظافرها بقطعةِ شمواه وتساعدها على تسريح شعرها. تبقى في الليل تنظر مشدودة السمعِ، متيقظةً لخطوات الفتاة التي ستأتيها بكأس مشروب اليانسون الروحي. تتلهف للإحساس مرّةً أخرى بقبلةِ ليلةٍ سعيدة على جبينها. ما عادت الآنسة روز تكتب كما أوقفت

المسامرات الموسيقية التي شكّلت في الماضي محورَ حياتها الاجتماعية. انقضى زمنُ غنجها أيضاً، واستسلمت لشيخوخة بلا ظرافة. تقول لنفسها: « في عمري لا يُنْتَظَرُ من المرأة غير الكرامة والرائحة الطيبة». لم يخرج من بين يديها أي لباس جديد في هذه السنوات، فقد استمرّت تستخدم الثياب السابقة، ولم تنتبه إلى أنّها ما عادت دارجة. بقيت صالة الخياطة الصغيرة مهجورة، وحتى مجموعتها من القلنسوات والقبعات ذبلت في صناديقها لأنّها اختارت معطفَ التشليات الأسودَ للخروج إلى الشارع. شغلت وقتها بقراءة الكلاسيكيين وعزف المقطوعات الحزينة على البيانو. تملُّ بعزيمة ومنهجية، كنوعٍ من العقاب. صار غيابُ إليثا ذريعة جيّدة لارتداء ثياب الحداد على آلام وضياع سنوات عمرها الأربعين، وخاصّة غياب الحبّ، الذي تشعر به مثل شوكة تحت الظفر، كألم متواصل مكبوت. ندمت لأنّها ربّتها على الكذب؛ فهي لا تدري لماذا ابتدعت قصّة السلّة وملاحف الباتِستة، وبطانية السمور الصغيرة غير الممكنة والنقود الذهبية، بينما الحقيقة مريحة أكثر. من حقّ إليثا أن تعرف أن العمّ جون المعبود هو أبوها، وأنّ جِرمي عمّها وروز عمّتها وأنّها تنتمي إلى أسرة سومّرز، وليست يتيمةً الْتُقِطَتْ إشفاقاً. تذكّرت مذعورة حين جرّتها إلى الميتم لِتُخيفَها. كم كان عمرها آنذاك؟ ثمانية أو عشرة أعوام، مخلوقة صغيرة. لو استطاعت أن تبدأ من جديد لأصبحت أمّاً مختلفةً جدّاً... مبدئياً كانت ساعدتها حين عشقت، بدل إعلان الحرب، لو فعلت لبقيت إليثا حيّة، تنهّدت، الذنب ذنبها لأنّها حين هربت لاقت حتفها. كان عليها أن تتذكّر حالتها نفسها وهي تعرف أن الحبّ الأوّل في أسرتها يذهب بعقولهم، أكثر ما يحزنها هو أنه لا يوجد من تتكلّم معه عنها، فماما فرِسيا اختفت أيضاً وأخوها جِرمي يشدّ على شفتيه ويخرج من الغرفة إذا ذكرتها، وحزنها يصيب بالعدوى كلّ من حولها، وصار للبيتِ في السنوات الأربع الأخيرة رائحةُ ضريح كثيفة، والطعام انحطّ كثيراً فهي تتغذّى على الشاي والبسكويت الإنكليزي. لم تحصل على

طاهية محتشمة كما أنّها لم تبحث عنها بعزيمة. الترتيب والنظافة جعلاها لامبالية، فلا أزهار في المزهريات ونصف النباتات في الحديقة ذبلت لانعدام العناية بها. أربع شتاءات والستائر المزهّرة مدلاة دون أن يخطر لأحد تبديلها في نهاية الموسم.

لم يعاتب جِرمي أخته، صار يأكلُ أيّ طعام بائس تضعه أمامه، ولا يقول شيئاً حين تظهر قمصانه سيئةَ الكيّ وبُزاته لم تُفَرْشَ. كان قد قرأ أنَّ النساء العازبات يعانين من اختلاطات خطيرة. في إنكلترا طوّروا علاجاً عجائبياً للهيستريا، يقوم على وشمِ نقاطٍ معيّنة بالحديد الحامي، لكنّ هذا التقدّم لم يصل إلى تشيليَ التي ما زال يُستخدَم فيها الماء المُبارَك لهذه الأمراض. في جميع الأحوال، تلك مسألة دقيقة ومن الصعب ذكرها بحضور روز. لم يخطر له كيف يواسيها، فعادة الحشمة والصمت قديمة جدّاً بينهما، يُحاول إرضاءها بالهدايا المشتراة تهريباً من السفن، لكنّه لم يكن يعرف شيئاً عن النساء فيأتيها بأشياء فظيعة سرعان ما تنتهي إلى أعماق الخزائن. لم يفكّر كم مرّة اقتربت أخته منه حين كان يُدخِّن في كرسيّه الكبير وهي على وشك أن تنهار عند قدميه، لتسندَ رأسها إلى ركبتيه وتبكي بكاءً مرّاً، لكنّها كانت تتراجع في اللحظة الأخيرة مذعورة، لأنّ أيّة كلمةٍ مؤثّرة بينهما تقع وقع السخرية أو العاطفية الرخيصة التي لا تُغتَفر. أدباً حافظت الآنسة روز على مظاهرها بعنادٍ وحزنٍ، مع إحساسٍ بأنّ المشدَّ وحده يسندها وأنّها حين تخلعه تتفكّك إلى كسراتٍ. لم يبق من صخبها وجسارتها شيء، ولا من آرائها الجريئة، أوحركات تمرّدها أو فضولها المتهوِّر. لقد آلت إلى أكثر ما خافت منه: عانس فيكتورية. الصيدلاني النباتي الألماني فكَّرَ أنّه «التبدّل، فالنساء في مثل هذا السن يضطربن» فوصف لها سنبل الطيبِ للأعصاب وزيت كبد الباكالاو للشحوب.

جمع القبطان جون سومّرز أخويه في المكتبة ليروي لهما الخبر.

- هل تتذكّران جاكوب تود؟

ـ الشخص الذي غشّنا بحكاية بعثات التبشير في تيِيرّا دِلْ فْوِغو؟ ـ سأل جِرمي سومّرز.

ـ هو نفسه.

ـ كان يعشق روز، إذا لم تخنّي ذاكرتي ـ ابتسم جِرمي، وهو يفكّر في أنّهم تخلّصوا على الأقل من أن يصبح ذلك الكاذب صهراً لهما.

ـ بدّل كنيته. صار اسمه الآن جاكوب فريمونت ويعملُ صحافياً في سان فرانسيسكو.

ـ ويحه! هذا يعني فعلاً أن باستطاعة أيّ محتال أن يبدأ من جديد.

ـ جاكوب تود دفع ثمن غلطته غالياً. يبدو لي رائعاً أن يكون هناك بلدٌ يقدّم فرصةً ثانية.

ـ والشرف أليس له حساب؟

ـ الشرف ليس الشيء الوحيد، يا جِرمي.

ـ وهل هناك شيء آخر؟

ـ وماذا يهمّنا جاكوب تود؟ أفترض أنّنا لم نجتمع لنتكلّم عنه، يا جون ـ تمتمت روز من وراء منديل مشبع بعطر الفانيلا.

ـ التقيت بجاكوب تود أو بالأحرى فريمونت، قبل أن أُبحِر. أكّد لي أنّه رأى إليثا في سان فرانسيسكو.

اعتقدت الآنسة روز لأوّلِ مرّةٍ في حياتها أنّها ستدوخ. شعرت بقلبها يخرج من صدرها، وبصدغيها يوشكان على الانفجار وبموجة من الدم في وجهها؛ مخنوقة، لم تستطع لفظ كلمةٍ واحدة.

ـ لا يمكن تصديق هذا الرجل بشيء! قلتَ لنا إنّكَ تعرّفتَ على امرأةٍ أقسمت لك أنّها عرفت إليثا على متن سفينة في عام 1849 ولم يكن عندها شكّ بأنّها ماتت ـ احتجّ جِرمي وهو يسير بخطواتٍ كبيرة في المكتبة.

ـ صحيح، لكنّها امرأة سيئة وتحمل المشبك الذي أهديته إلى إليثا. يمكن أن تكون قد سرقته وكذبت لتحمي نفسها. ما الدافع الذي سيخدعني لأجله جاكوب فريمونت.

ـ لا يوجدُ أيُّ دافع. لكنّه مهرِّج بطبيعته.

ـ كفى! رجاءً ـ توسّلت روز باذِلةً جهداً هائلا كي يخرج صوتُها ـ الشيء الوحيد الذي يهمّ هو أنّ أحداً رأى إليثا، وأنّها ليست ميتة ونستطيع العثور عليها.

ـ لا تبني أوهاماً، يا عزيزتي. ألا ترين أنّ هذه قصّة خيالية؟ ستكون ضربة رهيبة بالنسبة إليك أن تكتشفي أنَّه خبرٌ كاذب ـ حذّرها جِرمي.

أعطاهما جون سومّرز تفاصيل عن اللقاء بين جاكوب فريمونت وإليثا، دون أن يحذف أنّ الفتاة ارتدت ثياب رجل وبدت مرتاحة فيها حتى أنّ الصحافي لم يشك بأنّ الأمرَ يتعلّق بفتى. وأضاف أنّهما انطلقا معاً للسؤال عنها في الحي التشيلي. لكنّهما لم يعرفا الاسمَ الذي تستخدمُ ولا مكانها. وضّح أنّ إليثا ذهبت دون شكّ إلى كاليفورنيا لتجتمع بحبيبها، لكنَّ شيئاً ما خرج سيِّئاً ولم يلتقيا، لأنّ الهدف من زيارتها لجاكوب فريمونت هو التحقّق من سفّاح له اسم مُشابه لاسمه.

ـ لا بدّ أنّه هو. خواكين أنديِتا لص. خرج من تشيلي هارباً من وجه العدالة ـ غمغم جِرمي سومّرز.

لم يكن ممكناً إخفاء هويّة عاشق إليثا. اضطُرَّت الآنسة روز للاعتراف بأنّها اعتادت زيارة أمِّ خواكين أنديِتا لتتحقّقَ من أخباره وأنّ المرأة المسكينة، التي هي في كلِّ مرّة أشدّ فقراً ومرضاً، باتت متأكّدة من أنّ ابنها ميت. لم يكن هناك من تفسيرٍ آخر لصمته الطويل، كما كانت تؤكّد. فقد تلقّت رسالة من كاليفورنيا، مؤرّخة في شباط 1849، بعد أسبوعٍ من وصوله أعلن لها فيها عن مشروعه للانطلاق إلى ضفاف شذرات الذهب، وكرّر وعده بالكتابة إليها كلَّ خمسة عشر يوماً. ثمّ لا شيء: اختفى دون أن يترك أثراً.

ـ ألا يبدو لكما غريباً أن يتعرّف جاكوب تود على إليثا خارج سياقِها وهي ترتدي لباس رجل؟ ـ سأل جِرمي سومّرز ـ حين تعرّف عليها كانت صغيرة. كم مضى على ذلك؟ على الأقل ستّة أو سبعة أعوام. كيف باستطاعته أن يتصوّر أنّ إليثا في كاليفورنيا؟ هذا غير معقول.

ـ منذ ثلاث سنوات رويت له ما حدث ووعدني بالبحث عنها. وصفتها له بالتفصيل، يا جِرمي. ثمّ إنّ إليثا لم يتبدّل وجهها قط، حين ذهبت كانت ما تزال تبدو طفلة. بحث عنها جاكوب فريمونت زمناً طويلاً، حتى قلتُ له إنّ من المحتملِ أن تكون قد ماتت. وعدني الآن بالعودة للبحث عنها. حتى أنّه يُفكِّرُ باستخدام شرطيّ سرّي. وآمل أن آتيكما بأخبارٍ أكثر دقّة في الرحلة القادمة.

ـ لماذا لا ننسى هذه المسألة وننتهي؟ ـ تنهّد جِرمي.

ـ لأنّها ابنتي، يا رجل، بالله عليك! ـ هتف القبطان.

ـ أنا سأذهب إلى كاليفورنيا للبحث عن إليثا! ـ قاطعتهما الآنسة روز. وقد انتصبت على قدميها.

ـ أنتِ لن تذهبي إلى مكان! ـ انفجر الأخُ الأكبرُ.

لكنّها كانت قد خرجت. شكّل الخبر بالنسبة للآنسة روز حقنةً من دم جديد. صارت واثقة تماماً أنّها ستعثر على ابنتها بالتبني، ووجدت لأوّل مرّة منذ أربعة أعوام دافعاً لها للاستمرار في الحياة. اكتشفت مذهولة أنّ قواها القديمة ما تزال على حالها، قابعة في مكانٍ ما سرّيٍّ من قلبها، وجاهزة لتخدمها كما خدمتها من قبل. اختفى ألم الرأس كما لو بالسحر، تعرقت واحمرّت وجنتاها انتعاشاً حين نادت الخادمات لمرافقتها إلى غرفة الخزائن للبحث عن الحقائب.

في أيار من عام 1853 قرأت إليثا في الصحيفة أنَّ خواكين

موريِتا وتابعه جاك ذا الأصابع الثلاث هاجما مخيّماً لستّة صينيين مسالمين، ربطاهم بجدائلهم وقطعوا رؤوسهم، التي تركوها معلّقة على شجرةٍ مثل عنقود من البطيخ. لقد استولى اللصوص على الطرقات، ولا أحد يسير آمناً في تلك المنطقة، ويجب التحرّك في مجموعاتٍ جيّدة التسليح. كانوا يقتلون معدّنين أمريكيين، مُغامرين فرنسيين، باعةً يهوداً جوّالين ومسافرين من كلّ الأعراق، لكنّهم لا يُهاجمون هنوداً حمراً أو مكسيكيين عادةً، فهؤلاء يقعون على عاتق الغرينغويين. الناس المذعورون راحوا يُحكمون إغلاق الأبواب والنوافِذ والرجال يراقبون والبنادِق في أيديهم بينما النساء يختبئنَ، لأنّه ما من واحدة تريد أن تقع بين يدي جاك ذي الأصابع الثلاث، لكنّهم يقولون بالمقابل إنّ موريِتا لا يسيء للنساء أبداً وقد أنقذ في أكثر من مناسبة شابّة من تدنيس مُجرمي عصابته. صارت الفنادقُ الصغيرة ترفضُ استضافةَ المسافرين، لأنّهم يخافون أن يكون موريِتا واحداً منهم. ما من أحدٍ رآهُ شخصيّاً والوصف متناقِضٌ، على الرغم من أنّ مقالات فريمونت راحت تخلقُ صورةً رومانسية لقاطِع الطريق قبلتها غالبيّة القرّاء كحقيقة. تشكّلت في جاكسون المجموعة الأولى من المتطوّعين لاصطياد العصابة فقامت عمليّة صيدٍ بشري لا سابق لها. ما من متكلّمٍ للإسبانية بقي بمنجاة من الشكّ، وحدثت خلال أربعة أسابيع إعدامات مستعجلة أكثر مما حدث خلال أربعة أعوامٍ سابقة. يكفي التكلّم بالإسبانية كي يتحوّل المرء إلى عدوّ عام، وينهال عليه غضب *الشرفاء* والمحضِرين. قمّة السخرية حدثت حين هربت عصابةُ موريِتا من مجموعة الجنود الأمريكيين التي كانت تتبع خطواتهم، وانحرفت قليلاً لتهاجم معسكر صينيين. وصل الجنودُ بعد دقائق فوجدوا عدداً منهم ميتاً وآخرين يُحتَضرون. يقولون إنّ خوان موريِتا يُنكِّلُ بالآسيويين لأنّهم نادراً ما يُدافِعون عن أنفسهم حتى ولو كانوا مُسَلّحين، فهؤلاء *البليدون* يخافونه إلى حدٍّ أنّ مُجرّد ذكر اسمه يُحدِثُ دوياً من الرعب بينهم. ومع ذلك فالوشوشة الدائمة بينهم هي أنّ قاطِعَ الطريقِ يُسلِّحُ جيشاً،

وأنّه بالتواطؤ مع بعض الأثرياء المكسيكيين في المنطقة يفكّر بإثارة تمرُّدٍ واستنهاض السكان الإسبان، وذبح الأمريكيين وإعادة كاليفورنيا إلى المكسيك أو تحويلها إلى جمهوريّة مُستقِلّة.

أمام تذمّر الجمهور وقّع الحاكِمُ مرسوماً يسمح للنقيب هاري لوف ومجموعة من عشرين متطوّعاً باصطياد خواكين موريِتا في مدّة ثلاثة أشهر. حدّد مرتباً شهرياً من مئة وخمسين دولاراً لكلّ رجل، وهذا مبلغ كبير، إذا ما أُخِذ بالحسبان أنّ عليهم تزويدهم بالخيول والسلاح والمؤن، وخلال أقلّ من أسبوعٍ أصبحت الحملة جاهزة للانطلاق. كانت هناك جائزة من ألف دولار مقابل رأس خواكين موريِتا. لقد حُكِمَ على رجل بالإعدام دون معرفة هويّته، كما أشار جاكوب فريمونت في الصحيفة، ودون البرهان على جرائمه أو محاكمته، فمهمّة النقيب لوف تعادل الإعدام دون محاكمة. شعرت إليثا بخليط من الذعر والراحة لم تعرف تفسيراً له. لم تكن ترغب بأن يقتل هؤلاء الرجال خواكين، لكن ربّما هم الوحيدون القادرون على العثور عليه وهي لا ترغب إلا بالخروج إلى الوضوح فقد تعبت من التخبط بأيديها في الظلام. في جميع الأحوال لم يكن هناك إلا القليل من الاحتمال في نجاح النقيب لوف حيث فشل الكثيرون، فخواكين موريِتا يبدو منيعاً على الهزيمة. كانوا يقولون إنّ رصاصة من فضّة هي وحدها الكفيلة بقتله لأنّهم أفرغوا مسدسين في صدره عن كثبٍ ومع ذلك تابع عَدْوَهُ في منطقة كالابيراس.

ـ إذا كان هذا الحيوان عشيقك، فمن الأجدر ألا تعثري عليه أبداً ـ ارتأى تاو شيين حين أطلعته على قصاصات الصحف التي جمعتها خلال أكثر من عام.

ـ أعتقد أنّه ليس كذلك...

ـ وما أدراكِ؟

كانت في أحلامها ترى حبيبَها القديم ببزّته المهترئة ذاتها وقمصانه المنسّلة، لكنّ النظيفة والمكويّة جيّداً، بزّة زمن تحاببهما

في بالبارايسو؛ يظهر بمسحةٍ مأساوية، وعينين كثيفتين ورائحة صابونٍ وعرق طازج، يأخذها من يديها كما في السابق ويكلّمها متحمّساً عن الديمقراطيّة. يمكثان أحياناً معاً على كومة الستائر في غرفة الخزائن، جنباً إلى جنب دون أن يتلامسا، بلباسهما الكامل، بينما يُطقطِق الخشب الذي تجلدِه ريحُ البحرِ من حولهما، ونجمة من نورٍ على جبين خواكين في كلّ حلم دائماً.

ـ وماذا يعني هذا؟ ـ أراد تاو شيين أن يعرف.

ـ ما من رجلٍ سيّئ يملك نوراً على جبينه.

ـ إنّه مجرّدُ حلمٍ، يا إليثا.

ـ ليس واحداً، يا تاو، إنّها أحلام كثيرة...

ـ إذنْ أنت تبحثين عن الرجل الخطأ.

ـ ربّما، لكنّني لم أُضِع الوقت ـ ردّت هي، دون أن تُعطي مزيداً من التوضيحات.

عادت لأوّل مرّة لتعي جسدها المُقصى إلى مستوىً تافهٍ منذ اللحظة التي ودّعها فيها خواكين أنديِتا في تشيلي، في ذلك اليوم الثاني والعشرين من كانون الأوّل من عام 1848، قبل أربعة أعوام. لقد تخلّت عن كلّ شيءٍ، بما في ذلك أنوثتها، في هاجس العثور على هذا الرجل. خافت أن تكون قد أضاعت في الطريق شرطها كامرأة لتتحوّل إلى كائن غريب وهزيل. كانت تتذكّر أحياناً وهي تخبُّ عبر الهضاب والغابات معرّضةً لقسوةِ الرياح كلّها، نصائحَ الآنسة روز، التي تغتسل بالحليب ولا تسمح بخيط نور أن يلمسَ جلدها الخزفيّ أبداً، لكنّها لا تستطيع أن تتوقّف عند مثل تلك الاعتبارات. تحمّلت الجهد والعقاب لأنّه ما من خيارٍ آخر أمامها. اعتبرت جسدَها، مثل أفكارِها وذاكرتِها أو حاسّة شمّها، جزءاً لا ينفصل عن كينونتها. لم تعرف من قبل إلام كانت تُشير الآنسة روز حين تتحدّث عن الروح، لأنّها لم تستطع أن تميّزها عن الوحدة التي تمثّلها، لكنّها بدأت الآن تلمح طبيعتها. بقيت الروحُ الجزءَ الذي لا يتبدّلُ من نفسها. بينما الجسد مازال تلك البهيمة المخيفة التي تستيقظ بعد سنواتٍ من

السبات الشتوي جموحة ومليئة بالطاقة. راحت تتذكّر اضطرامَ الرغبةِ التي استطاعت تذوّقها باقتضاب في غرفة الخزائن. منذ ذلك الوقت لم تشعر بالحاجة الملحّةِ للحبّ أو المتعةِ الجسديّة، كما لو أنّ هذا الجزء منها مكث نائماً بعمق. عزت ذلك لألم هجران حبيبها لها، لرعبِ رؤيتها لنفسها حبلى، لتنزّهِها في متاهاتَ الموت في السفينة، ولرضوض الحمل. وصل بها المرضُ إلى حدٍّ أن الذعرَ من رؤيتها لنفسها في تلك الظروف مرّة أخرى أصبح أقوىٍ من اندفاع الشباب. فكّرت أنّ الثمن الذي يُدفع مقابل الحبّ غالٍ جداً ومن الأفضل تفاديه تماماً، لكنّ شيئاً انقلب في داخلها في السنتين الأخيرتين بجانب تاو شيين، ففجأة وإذ بالحبّ، مثل الرغبةِ، يبدو لها حتمياً. بدأت الحاجة لارتداء ملابس الرجال تُثْقِل عليها مثل حملٍ ثقيل. صارت تتذكّر صالة الخياطة الصغيرة، التي لا شكّ أن الآنسةً روز تقوم في هذه اللحظات بخياطة ثوب آخر من ثيابها المتقنة فيها، تُثقِل عليها موجةٌ من الحنين إلى تلك المساءات الرقيقة من طفولتها، إلى شاي الساعة الخامسة في الفناجين التي ورثتها الآنسة روز عن أمّها، وإلى الجولات التي كانت تشتري خلالها مهرّبات السفنِ بحماس. تُرى ماذا حلّ بماما فرِسيا؟ هل تدمدم في المطبخ، بدينة وحارّة، تفوح منها رائحة الحبق وملعقة كبيرة في يدها دائماً وقدر يغلي على المدفأة، مثل ساحرة لا تُخطئ. تشعر بحنينٍ ضاغِطٍ إلى ذلك التواطؤ الأنثوي البعيد، وبرغبةٍ فاترة إلى الإحساس بنفسها امرأةً من جديد. لم تملك في غرفتها مرآة كبيرة لتراقِب تلك المخلوقة الأنثى التي تعارك كي تفرض نفسها. كانت تُريدُ أن ترى نفسها عاريةً؛ فتستيقظُ أحياناً في الفجرِ وقد ألهبتها أحلامٌ عنيفة تتوضّع فيها صورة خواكين فوق رؤى منبثقة من الكتب الداعرة التي قرأتها من قبلُ لحمامات رومبُوِسوس بصوتٍ عالٍ. فعلت ذلك آنذاك بلامبالاة ملحوظة، لأنّ تلك الصور لم تكن تُثير لديها شيئاً، لكنّها تأتي الآن كأطياف شبقة لتعذّبها في أحلامها. في غرفتها الجميلة ذات الأثاث الصيني تستغلّ نور الفجر المتسلّل واهناً عبر النوافذ لتتفرّغ للسبر اللذيذ. تتعرّى من منامتها، تنظر إلى تلك الأجزاء التي تستطيع رؤيتها من جسدها وتجوب الأخرى تلمّساً، كما فعلت منذ

سنوات مضت في المرحلة التي اكتشفت فيها الحبَّ. تبيّنت أنّها تبدّلت قليلاً. صارت أنحل، لكنّها تبدو أقوى. يداها كوتْهُما الشمسُ والعملُ، لكنّ ما تبقى صافٍ وأملس كما عهدته. بدا لها مُدهشاً أنّه بعد سنوات من الفلطحة تحت المشدّ ما زال نهداها كما في السابق، صغيرين وقاسيين والحلمتان مثل حبّتي حمّص؛ تفلت شعرها، الذي لم تقصّه منذ أربعة أشهر وتسرّحه على شكلِ ذيلٍ مشدود إلى قفا عنقها، ثمَّ تُغمِضُ عينيها وتهزّ رأسها بمتعة أمام ثقل وقوام شعرها الذي لحيوانٍ حيّ. تفاجئها هذه المرأة التي تكادُ تجهلها بانعطافات الفخذين والوركين، وبالخصر الرقيق والزغب الأجعد والخشن في العانة والمختلف تماماً عن شعر الرأس المسترسل والمرن. ترفع ذراعها لتقيس امتداده وتقدِّر شكله، لترى من بعيد أظافرها. كانت تتحسّس باليد الأخرى جنبَها، بروزَ أضلعها، فجوة الإبط، ومحيط الذراع. تتوقّف عند أكثر نقاط معصمها ومرفقها حساسية، متسائلة عما إذا كان تاو سيشعر بالدغدغة ذاتها في المناطق ذاتها. تلمس عنقها، ترسم أذنيها، قوسَ حاجبها، خطَّ شفتيها؛ تجوبُ بإصبعها داخلَ فمها وتحملها بعد ذلك إلى حلمتيها اللتين تنتصبان من ملامسة اللعاب الدافئ. تمرّر يديها بثبات على وركيها لتتعلّم شكلهما ثم بشبق لتشعر بنعومة بشرتها. تجلس على سريرها وتتلمس نفسها بدءاً من القدمين وحتى الردفين، يُباغِتُها الزغب الأشقر الذي لا يكادُ يُرى ويظهر على ساقيها. تفتح فخذيها، تلمس عمق عضوها السّري، السقيم والرطب، تبحث عن برعم البظر، مركز رغبتها وتشوّشها وعند ملامستها له تأتيها على الفورِ رؤى تاو شيين غير المتوقّعة. لم يكن خواكين أندْيِتا، الذي قليلاً ما تتذكّر وجهَهُ، بل صديقها الأمين الذي يأتي ليغذّي خيالاتها المتأجّجة بخليط لا يُقاوَم من العناقات المضطرمة والرقةِ الناعمة والضحكة المشتركة. بعدها تشمُّ يديها، مسحورةً بعبق الملح والفواكه الناضجة الذي يفوح من جسدها.

بعد ثلاثة أيّامٍ من وضع الحاكم السعر لرأس خواكين مورْيِتا،

رست في ميناء سان فرانسيسكو الباخرة نورثِنِر وفيها مئتان وخمسة وسبعون كيسَ بريد ولولا مونْتِثْ. كانت أشهر مومس في أوروبا، لكنّ ما من أحد من تاو شيين أو إليثا سمع باسمها. تواجدا في الميناء مصادفةً حيث ذهبا في طلب صندوقٍ من الأدوية الصينية جاء به بحّار من شنغهاي. ظنّوا أنّ البريد هو سبب الزحام الكرنفالي، إذ لم يحدث أن تمّ استقبال حمولة بهذه الوفرة، لكنّ المفرقعات الاحتفالية أخرجتهما من خطئهما. في هذه المدينة المعتادة على كلّ أنواع المعجزات اجتمع حشدٌ من الرجال الفضوليين لرؤية لولا مونْتِثْ الفريدة، التي سافرت عبر برزخ بنما يسبقها قرع طبول شهرتها. هبطت من الزورق بين أذرع زوجٍ من البحارة المحظوظين وضعاها على اليابسة بانحناءات احترامٍ جديرة بملكة. وذلك هو بالضبطِ موقفُ تلك الأمازونية الشهيرة وهي تتلقى هتافات المعجَبين بها. باغت الضجيج تاو شيين وإليثا، لأنّهما لم يفكّرا بِنَسَبِ الجميلة، لكن سرعان ما وضعهما الحضور في صورة الأمر؛ فهي إيرلندية، دهمائية وابنة زنى، تمرِّرُ نفسها على أنّها راقِصة وممثلة إسبانية نبيلة. ترقص مثل إوزّة، ومن الممثلةِ لا تملكُ عادةً غيرَ الغرورِ الجامح، لكنَّ اسمها يوحي بصور داعرة لغاويات كبيرات، بدءاً من دليلة وحتى كليوباترة ولذلك هُرِعَت الحشودُ الهاذية لتُهلِّلَ لها. فهم لا يأتون لذكائها بل ليتأكّدوا عن قرب من خبثها المبلبل وجمالها الأسطوري ومزاجها الضاري. تملأ المسرح دون أيّ فطنة أخرى غير الفخفخة والجرأة وتستهلك كجيشٍ وتجمع مجوهرات وعشّاقاً وتعاني حنقاً ملحمياً، أعلنت الحربَ على اليسوعيين وخرجت مطرودة من عدّة مدنٍ، لكنّ مأثرتها القصوى هي أنّها حطّمت قلبَ ملك. بقي لودفيك الأول ملك بافاريا رجلاً طيّباً، بخيلاً وحكيماً طوال ستين عاماً، إلى أن ظهرت في دربه وقلبته عدّة قلبات قاتلة، وتركته وقد صار كركوزاً. فقد الملك عقله، صحّته وشرفه، بينما راحت تُفرِّغُ خزائن مملكته. منحها العاشِقُ لودفيك كلَّ ما أرادته، بما في ذلك لقب كونتيسة، لكنّه لم يستطع أن يجعل رعاياه يقبلونها. أثارت أخلاقُ المرأة السيّئة ونزواتُها اللامعقولة كراهيةَ مواطني ميونيخ، الذين انتهوا بالنزول إلى الشارع

للمطالبة بطرد حبيبة الملك. وبدلاً من أن تختفي لولا بصمتٍ واجهت الحشدَ المُسلَّح بكرباج الخيل الذي كان سيمزّقها إرباً لولا أنّ خدمها المُخلصين أدخلوها في عربة بالقوّة ووضعوها على الحدود. لودفيك الأوّل تنازل عن العرش قانطاً، واستعدّ للحاق بها إلى المنفى، لكن دون تاج أو قوّة أو حساب مصرفي، إلاّ أنّ الفارس كان قليلَ النفع والجميلة خذلته ببساطة.

ـ يعني أنّه ليس عندها ميزة غير السمعة السيئة ـ رأى تاو شيين.

مجموعة من الإيرلنديين أفلتوا الخيل من عربة لولا وأخذوا مكانها، ثم جرّوها حتى فندقها عبر شوارع غطّيت بنوريات الأزهار. رأتها إليثا وتاو شيين تمرّ في موكبها المجيد.

ـ هذا هو الشيء الوحيدُ الذي ينقص بلد المجانين هذا ـ تنهّدَ الصيني، دون أن ينظر ثانية إلى الجميلة.

تبعت إليثا الكرنفال لعدّة قصبات بين المسرورة والمندهشة، بينما تنفجر من حولها الصواريخ والعيارات النارية. كانت لولا مونتِث تحمل القبّعةَ في يدها، شعرها أسود، مفروق من وسطه مع بعض الخصل فوق الأذنين وعيناها مجنونتان داكنتا الزرقة، ترتدي تنورة من القطيفة الأسقفية، وقميصاً مطرز العنق والردنين وجاكيت مصارع ثيران قصيرة مطرّزة تطريزاً ناعماً. موقفها ساخر ومُتَحدٍّ، تعي تماماً أنّها تُجسّدُ أكثر رغبات الرجال بدائيّةً وسرّيةً، وترمز إلى أكثر ما يخافه المدافعون عن الأخلاق؛ كانت معبوداً ضالاً ويروقها الدور. وسط حماس اللحظة قذفَ أحدُهُم بقبضةٍ من غبارِ الذهبِ فعلقت بشعرها وثيابها مثل هالة. هزّت رؤية هذه المرأة الشابة الظافرة التي لا تعرف الخوف، إليثا. فكّرت بالآنسة روز، كما راحت تفعل عادةً، فشعرت بموجة من الشفقة والرقة تجاهها. تذكّرتها حانقةٍ في مشدّها، وبظهرها المستقيم وخصرها المخنوق، ترشح تحت شلحاتها الخمس، «اجلسي مضمومة الساقين، سيري باستقامة، لا تستعجلي، تكلّمي بصوتٍ خفيض، ابتسمي، لا تقطبي لأنك ستمتلئين بالتجاعيد، اسكتي وتظاهري بالاهتمام، فالرجال

يسرّهم إصغاء النساء لهم» هكذا تذكّرت الآنسةَ روز برائحة الفانيلا، والمسايرة دائماً... لكنّها تذكّرتها أيضاً في حوض الاستحمام، لا يكادُ يغطيها قميص مبلل وعيناها تبرقان ابتساماً، مشوّشة الشعر، حمراء الوجنتين، حرّة وسعيدة، تثرثر معها «تستطيع المرأة أن تفعل ما تريد، يا إليثا، طالما أنّها تفعله بحشمة.» ومع ذلك فلولا مونتِيثْ تفعله دون أدنى حكمة؛ عاشت حيوات أكثر من أشجع مُغامِر وتفعل ذلك من شرطها كامرأة شموخة واثقة تماماً من نفسها. وصلت إليثا في تلك الليلة إلى غرفتها متفكّرة، فتحت حقيبة ملابسها بحذرٍ كمن يرتكب خطيئة. كانت قد تركتها في ساكرامِنتو حين انطلقت تلاحق حبيبها أوّل مرّة، لكنّ تاو شيين احتفظ بها مفكّراً بأنّها قد تحتاجها ذات يوم. حين فتحتها سقط شيءٌ على الأرض فتبينت مندهشة أنّه طوق لؤلئها، وهو الثمن الذي دفعته لتاو شيين كي يحشرها في السفينة. بقيت برهة طويلة واللؤلؤ في يدها، متأثرةً. نفضت الثياب ووضعتها على السرير، كانت مجعّدة وتفوح منها رائحةُ قبو. حملتها في اليوم التالي إلى أفضل مصبغة في تشيناتاون.

ـ سأكتب رسالة إلى الآنسة روز، يا تاو ـ أعلنت.

ـ لماذا؟

ـ إنّها مثل أمّي. إذا كنتُ أحبّها كثيراً فمن المؤكّد أنّها تحبّني أيضاً. مضت أربعة أعوام دون أية أخبار، لا بدّ أنّها تظنّني ميتة.

ـ هل تحبين رؤيتها؟

ـ طبعاً، لكن هذا مُحال. سأكتب لها لأُطمئنها فقط، لكنّه سيكون من الجيّد أن تجيبني، هل يهمّك أن أعطيها هذا العنوان؟

ـ هل تريدين أن تعثر عليك أسرتُك؟ ـ قال وقد تهدّج صوته.

مكثت تنظر إليه فانتبهت إلى أنّها لم تكن قريبة من أحدٍ في هذا العالم قط كما كانت في تلك اللحظة قريبةً من تاو شيين. شعرت بهذا الرجل في دمها، بيقين هو من القدم والحنق بحيث أنّها دُهِشت من الزمن الذي مضى بجانبه دون أن تلحظ ذلك. كانت تشتاقُ إليه، مع

أنّها تراه كلّ يوم. اشتاقت لأزمنة الدعة التي كانا فيها صديقين جيّدين، حيث كلّ شيء كان أسهل آنذاك، إلاّ أنّها لا ترغب بالعودة إلى الوراء. الآن هناك شيئاً عالقاً بينهما، شيء أكثر تعقيداً وإدهاشاً من الصداقة القديمة.

كانت ملابسها وشلحاتها قد عادت من المصبغة واستقرّت على السرير ملفوفة بالورق. فتحت الحقيبة وأخرجت جواربها البيضاء وجزمتها، لكنّها تركت المشدّ. ابتسمت أمام فكرة أنّها لم ترتدِ قط ملابس الآنسة دون مساعدة، ثم ارتدت الشلحة وجرّبت الفساتين واحداً واحداً لتختار أكثرَها ملاءمةً للمناسَبَة. شعرت بنفسها غريبة في تلك الملابس، اشتبكت في أشرطتها والمطرزات والأزرار، واحتاجت لعدّة دقائق لتزرير الجزمة والعثور على التوازن تحت كلّ تلك الشلحات، لكنّها مع كلّ قطعة ترتديها راحت تنتصر على شكوكها مؤكّدة رغبتها بالعودة لتصبح امرأة. ماما فرِسيا حذّرتها من لذّة الأنوثة «سيتبدّل جسدك، وستغيم أفكارك ويستطيع أيّ رجلٍ أن يفعل بك ما يحلو له» هكذا كانت تقول لها لكنّها ما عادت تخشى هذه المخاطِر.

كان تاو شيين قد انتهى من معالجة آخر مريضٍ وهو يرتدي القميص، فقد خلع جاكيته وربطة عنقه التي يضعُها دائماً احتراماً لمرضاه وعملاً بنصيحةِ معلّمِهِ في وخز الإبر. كان يتصبَّبُ عرقاً لأنّ الشمس لم تكن قد غابت بعد، وذلك اليوم هو أحد أيّام شهر تموز القليلة الحارّة. فكّر أنّه لن يتكيّف أبداً مع نزوات طقسِ سان فرانسيسكو حيث للصيف وجه الشتاء، إذ تبزغ الشمس مشعّةً عادةً، وبعد ساعات قليلة يدخلُ الضباب الكثيف عبر غولدن غات أو تهبط ريح البحر. كان يضع الإبر في الكحول وينظّم مرطبانات الأدوية حين دخلت إليثا، فقد ذهبَ مساعدُهُ وليس لديهما أيّة فتاة من *فتيات سينغ سونغ*، وهما وحيدان في البيت.

ـ لديّ شيء لك، يا تاو ـ قالت.

عندئذٍ رفع نظره وسقط المرطبان من يديه من المفاجأة. فإليثا ترتدي فستاناً أنيقاً داكن اللون، أبيض مطرّز القبّة. رآها مرّتين بلباس المرأة فقط، حين تعرّف عليها في بالبارايسو، لكنّه لم ينس مظهرها ذاك.

ـ هل يُعجبك؟

ـ دائماً تُعجبينني ـ ابتسم وقد رفع النظارة عن عينيه كي يتأمّلها عن بعيد.

ـ هذا فستان الأحد. ارتديته لأنّني أريد أن يأخذوا لي صورةً. خذْ هذا لك ـ ووضعت له كيساً.

ـ ما هذا؟

ـ وفوراتي... كي تشتري طفلة أخرى، يا تاو. كنتُ أُفكّر بالذهاب للبحث عن خواكين هذا الصيف، لكنّني لن أفعل. أعرف أنّني لن أعثر عليه أبداً.

ـ يبدو أنّنا جميعاً جئنا نبحث عن شيء ووجدنا شيئاً آخر.

ـ عمَّ كنتَ تبحث أنت؟

ـ عن المعرفة، الحكمة، ما عدتُ أذكرُ. بالمقابل وجدت *فتيات سينغ سونغ*، انظري الفشل الذي أنا فيه.

ـ ما أقلّ رومانسيتك؟ يا رجل بالله عليك! ملاطفة يجب أن تقول إنّك عثرت عليّ أيضاً.

ـ كنت سأعثر عليك في جميع الأحوال، فهذا مقدور.

ـ لا تأتِني بحكاية التقمّص...

ـ تماماً. في كلّ تقمّص سنعود ونلتقي حتى نحلّ *كرمانا* .

ـ وقعه مرعب. في جميع الأحوال لن أعود إلى تشيلي، لكنّني لن أستمرّ بالتخفي، يا تاو. الآن أريد أن أكون أنا.

ـ دائماً كنتِ أنتِ.

ـ حياتي هنا. يعني إذا أردتَ أن أُساعِدَك...

ـ وخواكين أنديِتا؟

ـ ربّما النجمة على الجبين تعني أنّه ميت. تصوّر! قمت بهذه الرحلة الرهيبة دون جدوى.

ـ لا شيء دون جدوى. في الحياة لا يصل أحد إلى شيء، ياإليثا، فقط يسير.

ـ ما سرناه معاً لم يكن سيئاً. رافقني، أريد أن يأخذوا لي صورة وجيهة «بورتريه» أرسلها إلى الآنسة روز.

ـ وهل تستطيعين أن تأخذي أخرى لي؟

ذهبا سيراً على الأقدام ممسكين بعضهما بيد بعض إلى ساحة الوحدة، حيث قامت عدّة محلات تصوير ضوئي، واختارا أكثرها فخامة. في النافذة تُعرَضُ مجموعة من صور مغامِري الـ 49: شاب أشقر اللحية، صارم التعبير وبين ذراعيه الفأس والرفش. مجموعة من المُعدِّنين بالقمصان ونظرتهم عالقة بالكاميرا وهم جدّيون جدّاً، صينيون على ضفاف نهر؛ هنود يغسلون ذهباً في سلال ناعمة النسيج، وعائلات طلائعيين يرتاحون بجانب عرباتهم. كانت الصور الشمسيّة قد درجت، فهي وسيلة الاتصال مع الأشخاص البعيدين، والبرهان على أنّهم عاشوا مغامرة الذهب. يقولون إنّ رجالاً كثيرين لم يطؤوا كاليفورنيا قط تصوّروا مع معدّات المُعدِّنين. كانت إليثا مقتنعة بأنَّ اكتشاف التصوير الضوئي قد خلع المصورين الزيتيين نهائياً عن عروشهم، أولئك الذين نادراً ما يعطون الشبه ذاته.

ـ لدى الآنسة روز لوحة زيتية بثلاث أيدٍ، يا تاو. رسمها فنان شهير ، لكنّني لا أذكر اسمه.

ـ بثلاث أيدٍ؟

ـ حسناً، الفنان وضع اثنتين وأضافت هي الأخرى. أخوها جِرمي يكادُ يموت حين يراها.

رغبت أن تضع صورتها الشمسية في إطارٍ ناعم من المعدن

الذهبي والقطيفة الحمراء لمكتب الآنسة روز. حملت معها رسائل خواكين أنذيتا لتُخلِّدها في صورة قبل أن تتلِفها. بدا المحلُّ من الداخل كخلفية مسرحٍ صغير فهناك ستائر رُسم عليها ظِلات لحدائق مزهرة وبحيرات فيها مالك الحزين، أعمدة يونانية من الكرتون ودغل ورد، بل وحتى دبّ مُحنّط. حدث أنّ المصور رجل صغير مستعجل يتكلّم بصعوبة ويسير بقفزات ضفدعٍ مُتفادياً معدات الاستديو . لكن وبعد الاتفاق على التفاصيل تموضعت إليثا أمام طاولة ورسائل الحب في يدها، ثم وضع لها المصوّر حاجزاً معدنياً وراء ظهرها مع حامل للرقبة ، يُشبه تماماً ذاك الذي كانت تضعه لها الآنسة روز خلال دروس البيانو.

ـ هذا كيلا تتحرّكي. انظري إلى الكاميرا ولا تتنفّسي.

اختفى الرجلُ خلف قطعة قماش سوداء، وبعد برهة أعمتها ومضة نور بيضاء باهرة ورائحة حريق جعلها تعطس. ومن أجل الصورة الثانية تركت الرسائل جانباً وطلبت من تاو أن يُساعدها على وضع طوق اللؤلؤ.

في اليوم التالي خرج تاو شيين باكراً لشراء الصحيفة، كما كان يفعل دائماً قبل فتح العيادةَ ورأى العناوين في ستّة أعمدة: قتلوا خواكين موريِتا. عاد إلى البيت بالصحيفةِ مشدودةً إلى صدره، وهو يفكّر كيف سينقل الخبر إلى إليثا وكيف ستتلقاه.

عند فجر الرابع والعشرين من تموز، وبعد ثلاثة أشهر من الخبب عبر كاليفورنيا وهو يتخبّط مثل أعمى وصل النقيب هاري لوف ومرتزقته العشرون إلى وادي تولار. كانوا قد سئموا من ملاحقة الأشباح والسير خلف آثار مزيفّة، والحرُّ والبعوض أوصلهم إلى وضعٍ في غاية السوء فبدؤوا يكرهون بعضهم بعضاً. شكّلت الأشهر الثلاثة التي خبّوا فيها حسب التيار عبر تلك الهضاب الجافّة والشمس تتأجّج فوق رؤوسهم تضحيةً كبيرة بالنسبة للمكافأة

المتلقاة. رأوا في القرى الإعلانات التي تعرض ألف دولار لقاء القبض على اللص. وقد خربشوا تحت بعضها «وأنا أدفع خمسة آلاف» وتوقيع خواكين موريِتا. ما فعلوه كان مسخرة ولم يبق لانتهاء المهلة الممنوحة سوى ثلاثة أيّام، وإذا ما عادوا خالي الوفاض فإنّهم لن يروا دولاراً واحداً من دولارات الحاكم الألف. لكنّ ذلك اليوم بدا يوماً حسناً لأنّهم حين فقدوا الأمل تماماً صادفوا مجموعة من سبعة مكسيكيين غافلين يخيمون تحت بعض الأشجار.

سيقولُ النقيب فيما بعد إنّهم كانوا يرتدون بزّاتٍ ومعهم أرقّ الأحصنة، وهو دافع أكبر لإثارة حذرهم، ولذلك اقترب ليطلب منهم تحديد هوياتهم. وبدل الإطاعة هرع المشكوك بأمرهم بطريقة غير مناسبة إلى خيولهم، لكنّهم وقبل أن يتمكّنوا من الركوب أطاح بهم حرّاس لوف. الوحيد الذي تجاهلَ أولمبيّاً المهاجمين وتقدَّمَ باتجاهِ جواده وكأنّه لم يسمع التحذير كان مَنْ بدا أنّه الزعيم، والذي لايحمل معه إلا مدية جبلية في زناره، فأسلحته كانت معلّقة إلى المطيّة، لكنّه لم يصلها لأنّ النقيب وضع المسدّس على جبينه. على الجانب الآخر كان المكسيكيون يراقبون باهتمام، جاهزين للذود عن زعيمهم عند أوّل غفلة من الحرّاس، بينما زعيمهم يمتطي بقفزة واحدة حصانه النشيط ويهرب مخترقاً الصفوف. ومع ذلك لم يصل بعيداً لأنّ طلقة بندقيّة جرحت الحيوان الذي تدحرج على الأرض وهو يتقيّأ دماً. عندئذ راح الفارس، الذي لم يكن غير خواكين موريِتا، أكّد النقيب لوف، يجري مثل أيلٍ ولم يبق أمامهم غير أن يُفرِّغوا مسدّساتهم في صدر قاطع الطريق.

ـ لا تُطلِقوا أكثر، لقد قمتم بعملكم ـ قال قبل أن يسقط ببطءٍ، وقد هزمه الموت.

هذه هي الرواية المصوّرة بشكل مأساوي في الصحافة، إذ لم يبقَ مكسيكيّ واحد ليقدّم روايته للأحداث. أقدم النقيب لوف الشجاع على قطع رأس موريِتا المزعوم بضربة سيف. انتبه أحدُهم إلى أنّ

يدَ ضحيّةٍ أخرى مشوّهة، فقرروا على الفور أنّ الأمر يتعلّق بجاك ذي الأصابع الثلاث، بمعنى أنّهم قطعوا رأسه أيضاً، وعَرَضاً قطعوا يده المريضة. انطلق الحراس العشرون خبباً باتجاه القرية القريبة، التي تقع على بعد عدّة أميال، لكنّ الحرّ كان جهنّمياً ورأس جاك ذي الأصابع الثلاث المخرّم بالرصاص بدأ يتفتّت فرموه في الطريق. أدرك النقيبُ هاري لوف الملاحقُ من الذباب والرائحة السيئة بأنّ عليه حفظ الفضلات، وإلا فإنّه لن يصل بها إلى سان فرانسيسكو ليقبض المكافأة المستحقّة، وهكذا وضعها في أوعية جن. استُقبِل كبطل: لقد حرّر كاليفورنيا من أسوأ قاطع طريق في تاريخها. لكنّ المسألة لم تكن واضحة تماماً، كما أشار جاكوب فريمونت في تحقيقه، فالتاريخ تفوح منه رائحة مؤامرة. مبدئياً لا أحد يستطيع البرهان على أنّ الأحداث جرت كما يقول هاري لوف ورجاله، ومن المثير للشك أن يقعوا وبعد ثلاثة أشهر من البحث الشاق على سبع مكسيكيين، تماماً في اللحظة التي كان فيها النقيب بأمسّ الحاجة إليها. كما لم يكن هناك من يستطيع التعرّف على خواكين مورِيتا؛ حضر هو ليرى الرأس ولم يستطع أن يؤكّد أنّه رأس قاطع الطريق الذي عرفه، على الرغم من بعض التشابه، كما قال.

عرضوا خلال أسابيع بقايا خواكين مورِيتا المزعوم في سان فرانسيسكو، ويد تابعه البغيض جاك ذي الأصابع الثلاث قبل حملها في رحلة انتصاريّة عبر بقيّة كاليفورنيا. راحت صفوف الفضوليين تدور حول القصبة ولم يبق أحدٌ لم يرَ الغنائم المشؤومة. كانت إليثا من أوائل من حضروا، ورافقها تاو شيين لأنّه لم يبغ أن تمرّ بمثل تلك التجربة وحيدة، على الرغم من أنّها تلقت الخبر بهدوء مُدهِش. بعد انتظارٍ أبديّ تحت الشمس، جاء دورهما أخيراً، ودخلا إلى البناء. تمسّكت إليثا بيد تاو شيين وتقدّمت بعزمٍ، دون أن تفكّر بنهر العرق الذي يُبلّل فستانها والرعشة التي تهزّ عظامها. وجدا نفسيهما

في صالة مُظلمَةٍ، مضاءة بشكلٍ سيّئ بشموعٍ صفراء تُصدِرُ أبخرة قبرٍ؛ وأقمشة سوداء تُغطّي الجدران، وقد أجبروا عازف بيانو على التوضّع في زاوية، يسحق فيها بعض المعزوفات الجنائزية إذعاناً أكثر مما بشعور حقيقيّ، وعلى طاولة مُغطّاةٍ بأقمشة التوابيت وضعوا الوعائين البلوريين. أغمضت إليثا عينيها وتركت تاو شيين يقودها واثقة من أنّ قرع طبول قلبها تسكتُ نغمات البيانو. توقّفا، شعرت بضغط يدٍ صديقها على يدها، استنشقت مِلْءَ فمها هواءً وفتحت عينيها. نظرت إلى الرأس لثوانٍ وتركته يجرّها إلى الخارج.

ـ هل كان هو؟ ـ سأل تاو شيين.

ـ أصبحتُ حرّةً... أجابته دون أن تفلت يدَه.

الفهرس

القسم الأوّل
1843 - 1848

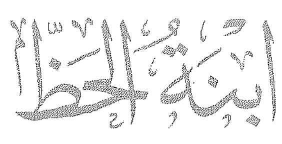
القسم الثاني
1848 - 1849

القسم الثالث
1850 - 1853


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)







هل يمكن تسمية هذه الرواية بـ«أوديسة» أميركا اللاتينية؟ لا شك أن الروائية التشيلية إيزابيل ألليندي تطمح، بل توظّف جوهر طاقتها الإبداعية لتحقق هذا الهدف في روايتها الجديدة «ابنة الحظ».

الواقع والتاريخ والأسطورة تشكّل الأساس الملحمي للرواية، لكن ما هو خارق وخلّاق يتبدّى في تلك الطاقة الإبداعية لقوّة السرد والتحليل والتأمل كأعمدة تؤسس لجمالية وشفافية الرواية.

يتماهى السرد والتحليل مع قوّة المخيلة في فضاء سحري وسريالي، هو أحد الملامح الأساسية لمعالم روائيي أميركا اللاتينية.

وإذا كان الروائي العظيم غابرييل غارسيا ماركيز، يتفوّق بمخيّلته السحرية، ما فوق الواقعية عبر معظم رواياته، فإن إيزابيل ألليندي، التي ترى في ماركيز نبراسها وقدوتها كما نوّهت دائماً، تدخلُ عبر نسيج رواياتها في لحم وعظم ودم الواقع البشري كمقام أول، مزيحة الفضاء السحري إلى المقام الثاني.

البناءان الأسلوبيان لكليهما لا يشكلان تناقضاً، بقدر ما يشيّدان تكاملاً فنياً، يعزّز مكانة الرواية الأميركية اللاتينية كرواية طليعية في العالم.

وفاءً لجوهر الثقافة، بما هي تنوير، وللأدب سموّاً بالروح، لا بدّ من التنويه بجهد المترجم الأديب رفعت عطفة الذي يسهم بتفانٍ في نقل الأدب الإسباني مباشرة إلى اللغة العربية، شغفاً بنهوض ثقافة عربية عميقة، للترجمة وللآداب العالمية دور مركزي في بنائها.

الناشر